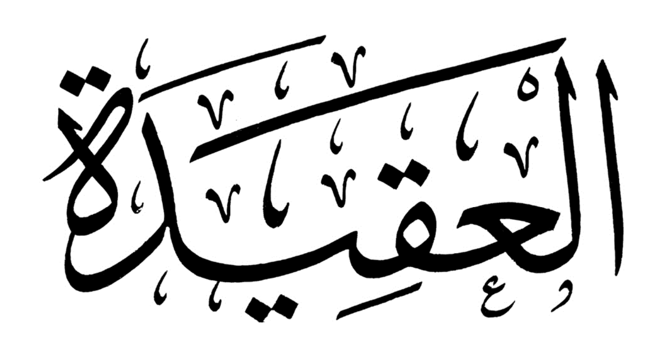


فصلية تعنى بمسائل العقيدة وعلم الكلام القديم والجديد

ذو الحجة ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م - العدد (٦) - السنة الثانية

تصدر عن

المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية

يعنى بالاستراتيجية الدينية

النجف الأشرف

الموقع الالكتروني: www.iicss.iq

الإيميل: info@iicss.iq

islamic.css@gmail.com


بسم الله الرحمن الرحیم

قواعد النشر

- ❖ الموضوعية العلمية وعدم استخدام اللغة الجارحة.
- ❖ يتمّ تقييم البحوث من قبل لجان المجلة، وعلى الباحث إجراء التعديلات المطلوبة.
- ❖ يخضع تقديم وتأخير البحوث لظروف فنية لا علاقة لها بمكانة الكاتب.
- ❖ المادة المنشورة تعتبر ملك المجلة، ولها الحق في إعادة نشرها وطبعها ضمن كتاب أو ترجمتها إلى لغة أخرى.
- ❖ يفضّل أن لا يزيد البحث عن أربعين صفحة.
- ❖ للمجلة الحق في حذف وتلخيص ما لا يتناسب مع أهدافها.
- ❖ يفضل إرسال البحوث مصفوفة على برنامج وورد.
- ❖ المواد المنشورة لا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- ❖ إرسال نبذة عن السيرة الذاتية للباحث مع رقم الهاتف والايميل.
- ❖ الالتزام بالرأي المشهور عند علماء الشيعة.
- ❖ تمنح مكافئة تقديرية لكل باحث بعد طباعة بحثه.

الموقع الالكتروني للمركز
www.iicss.iq

البريد الالكتروني للمركز
Islamic.css@gmail.com

البريد الألكتروني للمجلة
aqeedah.m@gmail.com

محتويات العدد

دراســــات



بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية العدد

نعيش في هذه السنة (أي عام ١٤٣٦هـ) ذكرى مرور (٢٢٠) سنة على حادثة كربلاء الأليمة، حيث ارتكبت العصابة الوهابية إبادة جماعية ومجزرة بحقّ أبناء مدينة كربلاء المقدّسة، وذلك حينما أغاروا عليها عام ١٢١٦هـ في الثامن عشر من ذي الحجة ذكرى عيد الغدير الأغر، فارتكبوا أبشع المشاهد من قتل وذبح وفتك راح ضحيتها زهاء (٥٠٠٠) مسلم موحّد لا جرم له إلّا الولاء لآل بيت النبي صلى الله عليه وآله.

بمناسبة هذه الذكرى الأليمة ارتأينا إصدار عدد خاص من مجلة العقيدة يسلّط الضوء على الفكر الوهابي منشأً وتطوراً ومعتقداً، سيما ونحن نعيش تلك الأجواء ومازلنا نعاني من تلك المعتقدات التكفيرية، ولكن مع فارق انّ تلك المجزرة وقعت غيلةً فكان الجرح عميقاً، أمّا الآن فنحن بحمد الله على أهبة الاستعداد والكل آذان صاغية للمرجعية الرشيدة وصفّ واحد بوجه العدو، فإن تمكّن من نيل مقدساتنا في تلك البرهة، فهيهات أن يسمح له بإعادة ذلك المشهد المؤلم.

علينا أن ندرس التاريخ بدقّة لنأخذ الدروس والعبر، ونقف على نقاط القوة والضعف، فما (أشبه اليوم بالبارحة)، وهذا ما نحاول تقديمه للقارئ الكريم بشكلٍ مقتضبٍ في هذا العدد ومن خلال الملفات الثلاثة التي تحتوي على: نشأة السلفية، شبهات وردود، دراسات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على محمّد وآله الطاهرين..

رئيس التحرير

السلفية.. النشأة والتطور
دراسة تحليلية

أ.م.د. كريم شاتي السراجي
كلية الفقه/ جامعة الكوفة

المقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تتنزل البركات، وبتوفيقه تتحقق الغايات، وبتيسيره تزول العقبات، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة والنعمة المسداة، البشير النذير السراج المنير، حبيب قلوبنا المصطفى الأحمد، وعلى آله الأخيار المصطفين الأبرار، وصحبه النجباء، ومن سار على نهجه ومن والاه.

أما بعد:

في هذا المقطع الزماني الذي شهد كثيراً من المتحولات والمتغيرات على الصعيد العالمي، شهدت الساحة الإسلامية ظهوراً مكثفاً للتيار السلفي الذي ترعرع بفعل عوامل عدة، أسهمت في اثراء هذا الفكر بعد ان وجدت البيئة المناسبة لتثبيت سلطته وايديولوجيته القائمةِ على إقصاءِ العقلِ المفضي إلى رفضِ التأويلِ، والجمودِ على ظواهرِ النصوصِ، كما أخذ يشكل الرقمَ الصعبَ في ساحةِ الصراعِ مع الحكوماتِ والأنظمةِ، على الصعيدِ الإسلاميِّ، ومع النظامِ العالميِّ الجديدِ المتمثلِ بالولايات المتحدة الأمريكية وحلفائِها.

ومن هنا أصبح الفكرُ السلفيُ موضعَ اهتمامِ الباحثينَ والكُتابِ والمفكرين.

وقد انتظم هذا البحث في اربعة مباحث تناولت في المبحث الاول نشأة مصطلح السلفية وتطوره، والمبحث الثاني تناول السلفية الاولى التي وجدت بداياتها مع احمد بن حنبل ثم باتباعه في القرن الرابع الهجري حتى ابن تيمية الحراني وتلميذه ابن قيم الجوزية اما المبحث الثالث فتناول السلفية الوسيطة وهي السلفية الوهابية ثم المبحث الرابع الذي تناولت فيه السلفية الجهادية وتشكيلاتها .

المبحث الأول
نشأة المصطلح

يبدو انّ تسمية بعض فرق المسلمين بالسلفية، غريبٌ نوعاً ما على صعيد الفكر الإسلامي؛ لأن كثيرين من أرباب الفكر يعتبرون السلفية نزعة تميل إلى الأخذ بنهج الماضين عموماً، فالنظر إلى السلف بوصفهم مرجعية فكرية لفهم الإسلام، والاستضاءة بسلوكهم، صبغة عامة لجميع المسلمين، لا خاصة بجماعة دون أُخرى.

في حين ذهب البوطي[1] إلى أنّ السلفية مرحلة زمنية، وليست مذهباً إسلامياً.

ويبدو للباحث عدم صحة هذا القول إذا أخذنا بنظر الاعتبار انّ السلفية قد ترعرعت ونمت عبر الحقب المتلاحقة حتّى أصبحت مذهباً خاصاً تحمله بعض الجماعات والاتجاهات الإسلامية التي تنادي بالرجوع إلى السلف الصالح والاقتداء بهم في فهم الدين والدنيا، ويقصدون بالسلف الصالح أهل القرون الثلاثة الأولى من عمر الأمّة الإسلامية، إذ رووا عنه ﷺ أنّه قال: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...**»[2].

بيد أنّ مصطلح السلفية له جذوره التاريخية، وله ارتباطه الوثيق بمصطلحات أُخرى، ينبغي التعرض لها وتوضيح المراد منها قبل الولوج في مصطلح السلفية وبيان نشأته واتجاهاته. ومن هذه المصطلحات: أهل الحديث، وأهل السنة والجماعة.

أهل الحديث:

يبدو للمتتبع انّ هذه الفرقة ظهرت على يد من امتهن جمع الأحاديث النبوية، وتدوينها في القرن الثاني الهجري، وبنوا عقائدهم أو أحكامهم بالاعتماد الكلي على ظواهر الآيات والروايات التي رواها الصحابة والتابعون الأوائل عن الرسول صلى الله عليه وآله إذ يحرمون تأويلها، وقد أثبتوا ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ صفات الله الخبرية وجعلوا الخالق في مصاف المخلوق، فأثبتوا اليدين والرجلين والوجه والاستواء على الحقيقة من دون تأويل. وفي هذا الصدد يقول عنهم أبو حاتم الرازي (ت:٣٢٢هـ): «أصحاب الحديث فسمّو بذلك لأنّهم أنكروا الرأي[٣]، والقياس[٤]، وقالوا: علينا أن نتبع ما روي لنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن الصحابة والتابعين وما جاء عنهم من الحديث في الفقه، والحلال والحرام ولا يجوز لنا أن نقيس بآرائنا... فقيل لهم أصحاب الحديث وأصحاب الأثر، وهم مجتمعون على أن الإيمان قول وعمل والقرآن غير مخلوق، وكفروا من قال بخلق القرآن»[٥].

ويقول عنهم المحدّث الصابوني (ت: ٤٤٩ هـ): «أصحاب الحديث يعرفون ربّهم عز وجل بصفاته التي نطق بها وحيه وتنزيله وشهد له بها رسوله صلى الله عليه وآله على ما وردت الأخبار الصحاح به ونقلته العدول الثقات عنه ويثبتون له جل جلاله ما أثبت لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وآله ولا يعتقدون تشبيهاً لصفاته بصفات خلقه فيقولون انه خلق آدم بيده كما نص سبحانه عليه في قوله تعالى: ﴿**يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾ (سورة ص/ ٧٥)، ولا يحرّفون الكلام عن مواضعه بحمل اليدين على النعمتين أو القوتين تحريف المعتزلة[٦] الجهمية[٧] أهلكهم الله...، وكذلك يقولون في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن ووردت بها الأخبار الصحاح من السمع والبصر والعين والوجه والعلم والقوّة والقدرة والقول والكلام والرضا والسخط والحياة واليقظة والفرح والضحك وغيرها من غير تشبيه لشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين، بل ينتهون فيها إلى ما قاله الله تعالى وقاله رسوله صلى الله عليه وآله من غير زيادة عليه

ولا إضافة إليه ولا تكيف له ولا تشبيه ولا تحريف ولا تبديل ولا تغير ولا إزالة للفظ الخبر عما تعرفه العرب ويقرون بان تأويله لا يعلمه إلا الله...»[٨].

وقيل: «إنّما سمو أصحاب الحديث لأن عنايتهم بتحصيل الحديث ونقل الأخبار وبناء الأحكام والنصوص، ولا يرجعون إلى قياس... ما وجدوا خبراً أو أثراً»[٩] كما يطلق عليهم اسم الصفاتية إذ يقول الشهرستاني: «اعلم أن جماعة كثيرة من السلف كانوا يثبتون لله صفات أزلية من العلم والحياة والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام... ولا يفرقون بين صفات الذات وصفات الفعل، وكذلك يثبتون صفات خبرية مثل اليدين والرجلين والوجه ولا يؤولون ذلك.. ولما كانت المعتزلة ينفون الصفات والسلف يثبتون، سمي السلف صفاتية والمعتزلة معطلة، فبلغ بعض السلف في إثبات الصفات إلى حد التشبيه بصفات المحدثات»[١٠].

وهذا يثبت أنّهم يقفون عند النص، من دون النظر إلى المفهومية الواسعة التي تتكفل ببيان معنى تلك النصوص بوجوهها المختلفة، وهذا يبرز المغزى السلوكي، والفكري لأصول هذه الفرقة، ويعكس عن واقعها الموروث الذي يؤطر الواقع العملي للسلفية ويطلق عليهم مناوؤهم بالحشوية أي «حشو الحديث بغرائب وشواذ وإسرائيليات[١١]...، وقد اتهم عدد من الصحابة بأنّهم قبلوا الكثير من الأحاديث بدون تفحص أو نقد، وعلى رأس هذا العدد الصحابيان المشهوران عبد الله بن عمر بن الخطاب (ت: ٧٣ هـ) وأبو هريرة[١٢] (ت: ٥٩ هـ)» [١٣].

وقيل عن سبب تسميتهم بالحشوية: «وسمّيت الحشوية حشوية لأنّهم يحشّون الأحاديث التي لا أصل لها في الأحاديث المروية عن طريق الوحي»[١٤]، وقيل أيضاً سمو حشوية «لأن منهم المجسمة والجسم حشو»[١٥]، وجميع الحشوية يقولون بالجبر والتشبيه، وتوصيفه تعالى بالنفس، واليد، والسمع، والبصر، وقالوا: إن كل حديث يأتي به الثقة من العلماء فهو حجة أياً كانت الواسطة[١٦].

ثم ان الغالب بالحشوية عند أهل الحديث هم الحنابلة، وبذلك يقول الصفدي: «الغالب في الشافعية أشاعرة، والغالب في الحنفية معتزلة، والغالب في المالكية قدرية، والغالب في الحنابلة حشوية»[١٧].

إنّ هذا الاتجاه الحديثي والنقلي كان امتداداً للطبيعة العربية التي وجدناها في جزيرة العرب[١٨]، فكانت وما زالت الحجاز والمدينة مركز المباحث الحديثية والنقلية والسلفية التي لا تخرج عن ظاهر الكتاب والأحاديث، وفي المقابل كان العراق ـ وبالخصوص الكوفة ـ مركز المباحث العقلية المعتمدة على الرأي.

ولقد جرى على أقلام بعض العلماء انّ أهل الحديث أكثرهم بالحجاز، وأكثر أهل الرأي في العراق[١٩]. فظهر لنا اتجاه أصحاب الحديث ممثلاً بعبد الله بن عمر (ت: ٧٣ هـ) والأوزاعي[٢٠] (ت: ١٥٧هـ)، وسفيان الثوري[٢١] (ت: ١٦١هـ) ومالك بن أنس[٢٢] (ت: ١٧٩هـ) ـ صاحب القول المشهور: «الاستواء معلوم والكيف غير معقول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة»[٢٣] الذي أصبح فيما بعد عند أصحاب هذا الاتجاه قارب النجاة للفرار من المشبهة والمجسمة الخالصة المكيفة، وأحمد بن حنبل[٢٤] (ت: ٢٤١ هـ) الذي يعد من أبرز رجالات هذا الاتجاه إذ عمل على جمع الأحاديث وتنظيمها وتوحيد العقائد المأخوذة من تلك الأحاديث وتدوينها، بعد أن كان أهل الحديث على فرق وشيع إذ لم تكن هذه العقائد برمتها مقبولة عندهم، وإنّما الإمام أحمد وحّدهم على تلك العقائد والأصول وقضى على سائر تلك المذاهب الدارجة بين أهل الحديث، فنسبة هذه العقائد إلى إمام الحنابلة أقرب إلى الحقيقة من نسبتها إلى الصحابة والتابعين وتابعي التابعين[٢٥]. وقد حصل هذا بعد خروج أحمد بن حنبل من المحنة[٢٦] صامداً منتصراً في أيام المتوكل العباسي (ت: ٢٤٧ هـ) الذي قرّبه إلى بلاطه وصار ذلك سبباً لشهرته وإمامته في مجال العقائد بعد أن تبنت الدولة آراءه وأفكاره، فصار أحمد إمام السنة وناصرها، فصارت السنة ما قاله أحمد، والبدعة ما هجره أحمد وكأنهم نسوا أو تناسوا ما كان عليه أسلافهم من الفرق المختلفة[٢٧].

وقد تطور هذا الاتجاه فيما بعد على يد ابن تيمية[٢٨] (ت: ٧٢٨ هـ) وتلامذته، ووضع موضع التطبيق على يد محمد بن عبد الوهاب[٢٩] (ت: ١٢٠٦ هـ) في جزيرة العرب[٣٠].

أهل السنة والجماعة:

السنة في اللغة هي السيرة، حسنة كانت أو قبيحة، وفي الحديث «**من سنَّ سُنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنّ سنة سيئة...**» [٣١].

وإذا اطلقت في الشرع فإنّما يراد بها ما أمر به النبي ﷺ ونهى عنه وندب إليه قولاً وفعلاً، مما لم ينطق به الكتاب العزيز، ولهذا يقال في أدلة الشرع: الكتاب والسنّة[٣٢].

فالسنة في المصطلح الإسلامي حديث الرسول وسيرته وتقريره، أن يرى رسول الله ﷺ عملاً من مسلم ولا ينهاه عن ذلك فإنّه قد أقرّ بسكوته صحّة ذلك الفعل. أما ما استحدث في الدين من أمر ولم يؤخذ من الكتاب والسنة فهو بدعة[٣٣].

مما تقدّم يتبيّن انّ السنة في الاصطلاح الإسلامي تطلق على معنيين:

١- قول الرسول ﷺ وفعله وتقريره.

٢- ما يقابل البدعة وهو ما استحدث في الدين، أي لا أساس له في الشرع.

أما لقب أهل السنة فقد كان ابتداءً وصفاً لمجموعة من العلماء المشتغلين بتدوين الأحاديث النبوية، والذين عرف منهجهم في تحصيل العقائد والأحكام من ظواهر الآيات والروايات باسم فرقة «أهل الحديث» التي ظهرت في عهد الأمويين. ولأنّ موضوع الأحاديث هو السنة النبوية فان كلمة السنة أصبحت تستخدم أحياناً بديلاً عن كلمة الحديث. وهذا يظهر من رسالة لعمر بن عبد العزيز[٣٤] (ت: ١٠١ هـ) يرد

فيها على القدرية قال: «وقد علمتهم أن أهل السنة كانوا يقولون الاعتصام بالسنة نجاة»[٣٥].

فمن الواضح هنا أن من يشير إليهم عمر بن عبد العزيز بوصف أهل السنة هم مدونو السنة النبوية (الحديث) وليس أية فرقة أُخرى، ومن المعلوم أن تدوين الأحاديث النبوية لم يبدأ إلا في مطلع القرن الثاني الهجري بأمر من الخليفة عمر بن عبدالعزيز إذ كان التدوين ممنوعاً قبله[٣٦].

وعلى هذا فمصطلح أهل السنة يكون مرادفاً لمصطلح أهل الحديث. أي: المشتغلين بالحديث وليس المقصود أهل سنة النبي صلى الله عليه وآله أو غير ذلك من الادعاءات، وقد تعددت الآراء حول سبب التسمية بـ(أهل السنة):

الرأي الأول: إن الإمام أحمد بن حنبل عندما برز وتصدر العمل في تدوين العقائد والمعارف المأخوذة من الأحاديث النبوية في مطلع القرن الثالث الهجري أخذ يوسع استخدام لقب (أهل السنة) ـ الذي كان مخصوصاً بالعلماء مدوني الحديث الشريف ـ ليشمل أيضاً الأتباع المقلدين لمذهبه والعوام المؤيدين لمنهج أهل الحديث، وبهذا يكون أحمد بن حنبل قد احتكر اسم أهل السنة ليكون عنواناً خاصاً لبعض المسلمين دون سواهم من أهل القبلة.

وقد حصل هذا بعد خروج الإمام أحمد منتصراً من سجنه أيام المتوكل العباسي (ت: ٢٤٧ هـ) الذي قرّبه إلى بلاطه وروّج آراءه وحارب مخالفيه كالمعتزلة وغيرهم من الفرق الأُخرى، فصار أحمد إمام السنة والسنة ما قاله أحمد[٣٧].

الرأي الثاني: يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن: «لم يطلق اسم أهل السنة إلا في العصر العباسي الأول في الوقت الذي تطور فيه مذهب المعتزلة حتّى أصبح يطلق اسم «أهل السنة» على كل من يتمسك بالكتاب والسنة، واسم «المعتزلة» على كل من يأخذ بالكلام والنظر، أما في صدر الإسلام فكان يطلق على كل من يتمسك بالكتاب

والسنة اسم الصحابة لأنهم اجتمعوا مع الرسول وناصروه، كما أطلق على من أتى بعدهم الاتباع وأتباع الاتباع. وظلت الحالة كذلك إلى أن انتصر أبو الحسن الأشعري واتباعه على المعتزلة، واضمحلت أكثر الفرق الإسلامية الأُخرى فلم يعد هناك سوى الشيعة وأهل السنة فيقال هذا شيعي وذاك سنّي، واستمرت هذه التسمية إلى الوقت الحاضر»[٣٨].

الرأي الثالث: يُذكر انه لما أمر معاوية بلعن الإمام علي ﷺ على المنابر زعم انّ ذلك سنة يثاب فاعلها، وسمّي ذلك العام «عام السنة». ولـمّا قتل علي عليه السلام وصالح الحسن عليه السلام معاوية واستقرّ الأمر للأمويين، قام معاوية بتسمية ذلك العام «عام الجماعة»[٣٩].

الرأي الرابع: وهو قول ابن تيمية، يقول: «فلفظ أهل السنة يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة (أبو بكر وعمر وعثمان) فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة[٤٠]، وقد يراد بأهل الحديث والسنة المحضة فلا يدخل فيه إلا من يثبت الصفات لله تعالى، ويقول: ان القرآن غير مخلوق وان الله يُرى في الآخرة ويثبت القدر وغير ذلك من الأمور المعروفة عند أهل الحديث والسنة»[٤١].

ويعتقد الباحث ان الرأي الأول، قد يكون أقرب إلى الصحة، كما نعتقد ان الآراء الأُخرى، قد صبت في مصلحة الرأي الأول رغم الاختلاف البسيط في الرأي الثاني ، فان مورد الاختلاف فيه في جعل أبي الحسن الأشعري هو البداية لانطلاق لفظ أهل السنة والجماعة، ولكن المعروف والمشهور تاريخياً ان أحمد بن حنبل هو صاحب السبق في ذلك كما تقدم.

أما الرأي الثالث، فيصدق على جماعة خاصة ممن رفعت لواء البغض لعلي عليه السلام وهم النواصب من أمويين وغيرهم.

والرأي الرابع ـ رأي ابن تيمية ـ إذ يقصر لفظ أهل السنة على من أثبت الخلفاء

الثلاثة دون خلافة علي عليه السلام وهذا النهج كان هو السائد عند المنحرفين عن علي عليه السلام من الأمويين والمتزلفين لهم كعبد الله بن عمر الذين أسقطوا اسم الإمام علي عليه السلام من الخلافة، ويروي عبد الله بن عمر في ذلك حديثاً موقوفاً عليه في التفضيل بين الصحابة، الذي يقول فيه إنهم كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله يفاضلون فيقولون: «أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان ثم يسكتون»[٤٢].

فابن تيمية في هذا الرأي يُقصر لفظ أهل السنة بخصوص النواصب والمبغضين لعلي عليه السلام وهم جماعة خاصة تابعت الأمويين في موقفهم من علي وآل علي عليه السلام.

أما لقب الجماعة فقد أطلقه الأمويون على العام الذي تم فيه تسليم الملك لمعاوية وانفراده به، فقالوا: عام الجماعة[٤٣]، وهو عام ٤١ هـ الذي تم فيه صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية. وهذه الجماعة التي أسست على الظلم والجور وقتل الصحابة ولعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام على المنابر، فقد كتب زياد إلى معاوية في حجر[٤٤] وأصحابه أنهم خالفوا الجماعة في لعن أبي تراب[٤٥] وأزروا[٤٦] على الولاة، فخرجوا بذلك من الطاعة، فقتلهم معاوية وكان ذلك سنة ٥٢ هـ[٤٧].

يقول حسن فرحان المالكي ـ وهو من الحنابلة ـ: «الناس يعذرون الدول التي جاءت متأخرة ولا يعذرون الدولة الأموية التي سنت تلك السنن واضطهدت الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبناءهم وكانت السباقة في محاربة أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وتشويه صورتهم عند المسلمين حتّى أصبحت القلوب منقبضة عن أهل بيت النبوة فقتلوا الحسين عليه السلام وسمّوا الحسن عليه السلام وقتلوا زيد بن علي وقتلوا محبي أهل البيت كحجر بن عدي وكميل بن زياد وعمرو بن الحمق، وسليمان بن صرد الخزاعي وغيرهم، واستطاعت الدولة الأموية أن تفصل ـ إلى حد كبير ـ أهل البيت عن بقية الأمة فأصبحت النظرة لأهل البيت نظرة متوجسة من التشيع بينما النظرة المنحرفة عنهم أصبحت تدّعي تمثيل (الجماعة) و(السنة)!! واستطاع بنو أمية بالترغيب

والترهيب ضم بعض العلماء وطلاب العلم لنظرتهم كما فعلوا مع الشعبي والزهري وقبيصة بن ذؤيب وابن سيرين ورجاء بن حيوة وغيرهم فهؤلاء كان فيهم نفور عن ذكر أهل البيت بخير أو بشر وكانوا يفضلون السكوت عنهم!! وهذا السكوت يعني الإهمال والإماتة لذكرهم وهذا يعني بروز رؤوس تمثل (أهل الجماعة وأهل السنة) مع استبعاد (أهل البيت وعلمائهم ومحبيهم) من هذا التمثيل!! فأصبحت (الجماعة) تعني الرأي الصواب وأن من خالف (الجماعة) فهو في النار!! ويقصدون بالجماعة الموالية للنظام الأموي من علماء وعوام وسلطة... وأصبح الذي ينكر الظلم أو ينقد الوالي شاذاً و(ضد الجماعة) ومن شذ شذ في النار!!» [٤٨].

ثم يتكلم الباحث عن مكونات تيار السنة والجماعة فيقول: «ومن هنا تكوّن تيار (السنة والجماعة) خليطاً من تيار العثمانية[٤٩] النواصب وتيار المحايدين وتم استبعاد العلوية من (السنة والجماعة) ووصفهم بـ(الشيعة والرافضة)»[٥٠].

يشير الباحث في هذا النص إلى بداية انطلاق تيار السنة والجماعة فيقول: «إذن فتيار (السنة والجماعة) بدأت ملامحه الأولى مع صلح الحسن وانتشرت الأحاديث في التحذير من (مخالفة الجماعة) وحشروا في ذلك كل الأحاديث في وجوب التزام الجماعة وكأن المراد به الوقوف مع الحاكم في الخير والشر في الحق والباطل!! وكأن البدعة والضلالة في مفارقة (الجماعة والسلطات) وتم ذلك بانتقائية عجيبة!! ساعد الظل السياسي على انتشارها ووفّر لها الحماية والصلابة أمام كل من أراد إنكار المنكر!! إذ أصبح مثل هذا يصنّف على أنه ضد (وحدة الجماعة) و(ضدّ السنة) ومن ثَمَّ (ضد الإسلام) وعلى هذا حكموا على ثورة الحسين بن علي وابن الزبير وأهل المدينة وابن الأشعث وأصحابه وزيد بن علي وأصحابه والنفس الزكية وأهل المدينة وأمثالهم بانّهم أصحاب فتن وأنهم ماتوا ميتة جاهلية!!

ومن ثَمَّ أخرجوا هؤلاء الكبار من (السنة والجماعة) إلى (البدعة والضلالة)

لأنهم ثاروا على يزيد بن معاوية والحجاج بن يوسف وأبي جعفر المنصور...»[٥١].

وبكلمة: فإن لفظ أهل الحديث وأهل السنة كانا يطلقان على من يشتغل في الحديث النبوي جمعاً وتدويناً وحفظاً، ثم تطور وتوسع لفظ أهل السنة في زمن أحمد بن حنبل فأخذ يشمل عوام الناس من أتباعه ومقلديه، دون سواهم بمساعدة السلطات الحاكمة المتمثلة بالمتوكل ومن جاء بعده.

أمّا لفظ أهل الجماعة فقد أطلقه الأمويون على العام الذي تم فيه الصلح بين الإمام الحسن ومعاوية عام ٤١ هـ ، والذي وظفه الأمويون للتنكيل بمعارضيهم ووصفهم بالخارجين عن جماعة المسلمين أي: جماعة الأمويين والسلطان، وبذلك يستحلون دماءهم وأموالهم وأعراضهم.

نشأة مفهوم السلفية وتطوره:

من خلال متابعتي لكتب المتقدمين في الفرق الإسلامية كالبغدادي (ت: ٤٢٩ هـ) في كتابه الفرق بين الفرق، وابن حزم (ت: ٤٥٦ هـ) صاحب كتاب الفصل في الملل والنحل، والشهرستاني (ت: ٥٤٨ هـ) في كتابه الملل والنحل، لم نجد عندهم ما يشير إلى اسم السلفية، ضمن فرق الإسلام، نعم تعرض لذكرها بعض المؤلفين في الفرق والمذاهب المعاصرين كأبي زهرة[٥٢]، والسبحاني[٥٣]، ومن قبلهم التهانوي[٥٤] (ت: ١١٥٨ هـ) على أنها فرقة من الإمامية!!! وهذا يدل على ان كلمة سلفية لم يكن لها مدلول اصطلاحي محدد يدل على فرقة أو جماعة معينة، وهذا يعني ان هذه الكلمة اكتسبت المعنى الإصطلاحي المحدد عبر التاريخ وفي فترة متأخرة، ومن خلال تتبعنا لبدايات استخدام لفظ السلف أو ما يؤدي معناه في كلمات المتقدمين، يبدو ان أول من استخدم هذا المفهوم هو الخليفة عمر بن عبد العزيز (ت: ١٠١ هـ) عندما سُئل عن القدر فقال: «... فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم فانهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وانهم على كشف الأمور كانوا أقوى وبفضل ما كانوا فيه أولى...



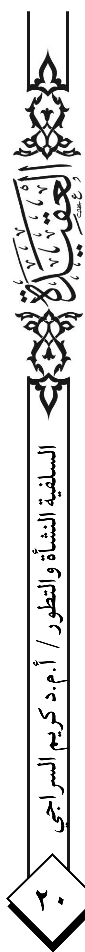
فإنهم هـم السابقون»[٥٥].

وكان يقصد بالقوم الصحابة الموصوفين بالسابقين، فكان يرد على السائل ويأمره أن يقتفي أثر الصحابة فيما وقفوا عليه وكفوا عنه وهذا المعنى تنادي به السلفية وترفعه شعاراً ظاهرياً لها.

وورد لفظ السلف في كلام الحسن البصري[٥٦] (ت: ١١٠ هـ) في رسالته إلى عبد الملك بن مروان (ت: ٨٦ هـ) حول القضاء والقدر، وقد جاء فيها قوله: «لم يكن أحد في السلف يذكر ذلك ولا يجادل فيه، لأنهم كانوا على أمر واحد، وإنّما أحدثنا الكلام فيه لما أحدث الناس من النكرة له، فلما أحدث المحدثون في دينه ما أحدثوه أحدث الله للمتمسكين بكتابه مايبطلون به المحدثات ويحذرون به من المهلكات»[٥٧].

يشير الحسن البصري في هذا النص إشارة مهمة، ترفع الّلبس حول الخوض في مستجدات المسائل التي لم يخض فيها السابقون - السلف - وهي مسألة الحاجة وعدمها، فيقرر في النص المتقدم أن السابقين لم يخوضوا في مسألة القضاء والقدر؛ لعدم الحاجة إليها من قبل الناس؛ ذلك أن الناس كانوا على أمر واحد: أي لا يوجد اختلاف بينهم يستوجب السؤال والجواب في تفاصيل المسائل العقيدية، وهذا هو الجو السائد في وقت الصحابة الموصوف بالبساطة في استيعاب مسائل العقيدة وهو ما اصطلح عليه عند أهل الاختصاص بمرحلة الإيمان القلبي التي تُعد المرحلة الأولى من نشؤ العقيدة، ولكن عندما دبّ الاختلاف بين المسلمين نتيجة توسع الدولة الإسلامية بعد الفتوحات الكبيرة والاختلاط الثقافي مع الديانات الأُخرى وأسباب كثيرة أُخرى أدّت إلى ظهور كثير من الشبهات حول الدين الإسلامي احتاج معها المسلمون ان يردوا عليها ويبطلوها. ومن غير المعقول ان يكتفي المسلمون بالقول ان هذه المسائل والشبهات لم يخض بها السابقون من المسلمين ويسكتون.

فيبدو انّ الحسن البصري هو أول من استخدم لفظ السلف في كلامه، ويقصد



به الصحابة الذين تقدموا عليه.

وقول الأوزاعي: «اصبر نفسك على السنة وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح فإنّه يسعك ما وسعهم»[٥٨].

وهذا نص واضح في الإشارة إلى اقتفاء آثار السابقين فيما تكلموا فيه وفيما سكتوا عنه، وفيه تأسيس المنهج السكوت عما سكتوا عنه، الذي سار عليه من بعده مالك بن أنس وأحمد بن حنبل وآخرون، سوف تأتي الإشارة إلى أقوالهم.

فمالك بن أنس قال: «إياكم والبدع، قيل: يا أبا عبدالله، وما البدع، قال: أهل البدع الذين يتكلمون في اسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، لا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون»[٥٩].

وهكذا بدأ يتجذّر هذا المعنى السكوت عما سكت عنه الصحابة والتابعون عند هذا الاتجاه، وأصبح شعاراً يرفع بوجه أي تغير أو تجديد، وصار ديناً يدان به عندهم.

ثم تجذر هذا المعنى وتخصص على يد أحمد بن حنبل الذي أصبح له تأثير كبير على العامة في زمن المتوكل العباسي ولقّب بإمام السنة، وأصبحت أقواله عند هذا الاتجاه الميزان الذي توزن به الأشياء والمرجع فقال قوله المشهور: «لست بصاحب كلام، ولا أرى الكلام في شيء من هذا إلا ما كان من كتاب الله أو في حديث عن النبي صلى الله عليه وآله أو عن الصحابة، فأما غير ذلك فان الكلام فيه غير محمود»[٦٠].

وفي حديث[٦١] آخر لأحمد بن حنبل زاد فيه بعد ذكر الصحابة التابعين، فحصر الإمام أحمد الكلام المحمود بالكتاب، وحديث النبي، والصحابة والتابعين، فالأول والثاني ـ الكتاب وحديث النبي ـ مما لا خلاف فيه بين المسلمين، أما الثالث والرابع ـ الصحابة والتابعون ـ فإن ثبتت أقوالهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله فترجع إلى حديث النبي، وان كانت أقوالهم ناتجة عن فهمهم واجتهادهم فموضع خلاف بين المسلمين.

حتّى ان أحمد بن حنبل في مسألة التابعين ورد عنه رأيان: الأول، يعتبر رأي

التابعي حجة يجب الأخذ به، والثاني، لا يُلزم الأخذ به، قال أحمد بن حنبل: «الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي وعن أصحابه، ثم هو من بعد في التابعين مخير»(٦٢).

وهذا نص منه بعدم الالزام برأي التابعين، ويؤيد هذا القول رواية أُخرى واردة عنه يصرّح فيها بلفظ السلف ويخصه بالصحابة فقط دون التابعين، قال ـ ضمن كلام طويل في بيان اعتقاداته-: «صفة المؤمن من أهل السنة والجماعة من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأقر بجميع ما أتت به الأنبياء والرسل... وعرف حق السلف الذين اختارهم الله لصحبة نبيّه ﷺ»(٦٣).

وأرى انّ نظرية الأخذ عن التابعين وتابعي التابعين جاءت واكتملت بعد أحمد ابن حنبل عند هذا الاتجاه، هذا من جهة ومن جهة أُخرى فان المتعارف به عند أهل العلم من الجمهور هو اعتماد أقوال الصحابة بصورته التقليدية باعتباره الهوية التي لاتنفصل عن هوية المرسَل محمد ﷺ الذي مثل حقيقة السلف التي أصبحت فيما بعد ضرورة من ضرورات هذا الاتجاه لصياغة موقف هذا الاتجاه على المستويين النظري والتطبيقي.

ومن هنا ان معنى السلف أخذ منحى آخر بعد أحمد بن حنبل، فأصبح يشمل التابعين وأئمة الحديث، وفي مقدمتهم أحمد بن حنبل.

يقول أبو الحسن الأشعري(٦٤) (ت: ٣٢٤ هـ): «قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب ربّنا ﷻ، وبسنة نبيّنا ﷺ وما روي عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل نضر الله وجهه، ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون ولمن خالف قوله مجانبون لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل...» (٦٥)، فأصبح قول أحمد بن حنبل ديناً يدان به عند الذين جاءوا بعده من الحنابلة السلفية.

مع ان أحمد بن حنبل لا يلزم بقول التابعي ـ كما تقدم ـ ويقول أيضاً: «لا

تقلدوني ولا تقلدوا مالكاً ولا الثوري ولا الأوزاعي وخذ من حيث أخذوا، وقال: من قلّة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال»[٦٦].

وتركز هذا المعنى ـ الدين ما قاله أحمد بن حنبل ـ أكثر عند غلاة الحنابلة كالبربهاري[٦٧] (ت:٣٢٨ هـ)، المعاصر لأبي الحسن الأشعري والذي يُروى[٦٨] انّ الأشعري لما قدم بغداد جاء إلى أبي محمد البربهاري فجعل يقول: رددتُ على الجبائي، رددتُ على المجوسي وعلى النصارى فقال أبو محمد البربهاري: لا أدري ما تقول ولا نعرف إلا ما قاله الإمام أحمد.

وابن بطة الحنبلي[٦٩] (ت:٣٨٧هـ) الذي يقول: «إذا رأيت الرجل البغدادي يحب أبا الحسن بن بشار[٧٠] وأبا محمد بن البربهاري فاعلم أنه صاحب سنة»[٧١].

فالسنة عنده ما كان عليها أبو الحسن بن بشار وأبو محمد البربهاري الحنبليان!!

ثم تطور مصطلح السلف على يد إسماعيل الصابوني[٧٢] (ت: ٤٤٩ هـ) ـ صاحب كتاب عقيدة السلف وأصحاب الحديث ـ فأخذ يشمل كل من تقدمه من أصحاب الحديث وأنصارهم، يقول الصابوني: «سألني اخواني في الدين أن أجمع لهم فصولاً في أصول الدين التي استمسك بها الذين مضوا من أئمة الدين وعلماء المسلمين والسلف الصالح...» [٧٣].

ويقول أيضاً: «إذا رأيت الرجل يحب سفيان الثوري ومالك بن أنس، والأوزاعي، وشعبة[٧٤]، وابن المبارك... وأحمد بن حنبل... فهو صاحب سنة»[٧٥].

أما ابن تيمية الحراني فيبدو أنه أول من استدل على التزام حرفية أقوال، وأفعال، وتصرفات، واعتقادات وعادات، الصحابة، والتابعين، وتابعي التابعين، بحديث القرون الثلاثة[٧٦]، إذ يقول: (المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنة، وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف: أن خير قرون هذه الأمة، في الأقوال والأعمال والاعتقاد وغيرها من كل فضيلة، أن خيرها القرن الأول، ثم الذي يلونهم،

ثم الذين يلونهم، كما ثبت ذلك عن النبي صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ من غير وجه، وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة: من علم، وعمل، وإيمان، وعقل ودين وبيان، وعبادة وأنهم أولى بالبيان لكل مشكل. هذا لا ينفيه إلا من كابر المعلوم من الدين بالضرورة من دين الإسلام، وأضله الله على علم...) [٧٧].

وقد سار على خطى ابن تيمية كل من الوهابية ـ أتباع محمد بن عبد الوهاب ـ والسلفية[٧٨] الجهادية في تبديع كل قولٍ أو فعلٍ، لم يعرف عند أهل القرون الثلاثة، فهذا ابن تيمية، يصف الاحتفال في مولد النبي بدعة؛ بحجة أنه لم يفعله السلف[٧٩]. أما الوهابية، فقد قام أحد رجالاتها وهو عبد الله بن سليمان بن بليهد، باستفتاء علماء المدينة بتخريب قباب الصحابة وأئمة أهل البيتعَلَيْهِمُالسَّلَامُ في بقيع الغرقد عام ١٣٤٤ هـ، وقد نشر مقالاً في جريدة أم القرى في عدد جمادى الآخرة سنة ١٣٤٥ هـ، جاء فيه: لم نسمع في خير القرون عن هذه البدعة ـ البناء على القبور ـ بل بعد القرون الخمسة[٨٠].

أما السلفية المعاصرة التي تعتبر أحمد بن حنبل، وابن تيمية أبرز الشخصيات السلفية في التاريخ[٨١]. إذ يصفها الدكتور القرضاوي في بعض مشاهداته بقوله: «ولقد راعني أن وجدت بعض الشباب المخلصين من بعض الجماعات الإسلامية في أمريكا قد أثاروا جدلاً عنيفاً في أحد المراكز الإسلامية؛ لأن المسلمين يجلسون على الكراسي في محاضرات السبت والأحد، ولا يجلسون على الحصير أو السجاد كما يجلس أهل المسجد.. وأنهم يلبسون البنطلونات لا الجلاليب البيض، ويأكلون على المناضد لا على الأرض...»[٨٢].

الظاهر أن هذه الأمور لم تكن متداولة عند أهل القرون[٨٣] الثلاثة ولذلك أصبحت عندهم محل جدال ونزاع!!!

والذي يبدو للباحث أنّنا أمام مؤسسين لمنهج سلفي جديد قائم على ضيق الأفق وتحجر الرؤية التي يتبناها هؤلاء الجدد والتي يمكن أن نفسرها بالانعطافة الكبرى التي تعاصرت مع التغيرات الكبيرة التي يشهدها الغرب بخاصة والعالم

العربي عامة تمثلت بالآراء المتضاربة في الواقع العقائدي للسلفية.

وعلى هذا الأساس فإن ابن تيمية ومن سار على أثره من الوهابية والجماعات السلفية المتأخّرة قد اعتمدوا على حديث القرون الثلاثة في الحكم على تبديع وتحريم مستحدثات الأمور التي لم تكن عند أصحاب القرون الثلاثة، صحيح أن حديث القرون الثلاثة قد رواه البخاري[٨٤] ومسلم[٨٥] وغيرهم[٨٦] من أصحاب السنن، إلا أن الحديث عليه إشكالات كثيرة تمنع من الاحتجاج به في إثبات ما يدّعون؛ منها:

أولاً: انه خبر آحاد[٨٧] لا يوجب علماً ولا يجوز أن يحتج به في المسائل العقيدية[٨٨].

وهذا ما ذهب إليه ابن كلاب[٨٩] (ت:٢٤٠هـ)، والقلانسي[٩٠] (ت:٢٥٥هـ) وهما من أعمق محدثي أهل السنة كما يقول النشار[٩١].

وأيضاً ذهبت الشيعة الإمامية إلى أن خبر الواحد لا يحتج به في المسائل العقائدية وبذلك يقول السيد المرتضى: (خير الناس قرني... أول ما فيه أنه خبر واحد لا يوجب علماً ولا يجوز أن يحتج به...) [٩٢].

ثانياً: انه معارض بأحاديث كثيرة صحيحة منها: قالﷺ: «**مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره**»[٩٣]، وقولهﷺ: «**ليردنَّ عليَّ الحوض غداً رجال من أصحابي ثم ليختلجن عن الحوض فأقول: يا ربّ أصحابي، فيقال: إنّك لا تدري ما أحدثوا من بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً**»[٩٤].

وحديث عن أبي جمعة قال: (تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجرّاح، قال: فقلنا: يا رسول الله أحدٌ خير منا أسلمنا معك وجاهدنا معك، قال: نعم قوم يكونون بعدكم يؤمنون بي ولم يروني) [٩٥].

ثالثاً: ان الحديث من خلاله، لو عممنا الحكم بأفضلية وعدالة كل فرد منهم على كل فرد من القرون اللاحقة، فانه يجب أن نعمم على كل فرد من أفراد القرن الرابع الهجري فما فوق بانه يمينه يسبق شهادته وشهادته يمينه كما في عجز الحديث،

وهذا معارض بحديث عن رسول الله ﷺ: «**خير الشهود من أدى شهادته قبل أن يسألها**»(٩٦).

رابعاً: ان عمدة الاحتجاج بحديث القرون الثلاثة أن يشمل بالخيرية جميع أفراد القرن وهذا لا يقول به أحد، قال ابن عبد البر: (وخير الناس قرني... ليس على عمومه لأنه جمع المنافقين وأهل الكبائر الذين قامت عليهم وعلى بعضهم الحدود)(٩٧). ثم ان القرون الثلاثة شهدت ظهور كثير من الفرق المنحرفة كالخوارج والمرجئة والمجبرة!!

خامساً: ان حديث خير القرون قد اضفى الشرعية بل العصمة على جيل الصحابة والتابعين وتابعيهم، «ولكن السلف أنفسهم لم يكونوا ينظرون إلى ما يصدر عنهم من أقوال وأعمال أو تصرفات، هذه النظرة القدسية الجامدة التي تقتضيهم أن يسمّروها بمسامير البقاء والخلود، ويجعلوا من شأنهم معها ما يشبه المدينة المسحورة»(٩٨).

فالخليفة الثاني عمر بن الخطاب مع مكانته وصحبته المعروفة عندهم يخاف أن يذكره رسول الله ﷺ مع المنافقين فيقول لحذيفة اليمان: «أنشدك بالله هل سمّاني لك رسول الله ﷺ مع من سمّى من المنافقين»(٩٩).

ومن هذا حاله، كيف يكون معياراً للحق والباطل!!

وأخيراً فان هذا الحديث ـ القرون الثلاثة ـ لا ينسجم مع روح الاسلام وتعاليمه ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ (الحجرات/ ١٣) ، «ليس السلف بافضل من الخلف بالضرورة ولا الخلف أشر من السلف بالضرورة لكن لكل عصر اجتهاداته، ولكل جيل ابداعاته»(١٠٠).

كما إن قضية التراث تطرح عادة طرحاً مضاعفاً الخطأ: فمن جهة يتضمن الطرح اتخاذ موقف من التراث كلّه بصورة قبلية ومن جهة ثانية تُغفل فيه عند طرحه

خاصيتاه الأساسيتان: عالميته وشموليته، من ناحية، وتاريخيته من ناحية ثانية فمن الناحية المبدئية لا يمكن تبني التراث كلّه لأنّه ينتمي إلى الماضي؛ ولأن العناصر المقومة للماضي لا توجد كلها في الحاضر. وليس من الضروري أن يكون حضورها في المستقبل هو نفس حضورها في الحاضر.

وبالمثل لا يمكن رفض التراث كلّه للسبب نفسه، فهو شئنا أم كرهنا مقوم أساسي من مقومات الحاضر، وتغير الحاضر لا يعني البداية من الصفر[١٠١].

والواقع ان الفكر الإسلامي يتقدم بعنصرين أساسيين: عنصر الثبات والحركة، فمن جهة فيه عناصر ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان، ومن جهة أُخرى فيه عناصر متحركة ومتغيرة مع الزمان والمكان. وهذا هو سر قوة الفكر الإسلامي أنه خليط من هذين العنصرين. فمن الخطأ ان نتعامل مع الفكر والتراث الإسلامي على أنّ جميعه ثابت أو جميعه متحرّك.

فمشكلة السلفية مع الفكر والتراث الإسلامي انّها تعاملت معه على أنّ جميعه ثابت فلم تميز بين الشكل، والمضمون، وبين الغاية والوسيلة فحكمت عليهم بحكم واحد. «فالسلفية تعني، حضور الماضي في الحاضر حضور السلف في الخلف، حضور الأب في الابن، حضور الماضي في الحاضر بكل تفاصيله وأشكاله وصوره، لا الوقوف على المضمون هكذا يرى البعض من السلفية المتطرفة»[١٠٢].

فالسلفي هو إنسان مقلد اضافة إلى أنه أهمل الزمان والمكان واغتال التاريخ وأسقط العقل ويعيش السلفي في القرن العشرين مقلداً القرن السابع، والتقليد مستحيل لأن ظروف القرن السابع تختلف عن ظروف القرن العشرين..» [١٠٣].

وأمام هذا التردي واللامسؤولية في الموقف نجد السلفية المعاصرة نشأت بوصفها ردّ فعل للرؤية المتمدنة التي طبقتها أوربا خاصة ـ والعالم العربي عامة ـ بعد عصر التنوير حتّى أخذت توجه ضربتها القوية لكل التوجهات التي لا تتناغم

والواقع المعاصر الذي يتعاكس تماماً مع توجهاتها ورؤاها.

يظهر مما تقدم ان السلفية، بوصفها فرقة أو جماعة إسلامية، لم يرد لها ذكر، عند مصنفي الفرق والمذاهب الإسلامية، سوى المعاصرين منهم.

كما ان كلمة السلفية لم يكن لها مدلول اصطلاحي محدد، أو ذات معنى واحد عند الجميع، بل تطورت من خلال الحقب المتلاحقة، فالسلفية عند الاتباع تعني، اتباع السلف الصالح من الصحابة، وعند اتباع الاتباع، تعني اتباع السلف الصالح من الصحابة، والتابعين، ثم تطور المصطلح، فأخذ يشمل أئمة الحديث، وفي مقدمتهم أحمد بن حنبل، ثم أضيف إلى أحمد بن حنبل لاحقاً ابن تيمية الحراني، وأصبحا معاً، أبرز رجالات السلفية الوسيطة (الوهابية) والسلفية المعاصرة.

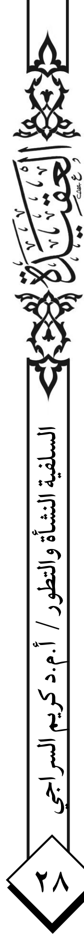
يبدو ان أول من نظّر، واستدل على التزام حرفية أقوال وأفعال أهل القرون الثلاثة ـ الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ـ هو ابن تيمية الحراني، وحكم بتبديع كل قول، أو فعل لم يعرف عندهم.

إن أحمد بن حنبل، على الرغم من روايته حديث القرون الثلاثة، إلا أنه لم يذهب إلى ما ذهب إليه ابن تيمية، ولم يستدل بالحديث ـ القرون الثلاثة ـ على الزام إتباع أهل القرون الثلاثة، بل ورد الالزام عنه في اتباع الصحابة فقط.

إن حديث القرون الثلاثة عليه من الاشكالات ما يمنع من الاحتجاج به والالتزام بمضمونة، وهذا ما أشار إليه جمع من علماء المسلمين.

المبحث الثاني
السلفية الأولى

كان المسلمون في عهد النبي صلى الله عليه وآله على دين واحد، وهو التسليم بما جاء من عقائد التوحيد، والنبوة، واليوم الآخر، وأحكام الدين، كأحكام الصلاة، والصيام...



وكانوا يرجعون فيما اختلفوا فيه إلى الرسول صلى الله عليه وآله الذي كان عندهم المرجع في حل مسائلهم وفض نزاعاتهم وهم راضين بذلك ومسلّمين.

كان إيمانهم إيماناً عفوياً، خالياً من الخوض في صعاب التساؤلات الفكرية المتصلة بصفات الله، وأحوال القيامة، والجنة والنار والقضاء والقدر... كل هذا كان نتاج واقع المجتمع العربي الذي اكتفى بالتعاليم الأولى من دون الخوض في أمهات المسائل التي شكلت فيما بعد عصب الحياة العقدية عند المسلمين، ولكن بعد وفاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بدأ النزاع على خلافته ومن يكون زعيماً للمسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وهذا ما حدث في سقيفة بني ساعدة(١٠٤).

ثم بعد ذلك تتابعت الفتن والخلافات السياسية وخصوصاً في خلافة عثمان (ت: ٣٥ هـ) وخلافة أمير المؤمنين علي عليه السلام (ت: ٤٠ هـ) حيث قتل عثمان وحدثت معارك طاحنة في زمن الإمام علي عليه السلام تمثلت في معركة صفّين، ومعركة الجمل والنهروان.

وعلى أثر هذه الخلافات السياسية، والمعارك الطاحنة ظهرت مجموعة من المسائل العقائدية، والدينية، فكان أول الأمر جدل الخلافة، وأيهما أحق بالخلافة بعد رسول الله، ثم جرَّ ذلك الناس إلى الحديث فيما تمر به الأمة من أحداث ونكبات، أهي بقضاء الله وقدره أم هي من فعل الناس وعملهم؟ ومن ثَمَّ هل الإنسان مجبر في أفعاله أو مخير؟ وهؤلاء المسلمون الذين يتساقطون صرعى وهم يقاتلون في صفّ علي عليه السلام أو صفّ معاوية ما حكمهم؟ وما رأي الدين فيهم؟

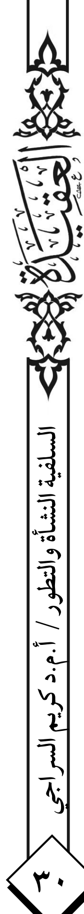
هذا من جانب، ومن جانب آخر الفتوحات الإسلامية الكبرى التي نقلت المسلمين إلى طور جديد حيث دخول شعوب وأقوام تحمل ثقافات وأدياناً مختلفة، مما جعل من المسلمين يقفون عند هذه الثقافات، موقف الناظر المتفحص لطبيعة تلك الثقافات، وكيفية الجمع التوظيفي بين ما تحمله الحضارة العربية الإسلامية، وبين

متناقضات الأمم الأُخرى، الموصوفة بأنها دخيلة وغير معدودة على الواقع الإسلامي[١٠٥].

وهكذا نجد إن ما بدأ بسيطاً كان الزمن كفيلاً بتعقيدهِ جراء العوامل آنفة الذكر، والبعد الزمني عن صاحب الدعوة، أضف إلى ذلك ظهور مستجدات كثيرة في الحياة السياسية، والاجتماعية، والفكرية، مضافاً إلى كل ذلك التلاقح الفكري الفلسفي الذي تم بين هذا الخضم من المؤثرات حتى لوَّن لنا العقيدة بأشكال ربّما جرّتها إلى متاهات لم تقصدها أصلاً[١٠٦].

وإزاء هذه المستجدات والأحداث والشبهات انقسم أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إلى فريقين: فريق آثر السكوت والابتعاد عن الجدل في هذه المسائل، وعدّ ذلك بدعة منكرة، من هؤلاء عمر بن الخطاب[١٠٧] (ت: ٢٣ هـ) وعبدالله بن عمر (ت: ٧٣ هـ) وزيد بن ثابت (ت: ٤٥ هـ)، وجمع كبير من الصحابة، وقد درج على منوالهم من التابعين ومن بعدهم سفيان الثوري والأوزاعي، ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل، وفريق آخر آثر البحث والنقاش ومعالجة الشبهات، أياً كانت في رؤوس أصحابها، ومن هؤلاء الإمام علي بن أبي طالب[١٠٨]، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن مسعود (ت:٣٢ هـ)، وجمع كبير من الصحابة، ودرج على مناولهم جملة من التابعين ومن بعدهم الحسن البصري[١٠٩] وأبو حنيفة... فقد كان علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يشجع دعوة المبتدعة إلى الحق بمجادلتهم في باطلهم الذي تعلقوا به، وقد ناظر عَلَيْهِ السَّلَامُ قدرياً في القدر، وأرسل ابن عباس ليناظر بعض المبتدعة، وناظر عبد الله بن مسعود يزيد بن عميرة في الإيمان. هذا في حين أن كثيراً من الصحابة كانوا يرون أن الدخول في مناقشة هؤلاء الناس بدعة يجب تجنبها[١١٠].

وظل هذا التيار مستمراً في القرن الثالث الهجري، وصار معتقد أهل السنة جميعاً بعد أن ارتبط باسم الإمام أحمد بن حنبل[١١١]. الذي ظهرت وتبلورت السلفية



الأولى على يديه. حيث تبلور وعي سلفي، أعلى من شأن السلف الصالح، ووضعهم في موضع الجماعة الذهبية صاحبة الوصاية في تأويل النص وتفسيره.

وتعدُّ محنة القول بخلق القرآن في عام ٢١٨ هـ ، الظهور التاريخي الأول لبدايات التبلور المذهبي لدعاة السلفية والفرصة الأولى التي هيأت الشروط الموضوعية لتبلور النزعة السلفية في تيار متميز لأول مرّة(١١٢).

العوامل التي ساعدت على ظهور التيار السلفي:

وقد تضافرت عوامل عدّة، ساعدت على ظهور هذا التيار منها: وصول المتوكل العباسي إلى السلطة (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ) الذي انتصر لأهل الحديث، وإمامهم أحمد بن حنبل، وتبنّى أفكارهم، إذ أمعن في اضطهاد المعتزلة، وألقى بهم في دياجير السجون، وأعلن براءة الإمام أحمد بن حنبل، وكرمه لقاء ما لقى من سلفه من عنت وقسوة(١١٣). وقد رد أحمد بن حنبل هذا الجميل على المتوكل العباسي من خلال فتواه بحرمة الخروج على الحاكم ولو كان فاجراً، يقول أحمد بن حنبل: «السمع والطاعة للأئمة وأمير المؤمنين البر والفاجر»(١١٤)، ومُنح المتوكل من قبل هذا التيار لقب ناصر ومحيي السنة(١١٥).

أمّا العامل الآخر فهو ما قامت به المعتزلة ـ عندما كان لها حظوة ومكانة، وجاه، وسعة نفوذ عند خلفاء بني العباس ـ المأمون، المعتصم، الواثق ـ من امتحان الناس في خلق القرآن، وأخذوا بالعقاب الشديد، من تسول له نفسه معارضة هذه المقالة، وضغطهم على رجال الحديث، وأئمتهم حتى زجوا بهم في السجون(١١٦). هذا من جهة ومن جهة أُخرى فان المعتزلة قد بالغت في الاعتماد على العقل والمنطق والقياس على حساب النصوص، والمأثورات، وخاضوا وتعمقوا في المسائل العقلية الدقيقة، مما جعل فكرهم فكر صفوة لا فكر عامة وجمهور(١١٧). ذلك ان العامة

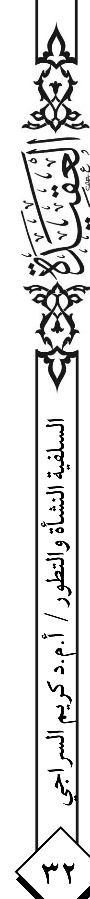
والجمهور تميل إلى الأخذ بظواهر النصوص، والمحسوس، مما جعل فكر السلفية النصي الحرفي الظاهري، أقرب إلى العامة والجمهور.

وهذا ما يفسر انتشار الفكر السلفي في الأوساط الاجتماعية الفقيرة التي تكره كل ما هو جديد، أو لا يتناسب مع ظواهر النصوص وقد يكون هذا نتيجة طبيعية لضيق الأفق ومحدودية التوجه، أضف إلى ذلك شعورهم المتشدد الرافض للعقل خشية انسحاب العقل على موروثهم العقائدي القائم على ظاهر القرآن والسنة من دون اعتماد العقل في تأويل ما يمكن تأويله شريطة أن لا يضر بجوهر الإسلام وثوابته المعتمدة.

وبرزت لهذا الجمهور قيادات تنادي بالعودة إلى إسلام السلف، الإسلام الذي أصبح غريباً في مناخ متفلسف، يقدم العقل وبراهينه على النصوص وكان على رأس هؤلاء الإمام أحمد بن حنبل(١١٨)، خصوصاً بعد خروجه من المحنة منتصراً بمساعدة المتوكل العباسي، الذي تبنى هذا الفكر، وآزره بكل قوّة.

والناس على دين ملوكهم: «فاستبدل السلفية بالمعتزلة، وحلّت النصوص محل العقلانية والرأي والتأويل، وخرج المحدّثون من محابسهم، وحل محلهم فيها علماء الكلام»(١١٩). ثم ان المتوكل العباسي أشخص الفقهاء والمحدّثين، فقُسّمت بينهم الجوائز، وأُجريت عليهم الأرزاق، وأمرهم المتوكل أن يجلسوا للناس وأن يحدثوا الأحاديث التي فيها الرد على المعتزلة والجهمية، وأن يحدثوا بأحاديث الرؤية(١٢٠). فوضعت أحاديث كثيرة في الصفات تفيد التجسيم، وفي الرؤية، وفي قدم القرآن مما ليس له أصل في الإسلام، ولم يُعرف قبل هذا التاريخ. وفي هذه الأجواء نشطت عقيدة التشبيه والتجسيم(١٢١) وذم الكلام ، والقول بقدم القرآن.

وهكذا انتعشت الحركة السلفية، وانتشرت في الآفاق، وساد نهجها النصي الحديثي في مرافق الحياة العلمية والبحثية، وأصبحت مذهباً للدولة آنذاك.



وعلى هذا الأساس فقد أسهمت العوامل السياسية في وضع القواعد المنهجية التي تم على أساسها تأسيس الفكر السلفي الذي نشأ وترعرع في أحضان الساسة الذين التزموا ورتّبوا عليه كثيراً من الثمرات والنتائج التي أصبحت ذات قيمة ذاتية عند الأوائل من السلف، ومن بعدهم من بناة هذا الفكر الذين أخذوا على عاتقهم نشر الوعي الثقافي السلفي على الصعيد العالمي.

وقد واصلت الحركة السلفية بعد أحمد بن حنبل السير على منوال العقائد التي صاغها، متمثلة بابنه عبد الله(ت: ٢٩٠ هـ) (١٢٢)، والبربهاري (ت: ٣٦٢ هـ)، وابن بطة (ت:٣٨٧هـ) والقاضي أبي يعلى(١٢٣) الحنبلي (ت:٤٥٨هـ)، وابن الزاغوني(١٢٤) (ت: ٥٢٨هـ) وفي هذه الفترة امتازت الحركة السلفية، بالمغالاة الشديدة بإمامهم أحمد بن حنبل، في تسطير المناقب له، والدعوة إلى مذهبه، عن طريق المنامات والرؤى، وفي هذا الصدد يقول عبد الوهاب الورّاق(١٢٥) (ت: ٢٥١ هـ): «رأيت النبيﷺ أقبل فقال لي: مالي أراك محزوناً؟ فقلت: وكيف لا أكون محزوناً وقد حل بأمّتك ما قد ترى؟ فقال لي: لينتهينَّ الناس إلى مذهب أحمد بن حنبل، لينتهينَّ الناس إلى مذهب أحمد بن حنبل»(١٢٦)، وعلى هذا المنوال أخذت تنسج القصص والأساطير حول شخصية أحمد بن حنبل.

أضف إلى ذلك فإن هذه الفترة قد امتازت باستخدام العنف والقوّة لكل من لايرى رأيهم أو لا يسير على مذهبهم حتى ان الإمام الطبري (ت: ٣١٠ هـ) صاحب التفسير والتاريخ ظل حبيس داره مدّة ولما توفي حالوا دون تشييعه ودفنه، لأنّه صنّف كتاباً للفقهاء ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل، فقيل له في ذلك فقال: لم يكن فقيهاً وإنّما كان محدّثاً(١٢٧).

ويروى أيضاً: ان نائحة في بغداد كانت تنوح على الحسين عليه السلام من غير تعريض بالسلف، فسمع بها الحنابلة أيام البربهاري الحنبلي فقال: بلغني أن نائحة يقال لها خلب تنوح، اطلبوها فاقتلوها(١٢٨).

بعد أحمد بن حنبل خفَّ صوت السلفية، وابتعدت عن دائرة التأثير بين الناس، خصوصاً بعد ظهور دعوى أبي الحسن الأشعري (ت: ٣٢٤ هـ) وانتشار مذهبه بين الناس، إذ أصبح بديلاً عن أحمد بن حنبل في ساحة العقائد، عند أهل السنة، يقول المقريزي (ت: ٨٤٥ هـ) بعد الإشارة إلى عقائد الإمام أبي الحسن الأشعري: «هذه جملة من أصول عقيدته التي عليها الآن جماهير أهل الأمصار الإسلامية، والتي من جهر بخلافها أريق دمه»[١٢٩].

الأسباب التي أدت إلى انحسار الفكر الحنبلي:

ان من الأسباب التي أدّت إلى انحسار الفكر العقائدي الحنبلي عن الساحة السنية هو المبالغة في إقصاء العقل، والحرفية في التعامل مع النص، فجاء أبو الحسن الأشعري بمنهج فيه شيء من الوسطية بين المعتزلة أصحاب العقل، والحنابلة النصيين فأصبح له نفوذ وتأثير في الساحة السنية العقيدية، استطاع من خلالها أن يكون البديل عن أحمد بن حنبل، ويلقّب بإمام السنة.

يعرض عرفان عبد الحميد الأسباب التي أدّت إلى انحسار عقائد أحمد بن حنبل، فيقول: مع سلامة هذه العقيدة، وارتباطها بإمام أهل السنة ـ أحمد بن حنبل ـ فإنها لم تستمر طويلاً لأنها تتضمن الإحالة إلى المجهولات، لا تفهم مؤداها ولا غايتها. وهاجمها كثير من العلماء حتى عدّها ابن حزم الأندلسي مدخلاً لطريق ينتهي بالتشبيه.

ومن جهة أُخرى ظهور المدارس التوفيقية كمدرسة أبي الحسن الأشعري (ت:٣٢٤ هـ)، ومدرسة أبي منصور الماتريدي[١٣٠] السمرقندي (ت:٣٣١ هـ)، الذين أخذوا بالتأويلات المجازية، متبعين الاسلوب الذي بدأه المعتزلة من قبل[١٣١].

الظهور الثاني للسلفية الأولى:

أما الظهور الثاني للسلفية الأولى[١٣٢]، فكان على يد ابن تيمية الحراني (ت:٧٢٨ هـ) عند نهاية الخلافة العباسية، وعقيب سقوط بغداد عام ٦٥٦ هـ . إذ يحمّل ابن تيمية أهل البدع ـ على حد تعبيره ـ من جهمية وقدرية وباطنية، وصوفية وفلاسفة مسؤولية السقوط، ويشنّ عليهم حملة عنيفة، داعياً إلى إحياء عقيدة السلف ومنهجهم فيتبعه نفر كثير.

ويمكننا القول ان السلفية الأولى بلغت مع ابن تيمية أوج نضوجها، واكتمالها، وغاية مداها،، ومعه اتخذ المنهج السلفي صورته البينة التي أبانت عن قواعده، وقضاياه بصورة حاسمة، وحددت الطريق لكل الذين جاءوا من بعده، أما آراؤه في الإيمان والكفر والقتال فستجعلها الجماعات الإسلامية المعاصرة ـ من السلفية الجهادية ـ عمدة حراكها، وسنداً لفعلها المباشر[١٣٣].

فابن تيمية هو الذي أصّل الأصول وقعّد القواعد للسلفية، فهو بحق المنظر، والمشيد للبنيان القاعدي لأفكارها.

يصف عرفان عبد الحميد الحركة السلفية في زمن ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية[١٣٤] فيقول: «وقد قوى هذا التيار في القرن السابع للهجرة على يد الإمام تقي الدين ابن تيمية الحراني (ت: ٧٢٨ هـ) وتلميذه ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١ هـ) وصار يعرف بالعقيدة السلفية، وقد حاول كل من ابن تيمية، وابن قيم الجوزية دفع الشبه التي ألقيت عليه، وذلك بإيجاد أساس فكري، مبني على مبدأ عام، يقضي بان لا ضير من إثبات ظواهر الصفات الخبرية، وان ذلك لن يؤدي إلى التشبيه، ما دامت المماثلة منفية، وغير واردة بين الله الخالق والإنسان المخلوق»[١٣٥].

فالحركة السلفية انتشرت بقوة في زمن ابن تيمية الذي أعلن هذا المذهب في «جرأة وقوّة وزاد آراءه انتشاراً اضطهاده بسببها، فإنّ الاضطهاد يُذيع الآراء

وينشرها»[١٣٦] لكن هذه الصحوة السلفية لم تنجح فيما نجح فيه ابن حنبل، فلم تصبح مذهباً للدولة، وإنّما ظلت حركة، يلقى اعلامها السجن والعنت والاضطهاد[١٣٧].

وقد تميزت السلفية في عصر ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، باتساق المنهج ووحدة الأصول الاعتقادية والفكرية لأن ابن قيم الجوزية كان تلميذاً مخلصاً لشيخه ابن تيمية، ومن أكثر الناس التصاقاً به، يقول ابن حجر (ت: ٨٥٢ هـ): «غُلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له في جميع ذلك، وهو الذي هذّب كتبه، ونشر علمه، ... واعتقل مع ابن تيمية بالقلعة»[١٣٨].

المبحث الثالث

السلفية الوسيطة (الوهابية)

السلفية الوسيطة، هي السلفية التي تمثلها الوهابية، والتي تكونت في شبه الجزيرة العربية، في البيئة النجدية[١٣٩] البدوية[١٤٠]، وهي سلفية نصوصية صلبة[١٤١]، ارتبطت باسم مؤسسها محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ ـ ١٢٠٦ هـ)، والتي قامت على بناء العقيدة في ضوء احيائها لمدرسة أحمد بن تيمية الحراني (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ)، وتلميذه ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥٨ هـ)، وإضافتها عنصر مدرسة الحديث المرتبط باسم أحمد بن حنبل.

وما يميز السلفية الوسيطة عن السلفية الأولى، هو أنها أدمجت اتجاه أهل الحديث بشكل عضوي في مسائلها الاعتقادية، والعبادية، لكنها من ناحية رؤيتها الاعتقادية، لمفهوم التوحيد كانت تعيد إحياء المنظومة الفكرية لابن تيمية[١٤٢]، فلقد تابعت الوهابية[١٤٣] تقسيم ابن تيمية[١٤٤] للتوحيد ـ الربوبية، الالوهية، الأسماء والصفات ـ بشكل أكثر تشدداً، وحكمت على أغلب المسلمين بالكفر والخروج من

الملة، لممارستهم بعض العبادات، كالتوسل بالأنبياء والصالحين، والتشفع بهم عند الله، وزيارة القبور، يقول محمد بن عبد الوهاب: «إن الذين قاتلهم رسول الله ﷺ أصح عقولاً، وأخف شركاً من هؤلاء»[١٤٥]. ويعني بهم المسلمين باستثناء أتباعه!!

كما تدعي الوهابية: أنّ العبادة مبنية على أصل توحيد الالوهية، لا على توحيد الربوبية، وان المشركين كانوا يوحدون في الربوبية، ولكنهم يشركون في الالوهية[١٤٦].

وقد طبق الوهابية هذه المقولة على المسلمين، وقالوا: ان المسلمين كالمشركين في عصر الجاهلية، موحدين في الربوبية، مشركين في الالوهية[١٤٧]، وبذلك وضعوا قواعد للتكفير، وحددوها بعشرة، فمنها: الذبح لغير الله، والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والنذر لغير الله، والدعاء من غير الله...[١٤٨].

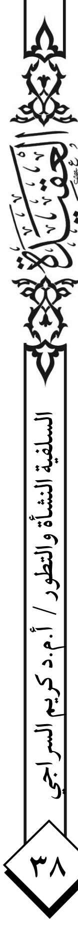
وإذا نظرنا في كتب محمد بن عبدالوهاب[١٤٩]، وبالخصوص كتابيه، التوحيد وكشف الشبهات نجدها مليئة بالعبارات الصريحة في تكفير المسلمين، وكذلك الاستشهادات والاقتباسات التي تؤكد مرجعيته الحنبلية التيمية المتشددة حتى انّ أحمد بن حنبل لم يرد عنه نهي في مسألة التوسل بالأولياء وزيارة الأضرحة، التي تعرض لها ابن تيمية[١٥٠] بالنقد والتخطئة، وصولاً إلى استخدام العنف وهدم الأضرحة في زمن الوهابيين[١٥١]، بحيث لم يبق في نجد والحجاز أي قبر من قبور الصحابة والأولياء، باستثناء قبر النبي ﷺ الذي يُعدّ في نظر الوهابيين صنم يعبد من دون الله، ولولا صيحات المسلمين في كل أنحاء العالم لهدم قبر الرسول ﷺ في ذلك الوقت[١٥٢].

يقول محمد أبو زهرة عن الوهابية وهدم الأضرحة: «إنها كانت كلما مكن لها من قرية أو مدينة أتت على الأضرحة هدماً وتخريباً حتى أطلق عليها بعض الكتّاب الأوربيين وصف هدامي المعابد»[١٥٣] ويضيف قائلاً: «لقد درس محمد بن عبدالوهاب مؤلفات ابن تيمية، فراقت في نظره، وتعمق فيها، وأخرجها من حيز النظر إلى حيز العمل»[١٥٤] خصوصاً تلك التي تتصل بالمجتمع والدولة، وركز على

فكرة ابن تيمية، التي تدعو إلى التعاون بين أهم فئتين في المجتمع وهما، الأمراء والعلماء، والتي تعرض لها ابن تيمية في كتابه الراعي والرعية، وقد ترجم محمد بن عبد الوهاب هذا التعاون بالاتفاق الذي تم بينه وبين الأمير محمد بن سعود حاكم الدرعية(١٥٥) في نجد عام (١٧٤٥م) ويُعدّ هذا حجر الزاوية في الحلف الوهابي السعودي الذي قامت على أساسه، ولا تزال المملكة العربية السعودية(١٥٦).

يقول عثمان بن بشر النجدي في كتابه المجد في تاريخ نجد، عن الاتفاق بين محمد بن عبد الوهاب، ومحمد بن سعود أمير نجد بما نصّه: «وصل الشيخ ابن عبد الوهاب الدرعية بعد خروجه من العيينة(١٥٧)، فالتقى ببعض رجالها، وقرر لهم التوحيد، واستقر في قلوبهم، فأرادوا أن يخبروا محمد بن سعود (أمير الدرعية) ويشيروا عليه بنصرته فهابوه، فأتوا إلى زوجته موضى، وكانت ذات عقل ومعرفة فأخبروها بمكان الشيخ، وصفة ما يأمر به، وينهي عنه، فوقر في قلبها معرفة التوحيد، وقذف الله في قلبها محبة الشيخ فلما دخل عليها زوجها محمد، أخبرته بمكانه، وقالت إن هذا الرجل، أتى إليك وهو غنيمة، ساقها الله لك، فأكرمه وعظّمه، واغتنم نصرته، عمل أمير الدرعية بما أشارت عليه زوجته، فتوجه إلى الشيخ ورحّب به وأكرمه، وأمنه على نفسه، وبشّره بالنصرة والدفاع، ثم أخبره الشيخ بما كان عليه الرسول ﷺ وما دعا إليه، وما عليه أصحابه من بعده، وما أمروا به، وما نهوا عنه، وان كل بدعة بعدهم ضلال، وما أعزهم الله به بالجهاد في سبيل الله وأغناهم به، ثم أخبره بما عليه أهل نجد اليوم من مخالفتهم بالشرك بالله تعالى، والبدع، والاختلاف والجور والظلم.

فلما تحقق محمد معرفة التوحيد وعلم ما فيه من المصالح الدينية والدنيوية، قال له: يا شيخ إن هذا دين الله ورسوله الذي لا شك فيه، وابشر بالنصرة لك، ولما أمرت به، والجهاد لمن خالف التوحيد، ولكن أريد أن اشترط عليك اثنين، نحن إذا قمنا في نصرتك والجهاد في سبيل الله، وفتح الله لنا ولك البلدان، أخاف أن ترحل عنا، وتستبدل بنا غيرنا.



والثانية: ان لي على الدرعية قانوناً أخذه منهم في وقت الثمار وأخاف أن تقول، لا تأخذ منهم شيئاً، فقال الشيخ: أما الأولى فابسط يدك الدم بالدم والهدم بالهدم، وأما الثانية، فلعل الله يفتح لك الفتوحات فيعوضك الله من الغنائم ماهو خير منها»(١٥٨).

الملاحظ على هذا الاتفاق على ما يراه الباحث: ان نصرة محمد بن سعود، وقبول دعوة محمد بن عبد الوهاب، لم تكن لوجه الله، بل لتوسعة السلطان والملك، والسبب في ذلك، ان دولة الخلافة الإسلامية المتمثلة بالدولة العثمانية كانت قائمة، ويتربص بها الأعداء من كل مكان، فكان الأولى لابن سعود أن ينصر دولة الخلافة على المشركين من الصليبيين المتمثلين آنذاك بالعدوان الإنكليزي والفرنسي، لا أن ينصر محمد بن عبد الوهاب على المسلمين، من أبناء جلدته ويُعمل فيهم السيف، والسلب والنهب.

ثم ان رد محمد بن عبد الوهاب على طلب ابن سعود، كان رداً مثيراً حيث قال: الدم بالدم والهدم بالهدم، وهو شعار خطير، يُرفع ويُعمل به مع المسلمين، وكان الأجدر به أن يرفعه بوجه الإنكليز والفرنسيين، ثم من أين لابن عبد الوهاب نبوءة فتح البلدان، والحصول على الغنائم!!

هذه الملاحظات وغيرها تؤيد الرأي القائل، ان مشروع ابن عبد الوهاب وابن سعود، كان مشروعاً بريطانياً(١٥٩)، أراد تفتيت وحدة المسلمين، وإشغالهم ببعضهم البعض، من باب فرق تسد، الشعار البريطاني المعروف، تمهيداً للسيطرة عليهم.

كان لاتفاق محمد بن عبد الوهاب، وابن سعود، أثر مهم في وضع الأساس لقيام الدولة السعودية(١٦٠) الوهابية في بلاد نجد والحجاز، وأخذت الدعوة الوهابية، تنتشر في بلاد نجد بشكل واسع وسريع يدعمها السيف والسلطان.

يقول محمد أبو زهرة: «لقد قاد الفكرة الوهابية في ميدان الحرب والصراع، محمد بن سعود جد الأسرة السعودية الحاكمة للأراضي العربية، وقد كان صهراً للشيخ محمد بن عبد الوهاب، واعتنق مذهبه وتحمس له وأخذ يدعو إلى الفكرة بقوّة

السيف، وأعلن أنه يفعل ذلك لإقامة السنة، وإماتة البدعة، ولعلّ هذه الدعوة الدينية التي أخذت طابع العنف كانت تحمل معها تمرداً على حكم العثمانيين، ومهما يكن من أمر فقد استمرت الدعوة مؤيدة بقوّة السلاح، فجرّدت الدولة العثمانية لها القوّة، ولكنها لم تنتصر عليها، ولم تقو على القضاء على قوتها، حتى تصدى والي مصر محمد علي لها، فانقضّ على الوهابية بجيشه، وهزمهم في عدّة معارك، وعندئذ انقبضت القوّة المسلحة واقتصرت على القبائل العربية، وكانت الرياض وما حولها مركزاً لهذه الدعوة المستمرة التي كانت تعنف ان وجدت قوّة، وتنقبض ان وجدت مقاومة عنيفة»(١٦١).

ان جنود محمد علي هم الذين هزموا الوهابيين في ١٨١١ م، واستعادوا مكة والمدينة، ودفعوا بهم نحو الحجاز، وفي عام ١٨١٨م انقضّ ابنه إبراهيم باشا على القوات الوهابية ـ السعودية، في عقر قاعدتهم في نجد، ودمّر عاصمتهم الدرعية، لقد أعيد تأسيس السيطرة العثمانية، حتى أنهم لم يتمكنوا من إعادة تأسيس أنفسهم كسلطة محلية إلا بعد مائة عام، عندما تحالفوا مع الإمبراطورية البريطانية، لاسترجاع نجد بإشعال الجهاد ضد مسلمي الخلافة(١٦٢).

لقد تقاسم آل الشيخ وآل سعود أمور الدولة السعودية الوهابية، منذ البداية، فما تعلق بالهوية والأحوال الشخصية والدينية تولاه آل الشيخ، وما تعلق بتسيير أُمور الجماعة العامة (الدولة) تولاه آل سعود، ومعلوم ان موقف السلفية الوسيطة (الوهابية) من السلطة السياسية هو امتداد طبيعي لموقف السلفية الأولى، الداعي إلى وجوب طاعة أولي الأمر في السراء والضراء، بمعنى ان السلفي لا يتجه في الأصل لإنقاذ نفسه عن طريق تولي السلطة، بل يسلّم به للقائم على الأمر، أو يكتفي هو بأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر بالحسنى، وبما لا يخل بالهيبة والسلطان(١٦٣).

ومع مرور الوقت تميّزت وهابيتان، الوهابية الرسمية التي تلعب دور وعّاظ السلاطين للحكام السعوديين، والوهابية المنشقة المنتمية للسلفية الجهادية(١٦٤).

لقد تعرّض الفكر الوهابي من قبل علماء المسلمين ـ السنة والشيعة ـ للردّ والمناقشة، والتفنيد والاستنكار، وكان على رأس قائمة الرادّين عليه، أخوه الشيخ سليمان بن عبد الوهاب (ت:١٢١٠هـ) في كتابه الصواعق الإلهية، حيث جاء فيه: «ان هذه الأمور ـ التي كفر بها الوهابيون المسلمين ـ حدثت من زمن الإمام أحمد بن حنبل، في زمان أئمة الإسلام، وأنكرها من أنكرها منهم، ولازالت حتى ملأت بلاد الإسلام كلّها، وفعلت هذه الأفاعيل كلّها التي تكفرون بها، ولم يروَ عن أحد من أئمة المسلمين أنهم كفروا بذلك، ولا قالوا هؤلاء مرتدون، ولا أمروا بجهادهم، ولا سموا بلاد المسلمين بلاد شرك وحرب كما قلتم أنتم، بل كفّرتم من لم يكفر بهذه الأفاعيل وإن لم يفعلها...»(١٦٥).

المبحث الرابع

السلفية المتأخرة (الجهادية)

تُعدّ السلفية الجهادية امتداداً طبيعياً للسلفية الأولى والوسيطة، ويُعد المودودي(١٦٦) (ت:١٩٧٩م)، وسيد قطب(١٦٧) (ت: ١٩٦٦م) الركيزة الأساسية لهذا الاتجاه الفكري(١٦٨).

فالمودودي أول من نظّر مسألة الحاكمية، التي من خلالها حكم على المجتمعات المسلمة بالجاهلية، معللاً ذلك بانّها لا تطبق الشريعة الإسلامية، وعلى الأنظمة بالكفر، لأنها تحكم على وفق القانون الوضعي(١٦٩)، وعلى هذا الأساس فهو «يربط بين مفهومي الوحدانية والاستخلاف ربطاً محكماً»(١٧٠) إذ يقول المودودي في هذا الصدد: «إنّ الدولة الإسلامية تقوم على أساس واحد، هو حاكمية الله الواحد الأحد، إنّ نظريتها الأساسية، تقوم على أنّ الأرض كلّها لله، وهو ربّها، والمتصرف في شؤونها، فالأمر والتشريع والحكم، كلّها مختصة بالله وحده، وليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو

شعب، ولا للنوع البشري كافة شيء، من سلطة الأمر والتشريع، فلا مجال في حظيرة الإسلام، ودائرة نفوذه إلا لدولة يقوم فيها المرء بوظيفة خليفة الله»(١٧١).

استعمال المودودي، ومن بعده سيد قطب مفهوم الجاهلية(١٧٢)، سلاحاً معرفياً لرفض كل نمط من أنماط الحياة غير الإسلامية، ومفهوم الحاكمية(١٧٣) لرفض كل حكم لا يستند على شريعة الله (عزّ وجلّ) ومنهاجه.

ففي مسألة الجاهلية يؤسّس المودودي لظاهرة خطيرة، وهي رمي المجتمع المسلم بصفة الجاهلية التي هي على النقيض من الإسلام، إذ يقول من كلام طويل له: فإن عشرتنا ومواكبنا كلّها مصطبغة بصبغة الجاهليتين القديمة، والجديدة متلونة بلونها، ثم يقول: وجملة القول: إنّ كلّ فرع من فروع حياتنا الاجتماعية يناقض الإسلام ويعارضه، وناهيك به حجة للناس، والعالم على أن أتباع الإسلام أنفسهم يؤثرون الجاهلية على الإسلام(١٧٤).

ويضيف المودودي في مسألة الحاكمية والخلافة، فيقول: «الحاكم الحقيقي في الإسلام، إنّما هو الله وحده، فإذا نظرت إلى هذه النظرية الأساسية، وبحثت عن موقف الذين يقومون بتنفيذ القانون الإلهي في الأرض تبين لك أنه لا يكون موقفهم إلا كموقف النواب عن الحاكم الحقيقي، فهذا هو موقف أولي الأمر في الإسلام بعينه»(١٧٥).

وفي موضع آخر يقرر المودودي ان الحاكمية قد أجاب عليها القرآن بشكل قطعي وواضح كل الوضوح، وهو ان الحاكمية بكل معنى من معانيها فهي لله تعالى وحده فانه هو الحاكم الحقيقي، في واقع الأمر، ولا يستحق أن يكون الحاكم الأصلي إلا هو وحده(١٧٦).

أمّا سيد قطب فقد تأثر كثيراً بآراء المودودي، وأعطى لمفاهيمه بعداً حركياً، وذهب بها إلى المدى الأقصى(١٧٧). وقد نقل سيد قطب كثيراً من آراء المودودي،

وأودعها تفسيره في ظلال القرآن وكتابه معالم في الطريق، «الذي وصف بأنه زنزانة فكرية مغلقة، فهو بيئة العذابات التي شُكلت في السجون»[١٧٨].

وقد اشتمل كتابه الموسوم بـ(معالم في الطريق) على رؤية نوعية للمجتمع، وللعلاقات القائمة في إطاره، وهو يُعدُّ دليل ومشروع عمل للجماعات الجهادية، ومحور رؤية سيد قطب تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله في الأرض، وعلى أخصّ خصائص الالوهية، وهي الحاكمية[١٧٩].

فالمجتمع والنظام ـ على وفق هذا المنظور ـ الذي لا يتخذ من التشريع والقانون الإلهي حكماً ومنهجاً، فهو مجتمع جاهلي ونظام كافر، ومفهوما الجاهلية، والحاكمية، ولدا على يد أبي الأعلى المودودي، وأشاع استخدامهما سيد قطب، ومن ثم تعاقب منظّرو السلفية الجهادية على توسعتهما، وصولاً إلى مفهومي الولاء والبراءة[١٨٠] عند تنظيم القاعدة[١٨١].

ومفهوم الجاهلية هو توصيف للواقع الاجتماعي والسياسي المعاش، إذا كان لايستقيم ومفاهيم السلفية الجهادية، تجاه المجتمع والدولة، وغدا اطلاقه، على هذا الواقع، لا بوصفه توصيفاً سلبياً فحسب بل تم إدخاله في المنظومة العقدية والفقهية بوصفه حكماً شرعياً يُرمى به الأفراد والجماعات والمجتمعات[١٨٢]، يقول سيد قطب في هذا الوصف: «ان العالم يعيش اليوم في جاهلية، من ناحية الأصل الذي تنبثق منه مقومات الحياة، وأنظمتها جاهلية، لا تخفف منها شيئاً هذه التيسيرات المادية الهائلة، وهذا الابداع المادي الفائق هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله في أرضه، وعلى أخص خصائص الالوهية، وهي الحاكمية، إنها تسند الحاكمية إلى البشر، فتجعل بعضهم لبعض أرباباً، لا في الصورة البدائية الساذجة التي عرفتها الجاهلية الأولى، ولكن في صورة ادعاء حق وضع التصورات والقيم، والشرائع والقوانين، والأنظمة والأوضاع بمعزل عن منهج الله للحياة، وفيما لم يأذن به الله»[١٨٣].

وفي ضوء ما تقدم يعتقد الباحث ان سيد قطب لم يفرق بين مجتمع الجاهلية الأولى الوثنية المشركة في عبادة الله تعالى، والمتخذة لنفسها منهجاً لا يقوم على شرعية الله، وبين المجتمعات المسلمة التي اعتمدت في قوانينها ودستورها على القانون الوضعي، فالمجتمعات المسلمة، على الرغم من اعتقادها بالإله الواحد وإيمانها بالإسلام ديناً، إلا أنها في نظر سيد قطب، تعدُّ مجتمعات جاهلية كافرة، كالجاهلية الأولى، لأنها نازعت الله في سلطانه، وعلى أخص خصائص الالوهية، وهي الركون والاستناد إلى حاكمية البشر دون حاكمية الله تعالى وتشريعه.

فسيد قطب يُعدّ رائد التحول الكبير في الحراك الإسلامي المعاصر، عندما تحول في مطلع الستينات عن النهج الإخواني[١٨٤] الداعي إلى التغيير السلمي، والتدرج، واضعاً كتابه (معالم في الطريق) الذي أصبح برنامج عمل لكثير من الجماعات السلفية المعاصرة، كما أسس سيد قطب في معالمه لفكر الثورة ونهج الخروج على الحكام وأولي الأمر[١٨٥]، مخالفاً بذلك ما عليه السلفية الأولى والوسيطة، في موقفها الداعي إلى عدم الخروج على الحكام، وان كانوا ظلمة، ما لم يظهر منهم كفر بواح[١٨٦].

فحكم سيد قطب من خلال كتابه معالم في الطريق بكفر الأمة، بدون تردد، شاملاً الحاضر وأربعة عشر قرناً من الماضي، ولم يستثنِ إلا الخلافة الراشدة، إذ قال: «ليس على وجه الأرض مجتمع قرّر فعلاً تمكين شريعة الله وحدها، ورفض كل شريعة سواها»[١٨٧]، فالأمة الإسلامية ـ كما يرى سيد قطب ـ «قد انقطع وجودها منذ قرون كثيرة»[١٨٨].

ثم يقرر بشكل صريح: «إن الناس ليسوا مسلمين ـ كما يدعون ـ وهم يحيون حياة الجاهلية»[١٨٩].

وفي موضع آخر من كتابه معالم في الطريق يقول: «ينبغي أن يكون مفهوماً لأصحاب الدعوة الإسلامية أنهم حين يدعون الناس لإعادة انشاء هذا الدين يجب أن

يدعوهم أولاً إلى اعتناق العقيدة حتى لو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين، وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون؛ يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو أولاً، إقرار عقيدة لا إله إلا الله، بمدلولها الحقيقي، وهو رد الحاكمية لله في أمرهم كلّه... فإذا دخل في هذا الدين ـ بمفهومه الأصيل ـ عصبة من الناس، فهذه العصبة هي التي يطلق عليها اسم المجتمع المسلم»[١٩٠].

وفي هذه النصوص دلالة واضحة وجلية على أن سيد قطب يحكم على الأمة المسلمة، بالكفر العقيدي، المخرج من الملة، ويقدم تعريفاً جديداً للمسلم ـ ما أنزل الله به من سلطان ـ فالمسلم الذي تشهد له شهادة الميلاد يجب عليه أن يتشهد الشهادة من جديد، بمدلولها الحقيقي، الذي هو رد الحاكمية لله في أموره كلّها، وهذا لم يقل به أحد من علماء المسلمين! ثم انه يؤسس للجماعة والعصبة الجديدة البديلة عن المجتمع المسلم، والمتحيزة والخارجة عنه، وبذلك أسس للقطيعة والعنف والتكفير في داخل المجتمع المسلم.

هذه الجماعة والعصبة الجديدة، التي بدأت شيئاً فشيئاً تنسلخ عن المجتمع ـ وفق البرنامج القطبي ـ وتبني حولها أسواراً عالية عازلة بينها وبين المجتمع المسلم الذي تعيش فيه، وبدأت تذوب كل المشتركات بينها من مشاعر وأحاسيس واخوة، وتحلّ محلّها مفاهيم جديدة أُخرى على وفق المنظومة الجديدة لهذه الجماعات التي شكلت النظام الداخلي لها.

كما أعتقد ان موقف سيد قطب الأخير يُعد تكثيفاً متطرفاً لاتجاه موجود في ضمن الدائرة الإسلامية (المحيط الإسلامي) إذ كانت الرهانات الدينية القائمة على التغولق والانكفاء المشحونة بقدسية النصوص التي لم تنفك ابداً عن توجهات السلف وخطاباتهم تتجاوز الحد المعقول لكي تلبي الحاجيات العقدية والنفسية والاجتماعية والايديلوجية طبقاً لقواعد الخلفاء وجيل الصحابة الذين يعدّونهم القادة الروحيين لتأصيل هذا التراث المعبر عن ذاتية التفكير السلفي واتجاهاته.

يقول أحد الباحثين: ان النواة التنظيمية للسلفية الجهادية، قد تشكلت من رحم حركة الإخوان المسلمين، خصوصاً بعد حالة العداء التي حصلت بين الإخوان وحكومة عبدالناصر، وبالتحديد بعد محاولة اغتيال عبد الناصر سنة ١٩٥٤م(١٩١)، والتي اتَّهم بها الإخوان المسلمين، فزجَ الإخوان على أثر ذلك بالسجون والمعتقلات، والتعذيب، في هذه الأجواء بدأ فكر سيد قطب يتحرك عند هذه الجماعات، خصوصاً بعد تأليفه كتاب معالم في الطريق، «الذي بات نوعاً من البيان، وأشبه بدليل «ما العمل»؟ للتيار الإسلامي المتشدد»(١٩٢).

وفي هذه الأثناء بدأ شباب الجماعة بالتعرف على فكر المودودي، من خلال ترجمة أعماله إلى العربية، ومن كل ذلك ولدت مدرسة الغلو والتطرف في مصر، وتأسست جماعة الجهاد، التي اعتمدت فكر المودودي وسيد قطب.

وقد كشفت الثمانينات في مصر، والتسعينات في أفغانستان أن جماعة الجهاد المصرية تقود تحولات كبرى في الحركة الإسلامية في مصر، والعالم العربي والإسلامي(١٩٣)، والتي اشتركت مع ابن لادن ـ مؤخراً ـ من خلال الظواهري في تشكيل تنظيم القاعدة عام ١٩٨٦(١٩٤).

«في الثمانينات من القرن العشرين، ظهر الاتجاه السلفي الجهادي بشكل قوي، إثر اجتياح الجيش السوفيتي لأفغانستان، ومع توجه أمريكا للاستعانة بالإسلام في مواجهة الشيوعية الزاحفة آنذاك نحو المياه الدافئة، ونفط الخليج، هذا الاتجاه الذي تعضد بالمجاهدين العرب»(١٩٥)، من الأقطار العربية كافة، وبالخصوص مصر، وكان هذا التوجه يتماشى مع «رغبة الأجهزة الأمنية العربية في التخلص من هؤلاء الشباب، الذين بدأوا يثيرون صراعاً لا ينتهي بالنسبة لهم عبرَ اللقاءات والندوات في المساجد، والمواجهات الدامية العنيفة مع الاجهزة الأمنية، في كثير من الدول العربية والإسلامية، وكان من وجهة نظرهم ـ الجهات الأمنية ـ أن السفر إلى أفغانستان يعد

الطريقة المثلى للتخلص منهم بدون مشاكل، بالنظر إلى أنه سيتم القضاء عليهم، حيث لا قبل لهم بمواجهة جيوش نظامية تملك كل أنواع الأسلحة الفتاكة»(١٩٦).

يبدو للباحث ان السلفية الجهادية بدأت مع حرب أفغانستان وإن لم يكن اسمها ذلك ساعتها، ولكن نواياها بدأت في ذلك الوقت على يد المجاهدين العرب، وقد مرّت بمراحل كثيرة، قبل أن تتطور وتصل إلى شكلها الحالي وكانت أولى بداياتها على يد الشيخ عبد الله(١٩٧) عزّام (ت: ١٩٨٩م) المبشر بالجهاد، وقد دعا إلى الجهاد وعظّمه في مجموعة من المقالات، والمؤتمرات عبر العالم، وفي معسكرات التدريب الباكستانية، وكان في أفغانستان يقوم باستقبال شبان الجهاد، وتنظيم صفوف المقاتلين(١٩٨). وهو مؤسس أول كتيبة للمجاهدين العرب في أفغانستان، وكان رئيس مكتب المجاهدين العرب في بيشاور(١٩٩).

كان عبد الله عزام، يرى ان العدو البعيد قبل القريب، وهذه المقولة كانت محور الخلاف بينه وبين الظواهري، الذي كان يرى ان الأولى بالازالة هي الأنظمة العربية، بالطريقة العسكرية، ثم إقامة الدولة الإسلامية، ثم التفرغ للعدو البعيد، فعبد الله عزّام كان يرفض مطلقاً العمليات العسكرية في الدول الإسلامية، بينما الجماعات الأُخرى وعلى رأسهم الظواهري، يستحلون دماء المسلمين بدون تحرّج، طالما انها ستؤدي في النهاية إلى قيام الدولة الإسلامية على حد زعمهم(٢٠٠).

بعد مقتل عبد الله عزّام، أصبحت الشخصية الأولى في الإشراف على معسكرات المجاهدين في بيشاور، هي شخصية ابن لادن، الذي أصبح زعيم تنظيم القاعدة، «الذي يلقبونه بأبي التنظيمات»(٢٠١).

وقد حظي أسامة بن لادن، بشهرة دولية واسعة، وثقة الأوساط الأفغانية نتيجة جهوده الكبيرة في تنظيم وتجميع المجاهدين العرب في أفغانستان، والاسهام بفعالية في الانتصارات الأفغانية على القوات السوفيتية الغازية(٢٠٢).

الصعود الثاني لابن لادن، كان في منتصف التسعينات من القرن العشرين، عندما انتهى الجهاد في أفغانستان، وبدأ يتفرغ لتنفيذ عدد من عمليات الإرهاب والعنف، وكان يدعو إلى انعاش العمل الجهادي، وإخراج القوات الأمريكية من دول الخليج.

وعلى إثر ذلك جاءت الضربات الموجعة التي وجهت إلى البعثة العسكرية الأمريكية في الرياض، وكذلك موقع القوات الأمريكية في الخبر والذي أسفر عن عشرات القتلى ومئات من الجرحى بالإضافة إلى حادثي انفجار السفارة الأمريكية في نيروبي ودار السلام الذي كان بمثابة إعلان قوي عن تواجد أسامة بن لادن القوي في كل موقع له علاقة بالمصالح الأمريكية(٢٠٣).

أخيراً توجت هذه الأعمال بالإعلان الصريح عن قيام الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والنصارى عام ١٩٩٨م، التي تشارك جماعة الجهاد المصرية فيها بزعامة أيمن الظواهري، وجماعتان من باكستان، وأُخرى من بنجلادش والفلبين بهدف تدمير المصالح الأمريكية(٢٠٤).

بعد أحداث الحادي عشر من أيلول، ومباركة ابن لادن لها واعلان تنظيمه المسؤولية عنها... وما تبعها من غزو أمريكي لأفغانستان، والعراق، بدأ الفكر السلفي الجهادي بالانتشار إلى حد كبير، وصارت له أعداد كثيرة من المؤيدين في الدول العربية والإسلامية، وعلى مواقع الانترنت(٢٠٥).

ويرتكز تنظيم القاعدة على عقيدة الولاء والبراءة، ويستقي قوته من عدّة عوامل أهمها، جاذبية الطرح وبساطته، وروح التدين التي تسود المجتمعات الإسلامية، وخبرة الإخوان المسلمين في التنظيم والعمل السياسي، وتفرده في ساحة المواجهة مع الغرب(٢٠٦).

* هوامش البحث *

(١) البوطي/ السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي.

(٢) البخاري/ صحيح البخاري ٣/ ١٥١ كتاب الشهادات، الترمذي/ سنن الترمذي ٣/ ٣٣٩+/ ٢٣٢٠.

(٣) الرأي: هو اعتقاد النفس أحد النقيضين عن غلبة الظن، الراغب/ مفردات غريب القرآن/ ٢٠٩.

(٤) القياس: هو التسوية في الحكم بين أصل منصوص عليه وفرع لم ينصّ عليه لمشابهة بينهما. مصطفى جمال الدين/ القياس حقيقته وحجيته/ ٥٣ ـ ٥٤.

(٥) أبو حاتم الرازي/ الزينة في الكلمات الإسلامية العربية/ ٢٦٧ القسم الثالث.

(٦) جماعة ظهروا في البصرة وكانوا من أهل النظر والكلام والجدل يمثلون الخط العقلي في الفكر الإسلامي، ظهروا حينما انشق واصل بن عطاء (ت: ١٣١ هـ) عن مجلس الحسن البصري (ت: ١١٠ هـ). ظ: الشهرستاني الملل والنحل ١/ ٣٨، د. أحمد محمود صبحي/ في علم الكلام ١/ ١٠٣.

(٧) نسبة إلى جهم بن صفوان، ويكنّى أبا محرز، فقد نشأ في سمرقند بخراسان وينسب إليه القول بالجبر ونفي الصفات ونفي التشبيه. ظ: علي سامي النشار/ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام/ ٣٣٣ـ٣٤٢.

(٨) الصابوني، أبو عثمان إسماعيل/ عقيدة السلف وأصحاب الحديث/ ١٠٦.

(٩) الجابري/ الفكر السلفي عند الشيعة الإمامية/ ٤٣.

(١٠) الشهرستاني/ الملل والنحل ١/ ٧٩.

(١١) وهي الأحاديث ذات الأصل اليهودي. ظ: الدكتور علي سامي النشار/ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ١/ ٧٠.

(١٢) اختلفوا في اسم أبي هريرة واسم أبيه اختلافاً كبيراً لا يحاط به ولا يضبط في الجاهلية والإسلام وقد غلبت عليه كنيته فهو كمن لا اسم له غيرها، وأصله من عشيرة سليم بن فهم من قبيلة أزد ثم من دوس اسلم بعد الثلاثين من عمره في سنة ٧ من الهجرة، ولفقره اتخذ سبيله إلى الصفة وهو موضع في مؤخر مسجد النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ اعد للفقراء الذين لا منازل لهم ولا عشائر. ظ: ابن حجر العسقلاني/ الإصابة ٤/ ٢٠٠، ابن عبد البر/ الاستيعاب ٤/ ٢٠٠، محمود أبو ريّة/ أضواء على السنة المحمدية/ ٢٠٢ ـ ٢٠٤.

(١٣) النشار/ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ١/ ٢٥٨.

(١٤) الشهيد الثاني/ حقائق الإيمان/ ٥٩.

(١٥) التهانوي/ موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ١/ ٦٧٨.

(١٦) سبحاني/ الملل والنحل ١/ ١٢٤.

(١٧) الصفدي/ الغيث المنسجم ٢/ ٥٥.

(١٨) الجابري/ الفكر السلفي عند الشيعة الاثنا عشرية/ ٧٩.

(١٩) أبو زهرة/ تاريخ المذاهب الإسلامية/ ٢٥٩.

(٢٠) هو عبد الرحمن بن عمر الأوزاعي إمام أهل الشام روى عنه سفيان الثوري وأخذ عنه كثيرون وكانت ولادته ببعلبك سنة ٨٨ هـ وقيل سنة ٩٣ وتوفي في سنة ١٥٧ هـ.
ظ: ابن خلكان/ وفيات الأعيان ٣/ ١٢٧ رقم ٣٦١ ، بطرس البستاني/ دائرة المعارف ٤/ ٦٤٣.

(٢١) هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق، مات في البصرة، متوارياً عن الخليفة العباسي سنة ١٦١ هـ. ظ: الذهبي/ سير أعلام النبلاء ٦/ ١٣٠/ رقم ١٢١٨.

(٢٢) صاحب المذهب المالكي وكتاب الموطا وهو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر.
ظ: الذهبي / سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٠٣/ رقم ١٣١٥.

(٢٣) الصابوني/ عقيدة السلف/ ١١٠، البغوي/ تفسير البغوي ٢/ ١٦٥، السيوطي/ الدر المنثور ٣/ ١٧٠، ابن تيمية/ نقض المنطق/ ١٦

(٢٤) هو أبو عبدالله أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد، عربي النسب إذ ينتهي إلى قبيلة شيبان، كانت أسرته في خراسان، ثم انتقلت إلى بغداد، حيث ولد أحمد بن حنبل فيها سنة ١٦٤هـ، وكان جده والياً عند الأمويين أواخر أيامهم ثم اتصل بالعباسين وعمل معهم وقد وجه أحمد منذ صباه إلى دراسة القرآن والسنة، وبالخصوص الحديث حيث أنه اختص فيه حفظاً ورواية وجمعاً، ابتدأ رحلاته في طلب الحديث سنة ١٨٦هـ إذ رحل إلى البصرة ثم الحجاز والكوفة واليمن، صنّف كتابه المسند، وجمع فيه الأحاديث الكثيرة، وكان أحمد بن حنبل من أصحاب الشافعي وخواصه، وكان له ولدان، صالح وعبد الله، عاصر من الخلفاء العباسين المأمون والواثق والمعتصم والمتوكل. توفي في بغداد ودفن فيها.
ظ: أبو يعلى/ طبقات الحنابلة ١/ ٨ رقم١، ابن خلكان/ وفيات الأعيان ١/ ٦٣ رقم٢٠، الذهبي/ العبر في خبر من عبر ١/ ٢١٥، ابن العماد الحنبلي/ شذرات الذهب ٢/ ٩٦، محمد أبو زهرة/ تاريخ المذاهب الإسلامية/ ٤٨٤.

(٢٥) سبحاني/ الملل والنحل/ ٣٠٩.

(٢٦) أي بعد هلاك الواثق العباسي ومجيء المتوكل، والمحنة هي ما صنعه المأمون العباسي في امتحان الناس وإجبارهم على القول بخلق القرآن، وذلك في سنة ثمان عشرة ومائتين. ظ: تاريخ الطبري ٧/ ٥١٨ ـ ٥١٩، د. أحمد محمود صبحي/ في علم الكلام ١/ ١٣٣.

(٢٧) سبحاني/ الملل والنحل ٣/ ٣١٠ (بتصرف).

(٢٨) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن علي بن عبد الله، وتعرف اسرته بأسرة ابن تيمية، ويعرف ابن تيمية بالحراني والدمشقي ـ والنسب إلى بلد دون القبيلة تومي إلى أنه ليس بعربي ـ كان مولده سنة ٦٦١ هـ في حران من بيت حمل لواء المذهب الحنبلي، وتعاقب فيه رجاله على زعامة المذهب، وتوارثوا البيان والبنان فتصدروا الخطابة وأكثروا التأليف. انتقل مع أبيه إلى دمشق واشتهر فيها، تعرض للاعتقال والسجن بسبب خروجه على إجماع المسلمين بآرائه وأفكاره حتى مات مسجوناً في قلعة دمشق سنة ٧٢٨ هـ ، له مصنّفات كثيرة. ظ: الذهبي: العبر في خبر من عبر ٢/ ٤٠٥، ابن العماد الحنبلي/ شذرات الذهب ٦/ ٨٠، الزركلي/ الأعلام ١/ ١٤٤.

(٢٩) ولد في قرية العيينة بنجد وفيها أخذ دروسه الأولى، ثم انتقل إلى المدينة المنوّرة، وأقام مدة في البصرة وبغداد ثم عاد إلى العيينة ليخرج منها بدعوته الجديدة، متأثراً بأفكار ابن تيمية وابن قيم الجوزية التابعين لمذهب أحمد بن حنبل، وقد صادفت دعوته نجاحاً كبيراً بعد أن أخذ بها أمير الدرعية في نجد محمد بن سعود وبعد هذا الاتفاق أخذت دعوته بالانتشار في شبه الجزيرة العربية ووصل نشاط الوهابيين إلى أطراف بلاد الشام والعراق فطلب السلطان العثماني إلى محمد علي باشا والي مصر قتالهم فبعث بحملات عدّة إلى الجزيرة تمكنت من الحاق الهزيمة بهم وتقليص نفوذهم وحصره في نجد.

لكن الوهابيين عادوا في عام ١٨٤١م بعد انسحاب الجيوش المصرية إلى نشاطهم فتمكنوا بقيادة آل سعود من السيطرة على الجزيرة العربية وبعث الدولة السعودية وقد انتشرت أفكار ابن عبد الوهاب وتأثر بها سلطان مراكش سيدي محمد بن عبد الله (ت: ١٧٩٠م) وفي الهند سيد أحمد وفي الشمال الأفريقي محمد بن علي السنوسي وفي السودان وغيره. وله تصانيف منها كتاب التوحيد وكتاب الكبائر وكشف الشبهات... ظ: الزركلي/ الأعلام ٦/ ٢٥٧، فهمي جدعان/ أسس التقدم العلمي/ ٥٦٩ .

(٣٠) أبو زهرة/ تاريخ المذاهب الإسلامية/ ١٨٧.

(٣١) محمد بن يزيد القزويني/ سنن ابن ماجة ١/ ١٢٥ ح٢٠٣.

(٣٢) ابن منظور/ لسان العرب ٧/ ٢٨٠.

(٣٣) العسكري/ المصطلحات الإسلامية/ ٢٢٣.

(٣٤) عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم القرشي الأموي ملك تسعة وعشرين شهراً مات وهو ابن تسع وثلاثين سنة. ظ: البخاري/ التاريخ الكبير ٦/ ٣٢/ رقم ٢٠٧٩، الأصبهاني/ حلية الأولياء ٥/ ٢٨٨/ رقم ٣٢٣.

(٣٥) الأصبهاني/ حلية الأولياء ٥/ ٣٨٠ ح ٧٤٧٧.

(٣٦) حسن الحكيم/ مذاهب الإسلاميين/ ٤٣.

(٣٧) سبحاني/ الملل والنحل ١/ ٣١٠.

(٣٨) حسن إبراهيم حسن/ تاريخ الإسلام ٢/ ١٣٤.

(٣٩) أحمد بن يحيى بن المرتضى/ المنية والأمل في شرح الملل والنحل/ ١٠٦.

(٤٠) مصطلح سياسي أطلق على الشيعة من قبل أعدائهم. وفي الأصل (اللغة): جنود تركوا قائدهم وانصرفوا، فكل طائفة منهم رافضة والنسبة إليهم رافضي. ظ: ابن منظور/ لسان العرب ٦/ ١٩١ مادة (رفض).

(٤١) ابن تيمية/ منهاج السنة ١/ ٢٩١.

(٤٢) ابن حبان/ الصحيح ١٦ / ٢٣٧.

(٤٣) السيوطي/ تاريخ الخلفاء/ ١٥٣.

(٤٤) حجر بن عدي الكندي يكنى أبا عبد الرحمن كان قد وفد إلى النبي صلى الله عليه وآله وشهد القادسية وشهد الجمل وصفّين مع علي عليه السلام، قتله معاوية بن أبي سفيان بمرج عذراء سنة ثلاث وخمسين. ظ: الحاكم النيسابوري/ المستدرك ٣/ ٥٣١ ـ ٥٣٢ ح ٥٩٧٤.

(٤٥) ان رجلاً جاء إلى سهل بن سعد فقال: هذا فلان أمير المدينة يذكر علياً عليه السلام عند المنبر، قال فيقول ماذا؟ قال يقول له أبو تراب، فضحك وقال: ما سماه به إلا النبي صلى الله عليه وآله وما كان له اسم أحب إليه منه، فاستعظمت الحديث وقلت يا أباعباس كيف كان ذلك؟ قال دخل علي عليه السلام على فاطمة عليها السلام ثم خرج فاضطجع في المسجد فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله على ابنته فاطمة عليها السلام وقبّل رأسها ونحرها وقال لها: أين ابن عمك؟ قالت: في المسجد فخرج النبي صلى الله عليه وآله فوجد رداءه قد سقط عن ظهره وخلط التراب إلى ظهره فجعل يمسح التراب عن ظهره ويقول قم أبا تراب مرّتين.

ظ: صحيح مسلم/ ٩٤٢ ح٢٤٠٩ (باب فضائل علي عليه السلام) ظ: ابن طاووس/ الطرائف ١/ ١١٨.

(٤٦) زرى عليه عمله إذا عابه وعنّفه. ظ: ابن منظور / لسان العرب ٧/ ٣٠.

(٤٧) اليعقوبي/ تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٦٠ ـ ١٦١، المسعودي/ مروج الذهب ٣/ ١٢ ـ ١٣.



(٤٨) المالكي/ قراءة في كتب العقائد المذهب الحنبلي انموذجاً ٧٥ ـ ٧٦.

(٤٩) نسبة إلى الخليفة عثمان بن عفان.

(٥٠) المالكي/ قراءة في كتب العقائد/ ٧٦.

(٥١) المالكي/ قراءة في كتب العقائد/ ٧٦.

(٥٢) أبو زهرة/ تاريخ المذاهب الإسلامية/ ١٨٧.

(٥٣) السبحاني/ المذاهب الإسلامية الملل والنحل/ ٣٣.

(٥٤) التهانوي/ كشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ٣٨٥.

(٥٥) ابن داود/ السنن ٤/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣/ ٤٦١٢.

(٥٦) الحسن البصري الإمام الفصيح المشهور كان من سادات التابعين وكبرائهم وجمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة، أبو يسار كان مولى زيد بن ثابت الأنصاري وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوجة النبي صلى الله عليه وآله ولد بالمدينة لسنتين بقينا من خلافة عمر وتوفي بالبصرة في رجب سنة ١١٠ هـ. ظ: البخاري/ التاريخ الكبير ٢/ ٢٧٢ رقم ٢٥٠٣، الذهبي/ سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٤٢ رقم ٧٢٠٦، بطرس البستاني/ دائرة المعارف ٧/ ٤٤.

(٥٧) ابن المرتضى/ المنية والأمل في شرح الملل والنحل/ ١٣٤.

(٥٨) أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي/ تلبيس إبليس/ ٩.

(٥٩) الصابوني/ عقيدة السلف/ ١١٩.

(٦٠) أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي/ مناقب الإمام أحمد بن حنبل/ ١٥٦.

(٦١) المصدر السابق/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩.

(٦٢) ابن قيم الجوزية/ أعلام الموقعين ٢/ ١٣٩.

(٦٣) أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي/ مناقب أحمد بن حنبل/ ١٦٥.

(٦٤) أبو الحسن الأشعري علي بن إسماعيل بن أبي بشر المتكلم البصري صاحب التصانيف وله بضع وستون سنة أخذ علم الجدل والنظر عن أبي علي الجبائي المعتزلي وكان متكلماً على طريقة المتعتزلة ثم خرج عليهم، وتنسب فرقة الأشاعرة الكلامية إليه. ظ: ابن العماد الحنبلي/ شذرات الذهب ٢/ ٣٠٣، بشير محمد عيون/ مقدمة الإبانة عن أصول الدين للأشعري/ ٨.

(٦٥) أبو الحسن الأشعري/ الإبانة/ ٤٣.

(٦٦) ابن القيم الجوزية/ اعلام الموقعين ٢/ ١٣٩.

(٦٧) البربهاري هو أبو محمد الحسن بن علي بن خلف شيخ الحنابلة في وقته الفقيه الداعية إلى الأثر توفي مستتراً من الحاكم في رجب سنة ثمان وعشرين وثلاث مائة. ظ: الذهبي/ سير أعلام

النبلاء ١٠/ ٥٠ الرقم ٣٠٣٧.

(٦٨) الذهبي/ سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٠ الرقم ٣٠٣٧.

(٦٩) ابن بطة هو أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان بن بطة العكبري الفقيه الحنبلي توفي في المحرم وله ثلاث وثمانون سنة كان صاحب حديث ولكنه ضعيف من قبل حفظه ومن مصنفاته كتاب الإبانة في أصول الدين. ظ: الذهبي/ سير أعلام النبلاء ١٠/ ٦٥٨ رقم ٣٧٣٩، ابن عماد الحنبلي/ شذرات الذهب ٣/ ١٢٢ (حوادث سنة ٣٨٧ هـ).

(٧٠) أبو الحسن بن بشار هو علي بن محمد بن بشار البغدادي الزاهد شيخ الحنابلة أخذ عن صالح بن أحمد بن حنبل توفي سنة ٣١٣ هـ ، ظ: أبو يعلى / طبقات الحنابلة ٣/ ١١١ رقم ٥٩٩، البغدادي/ تاريخ بغداد ٢٢/ ٦٧، الذهبي/ تاريخ الإسلام ٢٣/ ٤٥٨، ابن عماد الحنبلي/ شذرات الذهب ٢/ ٢٦٧.

(٧١) أبو يعلى/ طبقات الحنابلة ٣/ ١١١ رقم ٥٩٩، البغدادي/ تاريخ بغداد ٢٢/ ٦٧، الذهبي/ تاريخ الإسلام ٢٣/ ٤٥٨.

(٧٢) إسماعيل الصابوني هو أبو عثمان شيخ الإسلام إسماعيل بن عبد الرحمن النيسابوري الشافعي الواعظ المفسّر المصنّف أحد الأعلام. ظ: الأسنوي/ طبقات الشافعية ٢/ ٤٣ رقم ٧٣٤، ابن العماد الحنبلي/ شذرات الذهب ٣/ ٢٨٢.

(٧٣) الصابوني/ عقيدة السلف وأصحاب الحديث/ ١٠٦.

(٧٤) وهو شعبة بن الحجاج المكنى بأبي بسطام (ت: ١٠٦ هـ).

(٧٥) الصابوني/ عقيدة السلف وأصحاب الحديث/ ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٧٦) قال صلى الله عليه وآله: (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته). صحيح البخاري ٣/ ١٥١ كتاب الشهادات.

(٧٧) ابن تيمية/ مجموع الفتاوى ٤/ ٨٤.

(٧٨) سيرد التعريف بها ضمن مبحث خاص في هذا الفصل.

(٧٩) ابن تيمية/ اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٨٠) الأميني/ كشف الارتياب في اتباع محمد بن عبد الوهاب/ ٢٨٦.

(٨١) البوطي/ السلفية/ ٢٤٠.

(٨٢) الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف/ ٣٩.

(٨٣) القرن: الأمة تأتي بعد الأمة، وقيل: مدته عشر سنين، وقيل عشرون سنة، وقيل: ثلاثون، وقيل: ستون، وقيل: سبعون، وقيل: ثمانون وهو مقدار التوسط في أعمار أهل الزمان، وفي

النهاية: أهل كل زمان، مأخوذ من الاقتران فكأنه المقدار الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم. ظ: ابن منظور/ لسان العرب ١٢ / ٨٧ (مادة قرن).

(٨٤) ظ: البخاري/ صحيح البخاري ٣/ ١٥١ كتاب الشهادات.

(٨٥) ظ: مسلم / صحيح مسلم/ ٩٨٣ رقم الحديث ٢٥٣٣ (باب فضائل الصحابة ثم الذين يلونهم...).

(٨٦) ظ: أحمد بن حنبل / المسند ٤/ ٢٦٧ حديث حنظلة الكاتب الأسدي.

(٨٧) ظ: خبر الآحاد: هو الذي لا تتوفر فيه مواصفات الحديث المتواتر، سواء كثرة رواته أم قلتهم، وليس شأنه افادة العلم بنفسه، نعم قد يفيده بانضمام القرآن إليه، وقد اختلفوا في حجية خبر الواحد، فالشريف المرتضى كان لا يعمل بأخبار الآحاد وتابعه عدد من الفقهاء والمحدّثين وقد ادعى على ذلك اجماع الإمامية بقوله: (ان أصحابنا كلهم سلفهم وخلفهم ومتقدمهم ومتأخرهم يمنعون من العمل بأخبار الآحاد)، أما الشيخ الطوسي (ت: ٤٦٠ هـ) قد أخذ بحجية خبر الواحد ولكن وفق شروط وقرائن تدل على صدقه. ظ: حسن الحكيم/ مذاهب الإسلاميين في الحديث/ ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٨٨) لأن المسألة المطروحة هنا عقيدية وهي: ان اجتهادات أهل القرون الثلاثة حجة لذاتها أي: انّ تصرفات أهل القرون الثلاثة حجة لأنهم أهل القرون الثلاثة لا غير!!

(٨٩) رأس المتكلمين في البصرة في زمانه، أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان البصري، صاحب التصانيف في الرد على المعتزلة. أخذ عنه الكلام داود الظاهري، وكان يلقب كلاباً لأنه كان يجر الخصم إلى نفسه ببيانه وبلاغته وأصحابه هم الكلابية. الذهبي/ سير أعلام النبلاء ٨/ ١١٣ رقم ٢٠١٢، السبكي/ طبقات الشافعية الكبرى ١/ ٤٩٢ رقم ٦٥.

(٩٠) هو أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن خالد القلانسي.

(٩١) ظ: النشار/ نشأة الفكر الفلسفي/ ٢٨٢.

(٩٢) المرتضى/ الشافي في الإمامية ٤/ ٥٥.

(٩٣) أحمد بن حنبل/ المسند ٣/ ١٣٠ مسند أنس بن مالك.

(٩٤) مسلم / صحيح مسلم/ ٩٠١ (باب اثبات حوض نبينا صلى الله عليه وآله وصفاته).

(٩٥) الحاكم النيسابوري/ المستدرك على الصحيحن ٤/ ٩٥–٩٦ ح٦٩٩٢ (باب فضائل الأمة بعد الصحابة والتابعين).

(٩٦) سنن ابن ماجة ٣/ ١٢٩ ح٢٣٦٤.

(٩٧) المقريزي/ امتاع الاسماع ١٢/ ٣٤١ نقلاً عن ابن عبد البر.

(٩٨) البوطي/ السلفية/ ١٤ ـ ١٥.

(٩٩) محمد بن صالح العثيمين / شرح الأصول الثلاثة والستة لمحمد بن عبد الوهاب/ ١٢٧.

(١٠٠) حسن حنفي/ من العقيدة إلى الثورة ١/ ٣٤.

(١٠١) ظ: محمد عزام/ الاتجاهات الفكرية المعاصرة من السلفية إلى الحداثة/ ٧٠.

(١٠٢) د. محمد عابد الجابري/ التراث والحداثة/ ٢٤.

(١٠٣) محمد رفعت زنجير/ اتجاهات تجديدية متطرفة في الفكر الإسلامي المعاصر/ ٩٥.

(١٠٤) وهو المكان الذي اجتمع فيه الأنصار وبعض المهاجرين منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة. وحصلت فيه البيعة لأبي بكر بالخلافة. ظ: المسعودي/ مروج الذهب ٢/ ٣١٦، تاريخ الطبري ٣/ ٧٠، تاريخ اليعقوبي ٢/ ٨٣.

(١٠٥) ظ: عرفان عبد الحميد/ دراسات في الفرق والعقائد/ ١٢٤، أحمد محمود صبحي/ في علم الكلام ١/ ٣٢.

(١٠٦) الجابري/ الفكر السلفي/ ٦٨.

(١٠٧) قرأ عمر بن الخطاب ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ (عبس/ ٣١) ، وقال هذه الفاكهة فما الأب؟ ثم قال: نهينا عن التكلف.

القرضاوي/ كيف نتعامل مع التراث والتمذهب والاختلاف/ ٢٦٣.

وعن العدبس، قال: كنّا عند عمر بن الخطاب فأتاه رجل فقال: يا أمير المؤمنين! ما ﴿الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ ؟ (التكوير/ ١٦) فطعن عمر بمخصرة معه في عمامة الرجل فألقاها عن رأسه، فقال عمر: أحروري؟. السيوطي/ الدر المنثور ٦/ ٥٢٩.

(١٠٨) قال الإمام علي عليه السلام: «سلوني قبل أن تفقدوني، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لو سألتموني عن آية آية، في ليل نزلت أم في نهار نزلت، مكيها ومدنيها، سفريها وحضريها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وتأويلها وتنزيلها لأنبأتكم»، الطبرسي: الاحتجاج١/ ٣١٣.

(١٠٩) يقول الحسن البصري في رسالة له حول القضاء والقدر: «لم يكن أحد من السلف يذكر ذلك ولا يجادل فيه لأنهم كانوا على أمرٍ واحد. وإنّما أحدثنا الكلام فيه لما أحدث الناس من النكرة له فلما أحدث المحدّثون في دينهم ما أحدثوه أحدث الله للمتمسكين بكتابه ما يبطلون به المحدثات ويحذرون به من المهلكات». ابن المرتضى/ المنية والأمل/ ١٢.

(١١٠) ظ: البوطي/ السلفية/ ١٥١ ـ ١٥٢.

(١١١) ظ: عرفان عبد الحميد/ دراسات في الفرق والعقائد/ ٢١٠.

(١١٢) ظ: مجموعة باحثين/ د. أنور أبو طه/ السلفية (السلفية الجهادية ومسألة الدولة) ١١٣ ـ ١١٤.
(١١٣) ظ: أبو الفرج عبد الرحمن الجوزي / مناقب الإمام أحمد/ ٣٦١.
(١١٤) د. عبد العزيز السيلي/ العقيدة السلفية/ ٢١٣.
(١١٥) ظ: الذهبي/ سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٤١ رقم ٢١١٠، ابن العماد الحنبلي/ شذرات الذهب ٢/ ١١٤.
(١١٦) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ١١/ ٤٥.
(١١٧) ظ: مجموعة باحثين/ السلفية/ ٢٠١.
(١١٨) ظ: مجموعة باحثين/ السلفية/ ٢٠٢.
(١١٩) م. ن/ ٢٠٣.
(١٢٠) ظ: عبد الرحمن بن علي الجوزي/ المنتظم في تواريخ الملوك والأمم ٦/ ٤٢٣، حوادث سنة ٢٣٤.
(١٢١) ظ: صائب عبد الحميد/ تاريخ الإسلام الثقافي والسياسي/ ٥٨٠.
(١٢٢) هو عبد الله بن أحمد بن حنبل أبو عبد الرحمن المولود سنة ٢١٣ هـ حدّث عن أبيه ورتّب مسنده. ظ: الفرّاء الحنبلي / طبقات الحنابلة ٢ / ٥ رقم ٢٤٩، ابن العماد الحنبلي / شذرات الذهب ٢ / ٢٠٢ ـ ٢٠٣.
(١٢٣) القاضي أبو يعلى، وهو محمد بن الحسين بن الفرّاء، المتوفى سنة ٤٥٨ هـ، قيل فيه: «انه شان الحنابلة شيناً لا يغسله ماء البحر». ظ: الخطيب البغدادي/ تاريخ بغداد ٢/ ٢٥٧ رقم ٧٣٠، ابن العماد الحنبلي/ شذرات الذهب ٣/ ٣٠٦.
(١٢٤) ابن الزاغوني، أبوالحسن علي بن عبيدالله المتوفى سنة ٥٢٧ هـ كتب رسالة في العقائد عنوانها: (الإيضاح)، وقد قيل عنه: «ان في قوله من غرائب التشبيه ما يحار فيه النبيه»، ظ: ابن العماد الحنبلي/ شذرات الذهب ٤/ ٨٠.
(١٢٥) هو عبد الوهاب بن عبد الحكيم بن نافع، أبو الحسن البغدادي، وقال المروزي: سمعت أحمد بن حنبل يقول: عبد الوهاب الورّاق رجل صالح مثله يوفق لإصابة الحق. ظ: القاضي أبي يعلى الفرّاء الحنبلي/ طبقات الحنابلة ٢/ ٨٥ ـ ٩٢ رقم ٢٨١.
(١٢٦) القاضي أبي يعلى الحنبلي/ طبقات الحنابلة ٢/ ٨٩.
(١٢٧) ظ: ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٧/ ٨ ـ ٩.
(١٢٨) التنوخي/ نشوار المحاضرة ٢/ ٢٣٣.



(١٢٩) المقريزي/ الخطط ٣/ ٣١٦.

(١٣٠) هو محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي من كبار العلماء صاحب المدرسة الكلامية الماتريدية في سمرقند له كتاب التوحيد وكتاب المقالات وكتاب تأويلات القرآن. ظ: أبو الوفاء القرشي/ الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية/ ٣٧٥.

(١٣١) عرفان عبد الحميد/ دراسات في الفرق والمذاهب/ ٢١٠ ـ ٢١١.

(١٣٢) السبب في جعل ابن تيمية ضمن السلفية الأولى لأنه شكل مع أحمد بن حنبل المرجعية الفكرية لجميع الاتجاهات السلفية.

(١٣٣) ظ: مجموعة باحثين/ د. أنور أبو طه/ السلفية (السلفية الجهادية ومسألة الدولة)/ ١١٤.

(١٣٤) هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الحنبلي، ولد سنة ٦٩١ هـ تتلمذ على يد ابن تيمية الحراني غلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ذلك، وهو الذي هذب كتبه، واعتقل مع ابن تيمية في القلعة وحبس لإنكاره شد الرحال لزيارة قبل الخليل ثم تصدر للاشتغال ونشر العلم ولكنه معجب برأيه جريء على الأمور.

له مصنفات كثيرة منها: اعلام الموقعين عن رب العالمين، وكتاب مراحل السائرين، وكتاب شرح أسماء الكتاب العزيز، وكتاب زاد المسافرين، وزاد المعاد.

ظ: ابن حجر العسقلاني/ الدرر الكامنة ٣/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤ رقم ٣٧٠٠، الذهبي/ العبر في خبر من عبر ٢/ ٤٥٢، ابن العماد الحنبلي/ شذرات الذهب ٦/ ١٦٨.

(١٣٥) عرفان عبد الحميد/ دراسات في الفرق والمذاهب/ ٢١٣.

(١٣٦) أبو زهرة/ تاريخ المذاهب الإسلامية/ ١٩٤.

(١٣٧) ظ: مجموعة باحثين/ السلفية/ ٢٠٥.

(١٣٨) ابن حجر العسقلاني/ الدرر الكامنة ٣/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤ رقم ٣٧٠٠.

(١٣٩) النجد في الأصل: كل ما ارتفع عن تهامة فهو نجد، وقيل نجد كل ما وراء الخندق الذي خندقه كسرى إلى أن تميل إلى الحرّة فإذا ملت إليها فأنت في الحجاز، وقيل نجد هو اسم للأرض العريضة التي أعلاها تهامة واليمن وأسفلها العراق والشام. ظ: ياقوت الحموي/ معجم البلدان ٥/ ٣٠٤.

(١٤٠) يقول علي الوردي: أن البدو يميلون إلى الدين القوي الذي يؤدي بهم إلى النصر والغنيمة. ظ: علي الوردي / دراسات في طبيعة المجتمع العراقي/ ١٢.

(١٤١) بعض الكتاب يرى إن الوهابية حركة تجديدية إصلاحية قامت على أساس محاربة البدع

والخرافات. ظ: د. محمد صالح المراكشي/ الإيديولوجية والحداثة/ ٢٤، محمد عزام/ الاتجاهات الفكرية المعاصرة/ ٨٨.

(١٤٢) ظ: مجموعة باحثين/ د. محمد جمال باروت/ السلفية (المؤثرات الفكرية للسلفية)/ ١٦٨.

(١٤٣) ظ: محمد صالح العثيمين/ شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية/ ١٦ ـ ٢١.

(١٤٤) يقسم ابن تيمية التوحيد إلى ثلاثة أقسام: أولاً: توحيد الالوهية: ويقصد به ان الله تعالى هو الذي يجب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب وهو المعين على دفع المكروه.

ثانياً: توحيد الربوبية: ويقصد به ان الرب هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها. ظ: مجموع الفتاوى ١/ ٥٧.

ثالثاً: توحيد الأسماء والصفات: وهو ان يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفته به رسله نفياً واثباتاً. ظ: مجموع التفاوى ٣/ ٦.

(١٤٥) كشف الشبهات في التوحيد/ ١٢.

(١٤٦) ظ: م. ن/ ٣٥.

(١٤٧) م. ن/ ٣٥.

(١٤٨) محمد بن عبد الوهاب/ شرح الأصول الثلاثة/ ٤١ ـ ٤٢، ١٢٦.

(١٤٩) أما كتب محمد بن عبد الوهاب الأُخرى فهي:

١ – كتاب الكبائر.

٢ – كتاب الأصول الثلاثة.

٣ – كتاب مختصر الإنصاف والشرح الكبير.

٤ – كتاب مختصر زاد المعاد.

ظ: الزركلي / الأعلام ٦/ ٢٥٧.

(١٥٠) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم/ ١٠٨ ـ ١٠٩، ٣١٨.

(١٥١) ظ: الجبرتي/ تاريخ عجائب الآثار ٢/ ٤٠٨ حوادث سنة ١٢١٨ هـ، أيوب صبري قائد البحرية العثمانية/ تاريخ الوهابيين/ ٨٥، محمود شكري الآلوسي/ تاريخ نجد/ ١١٤، محسن الأمين/ كشف الارتياب/ ٥٣ ـ ٥٦.

(١٥٢) ابن باز مفتي الديار السعودية يسمي قبر الرسول صلى الله عليه وآله بالصنم، ويقول ما دام (أي قبة الرسول صلى الله عليه وآله هناك لا أزوره. وكان محمد بن عبد الوهاب يقول عن الرسول صلى الله عليه وآله انه طارش، وان بعض اتباعه كان يقول عصاي هذه خير من محمد لأنه ينتفع بها في قتل الحية ونحوها، ومحمد قد مات، ولم يبق فيه نفع وإنّما هو طارش ومضى، وإنهم رَمَوا قبة الرسول 7

بالرصاص، ظ: محسن الأمين/ كشف الارتياب/ ٥٣ ـ ٥٦، حسين أبو علي / الوهابية جذورها التاريخية/ ١٠٢ ـ ١٠٤.

(١٥٣) تاريخ المذاهب الإسلامية/ ٢٠٩.

(١٥٤) م. ن/ ٢٠٨.

(١٥٥) الدرعية: نسبة إلى الدروع وهم بطن من بني حنيفة، وهي قرية صغيرة قرب الرياض، اتخذها آل سعود مقراً لحكمهم، وقد اتخذها محمد بن عبد الوهاب مقراً له بعد تحالفه مع ابن سعود حاكم الدرعية آنذاك.

ظ: عبد الله بن محمد بن خميس/ معجم اليمامة/ ٤١٦.

(١٥٦) مجموعة باحثين/ د. أحمد ملي/ السلفية والسلطة/ ٩٤.

(١٥٧) العيينة: تقع في رحبة واسعة وأرض لينة خصبة وماء وفير، في ملتقى شعاب وادي (حنيفة) الرئيسية، وهي التي ولد فيها الشيخ محمد بن عبد الوهاب سنة ١١١٥ هـ، ظ: عبد الله بن محمد بن خميس/ معجم اليمامة ٢/ ١٩٨.

(١٥٨) عثمان بن بشر النجدي/ عنوان المجد في تاريخ نجد/ ١١ ـ ١٢، نقلاً عن الكثيري/ السلفية بين أهل السنة والإمامية/ ٣٠١، محمود شكري الآلوسي/ تاريخ نجد/ ١١٥ ـ ١١٧.

(١٥٩) ظ: جورج انطونيوس / يقظة العرب / ٤٤٨ ، عبد العزيز عبد الغني إبراهيم / صراع الأمراء / ٦٥ وكذلك ص٧٠، نجدة فتحي صفوة/ الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية ١/ ٢٤ ـ ٢٧، محمد عوض الخطيب / صفحات من تاريخ الجزيرة العربية / ٢٠٩ ـ ٢٦٨، لويس دوكورأنس / الوهابيون تاريخ ما أهمله التاريخ/ ١٩٢.

(١٦٠) قُسِّمَ تاريخ السعودية من قبل الباحثين إلى ثلاثة أدوار:

يبدأ الأول منها بالمبايعة التي تمت بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود عام ١١٥٧ هـ، وينتهي باستسلام عبد الله بن سعود لإبراهيم باشا سنة ١٢٣٣ هـ.

ويبدأ الدور الثاني عند أكثر الباحثين بنجاح تركي بن عبد الله في إخراج بقية جنود الحاميات العسكرية التابعة لمحمد علي من نجد عام ١٢٤٠ هـ، وينتهي بظهور الأمير محمد بن رشيد على عبد الرحمن بن فيصل عام ١٣٠٩ هـ.

والدور الثالث يبدأ بدخول الملك عبدالعزيز ابن عبدالرحمن آل سعود الرياض عام ١٣١٩هـ.

ظ: د. سهيل صابان/ الجزيرة العربية/ بحوث ودراسات من وثائق الأرشيف العثماني والمصادر التركية/ ٣١٣.

(١٦١) محمد أبو زهرة/ تاريخ المذاهب الإسلامية/ ٢٠٩.

(١٦٢) ظ: طارق علي/ مائة عام من العبودية/ ٢١.

(١٦٣) ظ: مجموعة باحثين/ د. أنور أبو طه/ السلفية (السلفية مدخل في المصطلح)/ ١١٧.

(١٦٤) ظ: م. ن/ ١٦١.

(١٦٥) سليمان بن عبد الوهاب/ الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية/ ٣٨.

(١٦٦) ولد سنة ١٩٠٣م، بـ«اورانك آ باد» بمقاطعة حيدرآباد وبها قضى الأعوام الأربعة عشر الأولى من عمره. التحق بالمدرسة في الحادية عشرة، واتجهت دراسته إلى اللغة العربية والفارسية وتراث الإسلام، درس الفقه والحديث، وكانت الصحافة طريقه إلى كسب الرزق بعد نيله شهادة (مولوي) المعادلة لدرجة اللسانس. أسس عام ١٩٢٠م جبهة صحفية لدعم الإسلام، جمع في شخصه ثقافة إسلامية وغربية، وتركزت جهوده السياسية والفكرية في الثلث الأول من القرن العشرين حول المساهمة في رسم مستقبل مسلمي الهند، وعندما تأسست الجماعة الإسلامية عام ١٩٤١م انتخب المودودي أميراً لها.

وبعد ظهور دولة بنغلادش، طلب المودودي أعفاءه من إمارة الجماعة وتفرغ للعمل الفكري حتى وفاته. سجن مراراً بين الأعوام ١٩٤٨م و١٩٥٣م. من مصنّفاته: تفسير تفهيم القرآن (ستة أجزاء) المكانة القانونية للسنة، سيرة النبي 7 ، الإسلام والجاهلية، الجهاد في سبيل الله، نظرية الإسلام السياسية الدين القيم. ظ: د. حسين سعد/ الأصولية الإسلامية العربية المعاصرة/ ١٠٥.

(١٦٧) ولد في قرية من قرى أسيوط بمصر سنة ١٩٠٦م لأب ميسور الحال منتسب إلى الحزب الوطني، أدخل المدرسة وحفظ القرآن وهو في العاشرة من عمره أرسله أبوه بعد ذلك إلى القاهرة ليتم دراسته فتخرّج من دار العلوم عام ١٩٢٩م، اشتغل في التعليم وأرسلته وزارة المعارف إلى أمريكا لدراسة نظام التعليم فرجع منها عام ١٩٥١م، اعتزل الوظيفة ليتفرغ للتأليف والكتابة، كان قد بدأ حياته الأدبية في مدرسة العقاد، لكنه ما لبث أن تحول عن الأدب الخالص إلى الفعالية الفكرية الإسلامية، وكان ذلك في أواخر الأربعينات، في الوقت الذي أصبحت فيه جماعة الإخوان المسلمين قويّة وفعالة، وقد وجد سيد قطب في هذه الحركة تجسيداً لتطلعاته، انخرط في الجماعة وبدأ التأليف في تيارها فأصدر دراسات إسلامية، والعدالة الاجتماعية في الإسلام. وبعد صراع عام ١٩٥٤م بين الإخوان المسلمين وقادة الثورة في مصر تعرض سيد قطب للاضطهاد والسجن، لكن النهاية الفاجعة التي مني بها سيد قطب جاءت بعد إصداره لمجموعة من الكتب الثورية (هذا الدين، المستقبل لهذا

الدين، معالم في الطريق) إذ زج به في السجن عام ١٩٦٥م واتهم بالتآمر على النظام السياسي القائم وحكم عليه بالإعدام مع مجموعة من رفاقه ونفذ الحكم عام ١٩٦٦م، له مجموعة كبيرة من المؤلفات. ظ: الزركلي/ الاعلام ٣/ ١٤٧، د. فهمي جدعان/ أسس التقدم العلمي عند مفكري الإسلام/ ٥٧٣ ـ ٥٧٤.

(١٦٨) ظ: الإمام حسن البنا/ د. محمد أحمد صالح أبو الطيب/ ١٢٦، مجموعة باحثين/ د. أنور أبو طه/ السلفية (السلفية الجهادية ومسألة الدولة)/ ١١٣.

(١٦٩) الوضعي: ما ارتبط بالتجربة، والأشياء التي هذا حالها تكون متحققة في عالم الحس والتجربة. ظ: مراد وهبة، يوسف كرم، ويوسف شلال/ المعجم الفلسفي مادة وضعي. وما تقصده بالوضعي هنا ما يكون من وضع الإنسان، أي من انتاج عقله وفكره فهو بشري، ويقابل الالهي.

(١٧٠) مجموعة باحثين/ د. عبد الغني عماد/ السلفية (السلفية وإشكالية الآخر)/ ٦٢.

(١٧١) نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور/ ٧٧ ـ ٧٨.

(١٧٢) الجاهلية كما يعرّفها سيد قطب: هي حكم البشر للبشر، لأنها هي عبودية البشر للبشر، والخروج من عبودية الله، ورفض إلوهية الله، والاعتراف في مقابل هذا الرفض بإلوهية بعض البشر، والعبودية لهم دون الله، والناس في أي زمان وفي أي مكان إما أنهم يحكمون بشريعة الله، وإما أنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر، والذي لا يبتغي حكم الله، يبتغي حكم الجاهلية. ظ: في ظلال القرآن ٢/ ٧٥١.

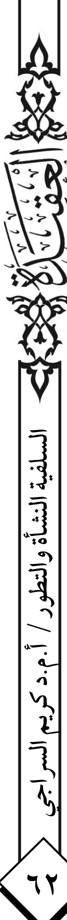
(١٧٣) الحاكمية: هي أن يكون الحكم والشريعة، والتقاضي حسب مواثيق الله وعقودة وشرائعه، التي استُحفظ عليها أصحاب الديانات السماوية، واحدة بعد الأُخرى، وكتبها على الرسل، وعلى من يتولون الأمر بعدهم ليسيروا على هداهم. ظ: سيد قطب/ ظلال القرآن ٢/ ٧٢٤.

فالحاكمية: تعني تحكيم شريعة الله، ورفض كل شريعة أُخرى سواء أكانت حكم الشعب والأمة ـ الديمقراطية ـ أو حكم الحاكم والطاغوت، ووصف المجتمعات التي لا تحكم وفق شريعة الله، بالمجتمعات الجاهلية، ومعلوم ان وصف الجاهلية كان يطلق على عصر ما قبل البعثة النبوية.

(١٧٤) ظ: شهادة حق ضمن كتاب الإسلام والجاهلية/ ٢٤ ـ ٢٥.

(١٧٥) نظرية الإسلام وهديه/ ٤٨ ـ ٤٩.

(١٧٦) م. ن/ ٢٥٠.



(١٧٧) ظ: مجموعة باحثين/ د. عبد الغني عماد/ السلفية (السلفية وإشكالية الآخر)/ ٦٥.
(١٧٨) م. ن/ ١٨٨، تعقيب/ د. أنور أبو طه.
(١٧٩) ظ: سيد قطب/ معالم في الطريق/ ١٠.
(١٨٠) الولاء: يعني التولي للعقيدة وللإسلام، وليس للمسلمين أو الوطن، أو لأية أفكار بشرية، كالاشتراكية، والليبرالية، والقومية، والديمقراطية... .
والبراءة: تعني التبرء من الآخر، المتمثل بأنظمة الكفر السائدة في العالم الإسلامي وفي الغرب، والإيمان بأن الصراع والجهاد حتمي ضدها في كل زمان ومكان. ظ: السلفية/ مجموعة باحثين/ ٧٦.
(١٨١) التنظيم الذي تأسس سنة ١٩٨٦م على يد ابن لادن. ظ: جيل كيبيل/ الفتنة/ ٢١٥.
(١٨٢) ظ: مجموع باحثين/ د. أنور أبو طه/ السلفية (السلفية الجهادية ومسألة الدولة)/ ١٢٩.
(١٨٣) سيد قطب/ معالم في الطريق/ ١٠.
(١٨٤) الإخوان المسلمين: حركة تأسست سنة ١٩٢٨م في مصر على يد حسن البنا (ت: ١٩٤٩م) مع ستة من رفاقه، تتخذ من الإسلام منهجاً. ظ: ريتشارد ب. ميتشل/ الإخوان المسلمون/ ٩٠ ـ ٩١، محمود عبد الحليم/ الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ.
(١٨٥) ظ: مجموعة باحثين/ د. أنور أبو طه/ السلفية (السلفية الجهادية ومسألة الدولة)/ ١٣٢.
(١٨٦) ظ: النووي/ شرح صحيح مسلم ١٢/ ٢٢٩، د. عبد العزيز السيلي/ العقيدة والسلفية/ ٢١٣.
(١٨٧) معالم في الطريق/ ٣٩.
(١٨٨) م. ن/ ٨.
(١٨٩) م. ن/ ١٧٣.
(١٩٠) م. ن/ ٤٠.
(١٩١) ظ: جيل كيبيل/ الفتنة حروب في ديار المسلمين/ ٢٠٨.
(١٩٢) م. ن/ ٢١٢.
(١٩٣) د. محمد أحمد صالح أبو الطيب/ الإمام حسن البنا/ ١٢٧.
(١٩٤) جيل كيبيل/ الفتنة/ ٢١٥.
(١٩٥) ظ: الموقع الألكتروني/ انباء الاخباري.
(١٩٦) خالد خليل أسعد/ مقاتل من مكة/ ٥٣ ـ ٥٤.
(١٩٧) وهو أحد الإخوان المسلمين، من أصل فلسطيني أردني ولد في قرية سيلة بفلسطين، كان له

أثر كبير في جمع المجاهدين في أفغانستان، وتقليل نقاط الخلاف بينهم، قتل مع اثنين من أولاده في سيارة ملغمة في بيشاور في عام ١٩٨٩م، بتدبير من المخابرات الامريكية، وهو صاحب مقولة العدو البعيد قبل القريب، أي كان يرفض العمليات العسكرية في الدول الإسلامية، وهو صاحب المقولة ـ التي يعتمدها الفكر الجهادي بشكل كبير -: «وإني لأشعر بفضل الله العظيم عليَّ إذ شرح صدري، وفتح قلبي لدراسة كتب سيد قطب، فقد وجّهني سيد قطب فكرياً وابن تيمية عقدياً وابن القيم روحياً»، ظ: الموقع الالكتروني/ الفكر السلفي الجهادي، خالد خليل أسعد/ مقاتل من مكة/ ٨٠، الزركلي/ إتمام الاعلام/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(١٩٨) ظ: جيل كيبيل/ الفتنة/ ١١٤ ـ ١١٥.

(١٩٩) ظ: خالد خليل أسعد/ مقاتل من مكة/ ٨٠.

(٢٠٠) ظ: الموقع الألكتروني/ الفكر السلفي الجهادي.

(٢٠١) خالد خليل أسعد/ مقاتل من مكة/ ١٤٥.

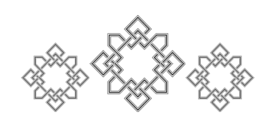
(٢٠٢) ظ: م. ن/ ١٤٥.

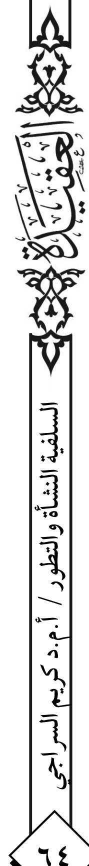
(٢٠٣) م. ن/ ١٤٦.

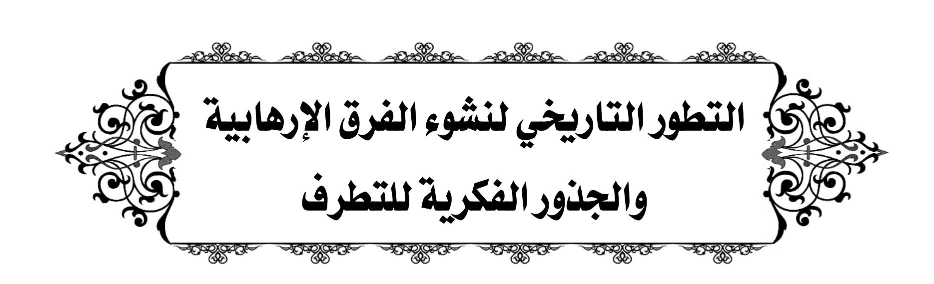
(٢٠٤) ظ: م. ن، الموقع الالكتروني/ أنباء الاخباري.

(٢٠٥) ظ: الموقع الالكتروني/ الفكر السلفي الجهادي.

(٢٠٦) ظ: مجموعة باحثين/ د. عبد الغني عماد/ السلفية (السلفية وإشكالية الآخر)/ ٧.







التطور التاريخي لنشوء الفرق الإرهابية والجذور الفكرية للتطرف

د. عبد الامير عيسى الأعرجي

المقدمة

أخذت ظاهرة الإرهاب خلال العقد الاخير من القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين بالظهور على الساحة الدولية لأغلب بلدان العالم مما جعل الاهتمام بها متزايداً من قبل البلدان المتقدمة والنامية على حدٍ سواء، وذلك نسبة لآثارها السلبية في حياة المجتمعات البشرية، إذ ارتبط شيوع هذه الظاهرة بتطور الأحداث الجارية في الساحة السياسية وتعمقها، حتى اضحى مفهوم الإرهاب صفة لصيقة لكل حدث سواء كان مخططا له أم غير ذلك، وهنا اختلفت التفسيرات والدوافع التي أدت إلى تنامي ظاهرة الإرهاب بين من يؤكد ان حالات التنافس والصراع الدولي ساعدت في تغذية ظاهرة الإرهاب ونموّها، وبين من يدعي ان الإرهاب ظاهرة طبيعية يمكن ان تظهر في أي مجتمع مرتبطة بعوامل مختلفة منها البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إن أي معالجة لقضية ذات صلة ببعض المفاهيم تحتاج ان تحدد تلك المفاهيم من خلال تعريف يوضح مكوناتها وخصائصها. ونتيجة لتنامي الإرهاب وظهور فرق تكفيرية كثيرة على الساحة الدولية عموما والساحة العربية والإسلامية خصوصا، رغبت في ان أكتب بحثي هذا لأسلط الاضواء على الجذور التاريخية لنشوء

الإرهاب في الدولة العربية الإسلامية منذ نشأتها بوصفها كياناً دينياً إدارياً ينظّم حياة المسلمين ويحافظ على حقوقهم، وقد استعنت بالمصادر التاريخية وغيرها من كتب الفقهاء بمختلف طوائفهم الدينية، واستطعت ان اجد جذور الحركات السلفية المتطرفة التي ظهرت في عصرنا الحالي وارتباطها بالفتاوى التكفيرية لبعض ائمة المذاهب السلفية، لذلك ولمعرفة الإرهاب لابد لنا من تعريفه فالإرهاب (لم يرد في قواميس اللغة العربية مصطلح «الإرهاب» ولكنه عرف بالفعل «رهب يرهب» أي خاف وفزع، وتشتق من الفعل «أرهب» المزيد، ويقال: أرهب فلان فلانا أي أخافه، وقد ذكر لفظ الإرهاب في القرآن الكريم بمعان متعددة تفيد الخوف والفزع والخشية من الله سبحانه وتعالى). إنّ مصطلح الإرهاب يدل على الأعمال والأفعال التي ينتج عنها نشر الخوف والرعب بين صفوف المواطنين، ويؤكد على الطابع غير الشرعي لتلك الأعمال وما ينتج عنها من خسائر مادية ومعنوية. وعرفت الجمعية العامة للأمم المتحدة الإرهاب عام ١٩٣٧، بأنه «كافة الأفعال الإجرامية ضد دولة من الدول التي من شأنها بحكم طبيعتها أو هدفها إثارة الرعب في نفوس شخصيات معينة أو جماعات من الأشخاص أو في نفوس العامة». وأخيراً وليس آخراً إن اصبت في بحثي هذا فالله الشكر والمنّة وإن لم أصب فأحمده على ما مدّني من عون وقوة .

المبحث الأول

الفترات التاريخية لنشوء جذور الافكار المتطرفة وأساليب العنف

إنّ من سمات الدين الإسلامي الحنيف الرفق والعدالة والمحبة والمساواة، والحفاظ على أمن أبناء المجتمع الإسلامي وحياتهم ومن يعيش في كنفهم من الطوائف الدينية الأُخرى، فقد بعث الله تعالى النبي محمداً صلى الله عليه وآله رحمةً للناس، حيث قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1]، لذلك نجد ان الإسلام قد حارب العنجهية

والظلم والبغي والفساد في الارض، لذا فمن يتأمل مصادر الشريعة الإسلامية المتمثلة بالقرآن المجيد والسنة النبوية المطهرة، وأقوال الائمة الاطهار عليهم السلام وخطبهم فلن يجد فيها شيئاً من معاني التطرف والعنف والإرهاب الذي يعني الاعتداء على الآخرين من دون وجه حق، وقد ظهر الإرهاب والتطرف والعنف منذ القرن الاول للهجرة النبوية الشريفة بظهور الخوارج بعد معركة صفين (٣٦ـ ٣٧هـ / ٦٥٦م ـ ٦٥٧م)، وهم فئة باغية خرجت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام واجتمعوا بحروراء (من قرى الكوفة)، ومن رؤوسهم عبد الله بن الكوّاء وعتاب بن الأعور وعروة بن جرير وحرقوص بن زهير البجلي المعروف بذي الثدية[٢]، وان هذا الاخير كان أصل الخوارج كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله عندما وزع غنائم هوازن يوم حنين اذ جاءه ذي الخويصرة التميمي، وهو حرقوص بن زهير وقال له: أعدل يا رسول الله! فقال صلى الله عليه وآله ويلك! ومن يعدل إذا لم أعدل[٣]؟ فحاربهم الامام علي بن أبي طالب بالنهروان سنة (٣٧هـ / ٦٥٧م) واستأصل شأفتهم ولكن بقيت شرذمة منهم، وقد وصفهم الرسول صلى الله عليه وآله في حديث انهم قوم «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»[٤]، فاشتهروا بالمارقين وهم فرق عديدة منها : المُحَكّمَةُ، الازارقة، النجدات، الاباضية، الصفرية، والبيهسية، والعجاردة، والثعالبة والباقون فروعهم وجميعهم يتبرأون من الامام علي عليه السلام ويكفّرون جميع المسلمين[٥]، ولهذه الجماعة تاريخ طويل في محاربة المسلمين والاغارة على بلدانهم، وقتلهم فقد قاموا بقتل الصحابي الجليل عبد الله بن خباب وامرأته بعد أن بقروا بطنها، وقتلوا ثلاث نسوة من طيء وقتلوا أم سنان الصيداوية، فضلاً عن قتلهم رسول الامام علي عليه السلام إليهم الحارث بن مرة العبدي[٦]، ولم يكتفوا بذلك بل تآمروا على شرعية الخلافة من خلال قيامهم باغتيال الامام علي بن أبي طالب عليه السلام في مسجد الكوفة وهو قائم يؤدي صلاة الفجر سنة (٤٠هـ / ٦٦٠م)[٧]، ولم يتوقف غيهم وإرهابهم ضد الإسلام والمسلمين، وبعد استشهاد الامام علي عليه السلام أخذ الإرهاب شكلا آخر يمكن ان نسميه (إرهاب دولة) في عهد

معاوية بن أبي سفيان من خلال تهجير الصحابة وقتلهم صبراً في منافيهم التي هُجّروا إليها، كما حصل للصحابي الجليل حجر بن عدي الكندي رضي الله عنه ومن معه، بعد رفضهم طلب معاوية لعن علي عليه السلام والبراءة منه[٨]، واستمرّ إرهاب الدولة الاموية ضد آل البيت عليهم السلام فقد قام يزيد بن معاوية ومن معه بارتكاب جريمة كبرى من خلال قتل الامام الحسين وأهل بيته وأصحابه عليهم السلام وسبي ذراريه، وأخذهم أسارى من العراق إلى الشام بعد ان استخدموا ضدهم شتى وسائل الإرهاب والعنف لترويعهم وإخافتهم . ولم يكتف الامويون بذلك بل استمروا في استخدام الإرهاب والعنف ضد مناوئيهم من العلويين وأتباعهم وغيرهم من المسلمين، فقد ارسل عبيد الله بن زياد إلى عريف ميثم التمار رضي الله عنه يطلبه منه فأخبره انه بمكة، فقال له : إن لم تأتني به لأقتلنك فأجله أجلا وخرج العريف إلى القادسية ينتظر ميثما، فلما قدم ميثم أخذ بيده فأتى به عبيد الله بن زياد فلما أدخله عليه قال له : ميثم، قال: نعم، قال : إبرأ من أبي تراب، قال : لا أعرف أبا تراب، قال : ابرأ من علي بن أبي طالب، قال : فإن لم أفعل؟ قال إذن والله أقتلك فقتله وصلبه على باب عمرو بن حريث فإذا كان اليوم الثالث ابتدر من منخريه دماً عبيطاً، ثمّ أتاه رسول من ابن زياد فألجمه بلجام من شريط فهو اول من ألجم بلجام وهو مصلوب[٩] ولم يكتف عبيدالله بن زياد بذلك فوالله ما ذهبت الأيام حتى أرسل على رشيد الهجري رضي الله عنه ودعاه إلى البراءة من أمير المؤمنين عليه السلام فأبى أن يبرأ منه فأمر ابن زياد ان تقطع يديه ورجليه ولسانه[١٠]، كما ارتكب الامويون جريمة أُخرى ضد أهل مدينة الرسول صلى الله عليه وآله من المهاجرين والانصار والتابعين لهم بإحسان وأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله في واقعة الحرة سنة (٦٣هـ / ٦٨٢م) حيث قتلوا آلافا من سكانها مع استباحة مدينة الرسول ثلاثة أيام من قبل جند يزيد بن معاوية، فضلا عن هجومهم بعدها على الكعبة المشرفة بالمجانيق والعرادات فهدموها وحرقوها وقتلوا كثيراً من المسلمين المتحصنين فيها[١١] .

واستمر الأمويون بحكمهم الاستبدادي الدموي بعد موت يزيد بن معاوية

وانتقال الحكم إلى الفرع المرواني، من خلال استخدامهم لولاة يمتازون بالجور والقسوة والاستخفاف بحياة الناس، فقد روي ان الحجاج بن يوسف الثقفي قال ذات يوم : أحب أن أصيب رجلا من أصحاب أبي تراب فأتقرب إلى الله بدمه !، فقيل له : ما نعلم أحداً أطول صحبة لأبي تراب من قنبر مولاه ' فبعث في طلبه فأُتيَ به فقال له : إبرأ من دينه قال قنبر : فإذا برِئتُ من دينه تدلني على دينٍ غيره أفضل منه ! قال الحجاج : إني قاتلك فاختر أي قتلة أحب اليك ! قال : قد صيرت ذلك اليك ولقد أخبرني أميرالمؤمنين عليه السلام ان ميتتي تكون ذبحا ظلما بغير حق، فأمر الحجاج بذبحه(١٢).

وتمادت الدولة الاموية في إرهابها ضد العلويين فقد ارتكب الامويون جريمة يندى لها الجبين، بعد ان قام جيش هشام بن عبد الملك سنة (١٢٢هـ / ٧٣٩م) بقتل الشهيد الامام زيد بن علي بن الحسين عليه السلام في الكوفة(١٣) وصلبه لأربع سنين متتالية دون أن يدفن! بعدها أخذوا الجثمان الطاهر وأحرقوه وذرّوا رماده!

إنّ الإرهاب والعنف الذي استخدمه الامويون في حكمهم يدل دلالة واضحة على الاستبداد والابتعاد عن تعاليم الإسلام، فالحكم الاستبدادي يقوم على انتهاك الحرمات وعلى اضطهاد الشعب وسحق مقدساته وتحطيم معنوياته، وقد وصف بعض الكتاب المُحْدَثين الحكام المستبدين بقوله : «ان الحكّام المستبدين كالحشرات القذرة لا تعيش أبدا في جو نظيف ولا تنصب شباكها الاّ حيث الغفلة السائدة والجهالة القائمة وان عقول المستبدين لا تعي مبدأ التفاهم ولا تضيق لضيقها وتفاهتها في الاخذ والرد للوصول إلى الحق ويكاد لا ينبعث صوت للخير حتى يلاحقه صوت من الإرهاب يطلب إما إخراسه وإما قتله»(١٤).

ولم يتوقف الإرهاب والعنف بعد سقوط الدولة الاموية سنة (١٣٢هـ / ٧٤٩م) وتسلّم العباسيين الحكم ضد العلويين ابناء عمومتهم، بالرغم من ان

ثورتهم على الامويين كانت بشعارات علوية هدفها (الرضى من آل محمد صلى الله عليه وآله)، وان استخدامهم لهذا الشعار كان سببه استعطاف الشيعة في بلاد فارس بعد ان ازدادوا ازديادا بالغا، حينما أخذ الشيعة يلجؤون إلى المدن والقرى الفارسية بسبب الضغط الشديد عليهم من قبل السلطة الاموية الحاكمة آنذاك، وكانت المطاردة والسجن والتعذيب والتنكيل والتشريد والقتل بطرق شتى أمورا طبيعية لرجالات الشيعة والداعين اليها، فوجد هؤلاء التخلي عن المدن والاقاليم القريبة من مركز الحكم الاموي خير وسيلة للحفاظ على أنفسهم، والتخلص من أيدي السفاكين الذين لا يعرفون للإسلام معنى، وكانت خراسان دون أدنى شك من الدعائم القوية للدولة العباسية وتقويض أركان الدولة الاموية، ولكن خراسان لم تكن تدعو إلى العباسيين وتعمل لحسابهم بل سارت الدعوة هناك باسم (الرضا من آل محمد)، وازاحة أعداء أهل البيت وطبيعي ان لفظة آل محمد صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام كانتا تستعملان ولاتزالان في علي وأولاده الطاهرين عليهم السلام ، فكانت صورة الدعوة إلى إزالة سلطان بني أمية باسم هؤلاء لا غير(١٥). لكن العباسيين لم يتركوا العلويين بحالهم بل أخذوا يطاردونهم ويسجنونهم ويعذبونهم، فقد استخدم المنصور الدوانيقي اسلوب الخداع ضد عبد الله بن الحسن المثنى المعروف بـ (المحض) من خلال قبول عبد الله المحض، بعض الالطاف والكتب التي كتبها اليه بعض جواسيس المنصور على لسان أنصاره للإيقاع به فكانت حجة المنصور عليه وأمر بحبسه، ولم يكتف المنصور العباسي بذلك بل قام بحبس أخيه المسمّى بالحسن المثلث وقد مات في حبسه، وكان لـ (عبدالله بن الحسن) رأيه الخاص في الخطة التي رسمها العباسيون لإبادة الامويين واستئصالهم أينما وجدوا في عصر أبي العباس السفاح وهو القائل أي ـ عبد الله ـ لداود بن علي عم أبي العباس السفاح وقد أمعن في قتل الامويين في الحجاز «يا ابن عمي إذا افرطت في قتل أكفائك فمن تباهي في سلطانك؟ أو ما يكفيك منهم أن يروك غادياً رائحاً فيما يسرك ويسؤوهم»(١٦).

لقد عانى عبد الله معاناة كبيرة من المنصور العباسي قلما عانى احد من وجوه بني الحسن عليه السلام فإنه حبسه حبساً شديدا في المدينة، ثم حمله وافراد أسرته إلى العراق على حالة يرثى لها وحبسهم في الهاشمية حتى الموت، وقد أذاقهم من الاذى في حبوسهم ما تقشعر له الابدان، وان دل هذا على شيء فانما يدل على حقد ابي جعفر المنصور على عبد الله بن الحسن وأبنائه، وما نسميه اليوم إرهاب دولة حيث بدى العنف جليا في تعامله معه بعد أن أخفق المنصور الدوانيقي في حمله على تسليم أبنائه، أو الايماء إلى الجهات التي يقيمون فيها وطالما طلب اليه بإحضارهم بالتهديد والوعيد، وحاول ان يقتله قبل ان يحبسه، ان المنصور كان بالغ القسوة شديد العقوبة والمؤاخذة لايستطيع ضبط نفسه ولا يتردد من ضربهم، وإهانتهم وتعذيبهم وزجهم في السجون والطوامير المطبقة في الحجاز والعراق، وقد عبر عما يكن من حنق وحقد غالب عليه بقوله: «هذا فيض فاض مني فأفرغت منه سجلاً لم أستطع رده»[١٧]، وقد استطاع المنصور من قمع ثورة محمد النفس الزكية قتيل أحجار الزيت وأخيه ابراهيم قتيل باخمرى سنة (١٤٥هـ / ٧٦٢م)[١٨]، ولم يكتف العباسيون بذلك فقد قام الهادي العباسي بقتل الحسين بن علي بن الحسين مع جماعة من أهل بيته في واقعة فخ وسيقت النساء والاطفال اليه أسارى مع رؤوس الشهداء بعد انتهاء المعركة وكان ذلك سنة (١٦٩هـ/ ٧٨٥م)[١٩]، وغدر هارون الرشيد بـ (يحيى بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى) عليه السلام بعدما أمّنه لما ظهر ببلاد الديلم، وكتب له أمانا بخطه ثم طلب يحيى أمامه بعد ان أعلن نكوثه للامان وأمر به إلى السجن ثم قتله خفية، ثم قبض الرشيد على الامام موسى بن جعفر عليه السلام وحمله إلى البصرة فحبسه وبعدها نقله إلى سجن السندي بن شاهك في بغداد بعدها دس له السم فقتله في سجنه[٢٠].

لقد بالغ هارون العباسي في ظلم العلويين وشيعتهم واضطهادهم فقبض بعد قتل الامام موسى بن جعفر عليه السلام على احد أصحابه من كبار رواة الحديث النبوي الشريف المسمى محمد بن أبي عمير، وحبسه بعد ان أمر بضربه اشد الضرب وتعذيبه

بأشد العذاب من أجل ان يدله على أصحاب موسى بن جعفر عليه السلام فكاد يبوح له بهم لما لحقه من الالم ثم عصمه الله تعالى عن ذلك، ووصل إرهاب الرشيد به إلى نبش قبور مناوئيه، فلما علم الرشيد العباسي ان منصور النمري قال شعرا في أهل البيت عليهم السلام ارسل اليه إلى الرقة من يقتله فوجده مريضا قد أشرف على الموت فانتظره ثلاثا حتى مات ودفن وأُخبرَ الرشيد بموته فأمر بنبش قبره، وروى الصدوق في عيون الاخبار بسنده عن عبيدالله البزاز النيسابوري عن حميد بن قحطبة الطائي قائد جيش الرشيد انه قتل في ليلة واحدة بأمر من الرشيد في طوس ستين رجلاً من العلويين طرح أجسادهم الشريفة في بئر هناك، كما روى الصدوق أيضاً ان الجلودي أحد قواد الرشيد كان قد بعثه إلى المدينة لما خرج محمد بن جعفر بن محمد، وامره ان ظفر به أن يضرب عنقه وان يغير على دور آل ابي طالب وأن يسلب نساءهم ولا يدع على واحدة منهن الاّ ثوبا واحداً ففعل الجلودي ذلك وهجم على دار ابي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام بخيله وذلك بعد وفاة الامام موسى الكاظم عليه السلام [21].

ووصل الإرهاب العباسي ان ارسل الرشيد إلى أبي عبد الله ادريس بن عبد الله المحض مؤسس دولة الادارسة في بلاد المغرب العربي في شمال افريقية سنة (١٧٢هـ / ٧٨٨م) بعد نجاته من واقعة فخ سنة (١٦٩هـ/ ٧٨٥م) وهروبه إلى المغرب العربي ان دس له السم عن طريق احد عملائه وقتله سنة (١٧٧هـ / ٧٩٣م)[22].

وتفنن العباسيون في إرهابهم فقد قام المتوكل بن المعتصم العباسي بحراثة قبر الامام الحسين عليه السلام ، من أجل ان يطمس معالمه ويمنع شيعة اهل البيت من زيارة قبره، ويسخر منه في مجالس اللهو والمجون التي كان يقيمها مع وزيره الفتح بن خاقان، كما قام بملاحقة اتباع العلويين فقد ارتكب جريمة إرهابية عندما قتل العالم اللغوي ابن السكيت دون ذنب الاّ انه تشيّع، ولم يكتف العباسيون بإرهابهم بل استخدموا العنف باضطهاد العلويين من أجل ان يهجروا مذهبهم واقوالهم في المسائل الفقهية[23].

ولمّا ضعفت الدولة العباسية ظهرت بعض الإمارات مثل البويهية في العراق

والحمدانية في الشام والجزيرة، والفاطمية في مصر والشام؛ ذهب الاضطهاد عن الشيعة، وعندما أطيح بهذه الدول وخلفتها الامارة السلجوقية في العراق وفارس وبعض من مدن الشام، والدولة النورية في باقي الشام والايوبية في مصر وما تبقى من المدن الشامية عاد الامراء إلى ما كان عليه في اضطهاد الشيعة وكان ابرز صورة من صور الاضطهاد، ما قام به صلاح الدين الايوبي في سجن ما تبقى من الفاطميين مع ما استخدمه من إرهاب وعنف ضد ابناء الشيعة من المصريين والشاميين في سبيل ترك المذهب وتبني مذهب الدولة الذين يؤمن به ذلك الحاكم، وفي المقابل زال الاضطهاد عن الشيعة في بلاد فارس في عهد الصفويين وما بعدها من حكومات تعاقبت عليها إلى عصرنا الحالي(٢٤).

ظهرت في العصر العباسي بعض المذاهب والتيارات الإسلامية، منها مذهب الحنابلة نسبة إلى أحمد بن محمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م)، ومن الذين تبنوا هذا المذهب ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م) فظهرت على يده السلفية، وهي حركة ظهرت في أواخر القرن السابع الهجري كرد فعل على الاصلاحات العقلية التي أدخلها الإمام الأشعري على العقائد ممّا جعل ابن تيمية يعتبر تلك الاصلاحات خروجاً عن السنة، فعمل على إحياء عقائد أهل الحديث مستنكرا التأويلات التي قدمها الاشاعرة للاحاديث التي أخذت منها تلك العقائد، وأطلق ابن تيمية على طريقته هذه عنوان (منهاج السلف الصالح) فعرفت دعوته بالسلفية لأنّه كان يدعو إلى العودة إلى سيرة السلف الصالح والتمسّك بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، والتي على رأيه ـ حاد عنها الاشاعرة والفرق الأُخرى ولم يقف عند هذا الحد، بل عمل على إظهار عقائد جديدة لم يناد بها أحمد بن حنبل ولا أحد قبله كقوله : بأن السفر لزيارة قبر الرسول ﷺ، والاحتفال بمولده الشريف والتبرك بآثاره والتوسل به وبأهل بيته (عليهم السلام) وزيارة القبور بدع وشرك ومخالفة لعقيدة التوحيد وأنكر كثيرا من الفضائل الواردة في حق أهل البيت عليهم السلام المروية في الصحاح والمسانيد.

ولم تلقَ دعوته قبولاً على مستوى الأمّة الإسلامية وبقيت محصورة في مناطق محدودة من الشام ومصر، وقد تصدى للرد عليه فقهاء ومحققو أهل السنة والفرق الإسلامية الأُخرى[٢٥]، ويبدو تكفيره جليا لطائفة الشيعة في أقواله منها، قال ابن تيمية: «ان أصل كل فتنة وبلية هم الشيعة ومن انضوى اليهم وكثير من السيوف التي في الإسلام، انما كان من جهتهم وبهم تسترت الزنادقة»[٢٦]، وقال أيضاً: «فقد رأينا ورأى المسلمون انه اذا ابتلي المسلمون بعدوٍ كافرٍ كانوا معه على المسلمين»[٢٧]، وقال عن الشيعة أيضاً : «فهم يوالون اعداء الدّين الذين يعرف كل أحدٍ معاداتهم من اليهود والنصارى والمشركين، ويعادون أولياء الله الذين هم خيار أهل الدين وسادات المتقين، وكذلك كانوا من اعظم الاسباب في استيلاء النصارى قديما على بيت المقدس حتى استنقذه المسلمون منهم»[٢٨].

ان مثل هذه الاقوال من الافكار المتطرفة ضد طائفة الشيعة تثير الفرقة في الإسلام من جهة، والكراهية والبغض والعنف والإرهاب من قبل الفرق المتطرفة ضدهم، ونتيجة لما يحمله المذهب السلفي من فكر متطرف نشأت حركات تحمل ذات الفكر في تكفير الاخرين وبالأخص الشيعة ومن ابرزها الحركة الوهابية التي جاءت تسميتها نسبة إلى مؤسسها، فهي حركة ظهرت في القرن الثاني عشر الهجري على يد محمد بن عبد الوهاب (١١١٥هـ ـ ١٢٠٦هـ) وعملت على إحياء ونشر الفكر السلفي لابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية في الجزيرة العربية والذي تسّرب لاحقا إلى بلاد إسلامية أُخرى، وكان ابن عبد الوهاب أكثر حدةً وتعصباً وتطرفاً من ابن تيمية إذ كفَّر عامّة المسلمين ممن ليسوا على طريقته، بدعوى الشرك وعدم إخلاص التوحيد لله ودعا إلى إزالة ما يرونه بدعاً بقوة السيف (استخدام العنف والقتل)، من ذلك تهديم آثار أهل البيت عليهم السلام في مكة والمدينة المنورة، وقد تبنى آل سعود هذا الفكر المتطرف فأعلنوا اعتناقهم لمذهب السلفية، وشكلوا تحالفا مع حركة ابن عبد الوهاب مما ساعدهم على السيطرة لمعظم اجزاء الجزيرة العربية التي انشأوا فيها لاحقا

المملكة العربية السعودية، وبعد أن كانت هذه الحركة محصورة في بدايتها في ضمن نطاق الجزيرة العربية، الا انها اصبحت اليوم وبفضل امكانيات بعض الدول تتمتع بامتدادات واسعة في مناطق من العالم الإسلامي(٢٩)، ونتيجة للدعم الغربي من الولايات المتحدة الامريكية ومن تحالف منها للسلفيين من أجل مصالحهم الاستعمارية في المناطق العربية والإسلامية، أخذوا بتشكيل منظمات إرهابية من تلك الحركة السلفية منها منظمة القاعدة بزعامة أسامة بن لادن، وحركة طالبان في أفغانستان، وحركة بوكو حرام وجبهة النصرة وما يعرف اليوم بـ(داعش)، ومما يبدو انّ هدفهم في دعم هذه الحركات السلفية التكفيرية المتطرفة، لأسباب هي :

أولاً / لتفكيك وحدة المسلمين وتحقيق حلم الصهاينة بتمددهم وانشاء كيانهم المزعوم من النيل إلى الفرات .

ثانياً / الاستيلاء على ثروات المنطقة العربية والإسلامية بالحصول عليها مقابل الدفاع عنهم ضد خطر زحف هذه المنظمات الإرهابية عليهم .

ثالثاً / زعزعة الاستقرارفي المناطق العربية والإسلامية، مما يسهل عليهم نصب قواعد عسكرية لهم في تلك المناطق .

رابعاً / تشويه معالم الإسلام الحضارية والانسانية وإظهار المسلمين بأنهم عبارة عن شرذمة من القتلة .

المبحث الثاني

الاسباب والدوافع لنشوء الإرهاب والعنف

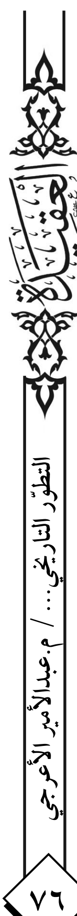
إنّ أسباب وجود ظاهرة الإرهاب وازديادها متعددة وموزعة على ميادين مختلفة، سياسية واجتماعية ونفسية واقتصادية ودينية وغيرها، ودراسة هذه الاسباب مجتمعة مهمة وصعبة للغاية اذ يجب ان تسبق هذه الدراسة دراسة أُخرى لمعظم

المشكلات المعقدة التي تواجه الافراد والمجتمع الدولي والمحلي على حد سواء، ومع ذلك يبقى الامر مهما ومطلوبا وضروريا، إذ لا يمكن القضاء على ظاهرة الإرهاب إذا لم تعالج أسبابها، فالمسألة الرئيسية التي تواجه تحديد أسباب الظاهرة هي اختلاف وجهات النظر في تحليل الظاهرة نفسها ومرد هذا الاختلاف يعود إلى تباين التفسيرات للمشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي نشأت عنها هذه الظاهرة، وبالرغم من ذلك فإن هناك اتفاقا حول عدد من أسباب الإرهاب الدولي على الاقل منها :

العوامل الاقتصادية:

يذهب بعض الباحثين إلى ان العوامل الاقتصادية كالفقر والبطالة من أسباب اختيار طريق العنف والإرهاب، لأنّ الفرد غير قادر على الوفاء بحاجاته الاساسية، وفاقد للامل في المستقبل[٣٠]، مما يجعله يحمل النقمة على المجتمع ومؤسساته ويبعثه على تبني الإرهاب، لذلك لعبت العوامل الاقتصادية دورا مهما في توجيه سلوك الإرهاب عند الناس والمجتمعات البشرية فالحاجة المادية لايشبعها أي بديل محتمل، وكثرة المشاكل الاقتصادية تؤدي إلى تدمير المجتمع واسس البناء الاجتماعي وتترك آثارها على عامة أبناء المجتمع، فالبناء الاقتصادي يسبب نمو علاقات اجتماعية معينة فإذا كانت مشبعة اقتصاديا أحدثت التماسك والترابط الاجتماعي، وان كانت عكس ذلك ولّدت السلوك العدائي والعنف ووفقا لذلك يمكن حصر بعض الاسباب والعوامل الاقتصادية الناشئة عن تنامي ظاهرة الإرهاب على صعيدين : داخلي و خارجي الصعيد الداخلي : يكمن في بعض المشاكل الرئيسية التي يفرزها المجتمع ومنها:

- **التخلف:** ينتج بصورة رئيسية عن السياسات الاقتصادية الخاطئة التي لاتتلاءم مع الواقع الاجتماعي للدولة، بحيث تتكون فجوة تتسع تدريجياً بين الفقراء



والاغنياء وبين المتعلمين وغير المتعلمين وبين ذوي المصالح الاقتصادية الواسعة وبين فئات اقتصادية مهمشة، ويمكن ان يكون ذلك بين من يملك ويحاول زيادة الملكية بأي صورة كانت وان ادى ذلك إلى إفقار وتهميش شرائح واسعة من المجتمع وبين من لا يملك، ومن هو مستعد للتضحية بحياته في سبيل تحقيق مكانة عالية أو التخلص من واقع الحياة البائسة التي يعيشها خاصة بين فئات الشباب[٣١].

● **البطالة**: ان انتشار البطالة بصورة كبيرة بين الشباب خاصة سواء كانت بطالة حقيقية أم بطالة مقنعة، فإنها تولّد شعوراً بالعجز واليأس من ناحية وشعورهم بالاحباط من ناحية أُخرى[٣٢]، وقد تثير في النفوس مشاعر الحقد والبغضاء، وتجعل من ذلك هدفا سهلا لاصحاب التوجهات المتطرفة دينيا وسياسيا أو عصابات النصب والاحتيال والسطو المسلح، يمكن استدراجهم باستغلاله حاجاتهم وتوظيف نقمتهم للالتحاق بركبهم[٣٣].

كما أن سوء توزيع الثروة والموارد اللازمة للتنمية وتوفير الحاجات الاساسية للناس، وعلى نحو غير متوازن أو بعبارة وجود خلل في العدالة الاجتماعية تفرز قدرا متعاظما من الظلم والتضجر الاجتماعي الجماعي والحرمان النسبي لدى قطاعات متزايدة من السكان، وهذا الحرمان النسبي ليس بالضرورة ناتجا من الفقر والافتقار على المستوى الفردي، وذلك ان الافراد القائمين بالإرهاب قد يكونون أغنياء بذاتهم ولكنهم انطلاقاً من الاحساس بالتهميش والدونية من قبل الدولة مما يخلق حالة من الغضب والنقمة لدى فئة معينة إزاء فئات أُخرى ورد فعل متطرف مصحوب بعمل إرهابي[٣٤].

● **سوء توزيع الثروة والموارد اللازمة للتنمية وتوفير الحاجات الاساسية للناس وعلى نحو غير متوازن**: بعبارة أُخرى وجود خلل في العدالة الاجتماعية تفرز قدراً متعاظماً من الظلم الاجتماعي الجماعي والحرمان النسبي لدى قطاعات متزايدة من السكان، وهذا الحرمان النسبي ليس بالضرورة ناتجا من الفقر والافتقار على المستوى

الفردي، وذلك ان الافراد القائمين بالإرهاب قد يكونون أغنياء بذاتهم ولكنهم انطلاقا من الاحساس بالتهميش والدونية من قبل الدولة مما يخلق حالة من الغضب والنقمة لدى فئة معينة تجاه فئات أُخرى ورد فعل متطرف مصحوب بعمل إرهابي(٣٥).

● **عمليات الفساد الاداري والحكومي**: وهي التي تساهم بها معظم البلدان والازمات الاقتصادية المستمرة، ابتداءً من التضخم والكساد الاقتصادي إلى حالات الكسب غير المشروع في الصفقات التي تتم بشكل غير قانوني مع رجال الدولة، أو الدخول في صفقات غير قانونية لتمرير العشرات من انواع البضائع الفاسدة بجهود أشخاص ذوي نفوذ في الدولة، وظاهرة الرشوة وعدم متابعة آكلي المال العام من الموظفين مهما كانت درجاتهم الوظيفية ووزنهم الاجتماعي والقبلي، وغياب برنامج (من اين لك هذا؟)، حيث غالباً ما يثري العامل أو الشاب أو حتى الفتاة في غمضة عين دون أن يسأل أو تسأل من اين لك هذا ؟، مثل هذه الممارسات تولد لدى الشباب أو الناس المحرومين سلوكا عدوانيا عنيفا من الكبت سرعان ما ينفجر بعمل عدواني منظم يستهدف الاشخاص والمؤسسات، أو الدولة ذاتها مما يؤدي إلى تدهور البنية الاقتصادية ـ الاجتماعية للدولة، وهنا يتخذ الإرهاب صورا عديدة منها (حالات السلب والنهب وعمليات الاختطاف المنظمة المصحوبة بدفع فدية مالية معينة تستخدم لتمويل عمليات إرهابية على الصعيد السياسي من تنظيم حملات مسلحة وغيرها) .

وعلى اساس ما تقدم يمكن صياغة معادلة تفسر بأن : (الجهل + الفقر والافتقار + القمع والكبت والاقصاء والتهميش = ظاهرة الإرهاب). علما ان هذه المعادلة لا تنفي ولا تلغي دور العوامل الخارجية المسببة لظاهرة الإرهاب بل يمكن ان تساعد على تغذيتها وبالشكل الذي يقودها إلى حرب أو صراع اجتماعي مستمر(٣٦). وبالنظر لتعدد المداخل التي يمكن من خلالها معرفة وتشخيص ظاهرة الإرهاب اقتصادياً على المستوى الخارجي يمكن الإشارة إلى أن الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٧٢



كانت قد شكلت لجنة متخصصة لدراسة الدوافع والأسباب التي تقف وراء شيوع ظاهرة الإرهاب اقتصاديا، وكان تشخيصها للأسباب الاقتصادية والاجتماعية كما يأتي:

١- استمرار وجود نظام اقتصادي دولي جائر يمكن أن يقود إلى خلق حالة من الغضب والعداء المستمر بين مختلف شعوب العالم.

٢- الاستغلال الاجنبي للموارد الطبيعية الوطنية والذي يمكن أن ينتج بفعل ظاهرة التبعية.

٣- تدمير ما لدى بعض البلدان من سكان وأحياء ووسائط نقل وهياكل اقتصادية.

٤- الظلم والاستغلال السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

٥- الفقر والجوع والشقاء وخيبة الأمل أو الاحباط.

٦- تدهور البيئة الاقتصادية الدولية وهيمنة الدول الكبرى على الاقتصاد العالمي.

هذه العوامل مجتمعة تشكل محور أسباب انتشار ظاهرة الإرهاب عالمياً، ومن الطبيعي بحث وتفحص عوامل أُخرى تقف وراء هذه الظاهرة. أبرزها حالات التنافس والصراع الذي تشهده الساحة السياسية الدولية، فقد أكدت الأحداث أن التطور اللامتكافئ بين الدول المتقدمة والدول التي تسعى إلى النمو وما تمثله ظاهرة التبعية المتسمة بسيطرة الدول المتقدمة وانتشار الانماط والاساليب المتعددة للجريمة المنظمة التي تعدُّ نتيجة تمرد على الواقع المعاش باتساع تلك الهوة بين عالم الشمال المتطور والجنوب الساعي إلى التطور، أدت إلى بروز أساليب متعددة لارتكاب أعمال إرهابية تعبر عن حالة الرفض للتبعية وللاستعمار والاستغلال على المستوى الدولي[٣٧].

العوامل الاجتماعية

تؤثر العوامل الاجتماعية تأثيرا كبيرا في انتشار ظاهرة الإرهاب وتسهيل صياغته خاصة لدى فئة الشباب ومن أهم تلك العوامل هي :

١ـ انتشار ظاهرة الطلاق وتفكك الاسرة مما يجعل الابناء عرضة للتشرد والاستغلال من قبل العصابات الإرهابية .

٢ـ انخفاض نسبة الزواج لدى الشباب بسبب ارتفاع المهور مما يجعل كثيراً من الشباب يسعى لكسب الاموال بطرقٍ شرعية وغير شرعية، مما يجعله عرضة للعصابات الإرهابية.

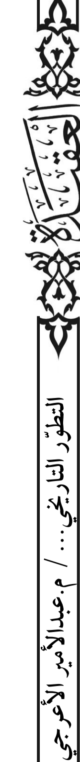
٣ـ صعوبة الحصول على الرعاية الصحية الاولية في قطاع الصحة العام، مع ارتفاع اسعار الادوية والعلاج وعدم مراقبة الدولة لها، وتفوق القطاع الصحي الخاص على حساب القطاع الصحي الحكومي، مما يسبب تذمر وحقد وكراهية للدولة.

٤ـ انتشار المخدرات بين الشباب وما يترتب عليها من آثار سلبية على الفرد والمجتمع من دون التفات الدولة لها ومعالجة الاسباب التي ادت إلى انتشارها[٣٨] .

العامل السياسي :

من أخطر هذه الأنواع هو غياب الوطنية والانتماء للوطن في الاحزاب والكتل السياسية ومنظمات المجتمع المدني، ان الذي يتولد عن ذلك تشكيلات سياسية منحرفة تهدف إلى تفكيك الدولة وذلك من أجل ان تتغلب المصلحة الشخصية على حساب المصلحة العامة[٣٩] .

التأثير السلبي لبعض وسائل الاعلام : يعد الاعلام في عصرنا الحالي من أكثر الوسائل تأثيراً في فكر الناس خصوصا بعد تطور وسائله فقد أصبح العالم قرية



صغيرة، وللإعلام أثر في بناء توجهاتهم لشدة سيطرته على ألباب الناس واستحواذه على اهتماماتهم واوقاتهم وقوة التأثير فيهم، والمعروف ان دور الاعلام على اختلاف وسائله ان يقدم للناس المعلومات المفيدة والنافعة والحقائق الثابتة والاخبار الصحيحة ليكون بذلك اداة توجيه وبناء ومصدر معلومات موثوقة، الاّ ان الواقع في بعض الاحيان بخلاف ذلك حيث استخدم الاعلام وسيلة للدعاية لأفكار وتوجهات معينة لدولة معينة أو دول معينة في مهاجمة من يخالفها، فضلا عن ان الاعلام أصبح اليوم أداة من أدوات الصراع الثقافي والعسكري والايدلوجي بين الامم والطوائف المختلفة في أغلب الاحيان .وقد يلعب الاعلام دورا كبيرا في قضايا الغلو والعنف والإرهاب من خلال ما يصـدر عن بعض وسائل الاعلام في بعض البلدان العربية والإسلامية من برامج لندوات ثقافية أو مقالات صحفية لطائفة إسلامية تكفر الطوائف الأُخرى وتصدر عليها احكاماً لا تمت إلى الإسلام بصلة لا من قريب ولا من بعيد، والاعلام بهذا التوجه يثير مشاعر الناس ويؤجج بواعث الغضب في النفوس والفرقة بين أبناء المجتمع الواحد في بعض البلدان.

الخاتمة

بعد أن تطرقت في هذا البحث الموجز إلى مفهوم الإرهاب وجذوره التاريخية واسباب نشوءه ألخص النتائج الآتية:

١ـ إنّ أسباب نشوء الإرهاب تختلف باختلاف المجتمعات تبعاً لاختلاف اتجاهاتها السياسية والدينية وظروفها الاقتصادية والاجتماعية.

٢ـ انّ للإرهاب أسباباً مباشرة وهي وحدها كافية لوجوده وهناك أسباب غير

مباشرة، وهي العوامل المؤثرة في نفوس بعض الناس قد تجعلها سهلة الانقياد لدعاة العنف والإرهاب.

٣ـ البيئة التي يعيش فيها الانسان وما تموج به من انحرافات وتناقضات تثير كوامن النفوس وتبعث روح المعارضة والعنف .

* هوامش البحث *

(١) سورة الانبياء، الاية (١٠٧) .

(٢) الطوسي، العدة في الاصول، ١ / هامش ٨٥ .

(٣) ابن البطريق، العمدة، ٤٦٠ .

(٤) الطبرسي، مجمع البيان، ٥ / ٧٢ .

(٥) الشهرستاني، الملل والنحل، ١/ ٩٢ .

(٦) ابن الاثير، الكامل، ٣/ ٢١٨، ٢١٩ .

(٧) م . ن، ٣/ ٢٥٧ .

(٨) القاضي النعمان، شرح الاخبار، ٢/ ١٧١ ؛ الحاكم النيسابوري، المستدرك، ٣/ ٤٦٨؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١٢/ ٢٠٧ .

(٩) الثقفي، الغارات، ٢/ ٧٩٦ ؛ الشريف الرضي، خصائص الائمة، ٥٤

(١٠) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ١٢/ ٢٧٣ .

(١١) ابن الاثير، الكامل، ٣/ ٤٥٥ ؛ الشيخ المنتظري، دراسات في ولاية الفقيه، ١/ ٥٨٣.

(١٢) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ١٢/ ٢٧٣ .

(١٣) ابن قتيبة، المعارف، ٢١٦ .

(١٤) القرشي، النظام السياسي في الإسلام، ٧٨ .

(١٥) الشهيد الثاني، شرح اللمعة ، ١/ ٢٠٣ .

(١٦) الامين، مستدركات أعيان الشيعة، ١/ ٧٣ .



(١٧) م . ن، ١ / ٧٣ .

(١٨) البراقي تاريخ الكوفة، ٩٢ .

(١٩) الصدوق، من لايحضره الفقيه، ٢/ هامش ٥٢٩ .

(٢٠) الامين، اعيان الشيعة، ١ / ٢٩.

(٢١) م . ن، ١ / ٢٩ .

(٢٢) الشبستري، الفائق، ١ / ١٢٧ .

(٢٣) الامين، اعيان الشيعة، ١/ ٢٩ .

(٢٤) م . ن، ١/ ٣٠ .

(٢٥) القاسم، ازمة الخلافة والامامة، ٢٦٣ .

(٢٦) منهاج السنة، ٣ / ٢٤٣ .

(٢٧) م . ن، ٣/ ٣٨ .

(٢٨) منهاج السنة، ٤ / ١١٠ .

(٢٩) القاسم، ازمة الخلافة والامامة، ٢٦٣ .

(٣٠) عبد، واقع الإرهاب، ١٣٤.

(٣١) حمادي، الإرهاب أسبابه، الفجر نيوز، في ٣/ ١٠/ ٢٠٠٩ ؛ الحوار المتمدن، دراسات وابحاث قانونية، العدد / ٣٤١٩ في ٧/ ٧/ ٢٠١١.

(٣٢) م . ن، في ٣/ ١٠/ ٢٠٠٩ .

(٣٣) عبد، واقع الإرهاب، ١٣٤ ؛ الحوار المتمدن، دراسات وابحاث قانونية، العدد / ٣٤١٩ في ٧/ ٧/ ٢٠١١.

(٣٤) حمادي، الإرهاب أسبابه، الفجر نيوز، في ٣/ ١٠/ ٢٠٠٩ .

(٣٥) الحوار المتمدن، دراسات وابحاث قانونية، العدد / ٣٤١٩ في ٧/ ٧/ ٢٠١١.

(٣٦) حمادي، الإرهاب أسبابه، الفجر نيوز، في ٣/ ١٠/ ٢٠٠٩ ؛ الحوار المتمدن، دراسات وأبحاث (قانوني)ة، العدد / ٣٤١٩ في ٧/ ٧/ ٢٠١١.

(٣٧) بركات، الإرهاب في المنظور الاقتصادي، مجلة النبأ، العدد (٧٨) في آب / ٢٠٠٥ .

(٣٨) حمادي، الإرهاب أسبابه، الفجر نيوز، في ٣/ ١٠/ ٢٠٠٩ ؛ الحوار المتمدن، دراسات وابحاث قانونية، العدد / ٣٤١٩ في ٧/ ٧/ ٢٠١١.

(٣٩) حمادي، الإرهاب أسبابه، الفجر نيوز، في ٣/ ١٠/ ٢٠٠٩.

* المصادر والمراجع *

القرآن الكريم .

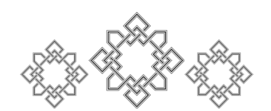
- ابن الاثير، ابي الحسن محمد بن عبد الكريم بن ابي الكرم الجزري (ت٦٣١هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: ابي الفداء عبد الله القاضي، (دار الكتب العلمية، بيروت).
- ابن البطريق، يحيى بن الحسن الاسدي الحلي المعروف بابن البطريق (ت٦٠٠هـ)، عمدة عيون صحاح الاخبار في مناقب امام الابرار، (مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم المقدسة، ١٤٠٧هـ) .
- ابن تيمية، تقي الدين ابو العباس احمد بن عبد الحليم الحراني الحنبلي (ت ٧٢٨هـ)، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تحقيق: محمد رشاد سالم، (ط١، ١٩٨٦م) .
- الثقفي، ابراهيم بن محمد (ت٢٨٣هـ)، الغارات، تحقيق : السيد جلال الدين الحسيني الارموي المحدث، (د . م) .
- الحاكم النيسابوري، ابي عبد الله (ت٤٠٥هـ)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: يوسف مرعشلي، (دار المعرفة، بيروت) .
- الشريف الرضي (٤٠٦هـ)، خصائص الائمة، تحقيق: محمد هادي الاميني، (الناشر: مجمع البحوث الإسلامية، الاستانة الرضوية المقدسة، مشهد) .
- الشهرستاني، ابي الفتح محمد بن عبد الكريم (ت٥٤٨هـ) الملل والنحل، تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي، (المطبعة العصرية، بيروت ،٢٠٠٧م) .
- الشهيد الثاني (٩٦٦هـ)، شرح اللمعة، تحقيق: السيد محمد كلانتر، (الناشر: منشورات جامعة النجف الدينية، مطبعة أمير، قم المقدسة، ١٤١٠هـ) .
- الصدوق، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (٣٨١هـ)، من لايحضره الفقيه، صححه : علي اكبر غفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدسة).
- الطبرسي، ابي علي الفضل بن الحسن (من اعلام ق٦)، مجمع البيان في تفسير القرآن، (ط١، منشورات الاعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٥م) .

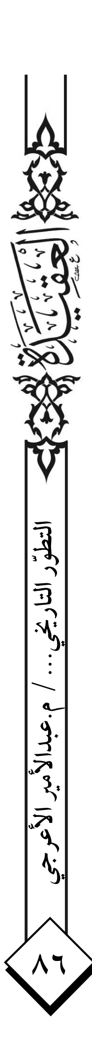


- الطوسي، ابي جعفر محمد بن الحسن (٤٦٠هـ)، تحقيق: محمد رضاا الانصاري، (ط١، مطبعة ستارة، قم المقدسة، ١٤١٧هـ) .
- ابن عساكر، ابي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي (٥٧١هـ)، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: علي شيري، (دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ) .
- القاضي النعمان، بن محمد التميمي المغربي (ت٣٦٣هـ)، شرح الاخبار، تحقيق: السيد محمد الحسيني الجلالي، (مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٤هـ) .
- ابن قتيبة، ابو محمد عبد الله بن مسلم (٢٧٦هـ)، المعارف، تحقيق: د. ثروت عكاشة، (مطبعة دار المعارف، القاهرة).
- الامين، حسن، مستدركات اعيان الشيعة، (ط٢، الناشر: دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٧م) .
- الامين، السيد محسن، اعيان الشيعة، تحقيق: حسن الامين، (الناشر: دار التعارف للمطبوعات، بيروت).
- البراقي، تاريخ الكوفة، تحقيق: ماجد عطية، (ط١،المطبعة الحيدرية، ١٤٢٤هـ).
- الشبستري، عبدالحسين، الفائق، ط١، مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي قم المقدسة، ١٤١٨هـ).
- الشيخ المنتظري، دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية، (ط١،مطبعة مكتب الاعلام الإسلامي، قم المقدسة، ١٤٠٨هـ).
- عبد، محمد فتحي، واقع الإرهاب في الوطن العربي.
- القاسم، اسعد وحيد، ازمة الخلافة والامامة وآثارها المعاصرة، (الناشر: الغدير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٧م).
- القرشي، باقر شريف، النظام السياسي في الإسلام، (ط٢، الناشر : دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٣٩٨هـ).
- النمازي الشاهرودي، مستدرك سفينة البحار، تحقيق: الشيخ حسن بن علي النمازي، (الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة، ١٤١٩هـ).

البحوث والمجلات:

- بركات، الإرهاب في المنظور الاقتصادي، مجلة النبأ، العدد (٧٨)، في آب / ٢٠٠٥ .
- حمادي، الإرهاب واسبابه، الفجر نيوز، في ٣/ ١٠/ ٢٠٠٩ .
- الحوار المتمدن، دراسات وابحاث قانونية، العدد (٣٤١٩) في ٧/ ٧/ ٢٠١١ .





السلفية في مصر

محمود ابراهيم يوسف المرسي

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد النبي الأمي الكريم وعلى آله الطيبين الطاهرين أئمة الهدى ومصابيح الدجى.

أقدّم هذا البحث للتعريف بالسلفية المصرية ومراحل تطورها وتاريخ تواجدها بمصر ومدى ارتباطها بالسلفية الأولى التي أسسها احمد بن حنبل في العصر العباسي ومدى تطابقها معها أو اختلافها ومساحة هذا التطابق والاختلاف .

وكذلك علاقة السلفية المصرية بمراحل السلفية المتتالية من ابن تيمية إلى محمد ابن عبدالوهاب إلى السلفية المدخلية الجامية وكيف كانت العلاقة بينهما تتقارب عندما تتقارب السياسة التي تحكم البلدان التي تتبنى المنهج السلفي وبيان مدى العلاقة الوثيقة بين النهج السلفي على مر العصور وبين الساسة والحكام.

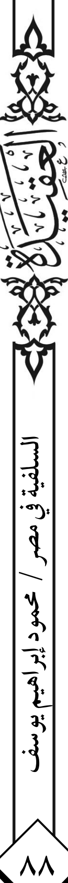
ووضحت في هذا البحث التعريف بالتيارات السلفية في مصر باختصار والأسس التي تجمعها وكيف تتم المناورة بتعدد التيارات السلفية وبخاصة في العصر الحديث مع تفاقم الصراع بين السلطة السياسية وبين أي تيار يحاول التواجد على الساحة بدون إذن من السلطة السياسية، سواء إذن مباشر كالأحزاب السياسية أو

إذن غير مباشر كالتيارات التي تتبنى النهج المسمى بالإسلام السياسي.

وتعدّ السلفية أكثر التيارات التي كانت نشأتها سياسية خالصة وظلت غطاء لظلم الحكام ومنع الجماهير من الاعتراض على فسادهم بحجة حرمة الخروج على الحاكم الشرعي، هذا الحاكم الذي يمكنه في نظرهم أن يكون غالبا بالقوة على الحكم أو طفلا صغيرا لم يبلغ الحلم قد ورثه من آبائه طالما يملك القوة والبطش للسيطرة على مقادير الناس.

ألوان السلفية وصورها:

يمكننا القول بان السلفية لها صور متعددة فإذا كانوا في مواجهة مع الفرق الأخرى يطلقون على أنفسهم أهل السنة والجماعة وهؤلاء هم البذرة الأولى للسلفية كما حدث بعد خروج الفئة الباغية بقيادة معاوية بن أبي سفيان على الإمام والخليفة علي ابن أبي طالب عليه السلام وما قام به الإمام الحسن بن علي عليه السلام من وضعهم في أصعب اختبار لهم لا يمكنهم إيجاد مبرّر لسقوطهم فقد وضع شروطاً ومواثيق علمتها الأمة جمعاء على معاوية بن أبي سفيان في مقابل تولى معاوية السلطة أو الخلافة وليس الإمامة لان الذي منح معاوية هذا الاختبار ووضعه فيه هو الإمام الحسن عليه السلام وهذا دليل على إمامته لأنه هو الذي يملك وضع معاوية ومن معه في هذا الاختبار الذي ما لبث أن سقطوا فيه سقطة ظلت وستظل وصمة يتمايزون بها وهي إخلافه العهد ومخالفة الوعد وعدم التزامه بشروط وقع هو عليها. هؤلاء أطلقوا على أنفسهم أهل السنة والجماعة ثم إذا وجدوا أنفسهم في عامة الموالين لمعاوية وكان فيهم جميع الألوان بل والأديان جمعتهم المصلحة في ذلك الوقت يريدون التمايز عليهم فيطلقون على أنفسهم السلفيين إمعانا في القداسة فهم النخبة من فريق أهل السنة والجماعة كما يدعون.



أما عن السلفية فقد كان أوضح ظهور لها في العصر العباسي في عهد الخليفة المتوكل وذلك لإضعاف الفرق الإسلامية التي بدأت تناهض الظلم وتدعو للعقل ومواجهة الغزو الفكري بإنشاء فكر إسلامي يناظر الفكر اليوناني والفارسي بل ويتفوق عليه بدمج الحضارات في بعضها لإنتاج حضارة عربية إسلامية تحتوي جميع الحضارات التي فتحت بلدانها وتتفوق عليها ولكن الخليفة الجديد أراد أن يخمد صوت العقل الذي غالبا ما يتعب الحكام المتسلطين.

و كان رائد هذا الفكر ومؤسسه هو صاحب المسند وجامع الأحاديث المحدث احمد بن حنبل الذي حبس في سبيل فتنة خلق القرآن التي لم تكن من أسس الإيمان التي اقرها الرسول صلى الله عليه واله وسلم أو الصحابة ومن تواجد في عصر النبوة ولم يرد أي نص سواء كان قرآنا أو حديثا يصرح لنا بأن القرآن مخلوق أو قديم ومع ذلك من يدعون أنهم سلفيون ويتبعون السلف ابتدعوها ودافعوا عنها بل وكفروا من يخالفهم فيها وأصبحت هذه هي قضيتهم المؤسسة لمذهبهم والفارقة بين الإيمان والكفر عندهم.

حبس احمد بن حنبل حتى جاء عصر المتوكل فأراد المتوكل التخلص من ارث سابقيه السياسيين من معتزلة وأشاعرة وشيعة أهل البيت عليهم السلام فأطلق سراح احمد بن حنبل وبدأت محنة التكفير لمن لا يقول بقدم القران وكان لابد من إيجاد قضية دينية عقائدية يمكن للسلطة أن تقاتل دفاعا عنها بفتوى من كبار الفقهاء وتحمي سياستها وظلمها بخط ديني ويضفي عليها القداسة.

فكانت فتوى احمد بن حنبل بحرمة الخروج على الحاكم حتى لو كان ظالما وبدأت تتلى الأحاديث الصحاح التي توضح وتنوه بان من قاتل حاكما ظالما أو خرج عليه ولو بكلمة فإنما هو خارج عن الجماعة فيجب قتاله وقتله وأصبح الحاكم ظل الله في الأرض ولا يمكن حتى إهانته أو التعرض له ودونت كتب السياسة الشرعية لهذه الفرقة السلفيين لتأصل لهذا الفكر.

وكانت أوربا في العصور الوسطى تعاني من الفكر نفسه الذي جعل رجال الحكم من القياصرة هم ظل الله في الأرض وتمت رشوة رجال الدين بالمناصب الكنسية المقدسة والحياة الرغيدة في مقابل الحفاظ على قداسة رجال الحكم حتى كان هذا هو السبب الرئيسي في انهيار أوربا.

بل إن الفراعنة في عصور ما قبل الميلاد كانت لها الفكرة نفسها، وهي إعطاء المال والسلطان لرجال المعبد في مقابل إعطاء القداسة لرجال الحكم فكان كهنة المعابد يجعلون الفرعون ابن اله أو نصف اله حتى يحرم الخروج عليه أو حتى التعرض له بالنقد في مقابل نفوذ سياسي ومالي لرجال المعبد.

الأسباب الحقيقية لإنشاء السلفية :

وبهذا يمكننا القول بان السلفيين هم فرقة وجدت في جميع الأديان وهم يضفون القداسة على الحكام وبخاصة الظالمين منهم، لينالوا أيضا مكانة عند الحكام ويتمسكون بفهم القرون الأولى للنص المقدس على الرغم من وجود الصالح والطالح في هذه العصور وأنهم بشر ليسوا معصومين وأن الله ذم المقلدين ومدح من استخدم عقله ودعا للتفكر والتدبر.

وإذا كان هؤلاء هم السلفيون الأوائل أو المؤسسون الأوائل للسلفية، فإنّ أحفادهم من السلفيين الأواخر ساروا على نهجهم شبرا بشبر وذراعا بذراع فقد تكرر الموقف نفسه مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب بوصفه طرفاً دينياً نظيراً لأحمد بن حنبل وناسجا على منواله ومحمد بن سعود نظيرا للمتوكل وناسجا أيضا على نفس المنوال، فكما كان موضوع خلق القرآن هو الفيصل عند احمد بن حنبل وجماعته بين الكفر والإيمان، أصبح زيارة الأضرحة أو إقامتها هي الفيصل بين الكفر والإيمان عند محمد بن عبد الوهاب وكان لابد لمحمد بن سعود من فتوى بتكفير سكان المملكة ليغير عليهم ويقتل منهم ما يشاء ويسبي منهم ويغنم ، وتعاون الشيخ محمد بن عبدالوهاب

مع محمد بن سعود بالفتوى وتعاون محمد بن سعود مع الشيخ بنشر فكره وإلزام البلاد التي يغزونها أو يفتحونها كما يحبون تسمية حروبهم بالفتح أمّا ما يفعله الرسول فيسمونه غزو فهذه فتوحات محمد بن سعود يقتل من يشهد أن لا اله إلا الله ويصلى ويصوم لكنه أقام ضريحا أو زار ضريحا ومن أراد المزيد من أفعال محمد بن سعود وأحوال أهل الجزيرة الذين كفرهم محمد بن عبد الوهاب فليرجع للتاريخ.

وبعد أن تم توطيد الحكم لابن سعود واتسعت مملكته لتشمل اغلب الجزيرة العربية كان لابد من سياج ديني مقدس يحميها فكانت فتوى الشيخ محمد بن عبدالوهاب بحرمة الخروج على الحاكم الظالم فما أشبه اليوم بالبارحة.

والتاريخ يعيد نفسه بالفتاوى نفسها والأهداف نفسها وما يفعله التكفيريون الآن من الفئات الخارجة لقتل الأبرياء بفتاوى السلفيين أجدادهم.



مراحل تطور السلفية:

وقد مرّت السلفية بمراحل متعددة متأثرة بالمناخ السياسي العام فمتى اتخذتهم السلطة مطية لتحقيق رغباتها بالحفاظ على ممالكها وعدم الخروج عليها مهما استشرى الظلم لرعيتها فكانوا لها نعم المطيع وسعت لهم ونشرت أفكارهم كمن يربي حيوانا متوحشا يروضه ليحميه ويفتك بأعدائه.

فإذا قويت شوكتهم وأحسّ السياسيون بخطرهم قاومتهم السياسة وضيّقوا عليهم فأصدروا فتاوى التكفير للساسة أنفسهم والمجتمعات نفسها كما حدث في ثمانينات وتسعينات القرن الماضي عندما حاربوا وفجروا الآمنين لا لشيء إلا نكاية في سلطة سياسية وعدتهم بالتوسعة لكنها ضيقت عليهم فكانت النتيجة قتل الشعوب البريئة كما فعلوها بالأمس وظهر منهم فريقا سمى نفسه بالسلفية الجهادية.

وعليك أن تتعجب عندما تسمع لفظين متناقضين في جملة مفيدة السلفية

الجهادية تقتل الأبرياء وتخرج على الحكام مناقضة أهم أساس من أسس إقامة السلفية قديما وذلك لتبادل الأدوار فيما بينهم، فإذاً حسب المناخ السياسي إذا وجدوا سلطة توسع لهم أصدروا فتاواهم لحمايتهم وإذا تم التضييق عليهم خرجت جماعاتهم المجاهدة بفتاوى لقتال الدول التي يعيشون فيها.

ولم نجد السلفيين يوما يطالبون بالعدالة الاجتماعية أو الحريات للناس ولكن كيف لهم المطالبة بالعدالة الاجتماعية وقد حارب سلفهم أبا ذر الغفاري لمطالبته بالعدالة الاجتماعية وما نفي أبي ذر الغفاري إلا لمطالبته السلطة السياسية بالعدالة الاجتماعية.

وكذلك لم نجد يوما السلفيين يحاربون ظلما لم يطالهم بل يقفون مع الظالم ضد المظلوم طالما كان ذلك في مصلحتهم فقد كانوا قديما مع بني أمية على ظلمهم ومع بني العباس على ظلمهم.

وكان مسمى السلفية فقط يكفي لخداع العامة بهم وطاعتهم حتى يصبح الناس رعاعا للحاكم ويسهل عليهم الأمر فلا يستخدمون عقولهم في التفكير بل يطيعون علماءهم ويقلّدون سلفهم أمّا الحاكم فهو يفعل بهم ما يشاء وعليهم السمع والطاعة وإن ضرب جلودهم واغتصب أموالهم.

السلفية في مصر:

ليست السلفية في مصر ببعيدة عن السلفية في بقية العالم الإسلامي، فقد مرت بنفس مراحلها الفكرية متأثرة بها إيجابا وسلبا حسب الرابط السياسي بين الحكام في مصر والحكام في البلاد التي تنتشر فيها السلفية.

لكن هذه المراحل لم تكن بنفس الوضوح والاستقلالية في مصر نظرا لبعد مصر عن الوقوع تحت سلطة الحكام الذين تبنتهم السلفية أو تبنوا السلفية انتفاعا متبادلاً

ولان السلفية في مصر وفي غيرها كانت صناعة سياسية بامتياز فهي في مصر تزدهر عندما يكون الحكم في مصر رخواً وتابعاً لآل سعود، وأما عندما تسوء العلاقات بين الحكم في مصر والحكم في بلاد نجد والحجاز نجد السلفية في مصر تبتعد عن السياسة وتصبح سلفية دعوية بامتياز أو سلفية خدمية كالجمعية الشرعية وغيرها من المؤسسات التي أنشأت على أساس خدمي اجتماعي ثم تسلل إليها السلفيون في أوقات تحسن العلاقات بين مصر وحكام الجزيرة.

ويعدّ كتاب العقيدة الطحاوية هو الكتاب المعتمد عند السلفية في العقائد، ومؤلفه عالم سلفي مصري هو أبو جعفر الطحاوي الذي ولد في صعيد مصر.

ويعدّ هذا المتن أهمّ متن يعتمد عليه السلفيون في شرح عقائدهم في عصرنا الحديث كما زار المؤسس الثاني للسلفية ابن تيمية الحراني مصر وترك بها تلامذته أيضا بعد هزيمة العثمانيين للوهابيين في نجد والحجاز جاؤوا بالأسرى من علمائهم إلى مصر وقام بعضهم بنشر السلفية الوهابية أيضاً.

وبهذا نجد أنّ السلفية في مصر امتداد للسلفية في بقية الدول الإسلامية لكن حكامها لم يفسحوا لهم المجال إلّا بالقدر الضئيل عندما وسع لهم الرئيس الأسبق محمد أنور السادات وترك لهم الحرية في نشر الفكر فقط لضرب التيار الناصري اليساري الذي كان مواليا للرئيس جمال عبد الناصر الذي كان ينادي بالاشتراكية اليسارية.

وهذا يعني أنّ السلفية في مصر كانت مطية طيعة للحاكم لكننا لم نجد حاكما يوسع لهم إلا بالقدر الذي يريده هو ففي عهد السادات وسع لهم قليلا ليضرب بهم التيار اليساري الناصري لكنه لم يسمح لهم بالحرية الكاملة فما كان منهم إلا إصدار الفتوى بتكفيره وقتله.

فلما جاء حسني مبارك للحكم كان ضعيفا لا يستطيع مواجهة هذه التيارات في

بداية حكمه لذلك وسع لهم قليلا لخداعهم حتى تمكن منهم وقتل منهم من قتل بأيدي قوات الأمن بعد محاربتهم للدولة وظهور ما يسمى بالسلفية الجهادية فدخلوا مع الدولة في صراع كانت الغلبة للدولة وبعدها وجدوا أن فصيل الإخوان المسلمين بدأ يتغلغل في المجتمع المصري فما كان من السلفيين مفر إلا الارتماء في أحضان الدولة ليسمح لهم بالعمل العام فكانوا مطية طيعة للدولة لحرب الإخوان واليساريين وكانت الدولة وفية لهم فمنحتهم هامشا في الدعوة والعمل الاجتماعي لكن تحت عين الأمن وسمعه.

العلاقة بين السلفية في مصر والسلفية الوهابية:

تختلف السلفية في مصر عن السلفية الوهابية في أنها ليس لها هيكل تنظيمي يجمعها يكون معروفا للجميع أو خالصا لهم وإنما هم في مصر متواجدون في ضمن جمعيات خيرية اجتماعية ذات طابع خدمي وتجمعهم بغيرهم من التيارات الأُخرى فهي مفتوحة للجميع وليس لها واجهه واضحة المعالم مثل الجمعية الشرعية التي كانت ومازالت تخشى الانخراط في السياسة أو الحديث فيها إلا على استحياء خوفا من بطش الأمن الذي يشرف على نشاطها إشرافاً تامّاً.

أمّا السلفية الوهابية فهي نشأت وترعرعت في أحضان السياسة وظلت إلى اليوم الذراع الأقوى للسياسة في دولة آل سعود بها يقتلون وبها يمنحون وبها يمنعون وليس لهم سوى ما تسمح لهم السلطة من عطايا مادية ونفوذ مقيد بسلطة الساسة لهم كيانات وجمعيات كأمثال هيئة كبار العلماء أو هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلها هيئات سياسية بغطاء ديني شرعي.

بينما الدعوة السلفية الوهابية بدأت واستمرت سياسية انتشرت بحد السيف أو بالمال النفطي، نجد السلفية في مصر تأثّرت بعض تياراتها بالسلفية الوهابية بسبب

المال النفطي لكنها كانت وظلت بنكهة مصرية تطرفت أحيانا قليلة وفي معظم الأحيان ظلت مستأنسة.

كانت جمعية أنصار السنة المحمدية في مصر هي الفرع الوهابي للسلفية في مصر من حيث البوح بالتكفير لبعض الجماعات الموجودة في حينها وبخاصة الصوفية.

خريطة السلفية في مصر والهيئات التي تمثلها:

■ **جمعية أنصار السنة المحمدية:**

هي جمعية سنية سلفية إصلاحية على عقيدة أهل السنة والجماعة وهي الذراع الوهابي في مصر منذ نشأتها عام ١٩٢٦ بعد سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية وتدعو إلى تنقية الإسلام مما علق به من بدع وخرافات وكان من أهمها الأضرحة وزيارة الأضرحة كما كانت الدعوة الوهابية بل وصدرت فتاوى عنها تكفر وتبدع وتمنع الصلاة في المساجد ذات الأضرحة وتحاربها.

أنشأت بالقاهرة في مسجد الهدارة برئاسة الشيخ محمد حامد الفقي الذي درس في الأزهر وتتلمذ على كتب ابن تيمية الحراني وابن القيم تلميذ ابن تيمية وكذلك كتب محمد بن عبد الوهاب وكانت له مواقف من الإخوان المسلمين في حينها مناوئ لها وكان كل ما يهمه هو محاربة بدع الأضرحة وزيارة القبور حتى عندما خرجت الجماهير أيام سعد زغلول للمطالبة بالاستقلال عن الانجليز كان هو يحرم المظاهرات ويرفضها كوسيلة للتغيير.

وأصدرت مجلة الهدي النبوي المعروفة بخطها السلفي الوهابي التكفيري حتى أنهم كفروا من عاداهم من التيارات الأُخرى.

التأسيس:

تم تأسيس جماعة أنصار السنة المحمدية بمدينة القاهرة وقام بتأسيسها الشيخ

محمد حامد الفقي الذي كانت نشأته أزهرية وما تربى عليه من كتب ابن تيمية ومحمد بن عبدالوهاب الذي جعله يرى أن المجتمع المصري قد انحرف عن العقيدة الإسلامية الصحيحة كما كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب يرى مجتمع الجزيرة العربية بأنه قد انحرف عن العقيدة الإسلامية فكان يجب عليه إعادة هذا المجتمع للإسلام الصحيح الذي يمثله هو ومن يراهم علماءه.

كان الفقي من علماء الأزهر، كما كان من مرتادي (الجمعية الشرعية)، لكنه اختلف مع شيوخها حول قضية (الأسماء والصفات)، ذلك لان الجمعية الشرعية كانت في بدايتها بعيده عن الفكر الوهابي الذي يدعي السلفية لذلك انشأ الشيخ هذه الجماعة أو الجمعية لتعيد المصريين موجّهة نظره إلى الدين الصحيح.

وما أن حصل الفقي على شهادة العالمية من الأزهر (الدكتوراه) حتى انطلق ومجموعة التفت حوله إلى الدعوة إلى التوحيد الخالص والدفاع عن السنة في المساجد والمقاهي والمنتديات، ولما كثرت الاحتكاكات معه من بين عامة الشعب المصري الذين لم يألفوا هذا الفكر كان أكثر تصادمه مع الصوفيين الذين كان لهم تواجد في مصر بعد أن أحضرهم إليها صلاح الدين الأيوبي الذي أراد محاربة الفكر الشيعي بهم ولكنهم ظلوا موالين لأهل البيت عليهم السلام حتى لو كان الولاء ولاء عاطفيا لذلك كانوا هدفا للشيخ محمد حامد الفقي ورفاقه فذاع صيته وانتشر خبره بين العامة وأصبح يستغل كل مكان أو تجمع ليثير المشاكل مع عامة الصوفية وبذلك تجمع حوله شباب أغرار حتى يناولوا ما ناله من شهره جابت القطر المصري وبدأوا يقتنعون بفكره ويدافعون عنه.

بعد وفاة الشيخ الفقي تعاقب على جماعة أنصار السنة عدد من الرؤساء حتى عام ١٩٦٩، وهو العام الذي أدمجت فيه الحكومة المصرية جماعة أنصار السنة في الجمعية الشرعية، واستمرت الجماعة على هذا الحال حتى جاء عام ١٩٧٢، فأعيد إشهار الجماعة مرة أخرى على يد الشيخ رشاد الشافعي (المؤسس الثاني)، مستفيدة من

أجواء حالة الانفتاح السياسي التي سمح بها الرئيس السادات. وينتشر أعضاء الجمعية في كل محافظات مصر، ولها في مصر قرابة مائة فرع وألف مسجد.

أهمّ الرموز:

من الرؤساء الشيخ محمد حامد الفقي، عبدالرزاق عفيفي، عبدالرحمن الوكيل، رشاد الشافعي، محمد علي عبدالرحيم، صفوت نور الدين.

ومن العلماء: الشيخ عبد الرزاق حمزة عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية سابقا، والشيخ أبو الوفا درويش رئيس فرع الجماعة بسوهاج، والدكتور محمد خليل هراس أستاذ العقيدة بجامعتي الأزهر وأم القرى، والشيخ محمد عبد الوهاب البنا المدرس بالحرم المكي، والشيخ عبد الظاهر أبو السمح إمام الحرم المكي ومؤسس ومدير دار الحديث الخيرية بمكة المكرمة.

وتمّ تجميد نشاطها منذ ذلك الوقت وكان ذلك بسبب الموقف السياسي لآل سعود من الحكومة المصرية الذي كان عدائيا وصل لدرجة تحريض الولايات المتحدة الأمريكية على ضرب مصر لأنهم يبغضون جمال عبدالناصر.

ولما تولى أنور السادات كانت علاقاته بعرب الجزيرة جيدة قبل معاهدة كامب ديفيد كان قريبا منهم وذلك محاولة منه ومنهم لمحو كل آثار جمال عبد الناصر في ذلك الوقت تدخل الأستاذ محمد رشاد الشافعي عند أنور السادات عام ١٩٧٢ لإعادة الجمعية وفعلا أعيد إشهارها مرة أخرى فكما قلنا ونقول بان التيارات السلفية صنيعة السياسة تمحوها السياسة وتنشئها السياسة.

وبعد عودتها للنشاط وتوقف مجلة الهدي النبوي أصدروا مجلة التوحيد التي لاتقلّ حدة في تكفير جميع الطوائف المخالفة لهم من دون التعرض من قريب أو بعيد لظلم الحكام بل كانت السياسة تستخدمهم مطية مستأنسة كعادتهم منذ نشأتهم يكفرون من تسمح لهم السياسة بتكفيرهم.

وكانت أهداف هذه الجمعية كما أعلنتها:

الدعوة إلى التوحيد الخالص من جميع الشوائب، العودة إلى ربط الدنيا بالدين، الدعوة إلى إقامة المجتمع المسلم.

وكانت جمعية أنصار السنة المحمدية ومازالت تلعب الدور البارز في نشر الفكر السلفي الوهابي عن طريق منشوراتها سواء كانت تلك المنشورات مجلات أو كتب توزع مجانا أو دروس ومحاضرات للعديد من منظري السلفية الوهابية وخاصة من أبناء الجزيرة العربية التي تبنت هذا الفكر وقامت عليه سياستها تحميه وتدعمه بالمال والمواقف.

الهيكل الإداري للجمعية:

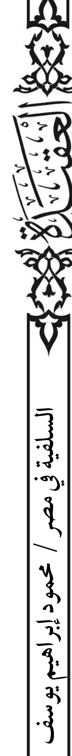
١- الرئيس العام وهو الذي ينتخب من قبل الجمعية العمومية.

٢- الجمعية العمومية ويمثل فيها كل فرع للجمعية فردان فقط ماعدا القاهرة يمثلها خمسة عشر عضوا والإسكندرية ويمثلها سبعة أعضاء وذلك لأهميتهما وانتشار الفكر السلفي فيهما.

٣- مجلس إدارة الجماعة وهو الذي ينتخب من الجمعية العمومية للجمعية ويتكون من الرئيس ونائبه والوكيل والسكرتير العام وأمين الصندوق وعشرة من الأعضاء.

٤- الهيئة التنفيذية للجماعة وهي المعينة من قبل مجلس الإدارة وتشمل إدارات : التخطيط والمتابعة الدعوة والإعلام والبحث العلمي والمشروعات الدعوية والإغاثة والمالية والعلاقات العامة والفروع والشباب والشئون القانونية.

٥- المنهج.



قامت هذه الجماعة على دعوة الناس إلى التوحيد الخالص المطهر من جميع أنواع الشرك؛ لأنهم يعتقدون أو بالأحرى يوهمون متبعيهم بان المسلمين قد انحرفوا عن عقيدتهم فيجب إعادتهم إلى العقيدة الصحيحة من وجهة نظرهم هم وكأنهم موحى إليهم بأنهم أهل الحق أو كأنهم الوحيدون الذين يملكون الحقيقة المطلقة للإسلام، والدعوة إلى صحيح السنة التي صححوها هم بل ضعّفوا كل من روى السنة وليس على ما عليه فكانوا الخصم والحكم في تعريف الصحيح والدعوة إلى إتباعه ولابد من أن يكون فهم هذه الروايات التي صححوها بمفهومهم يكون فهما بفهم سلفهم الصالح، وإرشاد الناس إلى نصوص الكتاب، والدعوة إلى مجانبة البدع والخرافات ومحدثات الأمور، وكان لابد من دس السياسة التي أقامت دعوتهم في الدين الذي يظنون أنّهم الوحيدون الذين يملكون حقيقته هم ومن اختاروه من السلف فقالوا بان الإسلام دين ودولة وهنا يجب أن يضعوا أيضا المعايير والمقاييس لمن يتولى رئاسة الدولة الذي يكون أميرا للمؤمنين واجب الطاعة ومهما فسد أو انحرف يحرم الخروج عليه بمنهجهم ورواياتهم وتطبيق شرع الله بمفهومهم هم وسلفهم فقط ومن كان مختلفا معهم فهو على غير الإسلام كيف وهم خيرة أهل السنة والجماعة وهم يمثلون السلف المعصوم.

إما بالنسبة للنظام الديمقراطي الذي سيصلون من خلاله إلى الحكم فهو نظام كفر لا يؤمنون به لكنهم يستخدمونه وسيلة لحصول الحكم وتطبيق شرع الله كما يدعون فكانت غايتهم تطبيق شرع الله ووسيلتهم الديمقراطية التي هي كفر لأنها تجعل التشريع بيد الشعب.

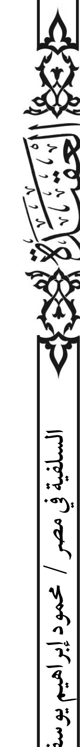
وفي مجال أصول الدعوة، ترى الجماعة بأنه يجب على المؤمنين التوحد تحت رايتهم هم فالانضمام لأي جماعة أو فريق سياسي محرما إلا الانضمام لهم لأنهم يمثلون جماعة المسلمين ولا يوجد احد غيرهم يمثل الإسلام.

و ترى الجماعة كما رأى محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود من قبل وكما رأى المتوكل من قبلهم بأنه لا يمكن بناء جماعة أو امة مسلمة إلا بعد نشر التوحيد ومحاربة أهل البدع وبذلك يكون حلالا قتال هؤلاء المبتدعة واخذ مالهم وأرضهم لإقامة الدولة المسلمة.

وترفض العمل المسلح ضد الحكومات وأي عمل يمكنه زعزعة الحكام ترفضه إلا أن لها أجنحة تقاتل الحكام وتحارب المسلمين لأنهم مبتدعة ويجب إعادتهم إلى الدين الخالص وإقامة دولة الإسلام الخالص.

فروع الجمعية:

كان للجمعية فروع تغطي جمهورية مصر العربية ثم توسعت إلى السودان وكثير من الدول الإفريقية لنشر الفكر السلفي عن طريق قوافل الإغاثة. و قد استقطبت هذه الجمعية كثيراً من علماء السلفية في مصر والعالم العربي.



■ **الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية:**

نشأتها:

أنشئت هذه الجمعية عام ١٩١٢ في مصر في القاهرة أنشاها الشيخ محمود خطاب السبكي وتعدّ الآن من أكبر الجمعيات السلفية خارج المملكة السعودية وقد انتشرت انتشاراً واسعاً في العالم الإسلامي بفضل الأعمال الخيرية وتبرعات أهل الخليج لها وكذلك تبرعات غالبية أثرياء العالم الإسلامي نظراً لغطائها الخيري المنتشر في معظم البلدان.

وعلى الرغم من أن الشيخ محمود خطاب السبكي يفترق كثيرا عن النهج الوهابي السلفي إلا أن المملكة السعودية سيطرت على توجهات الجمعية بعد ذلك

بفضل الإغداق بالأموال التي تساعد الجمعية على الانتشار واتساع رقعة القوافل الاغاثية ومن خلالها تم نشر الدعوة السلفية.

و كان لهذه الجمعية مسارات متوازية بدأت بالمسار الدعوي من خلال الخطب وتوزيع الكتب المجانية والأشرطة الصوتية لعلماء السلفية وانشات معاهد لإعداد دعاة على نهجها حتى تحكم قبضتها على مساجد أقيمت ثم تبرع بها أصحابها للجمعية.

المسار الثاني والأهم هو الدعوة من خلال العمل الخيري وقوافل الإغاثة التي امتدت داخل مصر وخارجها بفضل المال المتدفق من الخليج ومن بعض المتبرعين في مصر وغيرها من البلدان الإسلامية.

المسار الثالث الدعوة العملية من خلال إقامة دور حضانة ومراكز طبية ومراكز رعاية الأيتام يتم من خلالها الترويج لفكر الجماعة وتحسين صورتها وأيضا تحسين نظرة المجتمعات للجمعيات السلفية وكذلك رعاية الطلبة الوافدين للتعليم في الأزهر الشريف رعاية تجعلهم خير سفراء لها في بلادهم.

و قد تناوب على رئاسة الجمعية كثير من العلماء المشهورين بعد مؤسسها الشيخ محمود محمد خطاب السبكي، وبعده ابنه الشيخ أمين محمود خطاب السبكي، ثم حفيده الشيخ يوسف أمين محمود خطاب السبكي، ثم الشيخ عبد اللطيف مشتهري، ثم الشيخ محمود عبدالوهاب فايد، ثم الشيخ فؤاد على مخيمر ، ثم الشيخ محمد مختار المهدي. وتعدّ الجمعية الشرعية من أكبر مؤسسات السلفية في مصر انتشارا ونجاحا نظرا لأنها سارت في مسارات متعددة فأقامت مؤسسات ضخمة يصعب التقليل من شأنها في النواحي الخدمية سواء كانت الطبية منها أم الاجتماعية لذلك نجد الدولة يصعب عليها فعليا السيطرة عليها رغم أنها قانونيا مثل جميع الجمعيات الخيرية في مصر تخضع لوزارة التضامن الاجتماعي إلا أن تغلغلها وحاجة معظم فقراء المجتمع لها كان وما زال له التأثير القوي في نشر الفكر السلفي على مدى قرن من الزمان.



■ **السلفيون المستقلون:**

النشأة:

السلفيون المستقلون يمكننا تسميتهم بهذا الاسم تجاوزاً أو تفريقاً لهم عن السلفيين الذين ينتمون لمنظمات سياسية معروفة ومشهورة ورسمية وهم امتداد للسلفية المصرية المتأثرة بالسلفية في العالم الإسلامي وقد مثله عدد من المجموعات والجمعيات منذ بدايات القرن العشرين مثل جمعية الهداية التي قادها الشيخ محمد الخضر حسين، وكانت تقوم كغيرها من التيارات السلفية على ما افترضوه إسلاما حقيقيا وما هو إلا أمور ظاهرية، وكانت تقوم على الدعوة إلى الاهتمام بالظاهر في المسائل المتعلقة بشكل الملابس واللحية وشعر الرأس والحجاب، وغيرها من هذه الأمور. ثم امتد هذا التيار إلى سبعينيات القرن الماضي متأثرين أيضا بالتيارات السلفية القادمة من المملكة السعودية، لكنهم لم يجمعهم تنظيم معين ولا يسعون لذلك، ولا يجمعهم إلا شيخ يتتلمذون على يديه، ويلتفون حوله حتى كونوا عددا من المجموعات تلتف حول عدد من المشايخ.

أهم الرموز:

أشهر هذه المشايخ وأكثرهم شعبية هو أسامة عبد العظيم أستاذ أصول الفقه بجامعة الأزهر، ويقال إن أتباعه يزيدون عن مائة وخمسين ألفا من النشطاء منتشرين في معظم أنحاء مصر، ويعدّ الشيخ محمد مصطفى الدبيسي ثاني أهم رموز هذا التيار، ويعد بمثابة النائب لأسامة عبد العظيم.

المنهج:

يؤمن هذا التيار بالتغيير القاعدي حتى تتاح لهم الفرصة للوصول للحكم وهو رأس الهرم السياسي في الدول التي يقيمون بها أو يريدون السيطرة عليها لذلك

هم يصلحون الأفراد وعيونهم تتطلع إلى كرسي الحكم الذي من خلاله سيمكنهم تطبيق فهمهم للشريعة الإسلامية أو إن شئت قلت شريعتهم هم بفهمهم لتحقيق أهدافهم، ثمّ إنّ شأنهم كشأن باقي الفصائل السلفية يتخذون من تنقية الدين من البدع مظهرا للوصول لتقبل الناس لهم الانقياد تحت إمرتهم فمن من الناس لا يريد تنقية الإسلام من البدع، وبدأت تتطور وسائل هذا التيار في نشر الدعوة من الخطابة وإلقاء الدروس إلى الدخول في الفضاء الإلكتروني والإعلامي ثم التغلغل في الجامعات والمؤسسات الاغاثية.

التمايزات:

لا يؤمن هذا التيار بالعمل الجماعي التنظيمي، حتى لا يغضب الساسة الذين لا يزعجهم إلا العمل المؤسسي الذي ينافسهم وربما يزيحهم عن الحكم كما أنه لا يشتغل بالسياسة لأنهم يرون أنّ الاشتغال بالسياسة يكون بعد التمكين ليفرضوا سياستهم هم بفهمهم هم لكن هناك من أكد أن رموز هذا التيار يبدون آراءهم في الشأن السياسي في جلسات سرية لأتباعهم المقربين، ويقتصر كلامهم السياسي على شرح تصوراتهم للواقع السياسي ومشكلاته، ويعتبرون هذا الكلام من الأسرار التي يكون من المحظور على الجميع إذاعتها خارج نطاق الذين حضروا هذه الجلسات، وقيل أيضا إن أكثر هذا التيار لا يمانع من المشاركة في التصويت في الانتخابات النيابية وغيرها من أنواع الانتخابات لدعم محاولات الإصلاح، وهم في ذلك يتفقون مع أنصار السنة وجماعة الإخوان المسلمين.

■ آخر مراحل السلفية في مصر:

النشأة:

بعد تولي أنور السادات الحكم كان للتيار اليساري الشيوعي قوة في الشارع

يسيرون على طريق جمال عبد الناصر الذي حكم مصر ونشر وقوى التيارات اليسارية فما كان من أنور السادات حتى يمكنه الظفر بقيادة المجتمع من دون نزاع من أتباع عبدالناصر أو مجلس قيادة الثورة الذين كانوا يرون أنفسهم أحقّ بالحكم منه، منح أنور السادات الحرية للتيارات السلفية بل واخرج من السجون كل من كانوا محبوسين في عصر جمال عبد الناصر وصنع على أيدي مباحث امن الدولة الجماعة الإسلامية وبإذن من الدولة بلغ النشاط الطلابي للإسلاميين في الجامعات ذروته، وظهر ما وصف بالصحوة الإسلامية على يد ما كان يعرف بالجماعة الإسلامية التي ذهب معظمها للانضمام إلى جماعة الإخوان المسلمين، إلا أن نفرا من هؤلاء الطلبة في جامعة الإسكندرية على رأسهم محمد إسماعيل المقدم رفضوا الانضمام لجماعة الإخوان المسلمين متأثرين حينها بالمنهج السلفي القادم من الجزيرة العربية، وذهبوا ليكونوا نواة لدعوة سلفية أخذت في النمو بعد انسحاب الطلاب المتأثرين بالمنهج السلفي من الجماعة الإسلامية التي كان قد أحكم الإخوان قبضتهم عليها، وبدأ التنافس شديدا بين هؤلاء الشباب السلفيين والإخوان على ضم الطلاب والسيطرة على المساجد، وبلغ ذروة الصدام عام ١٩٨٠، على أثره قرر هؤلاء السلفيون العمل بطريقة منظمة، فكونوا ما يشبه باتحاد الدعاة، ثم أطلقوا على أنفسهم بعد ذلك اسم (المدرسة السلفية)، وأصبح محمد عبد الفتاح (أبو إدريس) قيم هذه المدرسة أسوة بالمدارس العلمية التي كانت قائمة في عصور الازدهار في التاريخ الإسلامي، ورفضوا لفظ الأمير؛ لاعتبارهم أنه يقتصر على إمارة الدولة.

وبعد عدة سنوات من العمل الحركي والجماهيري أطلقوا على منظمتهم (الدعوة السلفية) بعد انتشارهم في كل أنحاء مصر، وكثرة أتباعهم الذين يقدرون بمئات الآلاف، لكنهم يشتهرون بمسمى هو (سلفيو الإسكندرية).

الرموز:

ومن رموزهم: محمد إسماعيل المقدم، وأحمد فريد، وسعيد عبد العظيم، ومحمد عبد الفتاح، وياسر برهامي، وأحمد حطيبة، ومحمود عبد الحميد، وأبو إدريس، كما ينتمي الثلاثي الشهير: محمد حسان، ومحمد حسين يعقوب، وأبو إسحاق الحويني، إلى مدرسة الدعوة السلفية، وإن غلب عليهم الجانب العلمي الوعظي، ومراعاتهم لمقتضيات العمل في الفضاء الإعلامي.

المنهج:

يدعو هؤلاء السلفيون إلى العودة لأخذ الإسلام من أصليه: الكتاب، والسنة، بفهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين، ويهتمون بمسائل التوحيد وتصحيح العقيدة، والنهي عن البدع والخرافات، ويدعون كل من التزم بهذا المنهج إلى الاجتهاد في طلب العلم الشرعي؛ حتى يتسنى للمسلم معرفة الأوامر والنواهي في الفروض والسنن والواجبات، كما يهتمون بكتب التراث، ونقولات الأئمة من أصحاب المذاهب والفقهاء وبخاصة ابن تيمية وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب وبالتأكيد أحمد ابن حنبل ليكون لديهم منظومة متكاملة من علماء السلفية ليسيروا على نهجهم.

وبعد أن يتمكنوا من نشر دعوتهم بين عامة الناس ويلتف الناس حولهم يبدؤون مرحلة جديدة هي مرحلة التمكين حيث يعلن المؤمنون انفصالهم عن الحكام الذين لا يحكمون بما أنزل الله، ويعلنون أن هؤلاء الحكام على باطل، وينذرون الحكام وأعوانهم بالرجوع عن باطلهم، وإلا سيواجهون جهادا إسلاميا من أهل الحق، ويطالب كل المسلمين بتحديد موقفهم بشكل واضح إما مع أهل الحق، وإما مع أهل الحكم، وهنا حكمهم هو حكم أهل الباطل.

و في حالة إذا ما رفض الحكام الالتزام بالإسلام بعد الإنذار السابق فحينئذ يجاهدهم أهل الحق وهم السلفيون ؛ لأن الصفوف في هذه الحالة ستكون قد تمايزت،

فصار بعض الشعب مع الحق وبعضه مع الباطل، وهنا سيكون الفريقان المتصارعان واضحين لا لبس فيهما، فلا يقع ضحايا لا علاقة لهم بالصراع، بل يكون أي إنسان إما مع هذا الفريق أو ذاك.

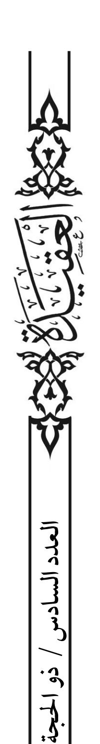
التمايزات:

يؤمن أصحاب مدرسة الدعوة السلفية - كما يؤمن أنصار السنة المحمدية- بالعمل الجماعي التنظيمي العلني، لكن أصحاب الدعوة السلفية يرفضون العمل من داخل مؤسسات الدولة الرسمية؛ ولذا فهم يرغبون في إنشاء تنظيم علني لكن لا يخضع لإشراف الدولة لسببين:-

الأول: لأنهم يعتبرون أنّ مؤسسات الدولة غير إسلامية، والعمل تحت لوائها يعد بمثابة دخول للعبة السياسية التي يرفضون المشاركة فيها.

والثاني: أنهم لا يودون الخضوع للرقابة الأمنية، ولا للتوجيهات الحكومية في ممارستهم لدعوتهم.

وبالفعل أنشأ سلفيو الإسكندرية تنظيما كاملا، له فروع ومسئولون، وذو آلية ونظام صارم وظلّوا يعملون تحت سمع وبصر الأمن يسمح لهم بالتوسع طالما هم ملتزمون بعدم الخوض في السياسة وعدم الإعلان عن تكفير الحكام ثم لما قويت شوكتهم وظنوا أن الدولة ستضطر للسماح لهم بالتغلغل في المجتمع المصري وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر تم التضييق عليهم ومحاولة تفكيك التنظيم إلا أنهم في بداية الأمر حاولوا البقاء بتنظيمهم مع الإدارة السياسية ولكن عرض عليهم اتفاق من الأمن بحل هذا التنظيم وعدم التواصل بين خلاياه أو الاعتقال والتفكيك بالقوة ومنع السلفيين تماما فاختاروا كعادتهم مهادنة الحكام حتى تتاح لهم الفرصة مرة ثانية وتم حل التنظيم وسمح لهم بالدعوة في بلدانهم ومدنهم دون السفر إلى خارجها.



■ **الحركة السلفية الجامية المدخلية:**

كما أثرت الدعوة السلفية في مراحلها الأولى والمتعددة في مصر وتأثرت بها كذلك أثرت السلفية الجامية المدخلية القادمة من المملكة العربية السعودية موطن ومنشأ السلفية الوهابية في مصر، وكان لها منتسبون كثر ربما أكثر مما وجد في بلاد المنشأ.

وكان وضوحها أوقف الصراع بين السلطة والتيارات الإسلامية فكانت السلفية الجامية المدخلية هي طوق النجاة للحكام كما كانت سالفتها الوهابية وغيرها من المراحل الأولى لها وكان ومازال أكثر ما يميزها هي وضوحها في التزامها بالمنهج السلفي الحقيقي دون مواربة أو مواراة فكانت مع الحاكم مهما كان ظلمه وطغيانه على مر العصر منذ العصور الأولى لها إلى العصور المتأخرة وقد ظهرت بوضوح شديد عندما قام احد شيوخها الشيخ محمود عامر بالتكفير الصريح لمن يخالف الرئيس محمد حسني مبارك رغم انتشار ظلمه وقيام جميع المصريين ضده فقد أفتى بكفر من يخرج عليه أو يترشح ضده وكان وقتها الدكتور محمد البرادعي الرئيس السابق لوكالة الطاقة النووية التابعة للأمم المتحدة عندما عاد إلى مصر وطالب بإصلاحات سياسية ونسج على منواله مجموعة ممن ينتمون لهذا التيار في بلاد كثيرة كان أهمها المملكة العربية السعودية فقد كفروا كل من يخرج على ولي الأمر الذي هو الملك المتولي عليهم.

النشأة:

التيار السلفي المدخلي في مصر هو امتداد للتيار السلفي المدخلي في المملكة العربية السعودية والذي نشأ في ظروف سياسية غاية في الصعوبة فاستغلوا هذه الظروف أفضل استغلال حيث كان غزو صدام حسين للكويت وضرورة الاستعانة بالأمريكان والغرب عموما لإنقاذ المملكة السعودية وجاءت قوات أجنبية في بلاد الحرمين تدافع عنها وتقتل المسلمين في العراق.

ولكنها السياسة التي تمتطي رجال الدين كعادتها فهم دائما نعم المطية المطيعة لهم الطامعة في فتات يرميها لهم الساسة وبالفعل ظهرت أصوات تحرم الاستعانة بالكافر لقتال المسلم ولما تعاطف الناس مع هذه الأصوات كان لابد من إيقاظ الأصوات الأخرى التي كان لها سوابق كثيرة في هذا المضمار ولابد من مرجعية سلفية من الكتاب والسنة تبرر هذا الغزو الذي تقوم به الدول الكافرة للعراق المسلمة حتى يخمد صوت المعارضين   فظهرت السلفية ثانية لتنقذ الحكام من براثن الجماهير وبمرجعية من القرآن والسنة النبوية وكانت السلفية في ذلك الوقت باسم الجامية نسبة لمحمد أمان الجامي الإثيوبي الأصل، وهو المؤسس الحقيقي لهذا التيار، ويلقبون أيضا بـ"المدخلية" نسبة إلى ربيع بن هادي المدخلي وهو أحد رموز هذا التيار في المملكة العربية السعودية.

المنهج:

لم يختلف المداخلة عن غيرهم من التيارات السلفية غير الجهادية الأخرى في اعتقادهم بعدم الخروج على الحاكم المسلم، وإن كان فاسقاً، و لكن المداخلة يزيدون عليهم في أنهم يحرمون حتى معارضة الحاكم أو نقده أو تقديم النصح له في العلن لكن يجب نصح الحاكم في السر والسكون عن الكلام عن ظلمه في العلن ويعتبرون ذلك أصلا من أصول عقيدة أهل السنة والجماعة، ومخالفة هذا الأصل يعدُّ خروجا على الحاكم المسلم ويجب قتال من يفعل ذلك وقتله ويجوز للحاكم قتله، كما أن المدخلية تجد أنّ الاعتراف بالحاكم والولاء له وحده لا يكفي بل يجب الاعتراف والانقياد لكل مؤسسات الدولة وبخاصة المؤسسات الدينية فيجب على المسلم وجوبا شرعيا الالتزام بما يفتي به مفتي الحاكم أو مؤسساته الدينية كالأزهر أو لجنة كبار العلماء ومن يخالف ذلك يعد من «الخوارج».

كما تتمايز المدخلية عن غيرها من التيارات السلفية في أنها تعتبر أن الجماعة

المسلمة هي الدولة والسلطان والملك أو الرئيس أو أي حاكم مهما كانت طريقة حكمه وكيفية وصوله للحكم هو فقط مع مؤسسات الدولة يمثلون جماعة المسلمين ومن يكون جماعة وتيار أو حزب يكون خارجا على جماعة المسلمين وخارجيا يجب قتاله ويجب على الحاكم قتالهم وقتلهم.

ويعتبر المداخلة أن الحكم بما أنزل الله أمر فرعي، وليس أصلا من أصول العقيدة، وبذلك فإن من يحكم بغير ما أنزل الله ويشرع القوانين الوضعية لا يكون قد ارتكب ناقضا من نواقض الإسلام بأي حال من الأحول. إلا إذا أعلن صراحة بان أحكامه أفضل من أحكام الله.

وأبرز رموزها:

محمود لطفي عامر، أسامة القوصي، محمد سعيد رسلان، طلعت زهران، أبوبكر ماهر بن عطية، جمال عبد الرحمن، علي حشيش، عبد العظيم بدوي.

اتفاقهم في الإقصاء:

كما هو ديدن جميع التيارات التكفيرية الاقصائية التي انبثقت عن جهل بالدين القويم واتخذت من منهج الخوارج أساسا في الحكم على غيرها والحكم على أنهم الفرقة الوحيدة الناجية نجد أن المداخلة يعتبرون أنهم الطائفة المنصورة، وأن منهجهم هو منهج أهل السنة والجماعة؛ ولذا فهم يتصفون بالحدة في نقدهم لمخالفيهم ويتطاولون على جميع الرموز الدينية لعلماء السلفية الذين لا يتفقون معهم في المنهج الذي هو مدارات الحكام وعدم الخروج عليهم بل وتكفير من يدعو لنقدهم علنا أو فضح ظلمهم لان ذلك كما يدعون يخالف الدين الإسلامي الذي أمر ومازال يأمر بمحاربة الظلم والوقوف في وجه الظالم أينما كان وعدم اتخاذ الظالمين أولياء وهم في ذلك يحتسبون الأجر عند الله؛ لأنهم يعتبرون كشف زيغ من خالفهم هو عمل



مأجورون عليه من الله وكل من خالفهم هو زائغ عن طريق الحق وكان الله قد أوحى إليهم بأنهم على الحق، وقد اشتدّ الشيخ محمد سعيد رسلان على جميع رموز السلفية الحركية وجرحهم بل وسخر من فهمهم وسفه عقولهم وكثيرا ما يصفهم بأنهم دعاة فتنة.

أمّا محمود لطفي عامر فقد نذر نفسه للهجوم على رموز السلفية العلمية، وسلفيي الإسكندرية في خطبه وشرائطه التي توزع في مساجد يسيطرون عليها وبعض الكتيبات التي تباع أمام هذه المساجد وتوزع على مريديه ووصف عامر: محمد حسان، ومحمد حسين يعقوب، ومحمد إسماعيل المقدم بأنهم «قوم مراوغون مخادعون يريدون طمس الحقائق بزيف العواطف والتعصب والهوى».

السلفية المصرية بعد ثورة يناير:

عاشت السلفية في مصر قرنا من الزمان تقدّم رجلاً وتؤخر أُخرى لا تريد عملاً غير مضمون العواقب فقد وقفوا على مر قرن من الزمان يلعبون مع السلطة لعبة القط والفأر فأحياناً تسمح لهم السياسة وبالظهور والكلام بحرية في كل شيء إلا السياسة، من الممكن أن يكفروا المجتمع أو يمدحون نماذج في بلدان أخرى لكن كل هذا بغطاء وحراسة من الأمن ومن الساسة ودخل بعضهم معترك السياسة على أمل التمكين فهم يتمسكنون حتى يتمكنوا فاستخدم بعضهم لعبة الديمقراطية تقية حتى يصل إلى مبتغاه.

لكنهم لم يتوقعوا يوما ولو في أحلامهم أن يأتي اليوم الذي يتاح لهم حكم مصر أو حتى المشاركة في حكم مصر ولو من تحت قبة البرلمان الذي يكفرون به لأنه برلمان تشريعي وهم لا يؤمنون إلا بالتشريع الإلهي.

ولعبوا مع النظام ورضوا أحياناً بما يعطيهم النظام في الخفاء وفي العلن يظهرون

للجماهير على أنهم مظلومون وإن ما حصلوا عليه هو اقل من حقهم.

و كانوا لا يتعاونون مع التيارات السياسية العلمانية حتى لا يتهموا بالعلمانية أو يتهموا بالتعاون مع العلمانيين ويتوقف التمويل القادم لهم من الخليج ومواقفهم على مر أكثر من ثمانين عاما تدل على ذلك هادنوا الملك حتى يسمح لهم بالظهور كأعداء للانجليز وهم لا يعلمون بان الناس وخاصة العقلاء منهم ومن يقرأ التاريخ يعلم بان الانجليز هم الراعي الرسمي للسلفية الحديثة منذ محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود حتى الآن وإلى إن يأذن الله بنهايتها.

■ **الهيئة الشرعية للحقوق والإصلاح:**

تأسّست هذه الهيئة من مجموعة من علماء السلفية في مصر على غرار هيئات سلفية وهابية لكنها تميزت بالمرونة وعدم الوضوح حتى لا تلقى من المجتمع المصري الرفض لان هذا المجتمع يتميز بوجود الصوفية والنصارى منذ القدم وأصبحوا جزءاً أصيلا من سلوكيات الشعب وما الدولة الفاطمية منا ببعيد فقد ترك الفاطميون عادات وعقائد في مصر لا يمكن معها قبول هذه التيارات السلفية الاقصائية.

وأنشئت الهيئة على أنها هيئة إسلامية وسطية مستقلة تتكون من مجموعة من العلماء السلفيين وبعض الخبراء الذين ينتمون للتيار السلفي وليسوا علماء دين.

وقد اتخذوا من الآية الكريمة ﴿ **إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَما تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ (هود، ٨٨) سبباً في تسميتها ووجودها.

وتتخذ من قوله تعالى ﴿ **يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ للهِ** ﴾ (النساء ١٣٥).

وقد وضعت هذه الهيئة لأنفسهم مبادئ وقيماً وضوابط للتفكير والسلوك من دون وجود رقيب عليهم إلا أنفسهم أو من يقدر قربهم أو بعدهم عن الحق.

أغراض هذه الهيئة كما وضعوها لأنفسهم :

البحث في قضايا ومستجدات معاصرة يكون لهم فيها رأي إصلاحي استشاري، جعلهم مرجعية علمية شرعية في الأمة لمعاونة أهل الحل والعقد في تدعيم بناء الدولة التي ظنوا أنهم أقاموها أو يمكنهم إقامتها.

العمل على الصلح بين الجماعات الإسلامية الجهادية منها والسياسية حتى لا يحارب بعضهم بعضا أو يخالف بعضهم بعضا فيكونوا يدا على من سواهم من العلمانيين واللبراليين والمسيحيين والصوفية وباقي مكونات المجتمع المصري ممن لا ينتمي لفكرهم

وسائل الهيئة في تحقيق أهدافها:

لجان متخصصة ذات مهام مؤقتة ودائمة حسب ما يسند إليها مما يتناسب مع الأحوال السياسية.

إصدار بيانات توضح رأي الهيئة فيما يدور في المجتمع المصري من خلافات واختلافات سياسية.

إصدار دوريات أو منشورات لتوضيح رأي الهيئة فيما يجري على الساحة المصرية أو ما يخص مصر على الساحة الدولية.

و اللجان المنوط بها ذلك هي:

لجنة البحوث العلمية، لجنة الحقوق والحريات، لجنة الدعوة والإصلاح، لجنة الشباب وخدمة المجتمع، لجنة التقنية والإعلام، اللجنة المالية والإدارية.

وقد ضمت الهيئة عدداً كبيراً من العلماء على اختلاف مشاربهم وذلك لجمع من يحبونهم من الشباب ليكونوا سندا سياسيا لهم في الحكم ومن هؤلاء العلماء:

على السالوس (رئيس اللجنة)، طلعت عفيفي (نائب أول لرئيس اللجنة)،



محمد عبد المقصود (النائب الثاني)، محمد حسان (النائب الثالث)، محمد يسري (أمين عام الهيئة)، عبدالستار فتح الله، محمد إسماعيل المقدم، محمود مزروعة، صفوت حجازي، ياسر برهامي.

وعليك أن تعرف بعد أحداث خروج التيارات الإسلامية من الحكم إلى أين ذهب كل منهم.

■ مجلس شورى العلماء:

أرادت التيارات الإسلامية أن يكون لها أكثر من وجه حتى إذا وقع من جهة خطا فلا يحسب عليهم ويتنصلون منه بسهولة ويدعون أن من يمثلهم هؤلاء أو تلك كما حدث بعد الانشقاق الذي حدث لحزب النور السلفي.

يتكون مجلس شورى العلماء من مجموعة من العلماء لهم هيكل تنظيمي بسيط لتقاربهم في منزلتهم أمام الجماهير فلا يمكنهم وضع احدهم في الصف الأول والثاني في الصف الذي يليه لذلك أطلق عليهم مجلس شورى العلماء وهم - :

الدكتور عبد الله شاكر رئيساً ، الدكتور محمد حسان نائباً، الشيخ محمد حسين يعقوب عضواً، الدكتور سعيد عبد العظيم عضواً، الشيخ مصطفى العدوي عضواً، الدكتور جمال المراكبي عضواً، الشيخ أبو بكر الحنبلي عضواً، الشيخ وحيد بالي عضواً، الشيخ جمال عبد الرحمن عضواً.

وهكذا أصبح لهم أكثر من ممثل يمكنه أن يقوم بدوره الخاص إذا حدث خلاف أو اختلاف.

وقد اصدر مجلس شورى العلماء بيانات متعددة يعلقون فيها على ما يحدث من أحداث دون الوضوح في الرؤية وذلك ليتاح لهم العمل الدعوي إذا فقدوا العمل السياسي.

■ حزب النور:

حزب النور من اكبر الأحزاب السلفية وكيل مؤسسيه هو عماد الدين عبدالغفار والمتحدث باسمه هو المهندس عبدالمنعم الشحات ونائب رئيس الحزب هو الشيخ ياسر البرهامى القطب السلفي المعروف بالإسكندرية.

وهو حزب سياسي مصري تأسس عقب ثورة ٢٥ يناير وذلك للاشتراك في الحياة السياسية الديمقراطية التي يكفرون من يشارك فيها لكنها الضرورة حتى يتمكنوا من الحكم ثم ينقلبون عليها كما كان يردد بعضهم.

وحصل الحزب على ٢٢ ٪ من مقاعد مجلس النواب المصري المسمى مجلس الشعب في حينها وعلى الرغم من قلة خبرة أعضائه في السياسة لكن ظهيرهم الشعبي الذي ينتمي إلى كل التيارات الإسلامية مختلفة التسميات ذات مرجعية واحدة ووحيدة وهي السلفية التي تعددت أوجهها لكنها في النهاية تخرج من نبع واحد وهي السلفية الوهابية مع بعض التعديلات في مصر كما عدل من قبل الشافعي مذهبه الفقهي عندما أتى لمصر بعد تواجده في العراق.



وكما ذكرنا بان هذه الكيانات على الرغم من تجانسها إلا أنها مختلفة في وسائل تحقيق الأهداف فمنهم من يرى السياسة والانتخابات ومنها ما يرى فرض الشريعة حسب مفهومهم على أساس أنهم يملكون الحقيقة وحدهم.

الانشقاق في حزب النور :

في منتصف عام ٢٠١٢ تعرض حزب النور السلفي لأزمة حادة بين قياداته على خلفية الآراء التي تظهر من الجبهة السلفية تخالف موقف الحزب السياسي الذي يعد ذراعها السياسي لذلك كان لابد من الفصل بين الهيئتين إداريا بين الدعوة السلفية وحزب النور وعلى الرغم من قرار رئيس الحزب عماد عبد النور تأجيل هذا القرار إلا

انه ظهرت هيئتان عليتان تزعّم إحداها اشرف ثابت وكيل مجلس الشعب السابق والتي قررت إعفاء عماد عبد الغفور من رئاسة الحزب وتعيين السيد مصطفي حسين خليفة رئيسا مؤقتا فيما اجتمعت هيئة عليا أخرى للحزب برئاسة عماد عبد الغفور وقررت فصل عدد من القيادات.

وانشقّ عدد من مؤسسي الحزب وكونوا حزبا آخر أطلق عليه (حزب الوطن).

■ حزب النهضة والإصلاح :

هذا الحزب كان مؤسسوه الأذكى بين التيارات السلفية حتى أنهم استطاعوا التمويه في مبادئ الحزب حتى يستطيعوا الحصول على توثيق التيارات الفكرية اللبرالية والعلمانية التي كانت أهم دعائم ثورة يناير في مصر.

فوضعوا له أهدافا تختلف تماما عن أهداف الهيئات السلفية الأخرى بحيث أصبح الإصلاح الحضاري والاجتماعي هو الأهم في أهداف هذا الحزب بل إنّهم استطاعوا تحييد الأقباط عندما أرسلوا منهم من يهنئ الأقباط بأعيادهم في الوقت الذي كانت فيه فتاوى تصدر من تيارات سلفية أخرى بتحريم تهنئة الأقباط بأعيادهم.

وأصبح هذا الحزب السلفي يحتضن بين أعضائه جميع أطياف الشعب المصري وكانوا هم الأجدر بتنفيذ خطة معظم السلفيين في اتخاذ الديمقراطية مطية لهم للوصول للحكم وتطبيق شرع الله كما يدعون.

و كانت أهم مبادئه:

١- الحفاظ على مدنية الدولة ويقصدون من مدنية الدولة هي الدولة التي لا يحكمها العسكر أو من له مرجعية عسكرية أو يحكمها رجال الدين من منطلق التفويض الإلهي الثيوقراطي لكنها دولة تحكم بالشريعة الإسلامية في جميع نواحي



الحياة ويحكمها رجال مدنيون لا هم رجال جيش ولا هم رجال دين بل يحكمون بالشرع فقط وهم سياسيون مدنيون.

٢- الحفاظ على القيم والمبادئ المصرية ويقصدون بذلك أنّ مصر لها خصائص تختلف عن باقي الدول العربية بما لديها من حضارات متعددة فبذلك يستطيعون جمع اكبر عدد من الجماهير خلفهم كظهير شعبي ينتفعون به في جمع الأصوات عند اللجوء للديمقراطية.

٣- سيادة الدستور والقانون ويقصدون بذلك الدستور الذي سيكتبونه بمعاونة باقي الهيئات والأحزاب ذات الصبغة السلفية والذي ستكون الشريعة الإسلامية هي مصدرهم في ذلك حتى أنهم أضافوا لدستورهم أنّ المذهب الذي تحكم به الدولة وترجع إليه في المنازعات مذهب أهل السنة والجماعة على علمهم بان مذهب أهل السنة والجماعة به من التناقضات في الحرام والحلال وخاصة في المعاملات الكثير فإلى من سيتمّ الاحتكام لكنهم تركوها مطاطة لتعطيهم مساحة للمناورة.

٤- التعددية وقبول الآخر وذلك حتى يتجنبوا الصدام مع باقي مكونات المجتمع المصري من مسيحيين وصوفية وباقي العرقيات والديانات والمذاهب المتعددة ولكنهم نسوا أو تناسوا بان دستورهم الذي صاغوه وصوتوا له يقصر المرجعية على مذهبهم الذي يحوي بداخله كثيراً من التناقضات من تكفير غيرهم إلى تحريم التعامل مع النصارى.

٥- حماية الحقوق والحريات الأساسية وهذا أيضا من قبيل تجميل الصورة السياسية فكيف يكون لي الحرية في ظل دستور طائفي بامتياز.

■ حزب الأصالة:

هو حزب إسلامي مصري ويتبع المنهج السلفي. أسس الحزب اللواء عادل عبد المقصود عفيفي في يوليو ٢٠١١ عقب ثورة ٢٥ يناير. وكان عبد المقصود رئيس

حزب الفضيلة قبل أن ينشق هو وبعض أعضاء المكتب التنفيذي عن حزب الفضيلة وأسسوا حزب الأصالة.

تاريخ التأسيس:

في يوليو ٢٠١١، أعلن اللواء عادل عبد المقصود عفيفي (رئيس حزب الفضيلة آنذاك) وعددٌ من أعضاء المكتب السياسي عن انسحابهم وقطع علاقتهم بحزب الفضيلة نهائياً، بعدما تبين أن هناك مؤامرة لتغيير مبادئ الحزب التي تقوم على الالتزام بالشرعية وسيادة القانون والمنهج الإسلامي السلفي المعتدل، وتحويل مبادئه إلى أفكار متشددة تضر بالصالح العام والعمل الإسلامي. وبناء على ذلك قرر الدكتور عادل عبد المقصود عفيفي وهؤلاء الأعضاء تأسيس حزب جديد باسم حزب الأصالة. موضحاً أنّ عدداً من أبرز الدعاة السلفيين يدعمون الحزب الجديد كما يسحبون دعمهم لحزب الفضيلة، وهم د. محمد عبد المقصود عفيفي، والشيخ محمد حسان، ود.محمد عبدالسلام، والشيخ مصطفى محمد، والشيخ ممدوح جابر [٤] [٥]. وكان عدد من النشطاء السلفيين قد أصدروا مبادرة طالبوا فيها بانتداب لجنة من علماء الهيئة الشرعية للحقوق والإصلاح للفصل في النزاع، إلا أن المبادرة لم يكتب لها النجاح[٦].

من أهمّ مبادئ الحزب :

١- إعادة دور مصر إلى الريادي سياسياً، واقتصادياً، وعسكرياً.

٢- تحقيق العدالة الاجتماعية بين أفراد الشعب التي تحقق التعايش السلمي بين كل طبقاته الطائفية والاجتماعية.

٣- رفع المستوى الصحي، والفكري والثقافي والنهوض بالتعليم وإعلاء دور العلم والعلماء.

٤- إيجاد مناخ سياسي يستطيع المواطن أن يعبر فيه عن رأيه وأن يختار من يمثله بحرية مطلقة.

٥- إيجاد آليات لتنمية موارد الدولة والاستفادة من هذه الموارد في النهوض بالمستوى العام مما يؤدى إلى تحسين مستوى المعيشة، ورفع مستوى الدخل .

٦- ترسيخ مبادئ الحرية والعدالة والمساواة واحترام هوية مصر الإسلامية.

٧- وضع إستراتيجية لتقليل نسبة الأمية والبطالة ومعدل الجريمة، والانهيار الأخلاقي.

٨- العمل على استقلال السلطة القضائية بجميع درجاتها والفصل بين السلطات ،وتوفير المقومات اللازمة لذلك .

٩- إعادة مصر إلى مكانتها الحقيقية بين الأمة العربية والإسلامية، والمشاركة الفعالة في قضايا الأمة، وعلى رأسها القضية الفلسطينية .

١٠- استعادة أموال مصر المنهوبة، ومحاكمة الذين افسدوا، وقتلوا، ونهبوا المال العام.



وفي ٢٣ أكتوبر ٢٠١١، قام حزب الأصالة مع حزبي النور والبناء والتنمية بتكوين تحالف الكتلة الإسلامية. رشّح الحزب عبد الله الأشعل لانتخابات الرئاسة المصرية ٢٠١٢ [٣].

أعلن ممدوح إسماعيل وكيل مؤسسي ورئيس "حزب النهضة" يوم ٢٣ سبتمبر ٢٠١١ دمج حزبه في حزب الأصالة.[٧] وكان حزب النهضة حزب إسلامي تحت التأسيس تشكّل عقب ثورة ٢٥ يناير، وكان من ضمن أهم أهدافه المحافظة على الهوية العربية الإسلامية لمصر[٨].

■ تحالف الكتلة الإسلامية:

أعلن الحزب يوم ١٢ أكتوبر ٢٠١١ انسحابه من التحالف الديمقراطي وخوضه انتخابات مجلس الشعب بقوائم مستقلة[٩]. ثم قام حزب الأصالة مع حزبي النور والبناء والتنمية بتكوين تحالف الكتلة الإسلامية، وذلك في ٢٣ أكتوبر ٢٠١١ [١٠] [١١]. وقد أكد كل من حزب الأصالة وحزب البناء والتنمية أن

«التحالف ليس موجهاً ضد أي تحالف آخر، ويهدف لتحقيق النهضة المصرية على أساس الهوية الإسلامية من خلال مشروع وطني يشارك فيه كل أبناء مصر» [١٢].

القادة:

قائمة رؤساء الحزب:

١ ـ عادل عبد المقصود عفيفي يوليو ٢٠١١ – ٤ يناير ٢٠١٣.

٢ ـ إيهاب شيحة ٤ يناير ٢٠١٣ – الآن.

الهيئة العليا:

التشكيل الحالي للهيئة العليا يضم [١٣]:

إيهاب شيحة (رئيس الحزب)، عادل عبد المقصود عفيفي، محمود سلطان، تامر عبد الخالق مكي، عبد الخالق محمد عبد الخالق، محمد محمود حسنين الكلحى.

مرجعيات الحزب:

محمد عبد المقصود عفيفي، الشيخ مصطفى محمد، الشيخ ممدوح جابر، محمد عبد السلام.

من الداعمين لحزب الأصالة:

الشيخ محمد حسان .

حزب الإصلاح والنهضة:

ووكيل مؤسسيه هو أيمن مرسى ورئيسه هو هشام مصطفى عبد العزيز.

حزب النهضة السلفي:

(قيل إنّ وكيل مؤسسيه يسعى لإطلاق اسم حزب الشريعة عليه) ووكيل مؤسسيه هو ممدوح إسماعيل المحامي السلفي الشهير بانتمائه ودفاعه عن الجماعات السلفية الجهادية.

القسم الثاني أحزاب السلفية الجهادية:

وهى التي كانت تتبنى العنف في سبيل توصيل رسالتها وتحقيق أهدافها ومنها:



أولاً ـ حزب البناء والتنمية:

برنامج الحزب:

وينطلق حزب البناء والتنمية في هذا البرنامج من غاية سامية ويسعى لتحقيق أهداف محددة مرتكزا في رؤيته على أسس قويمة لبناء المستقبل .

أولا : غاية الحزب :

الغاية التي يسعى لها مؤسسو حزب [البناء والتنمية] هي تحقيق مرضاة الله تعالى أولا ثم تحقيق مصالح البلاد والعباد بما يحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة وحتى تتبوأ مصر مكانتها المستحقة في طليعة الأمم المتقدمة .

ثانيا : أهداف الحزب :

١ـ الحفاظ على الهوية الإسلامية والعربية لمصر ومواجهة كل محاولات الانتقاض عليها أو الانتقاص منها.

٢ـ رفض كل محاولات التغريب والتصدي للفساد والانحراف والتحلل الاخلاقى والقيمى .

٣ـ الحفاظ على مكتسبات ثورة الخامس والعشرين من يناير المباركة التي فجرت الطاقات المصرية في لحظة تاريخية نادرة الحدوث.

٤ـ العمل على تحقيق الإصلاح السياسي والدستوري والقانوني الذي يؤسس لنظام سياسي لا يستبعد تيارا سياسيا ولا يقصى فصيلاً وطنياً.

٥ـ العمل على بناء مصر الجديدة التي تقوم على مبادئ العدالة والحرية والتعددية والمساواة وتداول السلطة والسعي لبناء نظام سياسي منفتح يضمن حقوق جميع المواطنين ويؤمن الرعايا الأجانب من غير المصريين.

٦ـ نشر مفاهيم وقيم الإسلام السياسية ومواجهة حملات التشويه التي تتعرض لها النظريات السياسية الإسلامية.

٧ـ ترسيخ القيم الإسلامية في المجتمع ومحاربة الظلم والفساد بكافة أشكاله ودعم دور الأسرة والتأكيد على دور المرأة في بناء المجتمع على وفق مبادئ الشريعة الإسلامية وأحكامها.

٨ـ تحقيق العدالة الاجتماعية بتوفير الحد الأدنى للحياة الكريمة التي تلبي كل الحاجيات والرغبات الإنسانية الضرورية من غذاء ورعاية صحية وتأهيل تعليمي وسكن وفرص عمل كريمة.

٩ـ طرح التصورات الواقعية لحل مشكلات المجتمع في كافة المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأمنية والإستراتيجية انطلاقاً من رؤية إسلامية وسطية وتطبيقا عصريا للشريعة الإسلامية.

١٠ـ مواجهة الأزمات التي تمر بها البلاد في الوقت الحاضر بالمشاركة مع كافة الاتجاهات السياسية وغير السياسية مسلمة كانت أو غير مسلمة.

١١ـ دعم التواصل بين الشعب المصري والشعوب الأخرى في إطار تحقيق المصالح المشتركة مع احترام هوية امتنا واستقلال قرارنا الوطني ودعم حق الشعوب المحتلة أراضيها في التحرر من الاستعمار وخاصة في فلسطين .

١٢ـ تدعيم الأمن القومي المصري بمفهومه الشامل الذي يضمن لمصر دورا حيويا وفاعلا ويؤمن حاضرها ومستقبلها في مواجهة التغيرات والتقلبات الكبرى التي يشهدها العالم المعاصر.

ثانياً: حزب الأمة الجديد:

وهو استمرار لحزب الأمة القديم الذي كان يرأسه الشيخ احمد الصباحي رئيسه الآن سامي حجازي والذي أصبح حزبا سلفيا بامتياز بعد أن نجح في استمالة ناجح إبراهيم السلفي الجهادي المعروف الخارج من السجن وكذلك الشيخ وكرم زهدي السلفي الجهادي المعروف للانضمام لحزبه.

السلفية الحركية:

هذا التيار السلفي في مصر هو احد روافد الحركة السلفية فهو ينطلق من نفس المعتقدات والأرضية الفكرية والامتداد الشكلي التي تقوم عليها جميع التيارات المنتمية إلى السلفية انتماءً وفكراً معلوماً للجميع مهما تغيرت أشكالها مع بعض الاختلافات في ممارسة كل تيار لمنظوره حسب الحالة السياسية في مصر وفي المنطقة وحسب تجانس أفراده.

فبعض هذه التيارات اقتصر على الدعوة من خلال الخطب في المساجد وبخاصة مساجد الجمعية الشرعية وبعض المساجد التي يتبناها بعض السلفيين الذين لا يظهرون انتماءهم مباشرة للتيارات السلفية، أو بعض المحاضرات في الجامعات والأماكن العامة أيضا حسب ما يسمح لهم بذلك والمنشورات التي توزع على هيئة كتيبات صغيرة إما مجانا وهذا هو الأغلب وأما بثمن زهيد توزع أمام المساجد وفي الميادين العامة وفي المناسبات مثل الأعياد وبخاصة بعد الصلاة يوم العيد التي عادة ما يتجمع فيها جميع المصريين بمختلف مشاربهم.

و هذا التيار الدعوي لا يريد صداما مع النظام السياسي أو حتى مع بعض التيارات الموجودة على الساحة حتى لو كان يراهم كفارا كالتيارات اللبرالية أو العلمانية وهذا يتيح لهم مساحة اكبر من الحرية في الحركة وانتشارا اكبر فقد أتيح لهم العمل بحرية في العهد الملكي وفي عصر الجمهورية من عبد الناصر إلى السادات إلى حسني مبارك لا نهم لا يظهرون طمعهم في السياسة ولا يتحدثون فيها.

أما التيار السلفي الحركي فكان أكثر وضوحاً وعداءً ظاهراً للحكّام ولبعض التيارات المتواجدة على الساحة المصرية وبخاصة العلمانية واللبرالية والصوفية وكل من لا يؤمن بما يؤمنون به.

وكانت دعوتهم لجهاد الحكام الذين لا يطبقون شرع الله بعد تكفير هؤلاء



الحكام واضحا جليا ولكنهم كانوا غالبا ما يعملون في الخفاء وبعيدا عن أعين الأمن وقد قاموا بأعمال ضد السياح في مصر لإحراج الحكومة المصرية التي لا تطبق شرع الله كما يزعمون بل وتعدى قتلهم لبعض رجال الأمن وبعض أفراد المجتمع الذين يعتقدون أنهم من رموز النظام بل كانوا وما زالوا يبررون أعمال العنف ضد بعض الدول التي يظنون أنها تقف وراء الحكومات العربية وتحميها وكان ذلك جليا في تفجيراتهم للسفارات الأمريكية بل ومباركاتهم لضرب البرجين في أمريكا وغيرها من إعمال العنف.

ومن ابرز رموز هذا التيار في مصر الشيخ محمد عبد المقصود وهو حاصل على دكتوراه في الزراعة لكنه لا يعمل بها وعمل بالدعوة السلفية وكان له مسجد في شبرا يخطب فيه ومنطقة شبرا في مصر معروفة بكثرة النصارى فيها لذلك كانت تربة خصبة للتطرف والتكفير الذي كان يمارسه الشيخ في خطبه.

ومن رموز السلفية الحركية:

أيضاً الشيخ فوزي السعيد وهو من السلفيين الحركيين كان خطيبا في مسجد التوحيد لكنه كان متشدداً في آرائه إلا انه كان غالبا ما يبتعد عن الحديث في السياسة ونقد الحكام كما هو حال الحركة السلفية لكنه كلما أتيحت الفرصة لدفع الشباب إلى العنف بطريقة إيحائية فعلها وقد تم إدراج اسمه في تنظيم الوعد الذي كان يقوم بعمليات جهادية داخل مصر، وتوقّف عن الخوض في السياسة كغيره من السلفيين فلما جاءت ثورة يناير راقبوها عن بعد، فلا هم أظهروا موافقتهم إياها خوفاً من فشلها ومن دفع ثمنها الباهظ مع هؤلاء الشباب الليبرالي، ولا هم تجمّعوا على رفضها حتى إذا نجحت كان لهم نصيب منها وبعد أن كان السلفيون يحرمون التظاهرات شاركوا فيها عندما علموا أن هؤلاء الشباب المسالم المتظاهر قد نجح فيما فشلوا فيه عبر سنين طويلة وبعد أن كانت فتاوى الشيخ فوزي السعيد تملأ الأفق في تحريم التظاهر كغيره



من دعاة السلفية وجدناه يتظاهر من أجل الشرعية وهذا يعني انه يجعل شرعيته تستمد قوتها ومشروعيتها من التظاهر وهذا قمة التناقض.

الشيخ نشأت احمد هو خريج كلية التجارة ثم درس الدراسات الإسلامية في الجامعة الأمريكية المفتوحة بالقاهرة كغيره من بعض الدعاة الذين تعلموا إسلامهم في ألمانيا أو فرنسا أو حتى الجامعة الأمريكية في بلادهم ثم حملوا مشعل الدعوة ضد أمريكا وكانوا بلسانهم ضدها وبأفعالهم معها وأصبح الشيخ نشأت ذائع الصيت بمحاضراته وخطبه في مساجد الجمعية الشرعية وغيرها وكان له نشاط متسع في مصر وخارجها.

ورموز هذه الحركة كثيرون منهم من تعرض لمضايقات الأمن ومنهم من تم اعتقاله ومنهم من لم يتعرض لا لهذا أو ذاك حسب مستوى موقفهم ومدى تأثيرهم في الجماهير.

*** المصادر ***

١- منهج السلف لا حزب السلفيين، لأبي يحيى سامح بن محمد.

٢ ـ أسامة شحادة ، مقالات تاريخ السلفية في مصر .

٣- أصول وتاريخ الفرق الإسلامية، مصطفى بن محمد بن مصطفى، مكتبة صيد الفوائد، ٢٠٠٣.

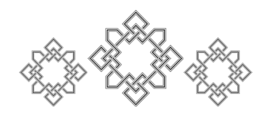
٤- السلفية حقيقتها ومكانتها في الحركة الإسلامية المعاصرة، الشيخ محمد عبدالله الخطيب، إخوان أون لاين، ٢ يوليو ٢٠٠٥ .

٥ ـ الجذور التاريخية لظهور مصطلح السلفية، علاء بكر، صوت السلف، ٢٧-يونيو-٢٠٠٩.

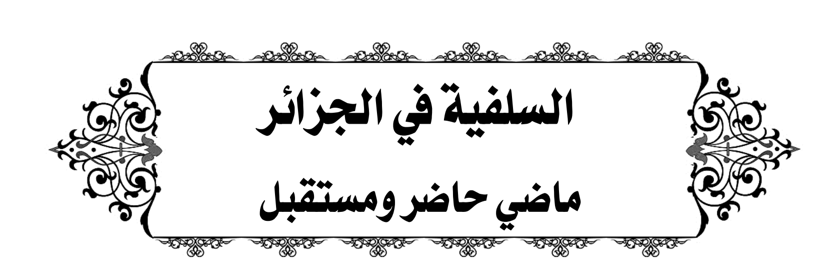
٦ ـ الدعوة السلفية، محمود عبد الحميد العسقلاني .

٧ ـ السلفية قواعد وأصول، د. أحمد فريد.

٨- تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة.







السلفية في الجزائر
ماضي حاضر ومستقبل

بقلم : السيد محمد الفاضل حمادوش

إن موضوع السلفية، بوصفها حالة ذهنية ونمطاً سلوكياً متشعب جداً، جداً، والتحكم فيه، وضبط مكوناته، وظروف نشأته وأوضاعها، أكثر من صعب على المستوى الواقعي والميداني، وعلى المستوى الاجتماعي والثقافي، في صورته الأكثر مادية، والأكثر زمنية، فيما هو يومي ووقتي، محايث ومباشر، فما بالك بالمسك بالرؤى، العقدية والفقهية، واسلوب التعاطي معها، وطريقة استهلاكها، وكيفيات تصريفها، ورعاية انتشارها كتكليف شرعي، وواجب ديني، والتشبث والإلحاح لاستحصال النتائج وحمايتها أو برؤى وتوجيهات وتوجهات تسوغها وتشرعنها أو بتعبير المحدثين، (رؤى العالم)، وهي من الاتساع، والثراء، والتنوع، والاختلاف، أو التعارض، بما لايستطاع الإحاطة به، وحصره وتصنيفه، فضلاً عن الذهاب عُمقياً، فيما يؤسسها وينشؤها، من خلفيات ومُسْبَقَات وفيما يقف وراءها، من منظومات، سياسية، وشبكات اجتماعية وهواجس وعناصر ثقافية ودينية ومذهبية، وتغلب سلطاني براقماتي يهزؤ بالدين، ويستخف بمبادئه ويحتكره استغلالاً واستثماراً، لتجييره لصالحه، أو لشرعنة سلطته، هذا قديماً، وحديثاً، مزاج سلطوي، جبتي وطاغوتي، عائلي وفئوي، ريعي وبدوي، شُفوني التقوي بالأجنبي، لا لشيءٍ، إلا لتأبيد العرش، وتأمين العائلة، والعشيرة، من الطوارئ، والطوارق، وصيانة الحاشية، من الانفضاض

والتبدد، ومن الانتفاض والتمرد، والحال أن رؤى العالم، في كل مجتمع، أو في كل مدنية، وحضارة، تتباين وتتباعد، قليلاً أو كثيراً، حسب الفئات، والشرائح الاجتماعية، وقد تكون قبائل، وعشائر، وطوائف، وأديان، ومذاهب، كما هو حالنا، في العالم العربي، والإسلامي، ولا تسأل عن الحضور العرقي والثقافي، في المسألة، وقد تكون أحزاباً، أو منظمات المجتمع المدني بصفة عامة، وطبقات، ومجاميع علمية، ومراكز بحث، كما هو حال، المجتمع الحديث المهيكل، فمن السذاجة بمكان، أن نتصور، رؤى العالم عند كانط، وهيجل، أو عند مدرسة فرنكفورت، أو مدرسة ما بعد الحداثة، أو عند يوغان هبرماس، حصراً، صاحب نقد العقل التواصلي، أو صاحب اطروحة، العقل الانبثاقي، الاستطلاعي الصاعد، على ما بينهم من اختلاف، وبين أيضاً، التكنوقراطيين، وأصحاب المصالح الاقتصادية المتنفذين، مالكي الشركات العملاقة، المتعدية الجنسية، العابرة للحدود، كرؤى العالم، عند الأمريكي، أو الياباني، أو الأوروبي العادي، كتمثيل لأغلب الكتل الجماهرية، الذي يتحكم فيه، (الحس العملي)، برأي وتعبير، عالم الاجتماع الفرنسي، بيار برديو، والذي يرى الحياة، هكذا كما باشرها، وخبرها، وعرفها الفرد أو الجماعة، انحدرت اليه عبر الآباء والأجداد، والأجيال، ورضعها أو رضعوها مع حليب امهاتهم، ولا يستسلم لوجع الرأس، فيكابر ويتعسف، أو يماحك ويتمحل في ربط الواقع أو ايجاد سند له، في الفكر اللاهوتي، أو الفكر الفلسفي، أو في حقل العلوم الاجتماعية، أو الإنسانية، اخترنا المنهجية التراجعية في مقاربة موضوعة السلفية، أو اطار التفكير اللاهوتي والفقهي للوهابية بوصفها نسخة جديدة ومعاصرة طبخت بعناية وركبت وصنعت من عوامل وعناصر داخلية وخارجية محلية وعالمية ركزت ورسخت في تربة البداوة وفضائها، واخرجت من التواريخ بما فيه تاريخ القبيلة والعشيرة، وافرغت من تجارب وخبرات وتراكمها كأصل لتشكل الثقافات، وجذر لنشاط التاريخ في الاتجاه الإجابي وكتأهيل للعقل وللفكر وللمشاعر، وكجدارة واستحقاق لتقلد الأمانة وحمل المسؤولية، أو ك(شهادة) بتعبير القرآن الكريم.

ألم تكن (الشهادة) بالمعنى الرسالي الكبير، وبالمعنى الريادي الأعظم كمبادئ وكحقائق، يجب نقل الإنسانية الى آفاقها، والفراغ من هذا التكليف الذي ينصبُ له الأنبياء والرسل وحوارييهم واممهم مهما تطلب من جهد، واحتاج من عناء، بعد استفراغ الطاقة واستفاد الوسائل.

والحال أن القرآن الكريم بذل جهداً متطاولاً، في عرض صور الأنبياء والرسل مع أقوامهم واممهم وينبه ويعلم كيف جرت الأمور في المكان وفي الزمان، ولا يمر أو يقفز من دون التذكير، بل التأكيد بشكل ملحاح، على الظروف، والحيثيات والملابسات ـ أكثر من ذلك وأبعد ـ واسنادها وتعزيزها بالوضعيات الثقافية، والحضارية، وموضوعتها أو موقعتها في سلم التاريخ، وفي الشأن الاجتماعي في جانبه العلائقي والتنظيمي ومستواه المدني والحضاري، وتحدياته ورهانته، والشأن النفسي كسوية وكشذوذ، كطفولة ومراهقة، وكنضج ورشد، لو لم تكن التجارب والخبرات وتراكمهم لها كبير أهمية، والمفعول الحاسم في التثقيف والتعقيل، وفي الهدي والتذكير، وفي التماسك والتوازن، لم يجازف القرآن الكريم بسردها هكذا سدى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾[1] احتفاءً وتقديراً وتقييماً للتجربة، كعقل ثاني أو كعقل سند، أكيد هي في المحصلة عقل كبير جداً عقل أقوام وجماعات، وعقل مدنيات وحضارات، عقل تفاعلي احتكاكي اندماجي، ومركب من أحقاب جيولوجية، وطبقات اركولوجية، وأنماط تفكير يتداخل فيها الميتافيزيقي بالابستيمولوجي أو (المعرفي)، ويتقابل فيها، النسبي بالمطلق، والعقلي الخالص، أو المحض، بالواقعي الحسي أو الوضعي، إن معطى التجربة كان أساساً في تشكل التاريخ كعلم بالمعنيين، المعنى الكرونولوجي التسلسلي، كقص وحكاية للأحداث والوقائع، عبر الملوك والأسر، والمعنى العلائقي التحولي، والارتباطي السببي أو التعليلي، بمعنى أن تنظر الى العلاقات الكائنة بين ممارسة (كل مؤلف) أو (كل فيلسوف) أو (كل أديب) أو (كل متكلم) أو (كل اصولي أو فقيه) وبين مجمل العلوم والمعارف التي قد

يعرفها أو لا يعرفها والتي كانت سائدة في عصره، ذلك لأن اقتصار المؤلف على علمه فقط وانغلاقه داخل مجالهم يحد من معرفته، كما أن دراسة كل وضعية اجتماعية، أو اقتصادية، أو سياسية، أو ثقافية بمعزل عن اطارها المادي، والثقافي، وتشابكها وتداخلها مع سائر الوضعيات الأخرى، اصولاً وفصولاً، يوقعنا في مهاوي الخطأ والضلال، ويبعدنا عن تتبع مدياتها، الطويلة، والمتوسطة، والقصيرة، أين نقبض على منبتها، ومنشئها، ونحيط بجوها ومناخها، وعوامل كونها ونموها وتطورها بوصفها ظاهرة، لها حظّها من التأثير والنفوذ، وتداعياتها الإجابية أو السلبية، وقد تنزاح وتتملص الظاهرة من أرضية العلوم والمعارف، ومن لا مبالاة المجتمع وصمته، أوقد تفرخ وتتكاثر في شقوق التوترات التي تحصل بين السلطة والمعارضة، أو في الفراغات التي تخلقها الفتنة أو قد تصطنعها السلطة للتغطية على لاشرعيتها وانحرافها وفي نفس الوقت لملء الفراغ الإديولوجي والسياسي، لصرف الهم عن الجد وقتل ارادة التغيير.

إن نمط التفكير هذا الذي تمليه طريقة في التعاطي مع العقيدة وصياغة معينة لها حسب قراءة انتقائية للنصوص المقدسة، في حالة النص القرآني يكتشف الإنسان غرابة وطرافة أو حتى لا معقولية محتوى وفحوى معاني الآيات والسور خاصة في الإطار العقائدي الذي له تعلق بالأحكام في مضمار الدماء، والتكفير، والتفسيق أما قراءتهم لمجاميع الأحاديث النبوية الشريفة، فحدّث ولا حرج بصرف النظر عن نسبة الصحة التي تعطى لكتبٍ معينة ولأسانيد رجال معينين ولوضعيات وحالات ووقائع معينة يرتفع بصحتها الى مستوى أن تجعل بعد القرآن مباشرة، ويتم تحكيم وضبط الآيات القرآنية بها، ويبلغ تحكمهم مداه لما يتم حصر ألفاظ القرآن في دلالات مخصوصة لحاجة في نفس يعقوب وارغامها على النطق بها، في حالات كثيرة تكون مرجوحة، أما أبعادها فتطمس طمساً، أو تربط ربطاً بسلوكات وتصرفات وتحديات ورهانات وظروف وملابسات وحيثيات فردية وجماعية ضيقة جداً ما أنزل الله بها من سلطان، وكيف يتأتى لهذا القرآن الذي يستوعب الأزمنة والأمكنة والواقع في سيلانه أن يشد ويلصق بزمان مخصوص وبمكان محدد مقيد وبواقع جامد متكلس لايحول ولا يزول.

وعليه فإن شأن هذه الحركة الضيقة الأفق القريبة الإدراك الحرفية التكرارية، الاجترارية، التي لا تظهر وتخرج الا من تصدعات الواقع والتأزم الثقافي، وشقوق الخلافات الفكرية، وتباين وجهات النظر فيها ان على مستوى التفسير والتأويل، وان على مستوى الإبداع والتخريج والتنزيل، وهي حالات قصوى، وظروف استثنائية، ومخانق ومحابس قد تكون وقتية سرعان ما تتجاوز، وقد تكون عميقة ومعقدة تحتاج الى زمنية أطول والى امكانيات اضعف، واكتشاف طريق ومنهج وعدة يساعد أو يسهل على القفزة والطفرة أو بتعبير المحدثين على القطيعة والانفصال، وهذا ليس على المستوى الثقافي والحضاري بل على مستوى المصطلحات والمفاهيم والمناهج وتغيير جهة النظر وذلك لأن الصواب والصح هو في المحصلة نتيجة الأخطاء والسقطات والتعثرات، لقد ألمحنا في ما سلف من القول الى التجارب والخبرات ودورها في تقوية العقل وتعزيز قدراته وكيف أنها العاصم في التماسك الاجتماعي والتلاحم العقائدي والحارس الأمين للسوية الإنسانية من الانفلات، والتسيب، وركزنا وأكدنا على أن هذا الصنف من التجمع الذي يسمى السلفية (الوهابية) يدير ظهره للتجارب والخبرات أو يهزأ بها ويستنكف من ايلاء العقل أهميته ولا يلتفت بالمرة الى اشتغاله وما تؤدي اليه وظائفه.

اذا كانت الآن أجزاء كبيرة من الوطن العربي والإسلامي تتعرض للتدمير والسلخ والسحق والسحل، بفعل أمواج هذه الغيلان الأسطورية التي لها قابلية التحريش، والتحريض وخاصية التوظيف فإن وطننا الجزائر ابتلي بهذه الظاهرة المتوحشة، أذاقتنا الأمرين، وجرعتنا الغصص، وطال تهديدها الدولة بعد المجتمع ولم يزل لها ذيول ومخلفات ولم تزل مصدر قلق وخوف، وهي نمط تفكير، ونمط ممارسة في فهم الدين وتطبيقه، وفي التعامل مع الواقع وارادة تغيره، لم يعهدهما الشعب الجزائري ولا قبل له بهما، وهو أي: الشعب الجزائري كان مؤطراً ولفترات طويلة، تحسب بالقرون بالمذهب المالكي، والعقيدة الأشعرية وتصوف الجنيد السالك، والمنشط والمربي والمعلم هم الطرق الصوفية والزوايا، وبالمناسبة فإن هذه الطرق

الصوفية ورجالها في الفترات العصية من تاريخ الجزائر كفترة الاستعمار هم الذين حموا تدين الشعب الجزائري بالدين الإسلامي، وحرسوا هويته، واستبقوا ذاكرته، وهم الذين تصدوا لمحاربة الاستعمار فالأمير عبد القادر وهو أشهر من نار على علم نسباً وعلماً وشرفاً وسؤدداً، ينتهي نسبه الى الإمام الحسن المجتبى بن الإمام علي بن أبي طالب عليهما السلام، وهو من الطريقة القادرية، لم ينتظر، فبادر لدفع العدو وصده فور دخوله، واستغرقت حربه معه أي مع العدو سبعة عشر سنة، فلم يحالفه النجاح ولم يوفق لظروف قاهرة وأسباب قاسية، ووقع معاهدة توقيف القتال ونفي مع عائلته وأنصاره الى فرنسا ثم هجر الى الشام، ومن بعده جدد المقاومة الشيخ بالحداد وهو شيخ زاوية ينتسب الى الطريقة الرحمانية وينتهي نسبه أيضاً الى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام وتوفي بسجن قسنطينة ومن بعده ثار الشيخ المقراني وهو تلميذه ومريده (الشيخ الحداد) ومن نفس طريقته، وغيرها من الانتفاضات التي قادها رجال التصوف والزوايا كانتفاضة الشيخ بوعمامة، وانتفاضة اولاد سيدي الشيخ وانتفاضة فاطمة نسومر، ما نود أن نقوله ونصرح به كشهادة حق يمليها علينا واجب الدين، وواجب التاريخ، وواجب الأمة، أن الإطار الذي كان يجمع الأمة ويشكل وحدتها ويمثل مرجعيتها هم رجال التصوف والزوايا الذين تم ذكر مكاسبهم وانجازاتهم أهمها وليس فروعها وتفصيلاتها كإطعام الفقراء ورعاية الأيتام وإيوائهم وتعليمهم وأهمّ وأفيد ما يلزم الالتفات اليه باكتراث ومبالاة وبهم وتركيز أن آثار هذه المرجعية على الشعب الجزائري كانت واضحة وصريحة وكانت من التغلغل والرسوخ بمكان، مما سمح بنشوء ذهنية أو عقلية نقدر أن نسميها ذهنية الانفتاح والدمج داخل الدائرة الإسلامية ككل. كان المسلم في تصور هذا الشعب مسلماً وانتهى، سألت شيوخاً كثراً من هؤلاء هل الإمامي، أو الشيعي، أو الرافضي كما يحلو للخصوم أن يقولوا ويكرروا القول مسلم مثلنا؟ فانتفضوا وردوا علي رداً قاسياً نعم مسلم وهذا ما تلقيناه من علمائنا ومشايخنا، وتنطوي عليه عقيدتنا، الأكثر من هذا والأبعد منه تصوراً وفكراً شكلاً ومضموناً، أن هذا الشعب كان محباً لآل البيت عليهم السلام عاشقاً لهم الى حد الهيمان

وكان يحفظ تواريخهم وسيرهم ويرددها خاصة في المناسبات، كثير الاستشهاد بأقوالهم مدمناً على التوسل بهم وله أناشيد وأغاني تشيد بهم وتعدد محاسنهم وصفاتهم وجملة كراماتهم، وفي أواخر الخمسينات وبحر الستينات، وأوائل السبعينات كانت تلقى هذه الأناشيد والأغاني في الساحات العامة وترفق بكلمات تذكر بوقائعهم وآلامهم وما لحق بهم من أذى وإساءة يقع هذا في جموع غفيرة وحشود محتشدة، بالرغم من أن محاربة هذه الحالة وهذه العلاقة وهذا الاعتقاد تأبطتها شلة من السلفية شرعت في نشاطها في سنة ١٩٣٠ ميلادي ١٣٤٨ هجري قادمة من السعودية بعد أن تشبعت بدعوتها الوهابية وتشربت روحها زاعمة أن اسلام الزوايا اسلام وثني شركي وأوهموا الناس أن الرسول ﷺ بعث في لحظتهم، وأنهم (أي الناس المؤمنون المسلمون أباً عن جد) حديثو عهد بالإسلام، لكنهم لم يؤثروا شروى نقير في عامة الناس، ولم يزحزحوهم قيد انملة عن اعتقاداتهم، وفقههم، وما عرفوه وتعودوا عليه، فهذا الشيخ العربي التباني من كبار علماء الجزائر كان يدرس في الحرم المكي وله تآليف، كتب كتباً في نقدهم باسم مستعار بلغنا أن له علاقات وارتباطات بعلماء الشيعة، في السعودية، وأنهم كانوا يودونه ويحترمونه ويقدرونه، وهذا الشيخ علي البوديلمي يقول عنهم ما يقول : في كلام طويل يخص قضايا شائكة ومعقدة تتصل بجميع أطراف الثقافة الإسلامية، المجمع عليها، بين المسلمين كافة، ولقد اخترنا جملة من الأقوال أنكر على البشير الإبراهيمي فيها أشد النكير.

ولا ننسى أن نحيل الى كتابات مالك بن نبي (رحمه الله) خاصة مذكراته (الطفل)، (الطالب)، و (العفن) قدم لهم نقداً يشطب على دورهم في السياسة ويشكك في دورهم الاجتماعي ويثلم دورهم الدعوي وهو من هو، التزاماً تعبدياً، والتزاماً فكرياً، وصدقاً إيمانياً واسلامياً، ومعرفة دقيقة ومعمقة بنشوء الحضارات وازدهارها، وبمرضها وتداعيها، له معرفة علمية بالاستعمار وأساليبه، ويكفي قراءة كتاب (الصراع الفكري في البلاد المستعمرة).

نكير الشيخ علي البوديلمي (رحمه الله) على البشير الإبراهيمي :

١) _ لماذا لَم تحضر جماعة المسلمين ولا جُمعَتهم، وتَحكم عليها بالبطلان.

٢) _ حكمك على أبوي النّبي ﷺ بالنّار.

٣) _ إنكاركَ لرسالة آدم بدعوى أنّه لَم يوجد نصّ من القرآن يدلّ على رسالته.

٤) _ حكمك على الحسين بأنّه قتل بسيف جدّه.

٥) _ إباحة مسّ المصحف للجُنُب لعدم وجود الدّليل من الكتاب والسنة.

٦) _ حكمك على الـميِّت إذا مات انقطع عمله بدون استثناء، وأن لا تلحقه صدقة ولا غيرها.

٧) _ تشريك الـمتوسِّلِين بالأنبياء والأولياء والصالحين.

٨) _ إنكارك لشفاعة الأنبياء عامة وخاصة.

٩) _ تكفيرك للزّائرين القبور بدعوى أنّهم يعبدون من دون الله.

١٠) _ إنكارك لمشروعيّة الباقيات الصالحات بعد الصلوات.

١١) _ إنكارك لمشروعيّة الدّعاء.

١٢) _ تضليلكَ المذاهب الأربعة بدعوى أنّهم فرَّقوا الأمّة ودين الله واحدٌ.

١٣) _ خوضكَ في واقعة صفّين وتصويبكَ لرأي معاوية وتخطِئة علي كرّم الله وجهه.

١٤) _ تحليلك القليل من الرّبا.

١٥) _ تحليلكَ المكوس.

١٦) _ تفسيقكَ لمن اعترفَ بولاية سيدي أبي مدين الغوث رضي الله عنه.

١٧) _ إنكاركَ لكرامة الأولياء ومعجزات الأنبياء.

١٩) _ إنكارك تفضيل النّبي صلى الله عليه (آله) وسلّم على غيره من الأنبياء.

٢٠) _ إنكاركَ لحياة النّبي صلى الله عليه (وآله) وسلّم في قبره.

والسلفية الآن في الجزائر يعتبرون أن هؤلاء سلفهم وأساس بنائهم وذاكرتهم، حتى لايتهمون بأنهم طارؤون، وأنهم غرباء معزولون لاعلاقة لهم بتاريخ هذا البلد

وتراثه، ولا أكتمكم سراً أنهم أطاحوا بالمالكية، والأشعرية، والطرق الصوفية، وادخلوهم في عزلة أبدية، ولم يعد لهم حضور لا علمي ولا أدبي ولا دعوي وهم الآن ينتشرون كالنمل في طول البلاد وعرضها، لا يرون إلا خصماً واحداً بل عدوٌ أوحد يتحفزون ويتنمرون للقضاء عليه قبل أن ينبت ويشتد عوده، ولكن هيهات هيهات ﴿... وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[2].

﴿... وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِّ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[3].

قال رسول الله (صلى الله عليه (وآله) وسلم) : «حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ غِيَاثٍ، وَيَحْيَي بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْن عَتِيقٍ، عَنْ طَلْقِ بْنِ حَبِيبٍ، عَنْ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ عَبْدِ الله، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ (وآله) وَسَلم: "هَلَكَ الْـمُتَنَطِّعُونَ، قَالَـهَا ثَلَاثاً"»[4].

وقال صلى الله عليه وآله : «لا تشدّدوا فيشدّد الله عليكم»[5].

وقال (صلى الله عليه (وآله) وسلم) : «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ولا تبغضوا إلى أنفسكم عبادة الله، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقي»[6].

عن مُحَمَّدِ بْنِ يَعْقُوبَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ إِبْراهِيمَ، عَنْ أبيه، عَنِ النَّوْفَلِي، عَن السَّكُوني، عَنْ أبي عَبدالله عليه السلام قالَ: قالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله : «مَن كانَ في قَلْبه حَبَّةٌ مِنْ خَرْدلٍ مِنْ عَصَبيَّةٍ، بَعَثَهُ اللهُ يَوْمَ القِيامَةِ مَعَ أَعْرابِ الجَاهِلِيَّةِ»[7].

نسيت أن أنبه الى أمرٍ قد يغيب عن كثيرٍ لأني فيها قرأت وسمعت وناقشت وتساءلت، واستفهمت، في كل اتصالاتي واجتماعاتي وعلاقاتي لم أجد له تعرضاً، أو حتى اشارة أو تلميحاً، ألا وهو مكونات الثقافة الدينية الجزائرية، ان ثقافة آل البيت عليهم السلام أو عنصر التشيع مكون أساسي من هذه المكونات وتجلياته في الاجتماع الجزائري لا تخطؤها العين، ولا الأذن ويطول بنا الأمر لو نلجأ الى الاستشهاد بالثقافة

الشفوية الشعبية، ولا غرابة في ذلك لأن الفاطميين (العبيديين) نشروا دعوتهم في ربوع هذه البلاد وأقاموا دولتهم فيها، ولأن الأدارسة هاجروا اليها واستوطنوها وأقاموا فيها صروحاً علمية، وساسوا قومها وناسها بالرفق واللين، فكان لهم أثر ونفوذ معنوي ورمزي لم يرتفع الى الآن ولم تعف آثاره السنون وان كانت عقيدتهم أشعرية ويتعبدون بالمذهب المالكي، فإن هويتهم شيعية، وفهمهم للتاريخ الإسلامي فهماً وتعقلاً شيعياً، عرفت عائلات منهم حاورت أبناءهم، وشيوخهم، وذهبت معهم بعيداً في الحوار، فما إن اطمأنوا لي، وتوطدت الصداقة ومتنت عراها، وحصلت الثقة، حتى بادروني بالمكاشفة وصدموني بالمصارحة التي لم أعهدها في أصحاب المذاهب وتعصبهم، بحيث فاجؤوني بتحفظات وتصويبات واستدراكات على علمائهم ومراجعهم في ما يخص نقاط حساسة في العقيدة وفي المذهب الفقهي، وفي التاريخ وفي كتب الحديث هؤلاء لم يقرؤوا كتباً شيعية، ولم يستمعوا الى محاضرات أو خطب تتكلم على هذه الحقائق وتقررها، وهذا قبل الثورة الإعلامية وانتشار الفضائيات والانترنت.

*** هوامش البحث ***

(١) الآية ١٦ من سورة الحديد.

(٢) الآية ٢١ من سورة يوسف.

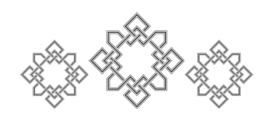
(٣) الآية ٣ من سورة الطلاق.

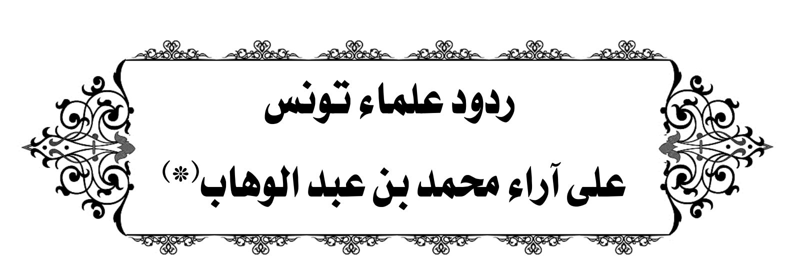
(٤) صحيح مسلم.

(٥) سنن أبي داوود.

(٦) أخرجه البيهقي وأدرجه الألباني في الجامع الصحيح.

(٧) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب العصبية، ح٣.





ردود علماء تونس على آراء محمد بن عبد الوهاب(*)

محمد حسين الرفيعي
تعريب: هاشم مرتضى

تمهيد:

يُعدّ المغرب الإسلامي بالنظر إلى خصائصه، وموقعيته الجغرافية الخاصّة، وما يلعبه من دور في المعادلات السياسية للعالم الإسلامي في القرن ١٢ و١٣، من أهم أهداف الوهابية لنشر دعوتهم.

كانت دول شمال أفريقيا ـ المعروفة بالمغرب الإسلامي في التاريخ الإسلامي ـ مورداً لتنافس الإمبراطورية العثمانية لإعمال نفوذها وتوسيع الفتوحات ورقعة الممتلكات، ومن جهة أُخرى وبالنظر إلى الموقعية الاستراتيجية لتونس والمغرب، حاول الوهابيون استغلال ضعف الحضور العثماني هناك وتوسيع رقعة الدعوة والنفوذ فيها، وعليه كثرت ردود علماء تونس والمغرب على الوهابية بالقياس إلى سائر دول المغرب العربي، وتم تأليف بعضها بدواع شخصية، وبعضها الآخر بطلب من الأمراء والحكام.

كان التواصل بين علماء تونس والمغرب ـ بمركزية مدينة فاس ـ عن طريق الحجّاج، إذ كانوا يقفون على الآراء العلمية وتتبادل الرسائل والكتب بين الفريقين،

(*)طبع هذا البحث باللغة الفارسية في مجلة «بيام بهارستان» السنة الثالثة العدد ١١ عام ١٣٩٠ش.

ولكن العامل الأهم في انعكاس الآراء والأخبار العلمية من هذين المنطقتين إلينا، إنّما هو سفر الشيخ إبراهيم الرياحي إلى فاس حيث تم بأمر حمودة باشا عام ١٨٠٣م. فهذا التاريخ يتطابق تماماً مع وصول أوّل رسائل الوهابية الدعوية إلى فاس، وتنعكس ردة فعل علماء المغرب بشكل جلّي في كتاب «شجرة النور الزكية في طبقات المالكية» لمحمد بن محمد مخلوف[1].

والأمر الملفت للنظر والجدير بالبحث، هو وجود الخلافات المتعدّدة والمتأثّرة بالحالات الدينية والسياسية بين هاتين المنطقتين رغم التشابه والتقارب الفقهي الموجود بينهما، وذلك أنّ تونس كانت تابعة للباب العالي المنصوب من قبل السلطان العثماني، وكان حمودة باشا ـ حاكم تونس ـ يُعدّ من رجال الدولة العثمانية، والحال أنّ المغرب لم تخضع بتاتاً للحكم العثماني، وقد جمع السلطان سليمان ـ بالاستعانة من سمعة أبيه ـ العلم والقدرة في مكان واحد وأصبح ذا فضل وكمال. هذه الفروقات الظاهرية أثّرت على المنهج والاتجاه العام في الرد على الوهابية، وهو أمرٌ سنفصّل القول فيه لاحقاً.



لقد تم تدوين هذا البحث (من حيث الفترة الزمنية) ابتداء من تداعيات وصول رسالة محمد بن عبدالوهاب الدعوية إلى تونس والإجابة عنها، ونحاول ـ ضمن الإشارة إلى المطالب المندرجة فيهما ـ إيضاح بعض الحقائق المستورة عن دعوة الوهابية في غرب العالم الإسلامي ونوع تداعياتها.

المصدر المعتمد في هذا البحث للعثور على الرسالتين، ما ذكره المؤرّخ التونسي في القرن ١٣هـ أحمد بن أبي الضياف (١٢١٩ـ١٢٩١) المعروف بابن الضياف في كتابه «إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان»[2].

يحتوي هذا الكتاب على تاريخ شمال أفريقيا سيما تونس منذ الفتح وحتى عصر المؤلّف، ويشتمل على مقدمة في عقدين، وثمانية أبواب وخاتمة. يتحدث العقد الأوّل

من المقدمة عن الحكومة وأنواعها في العالم، والعقد الثاني يذكر أمراء أفريقيا في زمن الصحابة والتابعين وتابعي التابعين. أمّا الأبواب الثمانية فيذكر فيها تسلسل الحكام بالترتيب أي دولة حمودة باشا، عثمان باي، محمود باي، حسين باي، مصطفى باي، مشير أحمد باي، مشير محمد باي، ومشير صادق باي. وتتضمّن الخاتمة شرح أحوال بعض الأعيان من العلماء والوزراء والمؤلّفين المتأخّرين.

ينتسب ابن الضياف إلى عشيرة عربية شهيرة تُعرف بأولاد عون، وقد هاجر أجداده إلى تونس من مكان مجهول (ربما يكون اليمن)[٣]. وقد تربى في شبابه على يد أبيه، وكان أبوه كاتب الوزير يوسف مهردار (صاحب الطابع) في بلاط حكّام تونس الحسينيين هذا الأمر هو الذي فتح الطريق أمامه لتسلّم المناصب الحكومية مستقبلاً، حيث نصبه حسين باي عام ١٢٣٧ هـ وهو في شبابه على قضاء خطة العدالة ـ وهو من المناصب الرفيعة آنذاك ـ وارتقى عام ١٢٤٢ هـ إلى مقام خطة الكتابة، وأصبح كاتب السر لحسين باي والوزير أبي محمد شاكر مهردار.

كان ابن أبي الضياف أوّل من راسل الدولة العثمانية باللغة العربية، وكان المشير باشا أحمد باي معترفاً بكمالاته ويعتمد عليه في مهام الأمور، حيث أرسله عام ١٢٤٦ هـ و ١٢٨٥ هـ سفيراً عنه إلى إسطنبول، ولما سافر إلى باريس عام ١٢٦٢هـ اصطحبه معه[٤] وفي عام ١٢٥٧ هـ أعطاه وسام الافتخار، وفي ١٢٥٨هـ نال رتبة الأمين، وفي ١٢٥٩هـ أصبح قائم مقام وأمير اللواء، وترقّى حاله في حكم مشير باشا صادق باي، وفي فترة المشير الثالث عام ١٢٧٧هـ ١٨٦١م أصبح عضواً في مجلس الشورى الخاص، كما لقّبه المشير الثالث بلقب أمير الأمراء ووزير القلم، وكلّفه شرح الدستور المتبع آنذاك.

يُعدّ كتاب ابن أبي ضياف ـ من دون شك ـ من آثاره المهمة والمصدر الأصيل لتاريخ تونس وشمال أفريقيا وفيما يخص العالم الإسلامي في القرن الثالث عشر. حيث كان معاصراً لجميع التقلبات السياسية في الفترة التاريخية التي عاشها ورواها في كتابه

مباشرة ومن دون أيّ واسطة، حاله حال سائر المؤرخين الكبار في العالم الإسلامي. وكان له دور بارز كمؤرّخ في تأسيس الدولة الحديثة في تونس، حيث لعب دوراً بارزاً في خضم معترك التيار القومي العربي التونسي الذي حاول التأكيد على الدولة العربية أمام الإمبراطورية العثمانية التركية...

التقرير الذي ذكره ابن أبي الضياف في كتابه عن الوهابية، أخذ حيّزاً كبيراً، حيث أورد الحوادث الواقعة في زمن حمودة باشا مع متن رسالتين تتعلّقان بالوهابية نسخهما بنفسه عن نسخة الأصل. المتن الأوّل شرح حادثة تسلّم حمودة باشا رسالة من مبلّغ وهابي في الجزيرة العربية حيث ذكر متن الرسالة. أما المتن الثاني فهو ردّ مفصّل تقريباً لأحد علماء تونس المعروفين على هذه الرسالة، مع شرح مختصر لأسباب ظهور الوهابية في الجزيرة العربية وذكر أحوالهم، حيث يُعدّ تاريخاً للوهابية من منظار مؤرّخ شهير في غرب العالم الإسلامي، ولكن قبل الخوض في الرسائل لابد من ذكر نبذة مختصرة عن تاريخ الدعوة الوهابية في غرب العالم الإسلامي.

لقد أُرسلت ثلاث رسائل من قبل محمد عبد الوهاب إلى المغرب الإسلامي: كشف الشبهات، ورقة الوهابي الواردة من دمشق والرسالة القاهرة. وهذه الرسائل المحفوظة في مختلف مكتبات شمال أفريقيا والغرب الإسلامي تكون متحدة في واقع الأمر، وبعبارة أُخرى فانّ الرسالة القاهرة هي نفس الورقة الوهابية بتغيير طفيف في بداية الرسالة مع اتحاد المحتوى، فهذان الرسالتان نسختان من رسالة مشتركة باسم رسالة إلى أهل المغرب. وقد انتشرت هذه الرسائل عن طريق الحجاج الراجعين إلى مصر أو تونس، وتم انتخاب عنوان (الرسالة القاهرة) فيما بعد لتمييزها عن الرسالتين الاخرتين وإلاّ فالرسالة لا تحمل أيّ عنوان في طياتها، وتشبه كثيراً من حيث الشاكلة كتاب القواعد الأربعة لمحمد عبد الوهاب.

هذه الرسالة ـ التي لا يُطلق عليها عنوان الكتاب ـ لا تتجاوز ثلاث ورقات، ركّزت بدلاً عن الاستدلالات الفقهية والعقلانية على شرح الفتوحات والحوادث

العظيمة التي زعمها ابن عبد الوهاب لحركته. أمّا كشف الشبهات والورقة الوهابية، فيمتازان بأهمية أكثر لأنّ علماء تونس والمغرب الرادين على الفكر الوهابي اهتموا بالرد عليهما بعنوان أنّهما الميثاق الرسمي لعقائد ابن عبد الوهاب.

تمتاز رسالة كشف الشبهات بمحتوى أطول من غيرها، وقد انتخب اسمها ابن عبد الوهاب نفسه، ولكن لا يتطابق العنوان مع المحتوى إذ يحتوي على مجموعة استدلالات لأفكار الوهابية. وقد وصفها ابن غنام (١٢٢٤/ ١٨١٠) في بداية كتابه تاريخ نجد بكونها رسالة عامة في الإجابة عن (أسئلة) المسلمين والمسائل التي أوردوا الشبه حولها[٥]. وهذه الرسالة تعد الأثر الثاني بعد كتاب التوحيد لابن عبد الوهاب ألّفها بين سني (١١٥٢ ـ ١١٥٧/ ١٧٤٠ ـ ١٧٤٥). وامتازت رسالة كشف الشبهات بالقسط الأكثر من الردود، رغم تأليف رسالة التوحيد قبلها، وقد يكون سبب ذلك اعتبار رسالة كشف الشبهات المحور الرئيسي لعقائد الوهابية حيث أجاب فيها ابن عبد الوهاب عن عقائد المشركين وكفّر فيها جميع من يعتقد بالتوحيد ولكن لا يعمل به[٦].

وتوجد رسالة أخرى بعنوان «الورقة الوهابية الواردة من المشرق» في صفحتين وتُعرف أيضاً بالرسالة القصيرة، حيث كتبها سعود بن عبد العزيز وأرسلها إلى جميع أقطار العالم الإسلامي، وأعلن فيها وفاة محمد بن عبد الوهاب عام ١٢٠٦/ ١٧٩٢. ولكن ربما نسبت هذه الرسالة في المغرب الإسلامي إلى نفس ابن عبد الوهاب وباسم رسالة إلى أهل المغرب، إذ إنّ الناس ما كانوا يعلمون بزمن موته، وكانوا يظنون بأنّه الذي كتب هذه الرسالة؛ حالها حال الرسائل الأخرى.

وتبدو هذه الرسائل قليلة بالنظر إلى ما عدّه ابن غنام من رسائل ابن عبد الوهاب البالغة (٥١) رسالة والمطبوعة عام ١٣٩٧/ ١٩٧٧ تحت عنوان «تاريخ نجد» مع حذف ردّ ابن عبد الوهاب على عقائد أخيه. ولم يهتم ابن عبد الوهاب بجمع رسائله وترتيبها، بل كان يكتبها تحت عناوين مختلفة من قبيل: خطاب إلى من يهمّه أمر

المسلمين أو أيّها المسلمون في العالم، ويرسلها، وهذا يدلّ على أنّه ـ رغم عقائده وأفكاره الطموحة ـ لم يكن يتصوّر أن تصبح ذات أهمية فيما بعد.

ولمعرفة مجموعة رسائل ابن عبد الوهاب لا يمكن الاطمئنان على ما كتبه ابن غنام، بل بإمكاننا الاطمئنان إلى ما دوّنه عبد الرحمن بن قاسم عام ١٩٠١ ـ ١٩٥٢ تحت عنوان: «الدرر السنية في الأجوبة النجدية».

الوهابية عند ابن أبي الضياف:

يقول ابن أبي الضياف في مقدمة الفصل الذي دوّنه عن الوهابية تحت عنوان: استرجاع الحرمين الشريفين من الوهابيين: «وفي الرابع والعشرين من جمادى الثانية سنة ١٢٢٩ تسع وعشرين ومائتين وألف، ورد البشير من الدولة العلية العثمانية بأخذ الحرمين الشريفين من يد الوهابي، وأعلنت مدافع الحاضرة سروراً بذلك»[٧].

ثم بعد هذه المقدمة يشرح ابن أبي الضياف تاريخ الدعوة الوهابية ويقول: «وهو أنّ رجلاً يقال له محمد بن عبد الوهاب من تلاميذ الشيخ ابن تيمية الحنبلي، منع زيارة القبور حتى قبور الأنبياء، ومنع التوسّل بهم إلى الله تعالى، والبناء على قبورهم، وصرّح بكفر من يفعل ذلك وسمّاه مشركاً، زاعماً أنّ الزيارة والتوسل عبادة، وهي لاتكون إلاّ لله تعالى.

وترامت بهذا الرجل الأسفار إلى أن استقرّ بالدرعية من أرض نجد، فصادف بها آذاناً واعية وقلوباً من العلم خاوية، وألقى لكبيرهم سعود هذا المذهب، واستدل له بظواهر آيات وأحاديث اغتر بها عامتهم حتى استباحوا قتال المسلمين. ولم يزل هذا المذهب ينمو إلى أن أفضى الأمر لسعود بن عبد العزيز بن سعود القائم الأوّل، فعظم الأمر في زمنه، ونصب حرباً للمسلمين عموماً، ولأهل الحجاز خصوصاً، وصدّهم عن بيت الله الحرام، وزيارة قبر سيد الأنام، وعاث في أهل الحجاز، وأطلق يد القتل

والنهب فيهم، واستحكم هذا المذهب في قلوب أتباعه، والتحموا به التحام النسب، واشتدت عصبيتهم وقويت، فطلبوا غايتها وهي الملك والسلطان، وأقاموا دعاة يدعون الناس إلى مذهبهم مع رسائل وجّهوها لآفاق المسلمين، فوصلت منها رسالة للقطر التونسي»[٨].

ربما تكون هذه الرسالة التي يشير إليها ابن أبي الضياف، هي إحدى الرسائل الثلاثة الواصلة إلى المغرب من قبل الوهابيين.

موقف حمودة باشا من الدعوة الوهابية:

بعد ذكر ما أبداه ابن أبي الضياف في كتابه، تجدر الإشارة إلى أوضاع تلك الفترة وأحوالها. لقد حكم حمودة باشا ـ الباي الحسيني الخامس ـ تونس بين أعوام ١١٩٦ ـ ١٢٢٩، ولُقّب بصاحب الحضرة العالية. وبعدما وصلت الرسالة الوهابية إلى تونس، طلب من العلماء الإجابة عنها والرد على بدع ابن عبد الوهاب، فاستجاب له اثنان وقاما بالرد عليها.

فقد كتب أبو الفداء إسماعيل التميمي رسالة مطوّلة تحكي عن توغّله العلمي وأسماها: «المنح الإلهية في طمس الوهابية». قال ابن أبي الضياف في المجلد الثامن من كتابه إتحاف الزمان في ترجمة التميمي: ولد بمنزل تميم وبيته من أشرافها وكان بدء تحصيله الدراسي من مدرسة الزيتونة إلى أن وصل فيها إلى مقام الأستاذية، وقدّمه الباي حمودة باشا للشهادة على بناء داره بالقصبة، ثم قدّمه لخطة القضاء بالحاضرة سنة ١٢٢١هـ ١٨٠٦م، ثم نُقل لخطة الفتوى عام ١٢٣١/١٨١٦. ثم امتحن عام ١٢٣٥هـ بالعزل والنفي وسجن بعض أتباعه لنبأ فاسق بأنّه يترقب زوال الدولة ويخبر بشرح الجفر، وبعد أربعة وثلاثين يوماً تسرح من النفي، ثم رجع لخطة الفتوى سنة ١٢٣٩ هـ ، ولما توفي الشيخ قاسم محجوب سنة ١٢٤٣هـ صار رئيس الفتوى عوضه وبقي فيه إلى حين وفاته عام ١٢٤٨هـ[٩].



ومن جهة أخرى فقد كتب أبو حفص عمر بن المفتي العلامة فخر المذهب المالكي أبو الفضل قاسم المحجوب رداً آخر على الرسالة الوهابية، وأصبحت من أهم ردود فقهاء المالكية على أفكار الوهابية وما زالت مشهورة لحدّ الآن، وقد أدرجها ابن أبي الضياف في كتابه.

ويظهر ممّا ذكره ابن أبي الضياف في ترجمة إسماعيل التميمي، أنّه كان أقلّ رتبة وسناً من قاسم المحجوب، ولذا خلفه بعد موته. وعلى كلّ حال فهما يعدان من أقطاب الفقه المالكي بتونس في زمن حمودة باشا. ولكن مع هذا فقد حاز كتاب المنح الإلهية للتميمي شهرة في الوسط المناهض للفكر الوهابي أكثر من رسالة المحجوب، وذلك لانسجامه وحجمه الكبير، ولذا توجد منه نسخ متعدّدة في مكتبات العالم الإسلامي سيما الخزائن الخطية في الغرب الإسلامي، بينما لم تحز رسالة المحجوب ـ المسماة «بالرسالة في الردّ على الوهابية» مع تقدّمه علماً وسنّاً على التميمي ـ شهرة كتاب المنح الإلهية.

ومن حسن الحظ أنّ ابن أبي الضياف قد أدرج هذه الرسالة في كتابه، وإن لم يُعلم أنّه هل أراد التبليغ عن هذه الرسالة كي لا تُغفل أو تُهمل، أو أوردها لأهميتها بالنسبة إلى سائر الردود الأخرى بحسب رأيه.

لقد ذهب اندرو جرين المستشرق؛ في سبب إدراج ابن أبي الضياف رسالة المحجوب في كتابه، ـ وبالنظر إلى تقدّم رسالة المحجوب على كتاب التميمي ـ إلى أنّه كان يرى اعتماد التميمي في كتابه المنح الإلهية على رسالة المحجوب والاقتباس منها والتوسّع فيها (ولذا اكتفى بذكر الرسالة والإشارة إليها في كتابه).

وقد ولد الشيخ عمر بن القاسم المحجوب في إحدى الأسر العلمية المعروفة بتونس ومن أشرافها، حيث كانت أسرتهم من أهل العلم، ويمكن العثور على ترجمة أكثر من اثني عشر عالماً من علمائهم في ثنايا كتاب إتحاف الزمان. كان أبوه من كبار

فقهاء المالكية بتونس، وكان قاضياً في البداية وترقى إلى رتبة كبير المفتين في المحكمة الحكومية، درس عمر المحجوب في الجامعة الزيتونية وبعد اكتمال درسه بدأ فيها بالتدريس، وفي هذه الفترة تعرّف إسماعيل التميمي على عمر بن القاسم المحجوب وتتلمذ عنده.

كان يعرف عمر بن قاسم بعدئذٍ بالشيخ المحجوب، وسرعان ما أصبح من الوجوه البارزة في الجامعة الزيتونية، وأجمع أرباب التراجم على أنّه فاتح منبر الوعظ وخطيباً مفوّهاً، ولكن لسانه اللاذع في مقام الوعظ والإرشاد سبّب انعزاله وعكوفه في البيت، ممّا أدّى إلى تركيز اهتمامه على التدريس وتأليف الكتب العلمية في الجامعة الزيتونة إلى أن وافاه الأجل عام ١٢٢٢هـ.

كان الشيخ محجوب شاعراً وكاتباً قديراً، لا يأمن أحد من لسانه السليط، وهذا ما يظهر من الأدبيات المستخدمة في رسالته، والتي أصبحت نموذجاً يقتدى في سائر الرسائل الرديّة، كان يستخدم عبارات «يا هذا» و «يا أخا العرب» للإشارة إلى ابن عبد الوهاب، حيث تستبطن التشويق والتحقير معاً، مضافاً إلى كنايته لكاتب الرسالة الوهابية بعدم معرفة معنى الروايات بشكل صحيح.

وتبقى نقطة أُخرى خفيت علينا ولم تظهر من تاريخ ابن أبي الضياف وكذلك من سائر المصادر، وهي التاريخ الدقيق لتأليف رسالة الرد على الوهابية، وإن أمكننا العثور على زمانها تقديراً، إذ إنّ حمودة باشا حكم منذ ١١٩٦ إلى ١٢٢٩، وتوفي الشيخ محجوب عام ١٢٢٢هـ، وبما أنّ ابن عبد الوهاب مات سنة ١٢٠٦هـ، وصرّح ابن أبي الضياف بأنّ ابن عبد الوهاب هو الذي كتب الرسائل، وأنّه كان المخاطب في الردود، أمكن تحديد الفترة بين (١١٩٦ـ ١٢٠٦هـ) ولكن هذه التواريخ غير دقيقة بلا شك، إذ أنّ علاقة ابن عبد الوهاب مع الناس في غرب العالم الإسلامي كانت أضعف بكثير من علاقته بأهل العراق أو اليمن، وزد على ذلك، في مقام أسباب ضعف العُلقة

والتواصل؛ بُعد المسافة بينه وبين دول شمال أفريقيا، وعدم وجود توافق فقهي بينهم وبينه حيث كان حنبلياً، والدليل على ذلك وجود ثلاث رسائل فقط لأهل الغرب الإسلامي أمام (٥١) رسالة أُرسلت من قبل ابن عبد الوهاب إلى سائر نقاط العالم الإسلامي(١٠).

ونظراً لقلة معلومات الناس عن أوضاع الجزيرة العربية وضعف وسائل الارتباط معهم، كانت تنسب أحياناً بعض الرسائل الدعوية التي كتبها أتباع ابن عبد الوهاب والمرسلة إلى تلك المناطق؛ إلى ابن عبد الوهاب، ومن هنا يمكن أن نظنّ ـ ظناً مقارباً للقطع ـ بتأليف الرسالة الوهابية بعد موت ابن عبد الوهاب وبعد توسيع رقعة الحكومة السعودية، لأنّ الدولة السعودية أرسلت آنذاك كثيراً من الرسائل الدعوية إلى مختلف أقطار العالم الإسلامي لتعدّ نوع إعلام ودعاية لظهور الدولة السعودية الوهابية(١١).

ومن جهة أُخرى فقد ورد في كتاب ابن أبي الضياف، وكذلك في رد الشيخ محجوب، إشارات صريحة إلى فتح الحجاز وتخريب الحرمين الشريفين، فانّ هذه الحوادث ـ وكما هو واضح من التواريخ ـ حدثت بعد موت ابن عبد الوهاب وبداية توسيع رقعة نفوذ السعودية، وهذا دليل آخر على أنّ هذه الرسالة لم تكن من تأليف ابن عبد الوهاب، وبالنظر إلى ما ذكره ابن أبي الضياف من أنّ هذه الرسالة وصلت ابتداء إلى يد حمودة باشا ـ الأمير الحسيني التونسي ـ ثم أعطاها للعلماء، يمكن الوصول إلى تحديد آخر لفترة تأليف الرسالة وعدّها ـ كسائر الرسائل المرسلة إلى البلاد الإسلامية ـ بين سنيّ (١٢١٠ـ ١٢٢٠هـ)(١٢). وعلى آية حال وبالنظر إلى المصادر الموجودة، لا يمكن تحديد الزمن الدقيق لإرسال هذه الرسالة وزمن كتابة الردود عليها.

قال ابن أبي الضياف بعد ما أورد رسالة الشيخ محجوب بتمامها: « وبعث حمودة

باشا بهذه الرسالة إلى القائم الوهابي فلم يجب عنها». حيث يُفهم منها اكتفاء حمودة باشا في مقام الرد على الوهابيين بهذه الرسالة، من دون أن ترد الإشارة إلى ردّ إسماعيل التميمي ـ المنح الإلهية ـ في هذه العبارة. ويقصد ابن أبي الضياف من القائم الوهابي ابن عبد الوهاب نفسه لأنّه المؤسس والمبتدع للمذهب الوهابي، هذا والحال وجود احتمال وفاة ابن عبد الوهاب آنذاك، وأن إرسال الرسالة والرد عليها كان في أُواخر الدولة السعودية الأولى، بدليل ما ذكره ابن أبي الضياف من قوله: «وبعث حمودة باشا بهذه الرسالة إلى القائم الوهابي فلم يجب عنها، ولجّ في حروبه وقتاله إلى أن كانت الهزيمة آخر حاله على يد رجل الدنيا وواحدها الطائر الصيت في جهات المعمور وهو أبو عبد الله محمد علي باشا عزيز مصر»[13].

ومن الطبيعي عدم وجود أيّ معلومات في المصادر السعودية عن هذا الرد، لعدم وجود أيّ توثيق وأرشفة للحفظ والتدوين عندهم، نعم انعكس عدد قليل من هذه الردود في المصادر الوهابية، وذلك بدليل ردّ ابن عبد الوهاب أو غيره على تلك الأجوبة، وإلاّ فبحسب معلوماتنا الناقصة نفترض وجود ردود على أفكار ابن عبدالوهاب وعقائده أكثر مما ذكره ابن غنام في كتابه أو التي دوّنت في الرسائل والمسائل النجدية. فهذه الرسائل المبسوطة لا تنعكس في المصادر الوهابية عادة ولا يوجد أيّ ردّ عليها من قبلهم.

وهناك نقطة مبهمة أُخرى حول هذه الرسالة، أنّ ابن أبي الضياف لم يشر إلى أسماء العلماء الذين ردّوا على الوهابية، نعم ورد في كتاب مسامرات الظريف اعتراض الشيخ إبراهيم الرياحي حيث شوق تلامذته والشيخ محجوب لكتابة ردّ على الدعوة الوهابية[14]. وقد ذكر حسن الحسني عبد الوهاب في كتاب العُمر نقلاً عن كتاب اليواقيت الثمينة[15] أنّ الشيخ الرياحي قد ردّ أيضاً على الوهابية برسالة ولا نعلم سبب عدم إشارة ابن أبي الضياف إلى هذه الرسالة في ترجمة الشيخ الرياحي، مع ما كانت تربطهما من أواصر الودّ والمحبة سيما بالنسبة إلى الطريقة الصوفية التيجانية،

وربما يقال إنّه كان بصدد ذكر الرسائل التي كُتبت بأمر حمودة باشا، وهذا يدعونا إلى افتراض أنّ إدراج تلك الرسالة في كتاب إتحاف الزمان من قبل ابن أبي الضياف كان بدواع سياسية، وللتأكيد على نفوذ أوامر حمودة باشا في تونس وإبراز قوّته واقتداره.

متن رسالة عمر بن قاسم المحجوب في الرد على الوهابية:

«ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجّنا برحمتك من القوم الكافرين، ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ الله وَلاَ الشَّهْرَ الْـحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنَ الْـمَسْجِدِ الْـحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ .

أما بعد هذه الفاتحة التي طلعت في سماء المفاتحة، فإنك راسلتنا تزعمُ أنك القائم بنصرة الدين، وأنك تدعو على بصيرة لما دعا إليه سيد الأولين والآخرين، وتحثُّ على الاقتفاء والإتباع، وتنهى عن الفرقة والابتداع، وأشرت في كتابك إلى النهي عن الفرقة واختلاف العباد، فأصبحت كما قال الله تعالى: ﴿**وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْـحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ الله عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْـحَرْثَ وَالنَّسْل وَالله لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ**﴾ .

وقد زعمت أن الناس قد ابتدعوا في الإسلام أموراً، وأشركوا بالله من الأموات جمهوراً في توسلهم بمشاهد الأولياء عند الأزمات، وتشفعهم بهم في قضاء الحاجات، ونذر النذور إليهم والقربات، وغير ذلك من أنواع العبادات، وأن ذلك كله إشراك برب الأرضين والسموات، وكفر قد استحللتم به القتال وانتهاك

الحرمات، ولعمر الله إنك قد ضللت وأضللت، وركبت مراكب الطغيان بما استحللت، وشنّعت وهوّلت، وعلى تكفير السلف والخلف عوَّلت، وها نحن نحاكمك إلى كتاب الله المحكم، وإلى السنن الثابتة عن النبيﷺ.

أما ما أقدمت عليه من قتال أهل الإسلام، وإخافة أهل البلد الحرام، والتسلط على المعتصمين بكلمتي الشهادة، وأدمتم إضرام الحرب بين المسلمين وإيقاده، فقد اشتريتم في ذلك حُطام الدنيا بالآخرة، ووقعتم بذلك في الكبائر المتكاثرة، وفرقتم كلمة المسلمين، وخلعتم من أعناقكم ربقة الطاعة والدين، وقد قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ الله فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِـمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْـحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ الله مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ**﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: «أُمرت أنا أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ـ أي ومحمد رسول الله ـ فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقها، وحسابهم على الله».

وحيث كنت لكتاب الله معتمداً، ولعماد سنته مستنداً، فكيف بعد هذا ـ ويحك ـ تستحلُّ دماء أقوام بهذه الكلمة ناطقون، وبرسالة النبي ﷺ مصدقون، ولدعائم الإسلام يُقيمون، ولحوزة الإسلام يحمون، ولعبدة الأصنام يقاتلون، وعلى التوحيد يناضلون، وكيف قذفتم أنفسكم في مهواة الإلحاد، ووقعتم في شق العصا والسعي في الأرض بالفساد؟

وأما ما تأوَّلته من تكفيرهم بزيارة الأولياء والصالحين، وجعلهم وسائط بينهم وبين رب العالمين، وزعمت أن ذلك شنشنةُ الجاهلية الماضين، فنقول لكم في جوابه: معاذ الله أن يعبد مسلم تلك المشاهد، وأن يأتي إليها معظماً تعظيماً العابد، وأن يخضع لها خضوع الجاهلية للأصنام، وأن يعبدها بسجود أو ركوع أو صيام، ولو وقع ذلك من جاهل لانتهض إليه ولاة الأمر العظماء، وأنكره العارفون والعلماء، وأوضحوا للجاهل المنهج القويم، وهدوه الصراط المستقيم.

وأما ما جنحت إليه وعوَّلت في التفكير عليه، من التوجه إلى الموتى وسؤالهم النصر على العدى، وقضاء الحاجات، وتفريج الكربات، التي لا يقدر عليها إلا رب الأرضين والسموات، إلى آخر ما ذكرتم، موقداً به نيران الفرقة والشتات، فقد أخطأت فيه خطأ مبيناً، وابتغيت فيه غير الإسلام ديناً، فإن التوسل بالمخلوق مشروع، ووارد في السنة القويمة ليس بمحظور ولا ممنوع، ومشارع الحديث الشريف بذلك مفعمة، وأدلته كثيرة محكمة، تضيق المهارق عن استقصائها، ويكلّ اليراع إذا كُلف بإحصائها، ويكفي منها توسل الصحابة والتابعين، في خلافة عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، واستسقاؤهم عام الرمادة بالعباس، واستدفاعهم به الجدب والبأس، وذلك أن الأرض أجدبت في زمن عمر، وكانت الريح تذرو تراباً كالرماد لشدة الجدب، فسميت عام الرمادة لذلك، فخرج عمر بن الخطاب بالعباس بن عبد المطلب يستسقي للناس، فأخذ بضبعيه وأشخصه قائماً بين يديه وقال: «اللهم إنّا نتقرب إليك بعم نبيك، فإنك تقول وقولك الحق: ﴿ **وَأَمَّا الْـجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْـمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَـهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا**﴾، فحفظتهما لصلاح أبيهما، فاحفظ اللهم نبيك في عمه فقد دنونا به إليك مستغفرين، ثم أقبل على الناس وقال: استغفروا ربكم إنه كان غفاراً، والعباس عيناه تنضحان يقول: اللهم أنت الراعي لا تُهمل الضالة ولا تدع الكسير بدار مضيعة، فقد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السر وأخفى، اللهم فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا، إنه لا ييأس من روحك إلا القوم الكافرون، اللهم فأغثهم بغياثك فقد تقرَّب القومُ إليك بمكانتي من نبيك عليه السلام، فنشأت سحابة ثم تراكمت، وماسَت فيها ريح هزّت، ودرَّت بغيثٍ واكفٍ، وعاد الناس يتمسحون بردائه ويقولون له: هنيئاً لك ساقي الحرمين.

أخبرني ـ يا أخا العرب ـ هل تكفّر بهذا التوسل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، وتكفر معه سائر من حضر من الصحابة والتابعين، لكونهم جعلوا بينهم وبين الله واسطة من الناس، وتشفّعوا إليه بالعباس، وهل أشركوا بهذا الصنيع مع الله غيره، وما

منهم إلا من أنهضته للدين القويم غيرة. كلا والله، وأقسم بالله وتالله، بل مكفّرهم هو الكافر، والحائد عن سبيلهم هو المنافق الفاجر، وهم أهدى سبيلاً، وأقوم قيلاً، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «اقتدوا بمن بعدي: أبي بكر وعمر» وإذا قدحت في هذا الجمع من الصحابة الذين منهم عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وغيرهما فمن أين وصل لك هذا الدين، ومن رواه لك مبلغاً عن سيد المرسلين؟

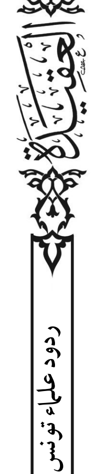
ثم ما تصنع يا هذا في الحديث الآخر الذي رواه مسلم في صحيحه مرفوعاً للنبي ﷺ في أويس، وأنه أخبر به عليه الصلاة والسلام وهو من أعلام النبوة، وأمر عمر بطلب الاستغفار منه، وأنه طلب منه ذلك واستغفر له، وقد قال الله تعالى عن أخوة يوسف عليه السلام: ﴿ **يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ** ﴾ فالزائر للأولياء والصالحين إما أن يدعو الله لحاجته، ويتوسل بسرّ ذلك الولي في إنجاح بُغيته، كفعل عمر في الاستسقاء، أو يستمدَّ من المزور الشفاعة له وإمداده بالدعاء كما في حديث أويس القرني، إذ الأولياء والعلماء كالشهداء أحياء في قبورهم، إنما انتقلوا من دار الفناء إلى دار البقاء.

فأيُّ حرج بعد هذا يا أيها القائم للدين، في زيارة الأولياء والصالحين؟ وأي منكر تقوم بتغييره، وتقتحم شقّ العصا وإضرام سعيره؟ ولعلك من المبتدعة الذين ينكرون أنواعاً من الشفاعة، ولا يثبتونها إلا لأهل الطاعة، كما أنه يلوح من كتابك إنكار كرامات الأولياء، وعدم نفع الدعاء، وكلها عقائد عن السنة زائغة، وعن الطريق المستقيم رائغة وقولكم إن ما قلتموه لا يخالف فيه أحد من المسلمين، افتراء ومين، وإلحاد في الدين، لأن أهل السنة والجماعة يثبتون لغير الأنبياء الشفاعة، كالعلماء والصلحاء وآحاد المؤمنين، فمنهم من يشفع للقبيلة ومنهم من يشفع للفئام من الناس كما ورد أيضاً أن أويساً القرني يشفع في مثل ربيعة ومضر.

وأما المعتزلة فإنهم منعوا شفاعة غير النبي ﷺ وأثبتوا الشفاعة العظمى من

هول الموقف، والشفاعة للمؤمنين المطيعين أو التائبين في رفع الدرجات، ولم يثبتوا الشفاعة لأهل الكبائر الذين لم يتوبوا في النجاة من النار بناء على مذهبهم الفاسد من التكفير بالذنوب، وأنه يجب عليهم التعذيب.

وأما ما جنحت إليه من هدم ما بُني على مشاهد الأولياء من القباب، من غير تفرقة بين العامر والخراب، فهي الداهية الدهياء والعظيمة العظمى من الظلم التي أضلّك الله فيها على علم: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَـهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَـهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَـهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾. وكأنك سمعت في بعض المحاضر بعض الأحاديث الواردة في النهي عن البناء على المقابر، فتلقَّفته مجملاً من غير بيان، وأخذته جُزافاً من غير مكيال ولا ميزان، وجعلت ذلك وليجةً إلى ما تقلدته من العسف والطغيان، في هدم ما على قبور الأولياء والعلماء من البنيان. ولو فاوضت الأئمة، واستهديت هداة الأمة، الذين خاضوا من الشريعة لُجُجها، واقتحموا ثَبَجها، وعالجوا غمارها، وركبوا تيارها، لأخبروك أن محلّ ذلك الزجر، ومطلع ذلك الفجر، في البناء في مقابر المسلمين المعدّة لدفن عامّتهم لا على التعيين لما فيه من التحجير على بقية المستحقين، ونبش عظام المسلمين.



وأما ما يبنيه المسلمون في أملاكهم المملوكة لهم، ليصلوا بمن يُدفن هناك حبلهم، فلا حرج يلحقهم، ولا حرمة ترهقهم. فكما لا تحجير عليهم في بناء أملاكهم دُوراً أو حوانيت أو مساجد، كذلك لا حرج عليهم في جعلها قباباً أو مقامات أو مشاهد. ثم ليتك إذ تلقفت ذلك منهم، ووعيته عنهم، أن تعيد عليهم السؤال، وتشرح لهم نازلة الحال، وهل يجوز بعد النزول والوقوع، هدم ما بُني على الوجه الممنوع، وهل هذا التخريب محظور أو مشروع. فإذا أجابوك أنه من معارك الأنظار، ومحل اختلاف العلماء والنُّظار، وأن منهم من يقول بإبقائه على حاله، رعياً للحائز في

إتلاف ماله، وأن له شبهة في الجملة تحميه، وفي ذلك البناء منفعة للزائر تقيه. ومنهم من شدد النكير، وأبى إلا الهدم والتغيير.

فإذا تحقق عندك هذا، فكيف تقدم هذا الإقدام وتخوض مزالق الأقدام، وتطلق العنان في هدم كل مقام، من غير مراعاة في الدين ولا ذمام. فإذا انفتحت لك هذه الأبواب، نظرت بنظر آخر ليس فيه ارتياب، وهو أن المنكر الذي اقتضى نظرك تغييره، ليس متفقاً عليه عند أهل البصيرة، وأنه من مدارك الاجتهاد، وقد سقط عنك القيام فيه والانتقاد.

ثم بعد الوصول إلى هذا المقام، أعد نظراً في إيقاد نار الحرب بين أهل الإسلام، واستباحة المسجد الحرام، وإخافة أهل الحرمين الشريفين، والاستهوان لإصابة لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فسيتضح لك أنك غيَّرت المنكر في زعمك، وبحسب اعتقادك وفهمك، وأتيت بجمل كثيرة من المناكر، وطائفة عديدة من الكبائر، آذيت بها نفسك والمسلمين، وابتغيت بها غير سبيل المؤمنين، وتعرضت بها لإذاية الأولياء والصالحين، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام في حديث رواه البخاري والإمام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله عز وجل قال: من عادى لي وليّاً فقد آذنني بحرب»، فكفى بالتعرض لحرب الله خطراً، وقذفاً في العطب وضرراً.

وأمّا إنكار زيارة القبور، فأي حرج فيها أو محظور، وأي ذميمة تطرقها أو تعروها، مع ثبوت حديث: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»، فإن هذا الحديث ناسخ لما ورد من النهي عن زيارتها، وماح لما في أول الإسلام من حماية الأمة من أسباب ضلالتها، لقرب عهدها بجاهليتها، وعبادة أصنامها وآلهتها. وكيف تمنع من زيارتها والنبي صلى الله عليه وآله قد شرعها، وسامَ رياضها وأربعها، فقد ثبت في حديث عائشة أم المؤمنين أنه صلى الله عليه وآله زار بقيع الغرقد واستغفر فيه لموتى المسلمين، وثبت أيضاً أنه زار قبر آمنة بنت وهب واستغفر لها. وأخذ بذلك الصحابة والتابعون، ودرج عليه العلماء والسلف الماضون، فقد ثبت في الأحاديث المروية عن أئمة الهدى ونجوم الاقتداء، أن

فاطمة سيدة نساء العالمين زارت عمها سيد الشهداء، وذهبت من المدينة إلى جبل أحد، ولم ينكر من الصحابة أحد، وهم إذ ذاك بالمدينة متآمرون، وعلى إقامة الدين متناصرون. أفنجعل هؤلاء أيضاً مبتدعين، وأنهم سكتوا عن الابتداع في الدين؟ كلا والله، بل يجب علينا إتباعهم، ومن أدلة الشريعة إجماعهم. وقد مضت على ذلك العلماء في جميع الأقطار، وانتدبوا بأنفسهم للاستمداد من قبور الصلحاء وقضاء الأوطار، ودونوا ذلك في كتبهم ومؤلفاتهم، وسطروه في دواوينهم وتعليقاتهم، وقسموا الزيارة إلى أقسام، وأوضحوا ما تلخص لديهم بالأدلة الشرعية من الأحكام. وذلك أن الزيارة إن كانت للاتعاظ والاعتبار، فلا فرق في جوازها بين قبور المسلمين والكفار، وإن كانت للترحم والاستغفار من الزائر، فلا منع فيها إلا في حق الكافر، فإن الشريعة أخبرت بعدم غفران كفره وعليه حملوا قوله تعالى: ﴿ **وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ**﴾ .

وإن كانت الزيارة لاستمداد الزائر من المزور، وتوخي المكان الذي فضله مشهور، والدعاء عند قبره لأمر من الأمور، فلا حرج فيها ولا محظور، بل هو مندوب إليه ومرغّب فيه، وإنه مما تشد المطى إليه، ومن خالف في هذا الحكم سبيل جمهورهم، واتبع من الشبهات مخالف منشورهم، فقد شدد العلماء في النكير عليه، وسددوا سهام النقد إليه، وأشرعوا نحوه رماح التضليل، وأرهفوا له سيوف التجهيل، واتفقت كلمتهم على بدعته في الاعتقاد، وثنوا إليه عنان الانتقاد، ومن يُضلل الله فما له من هاد. وأما النهي الوارد في شد المطي لغير المساجد الثلاثة فإنما هو بالنسبة لنذر الصلاة فيها، فإنه لا يختلف ثواب الصلاة لديها.

وأما المزارات فتختلف في التصريف مقاماتها، وتتفاوت في ذلك كراماتها، وذلك لسرّ في الاستمداد والإمداد لا تطلع عليه، وضُرب بسور له باب بينك وبين الوصول إليه، وقد أوضح ذلك حجة الإسلام، ومن شهد له بالصديقية العلماء

والأولياء العظام. وأما إدماجكم لقبور الأنبياء في أثناء النكير، والتضليل لزائرها والتكفير، فهو الذي أحفظ عليكم الصدور، وأترع حياض الكراهة والنفور، وسدد إليكم سهام الاعتراض، وأوقد شُواظ البغض والارتماض.

فقل لي ـ يا أخا العرب ـ هل قمت لنصرة الدين أم لنقض عراه، وهل أنت مصدق بالوحي لنبيه أو قائل: إن هو إلا أفك افتراه؟ وما تصنع بعد اللتيَّا والتي، في حديث «من زار قبري وجبت له شفاعتي»؟ وأخبرني هل تضلل سليمان بن داود في بنائه على قبر الخليل ومن معه من أنبياء بني إسرائيل؟ وما تقول ـ ويحك ـ في الحديث الذي رواه جهابذة الرواة، وصححه المحدثون الثقات، وهو أنه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قال: «لما أسري بي إلى بيت المقدس، مرّ بي جبريل على قبر إبراهيم عليه السلام، فقال لي: انزل فصلّ هنا ركعتين، فإن ههنا قبر أبيك إبراهيم عليه السلام». وعنه صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر أنه قال: «من لم تُمكنه زيارتي فليزر قبر إبراهيم الخليل عليه السلام». فأين تذهب بعد هذا يا هذا؟ وهل تجد لنفسك مدخلاً أو معاذاً؟ وهل أبقيت بعد تضليل جميع الأنبياء ملاذاً؟ ﴿ **رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ**﴾.

وأما تلميحكم للأحاديث التي تتلقفونها، ولا تحسنونها ولا تعرفونها، فهمتم بسبب ذلك أودية الضلالة، ولم تشيموا بها إلا بُرُوق الجهالة، وسلكتم شعابها من غير خبير، ونحوتم أبوابها بلا تدبر ولا تدبير، فإن حديث: «لا تتخذوا قبري مسجداً»، محمله عند البخاري على جعله للصلاة متعبداً، حفظاً للتوحيد، وحماية للجاهل من العبيد، لأن المصلي للقبلة يصير كأنه مصلٍ إليه، فحمىصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ذلك من الوقوع فيه. وأما قصده للزيارة والاستشفاع والاستمداد ببركته والانتفاع، وقصد المسلمين إياه من سائر البقاع، فما يسعنا إلا الإتباع. وكذلك ما لوَّحتَ به إلى شدّ الرحال، فإنك أخطأت في الاستشهاد به في نازلة الحال، وذلك أن الحصر في المساجد، دون سائر

المشاهد، وكذلك ما لمحت إليه من حديث تعظيم القبر بإسراجه، فإنك أخطأت فيه واضح منهاجه، مع بهرجة نقده في رواجه، ومحمله ـ على فرض صحته ـ على فعل ذلك للتعظيم المجرد عن الانتفاع للزائرين، أما إذا كان القصد به انتفاع اللائذين والمقيمين، فهو جائز بلا مين. وأما ما تدّعونه من ذبح الذبائح والنذور، وتبالغون في شأنها التغيير والتنكير، وتصف ألسنتكم الكذب، وتثيرون في شأنها الهرج والشغب، فكون الذبائح المذكورة مما أهلّ به لغير الله مكابرةً للعيان، وقذفٌ بالإفك والبهتان، فإنا بلونا أحوال أولئك الناذرين، فلم نر أحداً منهم يسمي عند ذبحها اسم ولي من الصالحين، ولا يلطخ الضرائح بدم تلك الذبائح، ولا يأتون بفعل من الأفعال الحاكمة على تحريم الذبيحة والإهلال.

أما نذرها لتلكم المزارات فليس على أنها من باب الديانات، ولا أن من لم يفعل ذلك يكون ناقص الدين في العادات، وإنما يقصدون بذلك مقاصد الرُّقي والنشر، والانتفاع في الدنيا بسر في التصدق بها استتر، ولم يدر منها إلا ما اشتهر، والواجب علينا وعليكم الرجوع في حكم نذرها إلى العلماء الأعلام، المتضلعين من دراية الأحكام، المقيمين لقسطاسها، المسرجين لنبراسها، الناقبين على أساسها، ومن لديهم محك عسجدها ونحاسها. فإن كنتم للحق تقيمون، ومن مخالفة الشريعة تتجرمون ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾، ﴿ **وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ**﴾، فإنهم يهدونكم السبيل، ويفتونكم في هذه المسألة بالتفصيل، وأن هذا الناذر إن نذر تلك الذبائح للولي المعيّن بلفظ الهدي والبدنة، فقد جاء بالسيئة مكان الحسنة، ولكن ما رأينا من خلعَ في هذا المحظور رسَنَه، ولا من اهتصرَ فَنَنه، وإن نذر تلك الذبائح لمحل الزيارة، بغير هاته العبارة، وكان من الذبائح التي تقبل أن تكون هدياً، فهل يلزم أن يسعى به لذلك المزار سعياً، أو لا يلزمه إلا التصدق به في موضعه رعياً، خلاف في مذهب مالك شهير، قرره النحارير. وإن كان ذلك النذر مما لا يصح إهداؤه، فالقاصد للفقراء الملازمين بمحل الشيخ يلزمه بعثه وإنهاؤه، والقاصد للولي في نذره وتشرعه،

لا يلزمه إلا التصدق به في موضعه.

وإذا اتضح لديك الحال، فأي داعية للحرب والقتال؟ وهل يتميز المشروع من هذه الصور بالمحظور، إلا بالنيات التي لا يعلمها إلا العالم بما في الصدور؟ والله إنما كلفنا بالظاهر، ووكل إليه أمر السرائر. ولم يقيّض بالخواطر نقيباً، ولا جعل عليها مهيمناً من الولاة ولا رقيباً. وإذا التزمت سدَّ الذريعة بالمنع من المشروع، خوفاً من الوقوع في الممنوع، فالتزم هذا الالتزام في سائر العبادات الواقعة في الإسلام، التي لا تفرقة فيها بين المسلم والكافر، إلا بما انطوت عليه الضمائر. فإن المصلي في المسجد يحتمل أن يقصد عبادة الحجارة، بمثل ما احتمل صاحب الذبائح والزيارة، والصائم يحتمل أن يقصد بصومه تصحيح المزاج، أو المداواة والعلاج، والمزكي يحتمل أن يقصد مقصداً دنيوياً، أو معبوداً جاهلياً، والمُحرم بحج أو عمرة، يحتمل أن ينوي ما يوجب كفره. وإذا وصلت إلى هذا الالتزام، نقضت سائر دعائم الإسلام، والتبس أهل الكفر بأهل الإيمان، وأفضى الحال إلى هدم جميع الأركان، واستبيحت دماء جميع المسلمين، وهدمت صلواتهم ومساجدهم وصوامعهم أجمعين.

فانظر أيها الإنسان، ما هذا الهذيان، وكيف لعب بك الشيطان، وماذا أوقعك فيه من الخسران. فارجع عن هذا الضلال المبين، وقل: ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْـخَاسِرِينَ**﴾. وأما ما جلبتم من الأحاديث الواردة في تغيير النبيﷺ للقبور، وأنه أمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه بطمسها وتسويتها، فقد أخطأتم الطريق في فهمها، ولم يأتكم نبأ علمها، ولو سألتم عن ذلك ذويه، لأخبروكم بأن محمله طمس ما كانت الجاهلية عليه، وكانت عادتهم إذا مات عظيم من عظمائهم، بنوا على قبره بناء كأطم آطامهم، مباهاة وفخراً، وتعاظماً وكبراً، فبعثﷺ من يمحو من الجاهلية آثارها، ويطمس مباهاتها وفخرها، وإلا فلو كان كما ذكرتم ، لكان حكم التسنيم كحكم ما أنكرتم وإذا استبان لكم واتضح لديكم، انقلبت الحجة التي أتيتم بها عليكم، وكيف تجعلون تلك الأحاديث حجة قاضية على

وجوب كون القبور ضاحية، والفرق ظاهر بين البناء على القبور، وحفر القبور تحت البناء، فالأول من فعل الجاهلية الوارد فيه ما ورد، والثاني هو الذي يعوزكم في المستند، ولا يوافقكم على تعميم النهي أحد.

وأما ما نزعتم إليـه من التهديـد، وقـرعتم فيه بآيات الحديد، وذكرتم «أن من لم يُجب بالحجة والبيان، دعوناه بالسيف والسنان»، فاعلم يا هذا أننا لسنا ممن يعبد الله على حرف، ولا ممن يفرُّ عن نصرة دينه من الزحف، ولا ممن يظن بربه الظنون، أو يتزحزح عن الوثوق بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾، ولا ممن يميل عن الاعتصام بالله سراً وعلناً، أو يشك في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا﴾، وما بنا من وهن ولا فشل، ولا ضعف في النكاية ولا كسل، ننتصر للدين ونحمي حماه، وما النصر إلا من عند الله. وأما ما جال في نفوسكم، ودار في رؤوسكم، وامتدت إليه يد الطمع، وسوّلته الأماني والخدع، من أنكم من الفئة الذين هم ومن حالفهم، لا يضرهم من خالفهم، وأنكم من الطائفة الظاهرين على الحق، وأن هذه المناقب تساق إليكم وتُحَقّ، فكلا وحاشا أن يكون لكم في هذه المناقب من نصيب، أو يصير لكم إرثها بفرض أو تعصيب، فإن هذا الحديث وإن كان وارداً صحيحاً، إلا أنكم لم تُوفّوا طريقه تنقيحاً، فإن في بعض رواياته وهي تحجبكم عن هذه المناقب، وتبعدكم عنها بعد المشارق من المغارب. فانفض يديك مما ليس إليك، ولا تمدَّنَّ عينيك إلى ما حرّمت عليك، فإنكاح الثريا من سهيل، أمكن من هذا المستحيل. أما أهل هذه الأصقاع والذين بأيديهم مقاليد هذه البقاع، فهم أجدر أن يكونوا من إخواننا، وتمتدُّ أيديهم إلى خواننا، لصحة عقائدهم السنية، وإتباعهم سبيل الشريعة المحمدية، ونبذهم للابتداع في الدين، وانقيادهم للإجماع وسبيل المؤمنين. وقد أنبأتنا في هذا الكتاب، وأعربت في طيّ الخطاب، عن عقائد المبتدعة، الزائغين عن السنة المتبعة، الراكبين مراكب الاعتساف، الراغبين عن جمع الكلمة والائتلاف، فالنصيحة أن تنزع لباس العقائد الفاسدة وتتسربل العقائد الصحيحة،

وترجع إلى الله وتؤمن بلقاه، ولا تكفّر أحداً بذنب اجتناه، فإن تبتم فهو خير لكم، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله. وزبدة الجواب وفذلكة الحساب، أنك إن قفوت يا أخا العرب نصحك، وأسَوت بالتوبة جرحك، وأدملت بالإنابة قرحك، فمرحباً بأخي الصَّلاح، وحيهلا بالمؤازر على الطاعة والنجاح، وجمع الكلمة والسماح، وإن أطلت في لُجّة الغواية سبحَك، وشيدت في الفتنة صرحك، واختلتَ عارضاً رُمحك، فإن بني عمك فيهم رماح، وما منهم إلا من يتقلد الصفاح، ويجيل في الحرب فائز القِداح.

* هوامش البحث *

(١) طبع من قبل دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

(٢) طبع في دار التونسية للنشر، بتحقيق الدكتور أحمد الطويلي.

(٣) ورد في مقدمة الكتاب شجرة نسبه صنعها بعض أحفاده، حيث يرجعه إلى اليمن.

(٤) مخلوف محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، بيروت ١٣٤٩هـ، ص: ٣٩٤، محمد آصف فكرت، دائرة المعارف الإسلامية الكبرى ج ٢ مدخل: ابن أبي الضياف.

(٥) حسين بن غنام، تاريخ نجد، ط الأولى ١٩٦١، القسم الرابع الرسالة الثانية: ٢٣٣ ـ ٢٥٢.

(٦) م ن، الرسالة الثانية: ٢٥٠ ـ ٢٥١.

(٧) اتحاف الزمان٣: ٦٠.

(٨) م ن ٣: ٨٦.

(٩) إتحاف أهل الزمان٨: ١١، والنقل بالمعنى.

(١٠) للاطلاع على رسائل ابن عبد الوهاب انظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، دمشق ١٩٦٠ ج ٥ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠، الزركلي خير الدين، الأعلام، القاهرة ج ٧ ص ١٣٧.

(١١) أفضل من كتب عن ذلك جوزيف شاخت في كتابه:

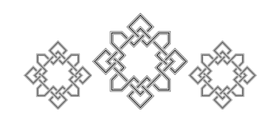
(Zur Wahhabitischen Literatur inzeitschrift fur semitistik and verwandte gebiete v.6 (1928) pp.200-212

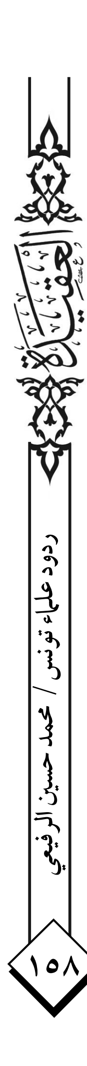
(١٢) انظر للتفضيل: أحمد زيني دحلان، الدرر السنية في الرد على الوهابية، القاهرة، ١٩٢٨.

(١٣) إتحاف أهل الزمان ٣: ٩٧.

(١٤) مسامرات الظريف: ١٨٩.

(١٥) حسن الحسني عبد الوهاب، كتاب العمر في المصنفات التونسية ١: ٨٧٣، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠، بشير ظافر الأزهري، اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة، القاهرة، ١٣٢٤.





حقيقة الصحيفة السجادية

من إنشاء الإمام السجاد زين العابدين (ع)

السيّد محمّدرضا الحسينيّ الجلاليّ

في مهب غارة الوهّابية السلفية على تراث أهل البيت عليهم السلام

[ردّاً على مزاعم (ناصر القفاري) في كراسة كتبها حول الصحيفة السجّادية]

مقدّمة المؤلّف

بسم اللهّ الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا للإسلام خير الأديان، على يد رسوله الأكرم سيّد الأنام، وأكمل الدين بولاية الأئمّة الخلفاء من آله الكرام، قرناء القرآن، وهما الثقلان مَن تمسّك بهما لن يضلّ أبداً، والرحمة والرضوان على أصحابهم وأشياعهم وأوليائهم أهل الإيمان الذين على عواتقهم حفظ الدين الحقّ طول الأزمان، وهم الذين حفظوا تُراثه وخلّدوه موثوقاً محفوظاً بأثبت الأسانيد وأضبط الطرق المرفوعة المتّصلة على ما يجب ويُرام، واللعن على أعدائهم ومانعي ما ورد من السنّة الشريفة في حقّهم وأُسند عن فضلهم وعلى من تابعهم، من الآن إلى قيام يوم الدين.

وبعدُ، فإنّ الأُمّة اُبتليت بثلّة من المحرّفين للإسلام بين مُعاندٍ متعمّد، وبين جاهل مُقلّد، وقد تصدّى لهم أعلام من المخلصين منذ اليوم الأوّل، وحتّى اليوم، فكشفوا عن بطلان دعاواهم وفساد أغراضهم، وحذّروا الأُمّة عن مكرهم وأحابيلهم كي لا تقع في شباكهم ودعاياتهم.

ومع ذلك، فقد وقع في فخّهم من بَعُدَ عن العلم والعلماء، بل اغترّ بمظاهر وعّاظ السلاطين والمردة أنصار الشياطين، فارتكس في غيّ المُدبرين المنحرفين عن سنّة الأئمّة وأهل الدين الحقّ، ولم يأخذ المعارف الحقّة من العلماء المتّقين.

والأدهى أنّ في عصرنا الحاضر ظهر من أولئك الجهلة من جعل عمل أولئك السلاطين سُنّة يعمل بها، وسمّاهم بالسلف، ووصفهم بالصلاح، مستخدماً أدوات الإعلام المتنوّعة لنشر ضلالات أولئك واعتبارها ديناً لهم، داعياً إليه أهل القُرى والأرياف من العوامّ البُعداء عن مراكز العلم وعن ملاقاة العلماء، بل استخدموا طريقة التزوير والدخل والكذب والاتّهام ضدّ الحقّ حتّى يبعّدوا المغفّلين عنه، ويوجّهوهم حيث الباطل، ويضلّونهم كما هم ضلّوا.

إنّهم احترفوا الأساليب العصرية في مهمّة التضليل والإغراء للناس البُسطاء الذين استفردوا بهم، فمنعوهم من الارتباط بالعلماء والعقلاء والمخلصين والعارفين بحقائق الإسلام عقيدة وشريعة وآداباً وأخلاقاً وسيرة وما حفظوه من القرآن الكريم والسنّة النبويّة وأئمّة الهدى من أهل البيت عليهم السلام .

ومن أضرّ مَن طلع في هذا العصر، ممّن أوغل في حرفة التضليل والكذب والدجل، فجمع ما كدّسه سلفه الطالح، وزاد عليهم من جهله وغبائه ما لم يسبقه أولئك بعبارات نابية وبغي وفُحش، يربؤ منه أهل العلم، ويستهجنه الإنسان السالم الطويّة، ذاك هو المخذول المسمّي نفسه (ناصر القفاري) الذي ألّف كتاباً كبيراً باسم (أصول مذهب الشيعة الإماميّة) فحشّاه بما زيّنه له الشيطان من الأكاذيب والتّهم

والافتراءات، والأباطيل ضدّ مذهب الشيعة الإماميّة، وهم الذين يلتزمون بما التزم به الأئمّة الاثنا عشر من أهل بيت النّبيّ وهم: عليّ بن أبي طالب، والحسن بن عليّ، والحسين بن عليّ و عليّ السجّاد زين العابدين، ومحمّد الباقر، وجعفر الصادق، وموسى الكاظم، وعليّ الرضا، ومحمّد الجواد، وعليّ الهادي، والحسن العسكري، ومحمّد المهديّ عليهم السلام الاثنا عشر الذين أخبر النبيّ صلى الله عليه وآله بأنّهم الخلفاء من بعده صلّى الله عليه وعليهم.

وهؤلاء هم من اعترف أعلام الأمّة بإمامتهم وعلمهم وتقواهم، وأفضليتهم على مَن سواهم ممّن ادّعوا الخلافة.

فهذا الذهبي ـ وهو من أشدّ الناس على الشيعة الاثني عشريّة ـ يقول عن هؤلاء الأئمّة من آل محمّد، ما نصّه:

(الاثنا عشر سيّداً، الذين تدّعي الإمامية عصمتهم:

فمولانا (عليّ) من الخلفاء الراشدين.

وابناه: (الحسن) و(الحسين) فسبطا رسول الله صلى الله عليه وآله سيّدا شباب أهل الجنّة، لو استُخلفا لكانا أهلاً لذلك.

و(زين العابدين) كبير القدر، ومن سادة العلماء العاملين، يصلح للإمامة.

وكذلك ابنه (أبو جعفر الباقر) سيّدٌ إمام فقيه، يصلح للخلافة.

وكذلك ولده (جعفر الصادق) كبير الشأن، من أئمّة العلم، كان أولى من أبي جعفر المنصور.

وكان ولده (موسى) كبير القدر، جيّد العلم، وأولى بالخلافة من هارون.

وابنه (عليّ بن موسى الرضا) كبير الشأن، له علم وبيان، ووَقْعٌ في النفوس، صيّره المأمون وليّ عهده، لجلالته.

وكذلك ابنه (الحسن بن علي) شريف جليل (رحمهم الله تعالى).

و(محمّد) الذي يزعمون أنّه الخلف الحجّة، وأنّه صاحب الزمان، وأنّه حيٌّ،

لايموت حتّى يخرج فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما مُلئت ظلماً وجوراً).

فوددنا ذلك، والله[1].

هذا ما قاله الذهبيّ وهو من كبار رؤوس أعلام ناصر القفاري الذين يقول بإمامتهم ويقلّدهم في أحكامهم.

والشيعة الإمامية إنّما يعتقدون بإمامة أولئك الاثني عشر من آل الرسول صلى الله عليه وآله ويرفضون الاقتداء بسواهم ممّن استولوا على أريكة الخلافة بلا أولوية ولا أفضلية، بل بلا استحقاق ولا فضل على هؤلاء السادة الأشراف والعلماء الحنفاء الأتقياء.

لكن القفاري، تبعاً للنواصب العداء لآل رسول الله صلى الله عليه وآله، اتّهم الشيعة في كتابه المذكور بما لا يليق، وبعبارات وشتائم مقرفة، لينفّر الآخرين من مذهب الشيعة الإمامية.

وأسلوبه السَـيّئ يدلّ على عدم طلبه للحقّ، وعدم بحثه عن الحقيقة، وإنّما أفرغ في صفحاته ما في قلبه من الحقد والبغض والكراهية، لهؤلاء الأئمّة الأشراف، ولما حملوه من علم ومعرفة أخذوه من القرآن والرسول صلى الله عليه وآله فكتب متهجّماً على شيعة هؤلاء الأئمّة الأطهار والذين اتبعوهم بإحسان وأخذوا الإسلام من طريقهم، وعرفوا الأحكام من مذهبهم وقلّدوهم في ذلك، فسمّوا بـ(الشيعة الإمامية).

وقد وفّقنا الله تعالى لمطاردة القفاري في ما كدّسه في كتابه ذلك، من الباطل والكذب، وحاسبناه على كلّ ما أورد من دعاوى كاذبة واتّهامات باطلة، ومن خلال ما داخلناه في ذلك الكتاب، فقد وقّفنا على أمور من تصرّفاته، وهي:

١ ـ عدم إخلاصه في ما يكتب مع قُرّائه، لأنّه يُوهم لهم أموراً لا واقع لها، ويُظهر لهم معاني من النصوص لا صحّة لها، ولا ربط لها، ويفسّرها حسب رأيه، ومخالفة لمدلول الكلام المنقول، ويُطليها على القُرّاء ويفرضها عليهم. وهذه خيانة بلاريب، ومثل هذا العمل لا يمكن أن يعتمد على فاعله، ولابدّ من تحذير الطلاب

الناشئين عنه، وعليهم أن يراجعوا في ذلك العلماء الفضلاء من أهل الخبرة بالأدب العربي واللغة.

٢ ـ عدم فهمه للمصطلحات العلمية في مختلف العلوم كالكلام والفقه والأصول وحتّى اللغة العربية، فيحاول أن يفسّرها حسب اللفظ وظاهر الكلمات، مع أن من الواضح أن المصطلح له دلالة خاصة لا يعرفها سوى العالم الدارس للعلم، والواقف على مراد أهل الاصطلاح. وهذا يكشف عن عدم تعلّم القفاري، وإنّما يكتب عن نفسه اسم (الدكتور) كذباً، أو وصفته به الجامعات السعودية المزيّفة دَجَلاً وزوراً. ويدّعي الوهابية له ذلك، ليمرّروا أهدافهم من خلال هذه الألقاب الرخيصة، ومثل هذا لا عبرة لما يرتّب على النصوص من استنتاج أو حكم. وما أسخف الدكترة التي تصدر لأمثال هذا الجاهل التافه.

٣ ـ الخيانة في نقل النصوص، ومحاولة تقطيعها، ليستفيد من الجملة حسب رغبته، ويفصلها عن القرائن السابقة أو اللاحقة التي تحفّ بالكلام وتدلّ على خلاف رأيه، فيعتمد على ما يوجب التهويل والاحساس بالسوء وتشويه المدلول، الذي يؤدّي إلى الهجوم الظالم على صاحب النصّ، بينما العبارة الكاملة، والقرائن المحتفّة بالكلام، تبرّئ الكلام من أيّ معنى من المخالفة! ومثل هذا التصرف لا يبقي لكتاب القفاري قيمة ولا لكتابه قابلية للاعتماد ، بل يسقطهما عن الاعتبار علمياً.

٤ ـ وقد أشرنا إلى أنّه يضيف على كلّ ما ينقل – وبعدما يحكم برأيه، وأثناء البحث – شتائم وسباباً وتقبيحاً وتهجيناً، بشكل مقرف، هادفاً إلى تركيزه على ملء فكر القارئ بالابتعاد عن (مذهب الشيعة الإمامية) حسب زعمه!

مع أن من المعلوم عند العلماء الباحثين كون هذه الطريقة، بعيدةً عن روح العلم، وعن نهج العلماء الفضلاء، والملتزمين بالبحث العلمي الناشد إلى معرفة الحق والوصول إلى الحقيقة. وحتّى القارئ المبتدئ يقرف من هذا الأسلوب البشع، إذا كان

يريد أن يعرف الصواب. وهذا يدلّ على نقص في استنتاجه وبحثه يحاول أن يكمله أو يصلحه بهذا السبّ والشتم!

وإلا، فإن كان كلام خصمه باطلاً ـ كما يزعم ويرى ـ فقد كفاهُ ما شرحه واستدل به على بُطلانه، إن كان مع الدليل والتحقيق والبحث المقبول.

فلا ريب أن مثل هذا التصرّف، دليل على خروج (ناصر القفاري) عن المنهج العلمي، وعن سيرة العلماء الأعلام من التزام الأمانة، والأدب والخُلق، ومحاولة إيصال المعنى الحقّ إلى القرّاء بكلّ إخلاص وبعيداً عن الهوى والتعصّب للآراء، وفرض ما يُريد على القرّاء، وقد وقفنا ـ أخيراً ـ على كرّاس، ألّفه ناصر القفاري بعنوان:

- **(حقيقة ما يسمّى زبور آل محمّد، والمطبوع على هيئة المصحف الشريف، وكشف منسوبات أُخرى).**

د. ناصر بن عبدالله القفاري

دار الفضيلة ـ الرياض ١١٤٣٣ ـ ص . ب ١٠٣٨٧

تليفاكس ٢٣٣٣٠٣، حقوق الطبع محفوظة ـ الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨م.

يقع في (٧٩) صفحة، بقطع الكف.

يحتوي الكتاب على مقدّمة (ص ٢ ـ ٧).

والمبحث الأوّل: حقيقة الصحيفة السجّادية (ص ٨ ـ ٢٨).

والمبحث الثاني: إلى مَن تُنسب الصحيفة (ص ٢٩ ـ ٥٠).

والمبحث الثالث: صحف أُخرى منسوبة (ص ٥١ ـ ٦٧).

الخاتمة: (ص٦٨).

المصادر والمراجع (ص ٦٩ ـ ٧٧).

فهرس الموضوعات (٧٨ ـ ٧٩).

وعنوان هذا الكرّاس، لا يفصح عن الكتاب الذي استهدفه القفاري بالبحث وهو (الصحيفة السجّادية) لعدم ذكر اسمها المعروف على صفحة وجه الكتاب.

بل ذكر عنوان (زبور آل محمّد) وهذا اسم غريب عند عامّة القُرّاء قبل أن يدخل القارئ في الكتاب، ويجد هذا العنوان، ومَن أتى به، وكيف وضع على الصحيفة؟! مع ما في اسم (زبور) إثارة من حيث كونه اسم كتاب داود النبي عليه السلام !

ثمّ ورد في العنوان قوله: (المطبوع على هيئة المصحف الشريف) وهذا مثيرٌ للقرّاء، ومن أوّل وهلة، إذ إنّ القرآن الكريم، كتاب مقدّس، فما معنى أن يكون كتاب آخر على هيئته! وما المراد من هيئته؟ مع كون الزبوركتاباً للنبي داود عليه السلام يعتبره اليهود! وهذا الذي يبحث فيه القفاري مسمّى بذلك الاسم؟!

ومن هذه الصفحة وهي عنوان الكتاب الذي يواجهه القارئ لأوّل مرّة، وهو معروضٌ للجميع! تظهر أهواءُ القفاري وأغراضه في تشويه سمعة الكتاب الذي يحرّف (حقيقته)! ويهوّل الأمر على القارئ المسكين! ويُثير في عقله تلك التساؤلات، وهو بعدُ لم يدخل في الكتاب؟! فكيف إذا دخل ووجد أن القفاري يكيل في كلّ سطر بل في كلّ جملة، الهجومَ على الكتاب وكاتبه والمعتقد به؟ ولو كان مَن كان!

ولعلّ القفاري لـمّا بدا مفضوحاً من أوّل صفحة في تصرّفه هذا، أعرض عن هذا العنوان وطبع هذا الكرّاس بعنوان آخر، وهو:

- **(حقيقة الصحيفة السجّادية) المنسوبة للإمام علي بن الحسين.**

أو زبور آل محمّد، أو إنجيل أهل البيت، أو أخت القرآن والمطبوع على هيئة المصحف الشريف وكشف منسوبات أُخرى.

حقوق الطبع محفوظة، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥م.

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية المصرية: ٢١٦٤٢/ ٢٠٠٥

مكتبة الرضوان للنشر والتوزيع ـ شارع الفقي ـ كوم حمادة ـ البحرة

الرمز البريدي ٢٢٨٢١ـ مصر، هاتف (٢٠١٠٣٩٣٢٨١٠) فاكس ٢٠٤٥٣٦٨١٥٥٣، البريد الألكتروني: ccnaser@hotmail.com

ومع أنّه صرّح هنا باسم الإمام السجّاد زين العابدين عليه السلام، إلا أنّه حاول التشكيك في الكتاب بقوله: (المنسوب للإمام...) فكلمة (المنسوب) هُنا تدلّ على عدم التزامه بكون الصحيفة من إنشاء الإمام عليه السلام مع إجماع الإمامية وغيرهم من الشيعة الزيدية والإسماعيلية، بالتأكيد على أنّ الصحيفة من دعاء الإمام من دون شكّ أو ريب. كما سيأتي البحث والحديث عن ذلك.

ثمّ إنّ القفاري كشف عن جهله باللّغة حيث كتب (المنسوب للإمام) مع أن مادة (نسب) تتعدّى في العربية بحرف الجرّ (إلى) فيقال: نسب إليه، أو منسوب إلى فلان.

ثمّ إنّه كتب على هذه الطبعة عنوان: (طبعة أولى) وهذا كذبٌ، فإن محتوى هذا الكرّاس لا يتجاوز عن تلك الطبعة السابقة التي كانت الأولى، بل هي هذه بعينها بلا فرق سوى في الإخراج والحجم، حيث طبع هذا في حجم (الوزيري)، وذلك بحجم الكف، كما سبق. وقد أعاد ما ذكره في الطبعة الأولى من إثارات أعادها في هذا العنوان، مثل ذكر اسم (الزبور) ليوحش قرّاءه من كتاب الصحيفة السجادية! وزاد هنا أسماء أُخرى للتأكيد على هذا الغرض!

وكذلك إيراد عبارة (على هيئة المصحف الشريف) لغرض اتّهام الصحيفة، بتشبيهها بالقرآن؟!!

كلّ ذلك لتهيئة ذهن القارئ لما سيُورده من الاتّهامات والهجوم على الصحيفة!

ولّما رأيتُ أنّ القفاري قد تعدّى على (الصحيفة السجّادية) وهي من كلام الإمام زين العابدين عليه السلام وتجاوز الحدّ في الاعتداء، هادفاً إلى إبعاد المسلمين عن قراءته والاطلاع عليه، ومحاولاً صدّ الناس عن ما فيه من المعرفة الحقّة، وقيامه بذلك

الغرض، بأساليب لئيمة، وطرق التهريج والكذب والشتم، فحفاظاً على حرمة كتاب الصحيفة العظيم، ومنشئة الإمام العظيم، وسعياً في كشف أغراض القفاري اللئيم، وإبطال محاولاته، ونقد أهدافه، وسعياً في إيصال (الصحيفة السجّادية) هذا الكنز الثمين من معارف الإسلام إلى المسلمين، وتمهيد الطريق إلى قراءته والتزوّد ممّا فيه من العلوم والمعارف الإسلامية الحقّة، وإروائهم من نَميره العذب.

أقدمتُ على الردّ على كراس القفاري، خطوة خطوة، وجُملة جُملة، بنقل نصّ ما أورد فيه، ثمّ بيان ما فيه من الجهل والدَجَل والغرض.

واعتمدتُ على الطبعتين المذكورتين من الكراس، طبعة الرياض ـ في السعودية، وطبعة القاهرة ـ في مصر، ليكون أوثق في إلزام القفاري بما ينقل، وليتحقّق القارئ من صحّة عملنا وحرصنا على الأمانة..

وسنقدّم للبحث أهمّ ما تعرّض له القفاري من غرض وأسلوب، تركيزاً للنظر فيه بالخصوص. وليكون القارئ على بصيرة من الأمر.

وفّقنا الله لمعرفة الحقّ واتّباع أهله، ورفض الباطل والابتعاد عن أهله، آمين، ياربّ العالمين.

وقفة على أغراض القفاري وأساليبه وتصرفاته:

إنّ القفاري هو في عصرنا، أشدّ مَن استهدف أتباع مذهب أهل البيت النبوي (التشيّع) وهم (الشيعة) فصبّ جامَ غضبه وحقده عليهم، ونصب لهم العداء وإثارة الكراهية لهم والبغضاء عليهم بين الناس، بأساليب عصرية ومنها الإعلانات البرّاقة الجميلة المظهر، والمغرية للناس، مثل دعوى اعتماده على المصادر المعتبرة عند الشيعة، والنقل منها مباشرة.

وقد ضلّل كثيراً من المغفّلين بهذه الوسيلة، لعدم وجود المصادر عندهم، فتنطلي



عليهم مكيدة هذا القفاري، بينما هو ينقل شيئاً ويُحرّفه، بحذف كلمة أو جملة، أو يُفسّر الكلام من عنده، ويوجّهه إلى مرامه، مع أنّ الكلام التامّ يدلُ على خلاف ما يُريد.

وقد يفسّر الكلام بالغلط، لعدم فهمه المراد منه، لجهله باللغة أو عدم فهمه للمصطلحات العلمية، لقصوره في المعرفة، ومع ذلك يرتّب على الكلام المنقول ما لا يدلّ على مراده، أو يخالف ما ذكر حسب فهمه.

وقد يردّ شيئاً على أساس أنّه مخالف لمذهب السلفية، ويبني على ذلك ردّه على الشيعة، مع أنّ التزامه هو وجماعته السلفية هو الباطل، فيكون تهجّمه على أساس رأيه، بينما رأيه هو الفاسد ولا يمكن الاعتماد عليه.

ومن أساليبه أنّه يُحاول التهويل والتهريج ضدّ النصّ الذي يتعرّض لمناقشته وينقله، حتّى يملأ عقل القارئ من الخوف والفزع والانزجار من المنقول لكونه من كلام الشيعة.

فهو يستولي بهذا الأسلوب على شعور السامع والقارئ، ويستغلّ تلك الحالة، لغرض المعنى الذي يُريده من الكلام المنقول، وإن كان ما يعتقده هو غير صحيح أو منافياً للحقّ.

إنّه يحاول تزييف تراث أهل البيت عليهم السلام وتهجينه وذمّه بمختلف الألفاظ، من دون أن يأتي بشاهد على ما يزعم، وقد أورد هذا في ما يرتبط بالصحيفة السجّادية ـ مثلاً ـ فبالرغم من ذلك تراه لم يذكر شاهداً من الصحيفة، على دعواه، بل قد يكون الكلام الذي اعتمده مشكلاً في نظره، وهو ممّا قاله به غير الشيعة من المذاهب السنّية، أو يكون ممّا أجمع عليه الأُمّة.

فهو لجهله، وقصور فهمه عن درك ما في النصوص من المطالب العلمية الدقيقة يقع في هذه الورطة ، والإنسان ـ كما يقال ـ عدوّ لما جهل.

ومن أمثلة ذلك هو (الصحيفة السجّادية) التي اعترض عليها في جهات عديدة، ولم يذكر ما يدلّ على زعمه ودعواه.

وقد تكون مواجهته للصحيفة السجّادية بهذه الهجمات ضنّاً منه وبخلاً أن يتأثر به الشيعيّ ويفتخر بروايته ويعتقد بمضمونه ومؤدّاه. ولو اطلع غير الشيعة على ما في الصحيفة من العلوم والخير والبرّ والتقريب إلى الله في مختلف الأمور، لتهافتوا عليه واقتنوه مفتخرين.

فهو يهاجم الصحيفة السجّادية كي لا يقرأها الناس، ولا يتقرّبوا منها، فقد يعتمد عليه الذين لا يعتقدون بإمامة الإمام، لكنهم يفهمون ما ورد في الصحيفة من خلال معرفتهم باللّغة ووقوفهم على كلام رزين، يجمع المعاني الصادقة، بل المتّفق عليه من الأخلاق والآداب، وما فيه من معاني التوحيد والتحميد والأخلاق والآداب والسنن، فيستفيد من هذا الكتاب بكلّ ما فيه، ويعتمد عليه ويعتقد بصاحبه.

فالقفاري بالقدح والذمّ للصحيفة يُحاول أن يزجر الناس عن كتب الشيعة، لكنه يفشل عندما يقف الناس عليها ويطّلعوا على حقيقتها فينكشف زيف دعاوى القفاري وسلفه.

وهذ الخباثة قد تسرّبت إلى إذاعة السعودية، حيث أخذت تبثّ أو تذيع بعض المقاطع من دعاء (الصحيفة السجّادية) ما فيه حكمة أو علم أو معرفة، مأخوذاً من (الصحيفة السجّادية)، لكنّها لا تذكر اسم صاحب الدعاء وهو الإمام السجّاد زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام لئلا يعرف الناس أنّ الدعاء له عليه السلام فلا يرغبوا في حبّه وولائه، ويلتزموا بإمامته واتباع سبيله؟!

ثمّ إنّ الكاتب القفاري يسعى في كلّ صفحات كرّاسه أن يكرّر عبارات التشويه والسبّ والقذف، وبألفاظ نابية قبيحة، وبأوصاف مشوّهة ونسبة أكاذيب وترّهات إلى (الصحيفة) ومَن يلتزم بها!

وغرضه ـ كما أسلفنا ـ تغرير القارئ وتهويشه على (الصحيفة) وعلى الشيعة الملتزمين بقراءتها.

لكنّه؛ غافلٌ عن أنّ انغماسه في هذا الأسلوب الوقح، يبعث القارئ على أن ينتبه إلى الصحيفة، ويغريه إلى الاطّلاع عليها،، فيتسبّب ذلك إلى أن يبحث عن حقيقة (الصحيفة) ويحاول الوقوف عليها، وحينئذٍ يجد خلاف مزاعم القفاري، حيث يجد العلم والمعرفة والذكر الطيّب وتعظيم الله جلّ وعزّ والتوجه العميق إليه، والانقطاع إلى عظمته وتمجيده.

ويدلّ على غرض القفاري السَـيّئ، وأنّه مع شدّة التزامه بذلك الأسلوب الوقح، لا يذكر مورداً من نصوص الصحيفة يستدلّ به على ما يقول لأنه لو ذكر، فهو يدلّ على عدم شعوره وعدم فهمه لمعنى كلام الإمام زين العابدين وعدم التفاته إلى المعاني الرفيعة والمضامين العالية التي في (صحيفته) الرائعة.

ثمّ إن من تصرّفات القفاري المُريبة ؛ أنّه ـ دائماً ـ يتعرّض إلى الأمور الجانبية، بل والأجنبية عن ما يتكلّم حوله، وذلك في صفحات كرّاسه بما امتلأ قلبه من الشبهات التافهة، والتشكيلات الباهتة التي عُرضت عليه، فلم يعرف وجهها لقلّة وعدم فهمه للغة العربية، ولا للمصطلحات العلمية.

ونحن نشير في الردّ عليه إلى التصرّفات الغريبة التي استعملها في كلّ موردٍ، ونذكر عباراته منقولة عن النسختين معاً من كرّاسه، ليقف القارئ الكريم على هذا الأسلوب المغرض المستهجن والخارج عن قواعد الكتابة والتأليف.

بقيت أمور لابدّ من ذكرها:

• **أوّلاً**: أنّ القفاري عرض في كتابه الكبير (أصول مذهب الشيعة الإمامية) جميع ما عند الشيعة من التراث من القديم والجديد، وطوّل فيها. الكلام بالتكرار والإعادة، وبتغيير العبارات! لكنّه لم يتعرّض لما في (الصحيفة السجّادية) وبعد مضي

ستّ سنواتٍ من طبعته الأولى سنة ١٤١٩ هـ . وحتى طبعته الرابعة سنة ١٤٢٦ هـ ليس للصحيفة فيها ذكر إلا عابراً.

وكأنّه ندم على ترك الصحيفة بالتفصيل، فعمد إلى إصدار هذا الكرّاس، لما رأى أنّ الصحيفة من الكتب المهمّة عند جماعات الشيعة، ولهذا كثرت طباعتها وكثرت الشروح لها، والعناية بها.

فقام بكتابة هذا الكرّاس، وسار على عادته القديمة، فملأه بالتزييف والتسخيف واستهدفها بأقبح طريقة، وعلى أسلوبه المعروف الذي ذكرنا أوصافه هنا، وفصّلنا الكلام عنه في ردّنا الكبير على كتابه (أصول مذهب الشيعة الإمامية).

• **ثانياً**: قد ملأ القفاري كتابه الأوّل، وكرّاسه هذا حول الصحيفة السجّادية بعبارات نابية لا تليق بأهل العلم، ويأباها الكاتب الشريف، كما لا يجري بها القلم البريء ولا الكتابة المهذّبة، ونسرد هنا مجموعة من تلك الألفاظ، التي أقلّ ما تدلّ عليه، هو جهل الكاتب وسوء أدبه، في مواجهة كتاب عظيم مثل (الصحيفة) المروية عن إمام من أئمّة أهل البيت عليهم السلام في سؤدده وعلمه وورعه وزهده.

فترى القفاري يقول عن هذا الكتاب:

١ ـ الصحيفة المزوّرة (ص ١٣)[٢].

٢ ـ الصحيفة الموضوعة (ص١٤).

٣ ـ أكثرها عند أهل العلم من الموضوعات.

٤ ـ أكثرها كذب (ص ٨).

٥ ـ ظهور علامات الكذب عليها سنداً ومتناً.

٦ ـ الكتاب المفترى (ص ٦).

٧ ـ منسوبة إلى الإمام (في العنوان) وفي (ص٢٣) ينسبها الروافض.

٨ ـ في مضامينها غلوّ في الآل (ص٨).

٩ ـ أسماؤها المتعدّدة : (إنجيل أهل البيت) و(زبور أهل البيت عليهم السلام) و(أخت القرآن) (ص ١٦ و ١٩) وفي (ص١٦) عنوان: (دلالة التسمية) فأعاد فيه تخيّلاته واعتداءاته واحتمالاته الباهتة الباطلة!

١٠ ـ طبع على هيئة المصحف، على هيئة طباعة القرآن العظيم، يشابه في شكله طبعات القرآن (ص٩).

١١ ـ محاولة مضاهاة كتاب الله سبحانه بالمظهر (ص ٤٣).

١٢ ـ شرحها على طريقة المفسّرين (ص٩).

وقد طبع صوراً ـ من طبعة ـ للصحيفة لصفحات مؤطّرة بإطارات مزركشة بورود (ص ١٧ ـ ٢٢).

• **ثالثاً**: إن القفاري مع إطلاقه هذه التّهم، وإرساله هذه العبارات بلا حياء، على الصحيفة الشريفة المقدّسة، ومع عرضه لمواضيع كثيرة لا ترتبط بالصحيفة استطراداً، ليملأ صفحاته! لم يأت بأيّ دليل على هذه المفردات الوقحة والتّهم الكاذبة، ولم ينقل من متن الصحيفة جملةً واحدةً من أدعيتها ما يتمكّن أن يبحث فيها، ويستدلّ بها على دعاويه تلك، إطلاقاً.

وبينما عنوان البحث عن (حقيقة الصحيفة السجّادية) وهو يكيل عليها هذه التُّهم، فيعتبر متنها (كذباً) لا يدخل في متنها ولا يأتي منه بما يظهر منه الكذب، ومع ذلك يقول: (بظهور علامات الكذب عليها متناً)!

فلو كان صادقاً لذكر علامة واحدة على الأقلّ، منها في أيّة مقطع من نصّها ومتنها.

ولعلّ القارئ اللبيب يقف على السبب في امتناعه عن ذكر نموذج ممّا يدّعي من العلامات! فلو اطّلع القارئ بعينه على متن الصحيفة نفسها، وقرأ جزءاً ممّا ورد فيها من الأدعية والكلام الرائع لفظاً ومعنىً، يقطع ببطلان دعاوى القفاري، وأنّه إنّما لجأ

إلى هذا القول ليخوّف القارئ ويمنعه من قراءة متن الصحيفة، وإلا فإنّ قراءة المتن تكشف كذب القفاري وجهله، وعناده، وعدائه لصاحب الصحيفة.

• **رابعاً**: إنّ خروج القفاري الكاتب عن موضوع العنوان، وعرضه لمواضيع لا تمتّ بالصحيفة التي عنون لها الكرّاس، مع أنّها تشترك في كونها هجوماً ظالماً على الشيعة وتراثهم في جميع ما يمتّ بهم! بأسلوبه الباطل والفاشل علمياً وعملياً، فإنّه قد أدخل أنفه في ما لا يعنيه، ودخل ساحات العلوم والمعارف التي لا ناقة له فيها ولا جمل، وإنّما اعتمد في أكثر كلامه على النقل من مشايخه النواصب، من أمثال: ابن تيمية الحرّاني، وابن حزم الظاهري، والذهبي التركماني، وغيرهم من المبغضين لآل محمّد والمنحرفين عن الحقّ، وأمّا القفاري نفسه فلا دخل له في شيء من العلم كما لا يفهم ما ورد عن العلماء في العلوم.

وهذا مجمل ما أردنا عرضه عن كاتب هذا الكرّاس.

وأمّا تفصيل ذلك، فسنقدّمه في فصول متوالية هنا، تبعاً لما أورده هو في كلماته.

وأخيراً: استميح القرّاء عذراً من أمر اضطررنا إلى ارتكابه بسوء تصرّف القفاري بكيله الشتائم والقذف والسبّ على الشيعة.

فرأينا أن نردّ عليه بما يستحقّ عملاً بقوله تعالى: ﴿ **فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**...﴾ .

مع مقدّمة القفاري:

قدم القفاري كما هو المعتاد ليعبّر عن الباعث له على كتابة هذا الكرّاس ونشره، فذكر الباعث له بقوله:

(فإنّ الباعث على وضع هذه (الوريقات) سؤالٌ ورد من بعض الجهات العلمية، عن كتاب طبع على هيئة المصحف الشريف، وسمّي الصحيفة السجّادية، ونسب إلى الإمام عليّ بن الحسين...). (حقيقة الصحيفة: ص٧).

وقال في (ص٨):

(لم أكتب هذه السطور ابتداءً، وإنّما إجابة لمن تعيّنت إجابتهم، ولا وجه للاعتذار عن تلبية إجابتهم)!

ففي هذه العبارات أمران:

أوّلاً: إنّ الجهة السائلة كيف تكون (علميّة) وقد جاء في سؤالها : (كتاب طبع على هيئة المصحف الشريف).

وهذا ليس تعبيراً ينطق به شخص له علم، إذ ما معنى هيئة المصحف، فهل للمصحف هيئة تخصّه وتُميّزه عن سائر المطبوعات؟ هل هو أكبر، في الطول والعرض، أو عدد السطور أو الصفحات؟

فهذا تعبير لا يصدر من عالم، بل إنّما ينطق به العامّي الذي يعبّر عمّا يراه أمامه أنه المصحف، وإلا فإنّ المطبوعات من الكتب لكلّ منها حجم بعينه وأوصاف مشتركة، كالخطّ والورق والتجليد، وكذلك من حيث الإخراج الداخلي والتزيين الخارجي، وليست هذه الأوصاف تابعة لقدسيّة كتاب أو آخر، وطبعات القرآن الكريم تختلف في ذلك من طبعة إلى أُخرى، وكذلك في الحجم، وليس للمصاحف المطبوعة وصف ولا حجم ولا خصوصيّة طباعيّة معيّنة.

نعم، القرآن مميّز بنصّه، ومحترم بين المسلمين بنفسه، سواء طبع على شكل أو آخر، ويعرف القرآن من اسمه، أمّا وضعه في محفظات خاصّة أو أكياس تلبس وأغلفة متميّزة، وكذلك الخطوط التي يكتب بها القرآن الكريم ليس لأحدها اختصاص به، بل تختلف خطوط القرآن حسب اختلاف اللغات وأنواع الخطوط، واختلاف فنون الخطّاطين.

وليس التعبير عن كتاب بكونه على هيئة المصحف الشريف، مناسباً أن ينسب إلى عالمٍ، بل إن صحّ كلام القفاري ونقله فهو صادر عن عامّي جاهل، وليس جهة علمية.

وثانياً: إنّ توجّه هذا السائل إلى مثل القفاري في هذا السؤال، دليل على عدم كونه من (جهة علمية) لأنّ القفاري ـ كما سيثبت من خلال البحوث الآتية ـ هو جاهل فارغ عن العلم، فكيف يكون مرجعاً للإجابة، إلا إذا كان السائل بمستواه بل أجهل منه.

ونحن لا نستبعد أن يكون الكلام كلّه مجعولاً من القفاري نفسه، لأنّه هو المركّز على مضمون السؤال، وهو يركّز في كلامه مكرّراً على أنّ الصحيفة بهيئة المصحف، كما أشرنا سابقاً. وأراد بفرض السؤال أن يجعل من نفسه مسؤولاً؟! ومهما كان، فهل تمكّن القفاري أن يجيب السائل، بما عنده من العلم؟! إنّ ما لفّقه القفاري في هذه الكرّاسة، ستكشف عن مدى تمكّنه في الإجابة!

ولعلّ ما ذكره القفاري من أن وريقاته تحتوي على مباحث ثلاث، قال: (وقد يقول قائل: دع هذا الكُتيّب المفترى وأمثاله في زاوية النسيان، ولا تدلّ الجُهّال عليه ومن لا تمييز عنده، بوريقاتك؟) فأجاب عن هذا القائل بوجوه سبعة.

نقول: إنّ هذا القائل، لو كان شخصاً موجوداً، ولم يكن مفروضاً من القفاري نفسه، فهو قد كشف عن أمرين:

الأوّل: أنّه سلفيٌّ وقحٌ، حيث عبّر عن الصحيفة بـ(الكُتيّب المفترى)! بل هو متوسّط الحجم، وليس صغيراً حتّى يعبّر عنه بصيغة التصغير (كُتيّب).

الثاني: أن ما ورد في قوله: (لا تدلّ الجُهّال عليه، ومن لا تمييز عنده...) يدلّ على أن القائل نبيهٌ، أشار إلى أمر مهمّ. حيث أن القفاري أثار بما لفّق في هذا الكرّاس ضدّ الصحيفة السجّادية، وبالشدّة والعنف، قد يكون سبباً لجذب القارئ إلى متن (الصحيفة السجّادية) ليطّلع عليها عن كثب، ويعرف السبب الذي دعا (القفاري) إلى أن يُحاول بهذا الشكل الحادّ والمقرف! الذي يغري السامع إلى الاطّلاع عليه. ففيها وأبعادها.

ولا شكّ في أن مَن يقرأ صفحة واحدة من أيّ موضع من هذه الصحيفة سيقف على علمٍ جمٍّ، وأدبٍ ثرّ، وعقيدة حقّة، ومعرفة ناصعة، وكلام لا يصدر إلا من عارف تقيّ كامل وهو الإمام زين العابدين، عليّ السجّاد ابن الإمام الحسين الشهيد عليه السلام. فينقلب سحر القفاري في وريقاته، على الساحر نفسه وكتابه!

فذلك القول، إنّما هو كلام إنسان فطِن، حتّى لو كان صادراً من شخص سلفيّ لا يعتقد بالصحيفة، ولا يحترم صاحبها الإمام السجّاد، ولذا يرشد القفاري إلى: (إن يترك (الصحيفة) في زاوية النسيان) فهو أعقل من (القفاري) الذي قام بكتابة هذا الكرّاس، وبما أورد فيه، حيث يكون قد أعلن عن وجوده، ونبّه الآخرين إلى ما فيه، وجعل من لا يعرف الصحيفة يُحاول معرفتها، ويقتنيها فيطّلع على ما فيها من المعارف الحقّة، فيكون القفاري بتعرّضه للصحيفة داعية إلى عظمتها، فيكون قد فضح الغبيّ نفسه، وهتك عِرضه، ونقض عَرضه!

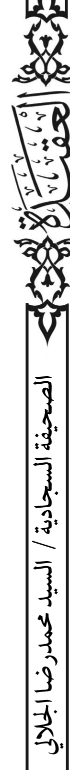
وإن كان هذا القول من كلام القفاري نفسه، فرضه ليكبّر شخصيته أنّه ممّن (يُسألُ) وتُراجعه جهاتٌ علمية مهمّة لا يُمكن له أن يعتذر من إجابتها، أو أنّه شخص تقدّم إليه مثل هذه النصيحة... إلى آخر ما يدلّ على أنّه شخص يُعتنى به!!

ففرضه لهذه النصيحة، ورفضه لها، دليلٌ على حُمقه وغبائه وبلاهته، حيث وقف على هذا المعنى، لكنه ركب حمار عناده وشِقوته، فلم يعمل بها، وأدخل نفسه في ما لا يعنيه، بل ورّط نفسه في ما يؤدّي الكشف عن عواره، وفضحه بجهله، حتّى بمصلحة نفسه.

وهذا مصير مَنْ يُريد أن يحجب نورَ الصحيفة السجّادية بوُريقاته هذه الهشّة الباهتة، كما يحجب الأبله نورَ الشمس بأصابع يده!

وقد قدّم القفاري، جواباً لذلك القول، بأمور سبعة وهي (في ص ٦ و٧):

أوّلاً: لم أكتب هذه السطور ابتداءً، وإنّما إجابة لمن تعيّنت إجابتهم، ولا وجه للاعتذار عن تلبية طلبهم.



نقول: وهذا ما سبق أن ذكره عن (الجهة العلمية) وقد أجبنا عنه سابقاً.

ثانياً: إنّ هذه الصحيفة، طبعت طبعات عديدة وبكمّيات كبيرة، فلم تعدّ أمراً خفيّاً.

نقول: هكذا يؤكّد القفاري على أن الصحيفة لم تُعدْ أمراً خفيّاً ويعترف بأنّها مطبوعة طبعات عديدة وبكميّات كبيرة!

وكذلك سيأتي في الصفحة نفسها :

(رابعاً) : يقول: (وفي عصرنا نشط الروافض في نشرها وتوزيعها).

لكنّه في (ص ٨) يقول: (إنّها سريّة التداول) وعدّ ذلك من (شهوة الغلوّ والتسترّ على الكذب) الذي يتّهم به الشيعة.

وهكذا يتناقض القفاري في القول، لأنّ الحقد والغيض يغطّي عقله، فلا يفهم ما يكتب؟!

ثالثاً: إنّها منسوبة لإمامٍ من أئمّة أهل البيت والسنّة، فهذا يوجب الاغترار بها.

نقول: إنّ نسبة الصحيفة إلى إمامٍ، لابدّ أن يكون دافعاً إلى التأكّد من ذلك، بالبحث الخالي من التعصّب والبغضاء، ولا شكّ عند العلماء والعقلاء أن التأمّل في مضامين (الصحيفة) يؤدّي إلى العلم واليقين بصحّة نسبة الصحيفة إلى الإمام.

لكن القفاري يطلق كلمة (النسبة) قاصداً بها عدم الصحّة، كما عبّر عن الصحيفة بالوضع والكذب، وأطلق هذه الألفاظ على الصحيفة جزافاً، ولم يأت بدليل على ذلك، كما سيأتي.

وأما أصل النسبة، فإن تمّت وصحّت، كما هو الثابت عند أهل البيت وشيعتهم، فكون المنسوب إليه واحداً من أئمّة أهل البيت والسنّة، لا يوجب الإعراض والاعتراض، بل يُلزم الانقياد والاتّباع، لأنّ الإمام حجّة، والصحيفة ليس فيها إلا ماهو الحقّ والصدق، فالالتزام بها هو الواجب على كلّ عاقل مسلم، يعترف بإمامة

المنسوب إليه. فكيف يجعل هذا سبباً للتعرّض للصحيفة والهجوم عليها في (وريقاته) هذه!

قال (رابعاً): إنّ شيخ الإسلام [يعني ابن تيمية] ذكر في معرض كلامه عنها، أنّه يعتمد على أدعيتها كثيرٌ من أهل الكلام والوعّاظ.

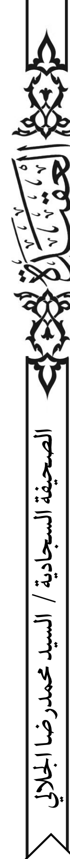
نقول: هذا الكلام أوضحُ دليلٍ على أنّ أدعية الصحيفة السجّادية كلّ مَن وقف عليها اعتمد عليها، لأنّ علماء الكلام والوعّاظ هم أعرف بما فيها، فلو لم تكن حقّاً لم يعتمدوا عليها...

وأيضاً عرفنا أنّ القائل لهذا الكلام هو من أشدّ الناس عداءً للشيعة وهو ابن تيمية الحرّاني، فقد ذكره في كتابه (منهاج السنة ج٦ ص٣٠٦) على ما ذكره القفاري في الهامش.

والقفاري يعتبر كلام ابن تيمية حجّة، لأنّه شيخ إسلامه، وإمامه الذي لايتجاوزه، فهو ملتزم بكلامه، لكنّه أضاف في طبعة الرياض من كرّاسه هذا قوله: (وفي عصرنا نشط الروافض في نشرها وتوزيعها) فالقفاري يُراوغ حتّى في مدلول كلام شيخ إسلامه ابن تيمية، لأن ابن تيمية لّما قال: (اعتمد عليها علماء الكلام والوعّاظ) لم يقصد الروافض، بل قصد أهل نحلته من أهل السنّة، فيدلّ على أن المعتمدين هم من أهل السنّة.

لكن القفاري أضاف على كلام ابن تيمية وألحق به قوله: (في عصرنا نشط الروافض في نشرها وتوزيعها)! حتّى يوحي إلى القارئ معنىً آخر لكلام ابن تيمية، وهذا واحد من أساليب التحريف في منقولات القفاري، وهو بالنتيجة إغواءٌ وتخريفٌ لقرّاء كتابه.

وبهذا الجواب ظهر أنّ القفاري، لا يعي ما يُورد في هذه الوريقات، فهذا المنقول عن ابن تيمية تأكيدٌ على صحّة أدعية الصحيفة عند العلماء من أهل الكلام،



ومن الوعّاظ، فكيف يذكره وهو بصدد الردّ على الصحيفة وتسخيفها، كما هو ظاهر من كرّاسه هذا، وهو يحكم عليها بالكذب، والوضع، والباطل؟! وإبطال الصحيفة كلّها من الأساس؟!

وقال: خامساً: إنّها مناسبة لنقل اعتقاد هذا الإمام المفترى عليه، من خلال أقواله.

نقول: إنّ القفاري يظهر نفسه أنّه يبحث عن مناسبةٍ ينقل فيها اعتقاد الإمام السجّاد عليه السلام ويدافع عنه من أجل ما افتراه عليه الآخرون، ولم يجد وسيلة إلا ضرب (الصحيفة السجّادية) وتفنيدها وتكذيبها؟ والصحيفة كما يعلم الجميع هي من أفضل تُراث الإمام السجّاد عليه السلام.

وهذا الجواب أيضاً دليلٌ على خلوّ القفاري من فكر مستقيم، فبينما هو يريد أن يعرّف الإمام ويمدحه ـ كما سيأتي ـ يُحاول أن يذمّ، وينفي عنه أوضح أعماله وأشهرها وأعزّها، وهي (الصحيفة السجّادية) ويتّهمه بالوضع والكذب والافتراء.

ومن الواضح لأهل العلم ومن يقرأ التاريخ أنّ افتراء أهل الباطل على الحقّ وأهله أمرٌ رائجٌ منذ خلق الله آدم أبا البشر عليه السلام وذرّيته، فقد افتروا على الله الكذب كما أخبر به كتابه الكريم، وافتروا على رسله وما جاءوا به من الرسالات، وعلى كتبهم، وكذلك على الأئمّة وشيعتهم، وكذبوا على أولئك، كما كذبوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وفي عصره وبمحضره حتّى ضجّ ونادى (مَن كذّب عليَّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النار) (حديث مشهور).

والإمام السجّاد عليه السلام كآبائه وابنائه لم يُسْتَثنوا من ذلك، فقد افترى المنحرفون من الناس، حكّاماً وولاةً وقضاةً وملوكاً ورعاةً، ومحدثين ومتعالمين على الأئمّة عليهم السلام حتى أقصوهم عن مقاماتهم التي رتّبهم الله فيها، وبغّضوهم إلى الناس ليبتعدوا عنهم، ولا يسمعوهم، ولا يقرأوا كتبهم، كما يفعل القفاري بالإمام السجّاد والصحيفة السجّادية.

وقد تنبّه إلى هذا الواقع، الشيخ المصري محمّد أبو زهرة حيث كتب: (وظلّ علم عليّ [عليه السلام] في بيته، نتيجة اضطهاد الأمويّين للعلويّين، واقتصار الأمويّين على نقل أحكام (أبي بكر) و قضاء (عمر) دون نقل أحكام وأقضية (علي) ممّا جعلها بعيدة عن اهتمام علماء السنّة، ولذا تورّث العلويّون (تُراث علي). [ذكر ذلك في كتابه (الإمام الصادق ص٩١].

فليس ما يقوم به القفاري في كرّاسه هذا، بدعاً، بعدما عَرفه من سيرة سلفه! فإنّما هي (شنشنة أعرفها من أخزم)!

وأمّا قيامه بتعريف الإمام السجّاد عليه السلام بما ذكره نصّاً، فهو أمرٌ مهمٌ، وليس للقفاري منه مهربٌ، لأنّ الإمام مقدّرٌ بل مقدّس عند جميع العلماء من أهل السنّة والشيعة، فكيف يتمكن شخص ضحل مثل القفاري أن يتغافل عن مدحه والثناء عليه وهو يرى سلفه يخضعون ويُقرّون ويعترفون بعظمة الإمام السجّاد عليه السلام وزهده وعبادته ولياقته حتّى بالخلافة، وإن كان منهم قولاً، بلاعمل.

لكن القفاري يحاول في وريقاته هذه أن يفصل الإمام عن أهم عناصر عظمته وعلمه وإمامته، وهي الصحيفة السجّادية، فيتصدّى لتزييفها، بما كدّسه هنا من الأراجيف واللغط والدجل، تمويهاً على القرّاء الكرام.

وسنوضّح فساد تصرّفاته، وأغراضه المبتنية على النَصب والعداء لأهل البيت عليهم السلام ولتراثهم بجهله وبذاءة لسانه.

وقال: سادساً: إنّ في مضامينها غلوّاً في الآل، والإمامُ منها بريء، فهي مادّة تُدافع عن الآل، وهذا من حقوقهم علينا.

نقول: إنّ مَن يقرأ هذا الكلام يتصوّر أن القفاري قد قرأ في الصحيفة نصّاً وقف فيه على ما يدّعي من الغلوّ!

لكن نتحدّاه أن يكون قد قرأ في الصحيفة جملةً فيها ما يدّعيه من الغلوّ في الآل. وهذا واضحٌ لمن قرأ هذا الكرّاس، وتصفّح وريقاته، فإنّه لا يجد كلمة ينقلها القفاري من الصحيفة، أو يستشهد بها على أي واحد من مجموعة أحكامه على الصحيفة.

وقوله: (والإمام بريء منها) نعم الإمام السجّاد عليه السلام، كما هم سائر أئمّة أهل البيت عليهم السلام كلّهم وكذلك شيعتهم بريئون من أي كلام ينمّ منه الغلوّ ـ نعوذ بالله ـ فكلّهم بُراء من الغلو المزعوم، وأحاديثهم وأقوالهم وأفعالهم متواترة على هذه البراءة.

وقوله: (فهي مادّة تدافع عن الآل) يعني المادّة التي أوردها في هذا الكرّاس، وسوّد بها وجهه ووجه وريقاته.

لكن قد أشرنا، وستعرف أنّ غرضه في هذا الكرّاس، كما هو في سائر كتاباته هو تشويه سمعة الآل، وإذا ذكر شيئاً من فضلهم نقلاً عن سلفه، فإنّه يقصد به التعمية على الناس، لأنّهم جميعاً ينقلون بعض الفضائل والأوصاف، ويتركون المقامات المهمّة كالإمامة في الحكم، والأعلمية في الشريعة، والتقوى والورع والحكمة، وما إلى ذلك ممّا يوجب الاقتداء بهم واتّباعهم والالتزام بسيرتهم، والتعظيم لهم ورفض سيرة أعدائهم الذين غَصبوا مكانتهم وآذوهم وقتلوهم وأسروا نساءهم وحرقوا بيوتهم، وأبادوهم وشرّدوهم في أقاصي البلاد.

والآن وفي هذا العصر، يتصدى هذا القفاري الذي هو من أجلاف خَلَفهم يحاول أن يُبعّد الناس عن تراثهم العظيم الذي احتوى على الحقّ والصدق، ويشوّه سمعة (الصحيفة السجّادية) لئلا يقرأه أحد، خوفاً من أن يهتدي إلى أحقّية الآل للإمامة، الذي هو واحدٌ من حقوقهم على الأُمّة. والغريب أنّه يُسمّي عمله : (مادّة تُدافع عن الآل).

نعم، بل هو مادّة تدفع عن الآل، أي تبعد الناس عن الآل، لأنها تزيف علمهم وتراثهم، وتحاول أن يجتنبها الناس. لكنّ لا نشكّ في أنّ عمل القفاري هذا، سيدفع

الناس إلى أن يُحصّلوا هذه الصحيفة السجّادية المقدّسة العظيمة، ويقرأوها فسيجدون فيها ما يعلمون منه أنّ القفاري دجّال، عدوّ لآل محمّد، وعدوّ للأُمّة، وهو يريد أن يمنع الأُمّة عن الحق ويبعّدهم عن معرفة الحقيقة.

ويقول: (وهذا من حقوقهم علينا).

نقول: إن كنت صادقاً، فهذا من أقلّ حقوقهم! لكن أين أنت وأعوانك من سائر حقوقهم؟ ماهي؟ وكيف ادّيتموها لهم؟ أليس من حقوقهم أن تدفعوا عنهم أعداءهم وظالميهم، وتحاسبونهم على اعتداءاتهم ضدّهم؟ فلماذا نراكم تركتموهم طول التاريخ عُرضة للقتل والإبادة والسجن والتشريد والهتك والإزواء؟ وبدلاً من الدفاع عنهم، نراكم تؤيّدون الظالمين لهم؟ وتعظّمون قاتليهم وسالبي حقوقهم؟!!

فهذا عليّ عليه السلام لا تُحاسبون من ظلمه وعارضه وحاربه في الجمل وصفّين والنهروان؟! وتحترمونهم وتعظّمونهم مع أنّهم حاربوا خليفة المسلمين وأمير المؤمنين ورابع الراشدين وهو عليّ عليه السلام؟!!

لكنّكم تعتبرون مَن حاربه في الجمل (أمّ المؤمنين) وفي صفّين (معاوية خال المؤمنين) وفي النهروان الخوارج هم محترمون عندكم معذورون تترحّمون عليهم؟!!

وقد سبّ بنو أمية وخلفاؤهم عليّاً مدّة ألف شهر من حكمهم على الأمّة، لكنّهم أمراء المؤمنين عندكم؟

ويزيد قاتل الحسين عليه السلام هو أمير المؤمنين لكم؟! وعمر بن سعد ثقة تلتزمون بأحاديثه، لا تستنكرون قتله للحسين؟!!

والإمام السجّاد عليه السلام مع أنه يليق بالإمامة ـ كما قال الذهبي ـ ما هو موقفكم من إمامته؟ مع أنّكم خلّفتم عدّة من بني أمية في زمانه؟!! وقد أجمع علماء عصره أنّه (أفقه الناس) وأفقه الأُمّة، فهل أخذتم أحكام الشريعة منه؟ كلا، إنّكم أخذتم الفقه ممّن تعلمون أنّه لا يبلغ شأو الإمام السجّاد في علم ولا عمل؟!!!

وها أنت يا قفاري تحاول أن تبعد الناس عن كتاب واحد من تراث الإمام السجّاد عليه السلام وهو (الصحيفة السجّادية) مع ما فيه من قدس وعظمة وإيمان وحكمة ودين ومعارف حقّة؟

فهل هذا دفاعٌ عن (الآل) ـ يعني آل محمّد صلى الله عليه وآله ـ أم هو نصرة ودفاع عن آل أميّة وسفيان ومروان؟!!

ثم قال القفاري: وأخيراً، فإنّ طابعها تعمّد لإخراجها على هيئة طباعة القرآن العظيم، لما يدّعون بأنها: زبورهم، وإنجيلهم؟! وأخت قرآنهم؟

نقول: ويكرّر القفاري رقصه على هذا الوتر الحسّاس، ليزيّن أغنيته الفُضلى في التهريج على الصحيفة، لكن بكلّ وقاحة على حساب (القرآن العظيم)! واستخدام اسمه المكرّم؟! ولا يستحي من كونه قد عرّض القرآن ـ كتاب الله ـ العزيز، لأغراضه الفاسدة، حيث يُريد التنقيص من الصحيفة، كمن يريد أن يرمي أحداً بسوء، فيرميه بنسخة من كتاب الله؟!

إنّ القفاري بتركيزه على هذا الوتر، إنّما يقصد إهانة القرآن والحطّ من قدره، حيث يذكر اسمه في مثل هذا السجال التافه الذي يحكيه ضدّ الصحيفة السجّادية.

وأما قوله: (زبورهم) و (إنجيلهم)؟ فهو أتفه ما يريد أن يستعمله ضدّ الشيعة وتشويه سمعتهم:

أوّلاً: إنّ الزبور، وهو كتاب داود عليه السلام والإنجيل، وهو كتاب عيسى عليه السلام وهما كتابان مقدّسان مذكوران في القرآن، لنبِيّيْن مبعوثين، وهما مُنزلان من السماء، فما معنى الاستهزاء باسمهما، يا قفاري!

ثمّ إنّ مَن شبّه الصحيفة بهما، فإنّما أراد أن يعبرّ عن الصحيفة بأنها كتاب يحتوي على معاني تقدِّس الله وتعبّر عن عظمته وعلوّ شأنه، وأنها متلوّة ومنشأة من لسان إمامٍ عارفٍ زاهد، معترف له بمقام الإمامة والخلافة عن رسول الله صلى الله عليه وآله .

مع أن هذا أمرٌ لم يذكره من العلماء الكبار، وإنّما عبّر عنه بذلك بعض العرفاء الزهّاد. يحقّ للقفاري ان يركّز عليه إلى هذا الحدّ؟ حيث يجعل ذلك وسيلة للإسفاف بالصحيفة السجّادية نفسها، ليسقطها عن أعين الناس!

وكذلك قوله: (ويسمّونه أخت القرآن).

فبالإضافة إلى أنّ هذا الاسم، ليس له أصل ولا معنى، ولم يعرف منَ ذكره، إلا أنّ القفاري يستخدمه للتشنيع على الصحيفة! لكن عمله استخدام باطل، يمسّ كرامة القرآن الكريم أوّلاً، ويكشف عن سوء غرض القفاري ثانياً. ويؤيّد الكشف عن فساد غرضه، قوله : (على هيئة المصحف الشريف) الذي يذكره بعبارات مختلفة ـ كما سبق ـ. فإنّه يحاول أن يوحي إلى أن الشيعة يريدون أن يجعلوا الصحيفة قريناً للقرآن في الحجّية ـ مثلاً ـ أو أن يجعلوا الصحيفة بديلاً للقرآن، فرضاً؟

لكن نقول: الذي يفهم من تصرّفات القفاري، وتركيزه على وتر الأسماء المطلقة على الصحيفة السجّادية، مثل (زبور آل محمّد) أو (إنجيل أهل البيت) أو (أخت القرآن) أنّه يريد أن يتّهم القارئين للصحيفة والطابعين لها: أنّهم يجعلون الصحيفة كتاب وحيٍ إلهيٍّ، كما هو (الزبور والإنجيل والقرآن).

فلذا يقول: (ولم يجرءوا أن يقولوا (قرآنهم) بل قالوا: (أخت اقرآن).

فالقفاري يُريد أن يستدلّ بتلك التسميات على أن الصحيفة وحي، كما أنّ تلك الكتب أوحيت على الأنبياء؟! وهذا من القفاري خيال فاسد، وكلام لغوٌ، لا يصدّق به عاقل، وذلك:

أوّلاً: إنّ مَن أطلق هذه الأسماء على الصحيفة، إنّما أراد أن أسلوب الصحيفة المعنويّ بما فيها من الدعوة الروحية إلى الله تعالى، والتوجّه إليه بالمناجاة والتضرّع والالتجاء إليه وبعبارات ملؤها الإقرار بوجوده تعالى، والتجليل لعظمته وقدرته، والاعتذار له، والتذلّل إليه، والاعتراف بالعبودية لذاته المقدّسة.

ومثل هذه المعاني الرفيعة هي التي وردت بها (الأحاديث القدسيّة) وفي كثير منها أنّها وردت في كتاب (زبور آل داود) و(إنجيل عيسى) وهما كتابان منزلان على هذين النبيَيْن بنصّ القرآن حيث قال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾[٣]. وقال: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾[٤].

قال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾[٥].

كما ذكر الإنجيل المنزّل على عيسى عليه السلام في (١٢) مورداً في (٦) سور.

والأحاديث القدسيّة التي فيها ذكر (زبور داود) و(إنجيل عيسى) وكذلك (توراة موسى) كثيرةً جدّاً، ومروية عن الرسول، وكذلك عن الأئمّة عليهم السلام وهي تنقل عن وحي الله وكلامه مع أولئك الأنبياء، ولها مجال واسع في كتب الحديث، بل ألّف العلماء لجمعها كتباً مستقلّة.

فهل مثل ذلك يُقاس بالقرآن الكريم، ويحاول أن يشنّع على جامعيها وناقليها لمجرّد ذكر اسم (الزبور) و(الإنجيل) فيها؟

وإذا كان الناطق بالصحيفة السجّادية شخصاً مثل إمام الأُمّة وسيّد الساجدين وزين العابدين الإمام علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام بمثل تلك المعاني، أو ما يشبهها، فشبّهت بالزبور والإنجيل، فهل فيها حزازة وحساسية بالحدّ الذي يركز عليه القفاري، ويشنّع على الصحيفة نفسها لذلك أو يثير التّهمة على الشيعة لالتزامهم بالصحيفة؟!

إنّ ما يقوم به القفاري، عمل سخيف، ويكشف عن خبث ولؤم واعتداء على المصحف الشريف، الذي يدخل اسمه المبارك، في وريقاته هذه!

وثانياً: إنّ هذه التسميات ـ كما أسلفنا ـ ارتجالية لم توجد إلا في القرون المتأخّرة، من قبل مَن لم يُسمّ ولم يُذكر، فليس لها أهمّية ولا التزام من قبل علماء الطائفة، ولم يتداولها إلا البعض.

فلا يجوز التحامل على الصحيفة من أجل ذلك، ولا على الأمّة التي تلتزم بالصحيفة، كتراث قيّم من كلام إمام عظيم من أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

ثمّ لا يخفى على أهل العربية، أنّ هذه التسميات إنما هي (مجازية) والغرض منها التعبير عن الاحترام والأهمّية، وليس ما يقصده القفاري وهو التعبير عنها لكونها (وحياً) وغير ذلك من الأغراض الباطلة.

ولكن قلب القفاري الأعمى، المليء بالاتّهام وسوء الظن والحقد على ما يرتبط بآل رسول الله صلى الله عليه وآله وشيعتهم ومن والاهم، يدفع القفاري إلى الاتّهام بالظنّ والخيال، مع أنّ ﴿ **بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** ﴾[٦].

يستمرّ القفاري في أسطورته فيقول: (وربّما يكون في هذا الإخراج: تغرير بالجاهلين وخداع للغافلين، بما قد يظنّونه نسخة من القرآن الكريم).

إنّ هذه الأسطورة التي يحكيها القفاري تبدأ بـ(ربّما) وتنتهي بقوله: (ممّا قد يظنّونه) دليل على أنّ القفاري يحكم بالاعتماد على هذه الاحتمالات، ويبني عليها حكماً قطعياً بأن الطابع للصحيفة إنّما أراد التغرير والخداع!

وهل يحقّ للقفاري المدّعي للعلم والمعرفة والاستدلال على ما يقول والمتصدّي للجواب عن سؤال (الهيئة العلمية)؟ أن تصدر منه الأحكام، معتمداً على هذه الظنون والاحتمالات، (بربّما، وقد يظنون) وأمثال ذلك؟!

وهذا الكلام يشير إلى أن القفاري هو الذي يبني كلامه على التغرير والخداع، لصرف القُرّاء عن قراءة كتب أهل البيت والشيعة وتراثهم بما يورده حولهم وحول تراثهم.

ثمّ الذين يتداولون كتاباً منسوباً إلى الإمام السجّاد عليه السلام هل هم بهذا المستوى من البساطة أن يُغرّروا وأن يُخدعوا بمظهر الكتاب والغلاف المكتوب على صفحاته الأولى، من دون الدقّة في المحتوى، ولو سطحيّاً؟!

ثمّ هل يحقّ لأحدٍ أن يظنّ بالمسلمين، الجهل والغباء إلى حدٍّ أن لا يعرف احدهم القرآن الكريم من غيره من كتب الحديث أو المعارف الأُخرى، بحيث تعبُر عليه كون كتاب مّا قرآناً؟! بل يغترّ بمجرد الشكل والمظهر؟!

أليس عنوان الكتاب المطبوع على وجهه (الصحيفة السجّادية) بالخط العريض، أليس هذا كافياً أن يميّز الناظر إلى غلاف الكتاب ليعرفه؟ إنّ مثل هذا الاحتمال من القفاري : إهانة بالقُرّاء المسلمين عامّة؟

ثمّ إذا أخطأ الطابع في تصرّفه، أو أساء الغافل الجاهل في ظنّه، أفهل يقتضي هذا أن يقوم أحد (مثل القفاري) أن يجعله دليلاً على الهجوم على الصحيفة السجّادية، ويسخّف محتواها، ويتّهم القارئين لها؟

وأخيراً: فإن تعرّض القفاري للقرآن الكريم، في هذه (الوُريقات) وبهذه الصورة المُهينة، وبأساليب الاحتمال والظّن واستناداً إلى تصرّفات الطابعين، إهانة واضحة بكتاب الله، واستخدام منه لنصّه الشريف واسمه المنيف في سبيل الوصول إلى غرضه السخيف، وهو تشويه سمعة الصحيفة ومنشئها الشريف وقرّائها الكرام.

مع أنّ محاولة القفاري أن يظهر بمظهر المحافظ على القرآن ممّن يتعدى عليه، وقد أوقع نفسه في التعدّي عليه بإدخال اسمه في هذه الترّهات التي لفّقها، وبهذا الأسلوب الفاشل الباطل.

وقد فزع عن سوء عمله، فقال: (وأنا لا أزعم أنّي أدافع عن القرآن) فهو بكلامه هذا يدافع عن نفسه، ويبرّئ نفسه عن ما فعل ممّا فيه الإهانة بكتاب الله، إذ كرّر ذكره في هذه الجمل والعبارات والمناقشات الواهية!

ولهذا بدأ يمدح القرآن الكريم بقوله: (وهل يخفى القرآن أمام العيان) نقول: نعم، وإذا كنت صادقاً في هذا الكلام، فلماذا تفرض أن المظاهر في الطباعة، تغرّر بالجاهلين، وتخدع الغافلين؟! ويقول في مدحه: (كتاب الله... لا تنال من عظمته دعوى حاقد ومزاعم مغرض، ... وهل يخفى القرآن أمام العيان).

نقول له: إذن، لماذا تفرض القرآن أن يشبّه على أحدٍ من الناس بمجرّد هيئة الطباعة، والشكل وما إلى ذلك؟! وإنّما حقدك على الصحيفة وأهلها حملك أن تّدعي بـ (ربّما) و (قد يظنّون) وغرضك أن تهين الصحيفة وأهلها، أن القرآن يُشبّه على الناس؟! ولقد خذلك الله، ودفعك على أن تعترف بذنبك، ﴿**فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾[(٧)].

ومن الغريب أنّ القفاري تندّم من اعترافه بالذنب، وراح يكرّر دعواه بقوله: (ولكن أكشف محاولة الجاني والجناية، وأفضح المجرم والجريمة، ولا سيّما أن هذه الدعوى تحملها طائفة، وتسير بها طباعة ويتولّى إشاعتها فئام).

نقول: لكنك أنت صاحب الدعوى، والدعوى هي أنّ طباعة الصحيفة بشكل القرآن، ويريد طباعتها التغرير بالجاهلين، وخداع المغفّلين. أنت ادّعيت على مَن طبع الصحيفة السجّادية، هذه الدعاوى. فأنت الجاني على القرآن الذي لا يخفى نوره وضياؤه على أحد؟! أفهل بإهانة القرآن، وتنزيله بما فرضت من ظنونك، تريد معرفة الجاني وفضح الجناية، بينما أنت الجاني وفرضك هو الجناية؟! وقد تعدّيت على المسلمين، واتّهمتهم بالجهل والغفلة، عن معرفة القرآن بظاهره، وأنّ مظاهر الطباعة تشبّه عليهم القرآن؟ وكأنّهم أغبياء وبلهاء، لا يميّزون ما يرون من الأشياء!

ثمّ هم سوف يفتحون ما يرون، فيجدونه كتاباً ليس بقرآن، أفتعتبر — يا قفاري- الناسَ مثلك أغبياء أو عُمياً، لا يميّزون؟! وما أكبر جريمة القفاري حيث يفرض ـ تخيّلاته ـ دعوىً، يتصوّرها، ويحلم بها، ويحكم على أساس أحلامه وصورها،



ويؤلّف بذلك وريقاته، ثمّ يكفّر ويفسّق رجالاً من المسلمين، وفئاماً من الناس، وطائفة من المؤمنين، لا جناية لهم ولا جرم إلا في أوهامه وأحلامه وخيالاته.

وهكذا انتهينا من كشف أهداف القفاري التي جاءت في مقدّمة كراسه ووريقاته وستتضح للقراء الكرام بتطبيقها في بحوث الكتاب مفصلة.

***

المبحث الأول

حقيقة الصحيفة السجّادية

هكذا عنوَن القفاري بابه الأوّل، وقد ذكر في مقدّمة المؤلّف (ص٧) في تعريف هذا الباب: (في كشف حقيقة هذه الصحيفة... وذلك من خلال قول أئمّة العلم، وما تدلّ عليه مضامينها).

بدأ هذا البحث الأوّل بقوله: (... وينسبها الروافض لعليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، المشهور بزين العابدين، والذي يعدّونه إمامهم الرابع) ويضيف: (لكن أكثرها عند أهل العلم من الموضوعات).

نقول: يحتوي هذا الكلام على تهجّم عنيف، في بداية البحث، مع أنّه بصدد تعريف (حقيقة الصحيفة)؟!

والسؤال المهمّ هنا: هل هكذا يتمكّن الإنسان أن يعرف حقيقة أيّ شيء؟ أو

يعرّفه للآخرين؟ أليس طريق معرفة الأشياء هو البحث فيها عن ذاتها؟ وتاريخها؟ وفوائدها، وعن منشئها؟ وعن أصحابها وأهليها؟ قبل أن يكيل عليها الإنكار والاتّهام، أو اللجوء إلى غير أهلها؟ فضلاً عن السؤال من الأجانب الذين لا يعرفونها؟ أو لا يعترفون بقيمتها؛ جهلاً أو عمداً وعناداً وحقداً وحسداً؟ لأنّهم أعداء لأصحابها؟!

فهل يتمكّن مَن يُراجع الجهلة والأعداء، من معرفة حقيقة شيء هم يكرهونه، ويزيّفونه؟ فكيف يصل الإنسان إلى معرفة شيء إذا سار في هذا السبيل، فضلاً عن أن يصل إلى الحقيقة المنشودة؟!

ولكن القفاري مع أنّه في هذا المبحث الأوّل عنوَنه (الكشف عن حقيقة الصحيفة) تراه يسردُ مجموعة من الدعاوى ضد الصحيفة ويذكر أموراً يلتزم بها سلفاً ويعتقد بها ويبني أحكاماً على أساسها تنتج بطلان الصحيفة.

ثمّ إنّه يبني استدلاله على شيء مشكوك، بدليل هو الآخر مشكوك أو باطل، والثاني أيضاً يعلّقه على أمر هو أوّل البحث، أو يبني على الأمر الأوّل الذي هو محلّ النقاش، وهذا ما يسمّى اصطلاحاً بـ (المصادرة على المطلوب) عن أهل العلم، عند أهل علم المنطق، الذي لا يقرأه السلفية، فلا منطق لهم سوى الإنكار والسبّ.

ويظهر تعمّده على أسلوبه هذا من قوله في (ص ٧) لكشف حقيقة الصحيفة: (وذلك من خلال قول أئمّة العلم فيها، وما تدلّ عليه مضامينها).

مع أنّه لو كان عارفاً بنظام الاستدلال العلمي، لعرف أن الرجوع في معرفة حقيقة الشيء يجب أن يكون أوّلاً إلى نفس الشيء كمضامين الصحيفة، ثمّ الرجوع إلى آراء الآخرين!

ثمّ إنّ القفاري لمّا يذكر الرجوع إلى (أهل العلم) يستدلّ قبل كلّ أحد منهم إلى (ابن تيمية)؟ فهل إنّ (ابن تيمية) هو من أهل العلم؟ أو يُمثّلهم؟

ومع أنّ ابن تيمية ليس ممّن يرجع إليه في مثل أمر الصحيفة التي هي من تراث أئمّة أهل البيت عليهم السلام وليس ابن تيمية مرضياً للتحكيم في مثل هذا الأمر، لأنّه معروفٌ بالعداء لأهل البيت عامّة، وللأئمّة الاثني عشر خاصّة، فديدنه إنكار علومهم وفضائلهم، فكيف يمكنه أن يعترف بكون الصحيفة السجّادية معتمدة عنده؟! مع أنّه اضطرّ إلى أن يعترف باعتماد أهل الكلام والوعّاظ عليها، كما سبق.

ثمّ إنّ القفاري يقول في (ص٨) : (لكن أكثرها عند أهل العلم من الموضوعات). ثمّ ينقل عن ابن تيمية مباشرة، قوله:)الأدعية المأثورة في صحيفة علي بن الحسين أكثرها كذب على علي بن الحسين) [عن منهاج السنّة: ١/ ٣٠٦].

فالملاحظ: إنّ دعوى القفاري: (أكثرها ... من الموضوعات) لكنه ينقل عن ابن تيمية (أكثرها كذب)؟ فلاحظ أمانته في النقل، وأسلوبه في تغيير المنقول أو إبهامه؟!

ثم عقّب القفاري بعد كلام بن تيمية بقوله: قلت : وفي مضامين هذه الصحيفة ما ثبت ذلك من: الغلو في الآل (وعلّق: بدعوى أنّهم يعلمون ما يكون). والتوسّل المبتدع في الدعاء. ودعوى الإمامة المنصوصة).

وبعد ذكر هذه الأمور الثلاثة، يقول القفاري:

(وهذا كافٍ في الحكم على هذه الصحيفة ـ أو على أكثرها ـ بحكم شيخ الإسلام). (ص ٨).

نقول: إنّ هذه الأمور بين ما هو افتراء على الصحيفة، أو غلط من ابن تيمية والقفاري في تفسير (الغلوّ) كما هو مفصّل في محلّه، أو حقّ عليه أدلّة من العقل والنقل كالتوسّل والإمامة، وسيأتي تفصيل ذلك أيضاً.

ولو سلّمنا للقفاري مدّعاه في هذه الأمور الثلاثة! فهل وجود هذه الثلاثة في مضامين الصحيفة يكفي في دعوى ابن تيمية أن يقول: أكثر الصحيفة كذب؟! أو

للقفاري أن يقول: هذا كاف في الحكم على هذه الصحيفة أو على أكثرها بحكم شيخ الإسلام ـ يعني ابن تيمية ـ ! فضلاً عن أن يحكم القفاري نفسه على الصحيفة كلّها أو أكثرها بالبطلان؟

والدليل على عجز القفاري من ذكر موارد أُخرى من مضامين الصحيفة أنّه اقتصر على هذه الموارد، التي لا تدلّ على مدّعاه، ولم يتمكّن من ذكر شيء آخر، أنّه ذهب إلى أسلوب آخر وهو ذكر مسائل أُخرى خارجة عن المضمون، مثل قوله:

١ ـ وقد تفرّد بنقلها الروافض، ولا حجّة في نقلهم.

٢ ـ كما ادّعوا في بدايتها أنّها سرّية التداول.

٣ ـ ومع ظهور علامات الكذب عليها سنداً ومتناً، فإنّ الروافض يقدّسونها ويقولون: هي (من المتواترات).

٤ ـ وقد نشروها في هذا العصر بطبعات أنيقة.

٥ ـ وتعمّدوا إخراجها بصورة تشابه في شكلها طبعات القرآن، ... ويسمّونها (أخت القرآن) و (إنجيل أهل البيت) و(زبور آل محمّد).

٦ـ وقد اهتمّوا بنشرها.

هكذا انتهى القفاري إلى ذكر أمور مشكلة عنده مع الصحيفة، وانتقل من الحديث عن مضامينها التي ادّعى أنّها تدلّ على أحكام ابن تيمية وأحكامه عليها. وهذه الأُمور كلّها خارجة عن المتن والمضمون.

ومن المعلوم من سيرته وأسلوبه أنه لو وجد أقل شيء يمكن أن يُسيءُ بالصحيفة مضموناً لَما أفلته ولا تركه، إلا وذكره وزمّر وزمجر حوله! وإلا، كيف يكتفي بتلك الموارد الثلاثة التي ذكرها أوّلاً في ثلاث أدعية فقط (!) ويعتبرها كافيةً، للاستدلال على كون سائر الأدعية وهي (٥٤) دعاءً كذباً أو موضوعات؟ أليس نفس هذا العمل يدلّ على تزيّده هو وإمامه ابن تيمية؟!

*** أمّا التوسّل إلى الله:**

فأمرٌ مسنونٌ وواقع في الكتاب والسنّة، وعليه أكثر المسلمين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، فالله تعالى يقول في محكم القرآن الشريف: ﴿**وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾(٨).

وما أشرف التوسّل إلى الله أن يكون بأحبّ الخلق إليه محمّد الرسول وآله أهل بيته الطيّبين الطاهرين، وهذه مسألة أثبتها العلماء الاعلام سوى هؤلاء السلفية الطغام.

*** وأمّا الإمامة:**

فشأنها أكبر من أن يريد القفاري إنكارها وحسمها بكلمتين نابيتين، مع أن عشرات الكتب قد ملئت صفحاتها بالبحث عنها في كتب الإمامة من علم الكلام. فأين القفاري من هذا العلم حتى يدخل أنفه فيه؟!

*** وأمّا الغلوّ في الآل:**

فهو لا يفترق عن الغلو في غير الآل من الصحابة والخلفاء والأُمراء، والبحث عن حقيقته وأبعاده وموارده، ونماذجه ووجوده، في أكثر الفرق الإسلامية وحتى السلفية، بحث طويل عريض.

ولكن القفاري يتظاهر أنّه خاصّ بالشيعة أو بآل البيت عليهم السلام وهذا أمرٌ معلوم أنّه باطل وأنّ عمل القفاري مغرض وفاسد، وظلم على أهل البيت وشيعتهم.

ثمّ إنّ تجاوز القفاري ـ وإن كان مقتصراً على الشيعة ـ لكنّه في أعماله يسير على مسلك السلفية والوهّابية التكفيريين، إذ يستنكرون على المسلمين كافّة كثيراً من الأحكام الشرعية: من الواجبات والمستحبّات والمسنونات والمندوبات، ويكفّرون المسلمين الملتزمين بها، ومن أمثلتها: زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله والتزام كساء الكعبة، وتقبيل

جدارها، وزيارة القبور والدعاء عندها، وما إلى ذلك من ما يلتزمه المسلمون.

ولكن الوهّابية: يُبيحون الاتّهام والقذف بالكفر للمسلمين، وحتى ضربهم وإهانتهم وسحبهم إلى مراكز التحقيق، وهتك حرماتهم، والتجهّم في وجوههم وتخويفهم، وحتّى الحكم عليهم بالقتل والاعدام والإخراج من البلد الحرام، بأحكام باطلة من علمائهم الجهّال، ومن المطاوعة الجفاة البدويين الأعراب! ومن الأُمراء والملوك الفَسَدة والعملاء لليهود والنصارى!

وأمّا قوله: (عند أهل العلم)!!

فالسؤال من هم أهل العلم؟ وما هو مبلغ علمهم؟ إنّ ذكره لابن تيمية نموذجاً لأهل العلم، وتسميته بشيخ الإسلام(!) يعني أنه عدّه منهم(!) لكن ابن تيمية لا يمكن أن يكون (حجّة) في مثل هذا الموضوع:

أوّلاً: لأنّه عدوٌ للشيعة، ولأهل البيت والأئمّة بالخصوص، كما يظهر من مجموع أعماله وعدم اعترافه بعلمهم وتراثهم. فليس يصحّ الاستشهاد بكلامه في حقّهم، لأنّه متّهم في ذلك.

ثانياً: إنّه غير حجّة ولا مقبول القول حتّى عند أهل السنّة، وقد انتقده شيخ المحدّثين في عصره ابن حجر العسقلاني في ما صنعه إزاء أحاديث فضائل أميرالمؤمنين عليه السلام حيث إنّ ابن تيمية كذّب كثيراً من الأحاديث الصحاح منها.

وكذلك ما قاله المحدّث ابن حجر الهيتمي المكّي عن ابن تيمية، حيث قال: إنّه عبد أضلّه الله.

فهل يبقى القفاري على التزامه بابن تيمية إماماً وشيخ إسلامه؟ ولكن اشتراك القفاري والسلفية مع ابن تيمية الحرّاني، في النصب والبغض لأهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله، جمعهم على هذا السبيل.

وأمّا الأمور التي خرج بها القفاري عن صلب البحث، وراح يلجأ إليها ليغطّي على فشله في إثبات مدّعاه حول مضامين الصحيفة، فنذكرها تباعاً، ونكشف زيف ما استند إليه منها:

قوله: (وقد تفرّد بنقلها الروافض، ولا حجّة في نقلهم).

نقول: قد كرّر القفاري هذا، في السابق، ويكرّرها فيما يلي، وهو كلام منقوض من جهات:

فأوّلاً: إنّ دعوى (تفرّدهم بنقل الصحيفة) مرفوضٌ قطعاً، حتّى عند ابن تيمية الذي هو حجّة عند القفاري، لأنّه ذكر أن علماء الكلام والوعاظ اعتمدوا على الصحيفة، ومعلومٌ أن الاعتماد عليها فرع نقلهم لها وقبولهم بها. وهؤلا الذين ذكرهم ابن تيمية هم من أهل السنّة بدليل ذكر ابن تيمية لهم واعتنائه بفعلهم.

وثانياً: إنّ في طرق الصحيفة كثيراً من رجال السنّة ورواتهم ومحدّثيهم، كما يعرف بالرجوع إلى أسانيدها، وجهل القفاري بهم لا يدلّ إلا على عدم معرفته للطرق والإجازات والأسانيد!

وثالثاً: إنّ لكل أهل مذهب رجالهم ورواتهم وطرقهم وأسانيدهم إلى تراث أئمتهم، وذلك الزخم الكبير من الرواة في الطرق الكثيرة إلى الصحيفة عند أعلام الشيعة ومحدّثيهم تتمّ بهم الحجّة عندهم، بل عند غيرهم لأنّ من يعلم حجّة على من لا يعلم.

وأما قوله: (ولا حجّة في نقلهم).

فهو أمر غير مقبول عند أهل العلم والمعرفة، لأنّ المنقول إذا كان أمراً صحيحاً عقلاً ومعروفاً شرعاً وهو من الحكمة والمصلحة، ولم يُعارض الشرع ولا السنّة ولا الكتاب، وقد أُسند إلى أئمّة أهل البيت عليهم السلام فهو خير ممّا ينسب إلى الحكماء والعقلاء والمصلحين، وأوجب في القول عند المسلمين.

والصحيفة تنتهي إلى الإمام زين العابدين عليه السلام برواية ولديه الإمام محمّد الباقر وزيد الشهيد عليه السلام بإملاء أبيهما عليهما ذلك ، وبحضور الإمام الصادق جعفر بن محمّدعليه السلام وسماعه منه.

والطرق الى هؤلاء متعدّدة، متضافرة، فمحاولة ردّها والإعراض عنها، بمجرد عدم معرفتها، أمر مستهجن وقبيح عند العقلاء والعلماء، والمؤمنين.

ومن لم يقنع بهذه الأسانيد، وبهؤلاء الأئمّة السادة، وعاندهم فهو ممّن يجعلون أصابعهم في آذانهم حذر سماع الحقّ، ويستكبرون من قبوله، فبعداً لهم، ولا تليق بالصحيفة المقدّسة أن يمسّوها، ولا كرامة.

والعجب ممّن يدّعي للعلم معرفة، وحفظ عنها شيئاً وغابت عنه أشياء، وهو يغفل عن أنّ لكل قومٍ طرقهم وأسانيدهم ورجالهم ومؤلّفاتهم وحججهم وبيّناتهم، وهي أوثق وأتقن وأنقى من طرق الآخرين، فلا يهمّهم جهل الآخرين بها وبما عندهم، ولا إنكار الجهلة علومهم ومعارفهم، فهم في علومهم منعّمون، ولأئمّتهم من أهل البيت النبوي تابعون، ولا يعتنون بنعيق المدبرين من أعداء آل محمّد ولا الضالّين الذين يحسبون أنّهم يحسنون الأسانيد وهم في طرقها يتيهون.

وإلا، فكيف ينكرون الصحيفة، وهذه أسانيد الصحيفة المتّصلة المسندة إلى صاحب الصحيفة، ممّا يفوق حدّ الاستفاضة في صدرها الأوّل، وحدّ التواتر في عصرها التالي، إلا إذا كانوا معاندين (صمّاً بكماً عمياً وهم لا يعقلون).

* ثمّ إنّ القفاري ـ التائه في قفار جهله وغبائه ـ ينتقل من نقد الصحيفة السجّادية نفسها، إلى انتقاد ما يرتبط بالصحيفة من عمل الباحثين عنها: نقلاً، وشرحاً، وتفسيراً، وطبعاً، ونشراً، وتوزيعاً، فيقول: (كما ادّعوا ـ في أوّلها ـ أنّها سِرّيّة التداول).

يشير إلى ما في مقدّمة (الصحيفة) من وصية الأئمّة الناقلين لها بحفظها عن أن تقع في أيدي الظلمة من حكّام عصورهم، لئلا يتلفوها، أو يحرقوها، كما حرقوا القرآن الكريم في الصدر الأوّل، أوّل القرون المفضّلة!

إنّ القفاري يسمّي هذه المحافظة على الصحيفة (سرّية التداول). وجعل هذا عيباً في الصحيفة نفسها؟ ثم أكّد على جهله بمعنى ما كان في صدر الصحيفة من التأكيد على حفظ الصحيفة، بقوله: (ومتى كان الدعاء لله سبحانه موضع التداول السرّي بين المسلمين، فضلاً عن حقبة القرون المفضّلة).

ومع أن القفاري يعترف ضمناً أن كتاب الصحيفة يحتوي على الدعاء لله سبحانه، فنقول له: ومتى كان الدعاء لله سبحانه وتعالى هكذا معرّضاً للاتّهام والتكذيب والقذف بالوضع، والمعارضة؟!

ونقول أيضاً: نعم، لّما كان قول الحقّ، ولو بلسان الدعاء لله سبحانه وتعالى، ومن أئمّة أهل البيت، معرّضاً للإبادة، ودعاته معرّضين للقتل وهتك الحرمات، ورواته متّهمين بالكذب و محكومين بالحبس والسجن، ورواياتها بالتضعيف والتحريق والإماثة في الماء والدفن، كما فعلوا بأحاديث الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وبرواتها من الصحابة في أوّل القرون المفضّلة! بأعذار واهية، وبحجج باطلة!

في ذلك الظرف كان العلم (موضع التداول السرّي)؟!

وهل ينسى التاريخ وقُرّاؤه عهد الحجّاج ـ الذي عاش في القرن الأوّل من القرون المفضّلة! ـ الذي ختم على صحابة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كي لا يحدّثوا الناس بأحاديث رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فهل كان في عهده ـ وهو معاصر للإمام السجّاد زين العابدين، صاحب الصحيفة السجّادية ـ أن يظهرها وهو كتاب فيه الدعاء لله سبحانه وتعالى؟ وهو من تأليف إمام من أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؟!

وإذا كانت الصحيفة في عصرنا الحاضر، هدفاً لشخص هزيل معوّق مثل

القفاري، وهو عصر تفتّحت فيه العقول وانتشرت فيه العلوم، أن يهجم عليها بكل ما يملك من ألفاظ نابية ويحاول أن يشوّه سمعتها ويكذبها ويخوّف الناس منها؟ فكيف في ذلك الزمان الذي كان أسلافه يملكون السيطرة على البلاد والعباد، ويعيثون في جميع الأشياء فساداً.

نعم، هي شهوة الانتقام من الرسول وأهل بيته، في القرون المفضّلة في أشخاصهم بالقتل والسجن والأسر والتعذيب والتهجير.

وفي هذه القرن المتحضّر المنوّر بالهجوم على تراثهم بالتهجين والتشويه والتكذيب وتخويف الناس من قراءته وتداوله! خوفاً من أن يميل القارئ للصحيفة ولغيرها ممّا يرتبط بأئمّة أهل البيت من العلوم والمعارف، حذراً من أن تميل قلوب الناس إليهم، فيلتزموا بآرائهم ويعتقدوا بإمامتهم! ولذلك ألّفوا كتاب (كتب حذّر العلماء منها)!

* والقفاري الذي مُلأ كيانه بالحقد على الشيعة وأئمّتهم، بالغ في الهذيان من شدّة غيظه، فهو في كلامه السابق ينعى ويئنُّ من ما نسبه إلى الشيعة من الدعوة إلى سرّية التداول للصحيفة، نراه في جملة أُخرى ينسب إلى الشيعة (محاولة تعظيم المكذوب [يعني: الصحيفة] وإشاعته).

ثمّ يضيف: (وهذا دين الفرق الباطنية في كثير من نصوصها وكتبها)!

فانظر ـ أيّها القارئ النبيه ـ كيف وقع القفاري الأهبل في التناقض، فهو في القول السابق ينعى (سرّية التداول) للصحيفة، وفي قوله هذا: يصرخ بمحاولة الشيعة (تعظيم الصحيفة وإشاعتها؟). ويصرّح في وريقاته هذه: مكرّراً بقوله: (في عصرنا نشط الروافض في نشرها وتوزيعها). ويقول: (وقد نشروها في هذا العصر بطبعات أنيقة).

فنقول: فأين سرّية التداول للصحيفة، إذن؟



* ثم يستمر القفاري في تجاوزاته، وتسطير ما يشوّه به صورة الصحيفة السجّادية في نظر القُرّاء، فيحاول إثارة وقحة، اقحم فيها ذكر اسم (القرآن الشريف) فيقول:

(وتعمّدوا إخراجها بصورةٍ تشابه في شكلها طبعات القرآن! لأنّ هذه الصحيفة في موازينهم شقيقة القرآن في القدسية والتعظيم، ولذا يسمّونها: (أخت القرآن) و(إنجيل أهل البيت) و(زبور آل محمّد).

نقول: لقد سبق في حديثنا عن مقدّمة المؤلف أن بيّنا غرض القفاري من إثارة مثل هذا الأمر، حيث ذكر القفاري عين هذا هناك.

فتحدّث عن (طباعة الصحيفة، بأشكال تشبه القرآن) وتسمية الصحيفة بتلك الأسماء، وقد ذكرنا أن إنزاله لاسم القرآن في هذا البحث، لهذا الغرض السيّئ هو نوع من الإهانة للقرآن، بهذه المقارنة المخزية. فاستخدامه لاسم القرآن الكريم وسيلة للتوصّل إلى الطعن في الصحيفة والحطّ عليها، عمل قبيح، يستهجنه من يؤمن بالله ورسوله وبكتابه. هذا ما فصّلناه سابقاً.

لكن ما أضافه القفاري هنا، هو استشهاده بكلام الشيخ محمّد جواد مغنية القاضي اللبناني حيث قال: الصحيفة السجّادية التي تعظّمها الشيعة، وتقدّس كل حرف منها).

فهل في هذا الكلام ربط للصحيفة بالقرآن الكريم أو تشبيهٌ به حتى يجعله القفاري شاهداً على ذلك؟ أليس كلّ كتاب ديني يحتوي على المناجاة مع الله تعالى أو الأدعية والأذكار، أو الحديث الشريف، يستحقّ التعظيم والقدسية؟ أليس أهل السنّة يعظّمون صحيح البخاري، ويقدّسونه، لكونه كتاباً للحديث، ويصرّحون بأنّه (أصحّ كتاب بعد كتاب الله)!؟ أليس هذا تعظيماً وتقديساً له، مقارناً بذكر اسم كتاب الله صريحاً؟

لكن القفاري لا يرى الجذع في عين مقدّسي كتاب البخاري الصحيح عنده، مع أنه تأليف إنسان من المحدّثين، ويرى القذى في كتاب الصحيفة التي رواها أئمّة أهل البيت!! وعين السخط، التي يحملها القفاري في رأسه، تبدي له كلّ شيء شيعي سيّئاً، وتبدي له المساوئ من غيرهم، أموراً حسنةً.

إنّ حقد القفاري على مذهب الشيعة، وغرضه السيّـئ الذي يغلي في قلبه، وهو التشهير بهم وإثارة الناس عليهم، يعمي عينيه، ويصمّ أُذنيه، ويكمّ فمه، ويجعل على عقله غشاوةً، فلا يفهم حتّى معنى الكلمة الواضحة للجميع.

إنّ تعظيم الصحيفة السجّادية لما فيها من المعارف الصالحة، والدلالات الرائعة، والمناجاة القدسية، والأدعية المؤثرة للتقوى والشوق في نفس كلّ مسلم عاقل خالٍ من الشبهة والتشكيكات، هي التي تجعل من الصحيفة كتاباً معظماً عند الناس الذين يقرأونه ويستوعبون ما فيه، ويقدّسونه لارتباطه بالله تعالى، الذي يوجب القرب إليه تعالى ذلك المقام الجليل الذي كان عليه صاحب الصحيفة الإمام السجّاد عليه السلام باعتراف أعلام المسلمين، كما سيقف القارئ على مقامه الشامخ في ذلك. وهذا سبب تقديس الشيعة للصحيفة السجّادية، لا ما يدّعيه القفاري من اتّهامه لهم، ومقارنة الصحيفة بالقرآن الكريم!

* ويدلّ على مدى فساد غرض القفاري، ما في كلامه إذ يقول:

(وقد اهتمّوا بشرحها، وذكر صاحب (الذريعة) أسماء هذه الشروح فوصلت إلى خمسة وستّين شرحاً).

وهذا كلام يدلّ على سفاهة قائله، حيث يستدلّ بكثرة شروح كتاب (الصحيفة السجّادية) على دعواه التي احتوت الإهانة بالقرآن. فهل شروح كتاب مّا، فضلاً عن كثرتها ـ فيها دلالة على ذلك الزعم؟ وهل في شروح كتاب مّا، خطراً على القرآن، ويدعو إلى اتّهام الشارحين بإرادة تشبيه الكتاب المشروح بالقرآن العظيم!

أليست كتب العلوم كلّها قد أُلّفت حولها الشروح، فهذا كتاب البخاري كم له من الشروح، وكتاب (الألفية) لابن مالك في النحو، له عشرات الشروح، وغير ذلك من كتب التراث.

وأمّا (الصحيفة السجّادية): فلأنّها مليئة بالعبارات البليغة والمواضيع الدينية المهمّة، والمعاني العميقة، والمطالب العالية، ممّا اقتضى أن يبيّن العلماء مغزاها، ومؤدّاها، ويشرحوها للطالبين ليتمتَعوا من معارفها من مختلف جهاتها، لما فيه من العلوم كاللغة والنحو والكلام والبلاغة والعرفان، وغير ذلك، فهي بحاجة ماسّة إلى الشرح والتفسير والتوضيح، كسائر كتب التراث الإسلامي.

ولكن هذا الأمر يعدّه القفاري (خطراً) ويعتبره عملاً يمسّ القرآن الكريم! والأعجب أنّه يستشهد لما تخيّله، بما ذكره الشيخ في (الذريعة) فقال:

(ومن الملفت للنظر(!) أنّ جملةً من هذه الشروح سلكت في أسلوب شرح الصحيفة طريقة المفسّرين، ولذا قال عنه صاحب (الذريعة): هو شرح مبسوط يشبه تفسير (مجمع البيان) في أسلوبه، حيث يذكر الدعاء أوّلاً، ثمّ اللغة، ثمّ الإعراب، ثم المعنى).

هكذا يستدلّ القفاري على ما قدّمه من الاتّهام على الشيعة! ومن الواضح للقرّاء الكرام أن هذا الدليل يدلّ على خلل في عقل القفاري وغبائه الذي جرّه إليه حقده وغيظه على الصحيفة السجّادية والملتزمين بها، فهو يتصوّر أنّ لتفسير القرآن أسلوباً خاصّاً، ليس لأحد أن يستعمله في شرح كتاب آخر.

ولو كان مرتبطاً بالعلوم وكتبها من المتون والشروح، لوجد أنّ للشرح أساليب عديدة متداولة عند العلماء فمنها الشرح المزجي، ومنها الشرح بـ (قال) و (أقول) ومنها الشرح بالتعليق على موارد النظر والخلاف، ومنه الشرح المذكور في كلام صاحب الذريعة.

وقد استعملت تفاسير القرآن الكريم، بجميع هذه الأساليب وغيرها، كما استعملت شروح المتون العلمية بها، وبغيرها.

فليس لتفسير القرآن الكريم أسلوب معيّن، كما ليس للصحيفة السجّادية، أسلوب واحد معيّن، وليس لاستعمال أسلوب واحد في التفسير للقرآن، وفي أي كتاب آخر دليلاً على إرادة شارح الكتاب الآخر التشبّه بتفسير القرآن.

ولعلّ الذي هيّج القفاري هي كلمة (تفسير مجمع البيان)! لكنّه لجهله وغبائه، لم ينتبه إلى أن المسلمين ـ عموماً ـ يطلقون على ما يرتبط بالقرآن الكريم اسم (التفسير) ويُطلقون على غيره (اسم الشرح)! ألا يكيفيه هذا، لينتبه إلى فشل استدلاله، وفساد غرضه.

فما معنى أن يجعل سلوك بعض شرّاح الصحيفة السجّادية، أسلوب بعض التفاسير، دليلاً على غرضه الفاسد من اتّهامه الشيعة بتشبيه الصحيفة بالقرآن الكريم؟! إنّ مثل هذا التصرّف لا يصدر عن عالم بالتراث، إلا من غريق يتشبث بكل حشيش هشٍّ، ليتوصّل إلى إيحاءاته السخيفة والمغرضة والشيطانية إلى القرّاء، بقصد إغرائهم ضد الشيعة، وضدّ الصحيفة السجّادية.

* لكن ما يقوم به القفاري من هذه التصرّفات المفضوحة والباطلة هو تمهيدٌ منه ليتوصّل إلى اتّهام أشدّ وأخزى، وهو ما ذكره بقوله:

(وأشار بعض الشرّاح إلى أنّها من الوحي المنزّل، حيث ذكر أن الله جعل الدعاء بهذه الصحيفة، فقال: (الحمدلله الذي جعل الدعاء في الصحيفة الكاملة زين العابدين، وحثّنا بالاحتذاء في مراسمه بإمام الساجدين).

هكذا اقتصر القفاري على هذا المقطع من الشرح المذكور، واستوحى منه (غرضه) وهو أنّ الشارح نسب إلى الله ـ جلّ وعزّ ـ أنّه جعل الدعاء في كتاب الصحيفة الكاملة، وأنّ الله حثّ على الاقتداء بالإمام زين العابدين.



فهو فسّر كلمة (الصحيفة الكاملة) بالصحيفة السجّادية! وفسّر (زين العابدين) بالإمام عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام الذي يقال له أيضاً: سيّد الساجدين! لكنّه أخطأ في كلّ ذلك، لجهله، وبُعده عن اللغة العربية وآدابها. وعن علوم البلاغة وبديعها، وإليك توضيح ذلك:

١ ـ إنّ العبارة المذكورة هي بداية الشرح الفارسي للصحيفة السجّادية للشارح المسمّى (قاضي بن كاشف الدين اليزدي [١٠٠١ ـ ١٠٧٤هـ])، وقد حقّقه المحقق البارع الشيخ علي الفاضلي، وطبع في قمّ.

واسم الشرح (تحفة رضوية) وهو ترجمة لشرح كتبه الشارح نفسه بالعربية، وطبع بجهد المحقّق المذكور بعنوان (التحفة الرضوية للصحيفة السجّادية) سنة (١٤٣٠هـ) في قم أيضاً.

٢ ـ إنّ الشارح ابتدأ شرحه الفارسي بالحمدلله، واستعمل في كلامه الألفاظ المذكورة، بمعاني تدلّ عليها بوضعها اللغوي، لا بمدلولها الوضعي المصطلح الذي وضع لاسم الكتاب، ولقب الإمام.

وهذا الأسلوب يستعمله العلماء في مقدّمات الكتب، لكون الألفاظ المذكورة، تحتوي اشتراكاً لفظياً مع ما يرد في متن الكتاب من المعاني الوضعية والاصطلاحات العلمية.

ويسمّى هذا في علم البلاغة بـ(براعة الاستهلال) لأنّ المصنّف للكتاب يستهلّ كتابه ويفتتحه بألفاظ بمعناها اللغوي، لكنّها تشترك في ظاهرها مع الألفاظ الواردة في العلم بمعانيها المصطلحة في ذلك العلم.

لكن الجاهل بهذه البديعة البلاغية، يتوهّم في إطلاق هذه الألفاظ ويحملها على المعاني الوضعية والاصطلاحية، فلا يفهم مراد الكاتب والمؤلّف، ويختلط عليه الأمر، كما هو الحال عند القفاري.

٣ ـ فالشارح المذكور أراد بقوله: (الصحيفة الكاملة) هو الكتاب الذي يحمله كلّ إنسان يوم القيامة، ويجد فيه تسجيل كلّ ما عمله في الدنيا كاملا، ويُقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾[٩].

فكلّ يؤتى كتابه بيده: فمن أُوتي كتابه بيمينه قال الله عنه: ﴿**أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُا كِتَابِيَهْ**﴾[١٠]. و/ ، أوتي كتابه بشماله قال عنه : ﴿ **وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ**﴾[١١].

ذلك الكتاب الذي عيّن له الباري تعالى كُتّاباً ذكرهم الله بقوله : ﴿ **إنّ عَلَيْكُم لَـحَافِظِيْنَ كِرَاماً كَاتِبِيْنَ يَعْلَمُوْنَ مَا تَفْعَلُوْنَ** ﴾[١٢].

والكتب هي (الصُحف المنشّرة) يوم القيامة كما قال : ﴿**وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ**﴾[١٣]. و واحدها (الصحيفة) وهي (كاملة) لأنّها الكتاب الذي ﴿**لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا**﴾[١٤].

فإذن قول الشارح: (في الصحيفة الكاملة) مراده صحيفة الأعمال التي تخصّنا، ونؤتاها يوم القيامة وهي كاملة تحتوي على جميع ما كتبته الملائكة الكتّاب.

ومراده بقوله (زين العابدين) هو أن الله جعل ذلك زينة لمن يعبده من عباده.

وقوله: (إمام الساجدين) يريد به النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وآله. ولا ربط لهذا الكلام كلّه بصحيفة الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام إلا بنحو التصوّر اللفظي الذي هو مفاد الأسلوب البديعي المسمّى (براعة الاستهلال) كما شرحنا.

٤ ـ ومع وضوح ذلك للعربي الذي يعرف العربية وأساليبها، فهناك دليل عيني على ما ذكرنا، وهو ما ذكره الشارح المذكور في شرحه العربي، وهذا نصّه:

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد يا مَن وشّحت مفتتح الصحيفة الكاملة لطاعات أعمالنا، بانخراطنا في الفرقة العليّة الإماميّة الاثني عشريّة. وجعلت زين العابدين والساجدين الصلاة على

صفيّك من ختمت له السفارة[١٥]...

أقول: فقد صرّح بأنّ مراده بـ(الصحيفة الكاملة) هي صحيفة الأعمال. وأوضح أنّ الله جعل الصلاة على النبي الصفي الخاتم صلى الله عليه وآله زيناً للعابدين والساجدين. وهذا هو مراده في عبارته المذكورة في شرحه الفارسي، الذي هو ترجمة لهذا الشرح العربي[١٦].

فانظر، أيّها القارئ الكريم، كيف أنّ القفاري، الجاهل بكل ما ذكرنا، والمعتمد في دينه وأحكامه، واتّهاماته للآخرين، على سوء فهمه والتزامه باللفظيّة الظاهريّة من اللغة العربية الجميلة الرائعة، المليئة بالبديع يتحامل لجهله على التراث والصحيفة والشيعة.

والأفضح أنّ القفاري جعل تلك العبارة دليلا على دعواه أنّ الشيعة يجعلون (الصحيفة السجّادية) وَحْياً!! ولكن أيّة كلمةٍ تدلّ على هذه الدعوى؟ في العبارة المذكورة؟

وحسب فهم القفاري ـ إن كان له فهم ـ ووفق ما توهّم وتخيّل:

إذا كان الشارح المذكور حمد الله على أن الله قدّر لنا وجود (الصحيفة السجّادية) على لسان الإمام زين العابدين وسيّد الساجدين، كي يتلوه المؤمنون، ويتقرّبون بمعانيه الطيّبة إلى الله ربّ العالمين، لصدوره من إمام من أهل البيت النبوي الطاهر، والمعترف بزهده وعلمه وفضله عند جميع المسلمين، المعلوم أن إنشاءه خير من إنشاء الشخص العادي لنفسه، فماذا في اتّخاذ الإمام قدوةً وأُسوةً لمعرفته وتقواه من مأخذ يطلبه القفاري؟

وهل في عمل مَن يقتدي بالإمام الصالح في قراءة الدعاء، ما يؤاخذ به المسلم الداعي، ويتّهم بتلك التهم الباطلة القاسية؟!

وبالرغم من أنّ القفاري وهو يدّعي لنفسه مقام الحكم على الآخرين، يجب عليه أن يدقّق في قراءة ما يريد الاعتراض عليه، ولا يدخل في استنباط الباطل المؤدّي

إلى تكفير الآخرين بسوء فهمه، فهو لم يُتعب نفسه لأي جُهد، ويقول بكل وقاحة: (لا نحتاج لتقرير هذا الأمر، عند هذه الطائفة، إلى الاستنباط من هذه الكلمات).

كيف ـ يا قفاري ـ وأنت تحاول بإيرادك لهذه الكلمات أن تنسب إلى هذه الطائفة أنّها تقول بأنّ (الصحيفة السجّادية) (وحيٌ) إلهي! وفي هذا افتراء على الله؟ وأنت لا تفهم معنى تلك الكلمات، وتتّهم هذه الطائفة هكذا؟! وهل أنت مَنْ يقدر على الاستنباط؟ وهل تعرف معنى الاستنباط؟ وأنت لا تعرف معنى مفردات اللغة.

وأخيراً نقول للقفاري: إذا كانت هذه الكلمات لا تؤدّي ما تقصده، فلماذا أوردتها ؟ وطوّلت الكلام حولها؟ نعم، إنّه يقصد بإيراد هذا، أمراً آخر أشدّ وأوغل في الكذب والدجل، والهجوم على الطائفة المظلومة، فهو يمهّد بهذا الكلام الذي تبيّن زيفه وبطلانه، إلى ما سيدخل فيه ممّا لا يرتبط بالصحيفة ولا بالإمام السجّاد عليه السلام نفسه، ويحاول أن يجرّ الكلام إلى ما في نفسه من الروح التكفيرية.

* وهو الذي طالما يلوكه السلفيّون التكفيريّون وأذنابهم الوهّابيون من الكذب والبهتان، ليشوّهوا سمعة الشيعة، ومن ذلك ما ذكره بقوله:

(إنّهم يصرّحون في كتبهم بتنزيل كتب إلهية على الأئمّة! كما يقولون: إنّ الوحي ينزل عليهم، والملائكة تأتيهم.

ثم يقول: (والصحيفة السجّادية هي لأحد هؤلاء الأئمّة الّذين قالوا فيهم هذه الأقوال).

ونحن نوجّه القارئ المنصف إلى كلامه هذا، كيف أنّه ذكر أمرين، ورتّب عليهما ثالثاً:

فهو ذكر أوّلاً: تنزل كتب إلهية على الأئمة!

وذكر ثانياً: نزول الوحي عليهم، والملائكة تأتيهم!

ورتّب على هذين أمراً ثالثاً: هو: أنّ الصحيفة السجّادية هي لواحد من هؤلاء.

ويريد أن يستنتج : أنّ الصحيفة السجّادية وحيٌ إلهيّ!!

فنقول: لو فُرِض ـ حسب زعمه ـ دعوى الأمرين الأوّلين (الأوّل والثاني) فهل يستلزمان الأمر الثالث، وكيف يرتّب هذا الثالث، على الأمرين الأوّلين، أليست هذه دعوى بلا بيّنة ولا برهان؟!

وإنّما يريد القفاري أن يغرّر القارئ، ويلقّنه هذه النتيجة ويفرض عليه الالتزام بها، بينما لا يترتّب هذا على الأمرين المذكورين، ولهذا لم يجد القول بهذا في أي موردٍ، ولا من أيّ قائل، بالنسبة إلى (الصحيفة السجّادية) التي هي موضوع وريقاته هذه.

مع أنّ الأمرين المذكورين كليهما غير دالّين على ما يريد، من اتّهام الشيعة بكون ما عند الأئمّة هو (وحيٌ إلهيّ بالمعنى المعروف للوحي) وهو: ما يُرسله الله إلى الأنبياء والرسل وثبتت لهم النبوّة والرسالة الإلهية.

بل كلمة (الوحي) ومشتقاتها لها في اللغة العربية، معانٍ أُخرى وتطلق على ما لا يرتبط بالنبوّة، وقد ورد بهذه المعاني في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى**﴾[17]. وقال: ﴿**وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ**﴾[18].

فهل تحقّق بهذا الوحي الرسالة لأمّ موسى أو النبوة للنحل ؟

بل الوحي في اللغة هو الإشارة السريعة، ويكون على سبيل الرمز والتعريض أو التنبيه والإشارة بالأعضاء، أو بالكتابة، وغير ذلك، ومنه نوع خاصّ بالأنبياء والرّسل. ولا يمكن أن يتصوّر ذلك الخاص بالأنبياء في حقّ غيرهم حتّى الأئمّة. فكيف يحقّ لأحدٍ أن يتّهم المسلمين المؤمنين بالله ورسوله بدعوى الوحي النبوي لغيره.

إنّ القفاري والسلفية بتخيّلهم هذا الأمر الباطل، يكشفون عن جهلهم حتّى بلغة العرب، وبكلام الله، وبمعنى الأحاديث، كما أنّهم يكشفون عن أغراضهم الفاسدة في إثارة البغضاء بين الأمّة بتكفير طائفة كبيرة بهذه الأساليب الباطلة الفاشلة المخزية.

والقفاري أبدى صفحته للحقّ، وفضح نفسه، وكشف حقده على أئمّة أهل البيت وشيعتهم بمحاولاته اليائسة، بتحويط القارئ بمزيد من مزاعمه وترّهاته، فهو يقول: كما يقولون بنزول : (مصحف (!) يسمّونه مصحف فاطمة).

فقد استعمل اسم (مصحف) الذي يُطلقه عامّة المسلمين على القرآن لكثرة استعماله فيه، واستخدمه لإثارة تهمة أُخرى على الشيعة، لأنّهم عبّروا عن كتاب مرويّ في تراثهم باسم (مصحف فاطمة)!

ليظهر للناس : أنّ الشيعة يزعمون أنّ لفاطمة قرآناً آخر! وبذلك يتوصّل إلى غرضه الفاسد، بتكفير الشيعة!

لكن كلّ عارف بلغة العرب يعلم أنّ كلمة (مُصحَف) إنّما تطلق على كلّ مجموعة من الصفحات والأوراق، تضمّها دفّتان، يُسمّى (المصحف) كما يسمّى الكتاب، ولا يختص هذا الاسم بالقرآن الكريم، وإن كان شايعاً إطلاقه عليه عند المسلمين.

فمصحف فاطمة، هو كتاب أضيف إليها لاختصاصه بها، وهو مجموعة أحاديث، وكذلك (لوح فاطمة) الذي يحتوي على رواية لها. لكن القفاري، بعد أن أثار القارئ، باسم (مصحف فاطمة) عطف عليه قوله: (وآخر يسمُونه لوح فاطمة).

ونقول: فما في هذين الكتابين من الإشكال، حتّى يورده القفاري؟ فإذا كان واقع الأمر وجود كتابين (باسم مصحف، وباسم لوح) منسوبين إلى فاطمة بنت الرسول عليها السلام ، فأيّة حزازة في ذلك؟ حتّى يريد القفاري أن يوردهما في إطار اتّهامه للشيعة وأئمّتهم بادّعاء نزول الوحي عليهم؟!!

نعم، هذا هو هدفه، لأنّه ذكر بعد هذين الكتابين قوله: (وقالوا أيضاً بنزول اثني عشر صحيفة من السّماء تتضمّن صفات الأئمّة).



وهكذا يتدرّج القفاري في تكديس الدعاوي في عقل القارئ بما يملؤه باتّهاماته، ولا يدع مجالاً للتفكير وتقليب الأمور، ومقارنتها ببعضها والتأمّل في صدقها وكذبها، أو معرفة معناها.

وأمّا حقيقة هذه الأمور التي ذكرها: من مصحف فاطمة، ولوح فاطمة، والصحيفة، فهي أحاديث تحتوي على مضامين من قبيل ما يسمّى في علوم الحديث (بالأحاديث القُدسية) التي تحتوي على كلماتٍ وجمل ومنقولات منسوبة إلى البارئ تعالى، من دون أن تكون وحياً أو قرآناً، بل ولا يدّعي راويها النبوّة والرسالة، وليس فيها ما يخالف حكماً شرعياً، ولا أصلاً عقائدياً، ولا أمراً مخالفاً، ولا دعوى بالإعجاز، وأنّما هي مجموعة مواعظ وإرشادات.

وهي ملحقة بالحديث في اعتبارها لو تمّت أسانيدها عند أهل الحديث، ولم يتّهم ناقلوها ورواتها بادّعاء الوحي ونزوله، وغير ذلك ممّا يحاول القفاري والسلفية توجيهه إلى الشيعة من التّهم.

* نعم، إنّ القفاري إنّما ذكر هذه القضايا والأُمور، بغرض خبيث وهو الهجوم على الشيعة وأئمّتهم، وتمهيداً لقوله الأخير: (وكلّ قول للأئمّة فهو كقول الله ورسوله، عندهم). ويضيف إلى ذلك نقلاً عن الشيخ ابن بابويه، المحدث الشيعي، قوله: (قولهم: قول الله، وأمرهم أمر الله، وطاعتهم طاعة الله، ومعصيتهم معصية الله، وأنّهم لم ينطقوا إلا عن الله تعالى وعن وحيه).

نقول: فهل في هذا تصريحٌ بأن قول الأئمّة (وحيٌ إلهي إليهم بأنّهم أنبياء)؟! وهل في كلّ هذا الكلام المنقول تعبير عن أن كلام الأئمّة هو من الوحي؟ حتّى يورده القفاري شاهداً لدعواه؟! مع أنّ في نهاية قوله: (إنّهم لم ينطقوا إلا عن الله تعالى وعن وحيه)!

أليس القرآن الكريم هو وحي الله إلى نبيّنا، فإذا كان كلام الأئمّة نقلاً عن وحي الله، فهل هذا شيء يُثير القفاري، ويزعمه باطلاً وداعياً إلى هذه الضجّة؟!!

نعم، إنّ الأئمة عليهم السلام عبادٌ مكرمون، لا يتجاوزون أوامر الله ولا يقربون نواهيه، وهم يعملون بأوامره، ويتركون نواهيه، ويأمرون بما أمر الله، وينهون عمّا نهى عنه، ومن أطاعهم فهو مطيع لله لأنّهم هم المطيعون لله، فالاقتداء بهم يؤدّي إلى تطبيق طاعة الله، وهم السبيل إلى معرفة كيفية طاعة الله، وكذلك من عصاهم يكون عاصياً لله، لأنّهم لا يعصون الله، ومن طريقهم تعرف أحكام الله، لأنّهم العالمون بها، و هم المطّلعون بما أراد الله في قرآنه، وبما أنّهم يعرفون الحقّ الذي أراده الله؛ فالاقتداء بهم مؤدّي إلى الوصول إلى الحقّ الذي أراده الله.

وهذا هو شأن كلّ العلماء الذين عرفوا دين الله وأحكامه، وعلى المسلمين اتّباعهم والأخذ منهم. فما في هذا من الحزازة، حتى يعدّه القفاري الجاهل دليلاً على ما في قلبه الأسود، وعقله العفن، من ادّعاء أنّ الأئمّة يدّعون الوحي؟!

والأئمّة عليهم السلام هم علماء الأمّة، باعتراف جميع المسلمين، والشيعة التزموا بإمامتهم، فمنهم يأخذون أحكام الشريعة التي هي من الله، وهم لا ينطقون إلا اطاعة لأوامر الله، ومعصيتهم معصية لنواهي الله، وهم الأتقياء الذين لا يلتزمون بغير ما جعل الله حجّة، وهو القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ولا يأخذون دينهم بالرأي والظنّ، ولا يقلّدون غيرهم من أهل القياس والرأي والبدعة، بل حديثهم مسند عن حديث جدّهم رسول الله وهو من وحي الله ورسالته.

فما في هذا كلّه من الخلاف، حتّى يهوّله القفاري، ويشوّه به مقام الأئمّة وشيعتهم، ويتّهمهم، بقوله: (وأصل ذلك أنّ الأئمّة يوحى إليهم، عندهم، كما جاء التصريح بذلك في عشراتٍ من الروايات).

إنّ القفاري بعمله هذا يدل على أنّه لا يخاف الله، فهو بكلّ وقاحة، يكرّر التّهمة، وبعبارات مختلفة، حتى يغرز مراده في فكر قرّائه، عملاً بنصيحة الإنجليز، حيث قال أحدهم: (اكذب، ثمّ اكذب، ثمّ اكذب، حتّى يصدّقك الناس) وهكذا يفعل القفاري في وريقاته هذه.

وهو يقصد بالوحي، ما ينزل على الأنبياء ممّا يدلّ على نبوّتهم بذلك، وهذه مغالطة منه، وتمويهٌ وتشبيهٌ على القرّاء، فقد عرفت أنّ الوحي لغةً لا يختصّ بالأنبياء، وهو واضح عند مَن يعرف لغة العرب، كما هو وارد في القرآن أيضاً.

* وأمّا (الروايات التي زعم التصريح فيها بما يدّعي، فقد ذكر موردها فقال: (ضمن أبواب تمثّل عناوينها أصول وقواعد النحلة، منها بابٌ عقده صاحب الكافي، بعنوان (إنّ الأئمّة تدخل الملائكة بيوتهم، وتطأ بُسُطهم، وتأتيهم الأخبار عليهم السلام).

يدّعي القفاري: (إنّ الأئمّة يُوحى ليهم، كما جاء التصريح بذلك في عشرات الروايات). ثمّ يأتي بعنوان هذا الباب مثالاً لتلك الروايات.

فالسؤال المطروح هنا: هل في هذا الباب والعنوان، ذكر عن (الوحي) ولو بالإشارة، فضلاً عن التصريح؟! ومع ذلك، ماذا يريب القفاري في هذا العنوان؟!! هل في (نزول الملائكة) ما لا يعجب القفاري، ويعدّه أمراً مخالفاً لعقيدته ونحلته، ولهذا ينسبه إلى نحلة الشيعة؟!

أليس، هو الله تعالى قد نشر الملائكة في السماوات والأرضين، ووزّعهم لما يُريد، كما تدلّ له الأحاديث المتضافرة؟! أليس، من اليقين، أنّ الله جعل الرقيب والعتيد، وكلاهما من الملائكة الموكّلين على كلّ فرد من الناس، يكتبان حسناته وسيّئاته؟!!

أليس، في القرآن صريحاً أن في ليلة القدر: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِن كُلِّ أَمْرٍ* سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[19]؟!

فماذا يريب القفاري من نزول الملائكة إلى الأرض، ويستنكره؟!!

وأمّا نزول الملائكة إلى بيوت الأئمّة عليهم السلام من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله، فقد وردت به الأحاديث، في زمن الرسول، ومن بعده في أحاديث أهل البيت عليهم السلام وتواترت به أخبارهم ونصوصهم ـ طبعاً من دون ادّعاء الوحي بالمعنى الذي يفرضه القفاري ـ.

ونحن الشيعة نصدّق الائمة على ما يخبرون، لأنّهم الصادقون المطهّرون؟ وليس في دعواهم ما يُنافي أو يخالف أصلاً من العقيدة أو فرعا من الشريعة، أو معارضاً لدليل من الأدلّة المعتبرة. ولماذا يستكثر ذلك عليهم، وذلك من ﴿فَضْلُ اللهِّ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [٢٠].

وليس في شيء من ذلك ذكرٌ للوحي، الذي يدّعيه القفاري؟

فكيف يستدلّ بهذه الأمور على ما يدّعيه ؟! ويقرّره بأن (أصل ذلك أنّ الأئمّة يوحى إليهم)؟! لولا أن الدجل والخبث ونصب العداء لآل محمّد عليهم السلام هو الداعي للقفاري إلى تلفيق الأكاذيب، ومحاولة تلقين أذنابه السلفية باتهاماته الباطلة.

* ويستمرّ القفاري في ذكر ما يتخيّله دليلاً على أكاذيبه فيقول: بعد كلامه السابق، عن الروايات التي ذكرها عن الشيعة:

(ثم تتحدّث أخبارهم عن أنواع (الوحي) للإمام، فيقول على لسان (جعفرهم!!): وإنّ منّا لَمن ينكث في أذنه، وإنّ منّا لَمن يؤتى في منامه، وإنّ منّا لَمن يسمع صوت السلسلة على الطشت، وإنّ منّا لَمن يأتيه صورةٌ أعظم من جبرائيل وميكائيل).

وفي هذا المقطع من كلام القفاري أمورٌ، ننبّه القارئ الكريم عليها:

أوّلاً: عبّر القفاري عن هذا الحديث بقوله: (أنواع الوحي للإمام) وهذا كلام من القفاري نفسه، ولم يرد في الحديث اسم الوحي.

ثمّ إنّ كلمة (الوحي) كما ذكرنا سابقاً له إطلاقٌ هو المصطلح عند المسلمين، وهو المضاف إلى اسم الجلالة، فيقال (أوحى الله) أو هذا (وحيٌ من الله) وهذا يختصّ بالأنبياء، باتّفاق المسلمين.

وقد صرّح أعلامهم بأنّ من ادّعاه لغير الأنبياء، فهو كافر.

ولكن (الوحي) في المعنى الآخر، يطلق على ما يكون لغير الأنبياء، كما أطلق على ما كان لأُمّ موسى، وللنحل، بنصّ القرآن، والمراد به الإيحاء إليهم، وتذكيرهم، وتنبيههم إلى أمرٍ، وقد سبق منّا هذا الكلام.

وليس في ما نقله القفاري من الرواية، اسم الوحي، ولا ينسبه إلى الإمام، وإنّما في نصّها: (أنّ منّا لمن ينكث في أذنه... الخ) وهي أمورٌ قد تحصل لأولياء الله، ومن شاء الله أن يُطلعهم على أمر، ممّن ارتضاهم وأيّدهم بنصره، ولم يدّع أحد منهم أنّه يُوحى إليه، نعم، هو فضلٌ ورحمة وهداية يطلبها كلّ مَن يؤمن بالغيب، ويؤمن بقدرة الله على كلّ شيء، وهم عبادالله الصالحون المخلَصون، وأهل البيت النبوي الشريف من خيار عباده، والأئمّة الاثنا عشر عليهم السلام من أشرف أوليائه وأكرمهم وأولاهم بكلّ تلك العنايات الربّانية.

فما في هذا، من الحزازة، أو ما يستنكر؟! لكن القفاري يحاول ـ كما هو عادته وديدنه ودينه ـ أن يفسّر الرواية على مذاقه وغرضه، فيضيف كلمة (الوحي للإمام) ويتّهم الشيعة، بقوله: (وهم بهذا أعطوا الأئمّة معنى النبوّة دون اسمها).

وهذا زورٌ من القول، وبهتانٌ عظيم، يأباه ذو القلب السليم، ولا يتصوّره مَن يؤمن بالله ورسوله، ويعرف الأئمّة الاثني عشر من أهل البيت، وبالخصوص الإمام جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ! والذي اعترف بفضله وشرفه وعظمته وعلمه، كلّ المسلمين حتّى سلف القفاري وأئمّته مثل الذهبي وغيره.

لكن القفاري، لنصبه وحقده وعدائه لآل محمّد، يسعى في الحطّ من مقام آل محمّد وشيعتهم، فلا يحترمهم حتّى في ذكر الاسم، فيقول عنه (جعفرهم)!

* ومن سخافات القفاري في كلامه حول هذه الرواية أنّه قد علّق عليها بقوله: (... كأنّهم من خلال دعواهم : أنّ الأئمّة مَن يأتيه أعظم من جبرائيل أرفع من مقام سيّد ولد آدمُ الذي لا يأتيه سوى جبرئيل)!

فترى أنّ القفاري بتر الحديث المذكور، واقتصر على ذكر اسم (جبرائيل) ليركّز في ذهن القارئ أنّ الحديث يدور حول (الوحي) لكون جبرائيل عليه السلام هو ملك الوحي على النبي صلى الله عليه وآله !

لكن الحديث يحتوي على ذكر (جبرائيل وميكائيل) معا.ووجود اسم ميكائيل يدل على أن الكلام ليس من الوحي لأن ميكائيل لا علاقة له بالوحي.

والقفاري تغافل عن أنّ الرواية تحتوي على أنّ الذي ذكر في الحديث ملك آخر غير (جبرائيل وميكائيل) فالحديث ـ إذن ـ لا يرتبط بالوحي الإلهي المشهور والخاصّ بالأنبياء وبكلام الله لرسله!!

لكن القفاري بعيد عن كلّ ما يدلّ عليه الحديث، وإنّما يهمّه أن يربطه بما في قلبه الأسود من اتّهام الأئمة وحديثهم وشيعتهم! وقد أفضع في السخافة، حيث ركّز على جملة (أعظم من جبرائيل) الوارد في نهاية الحديث، وقال: (كأنّهم من خلال دعواهم (... أعظم من جبرائيل...) أرفع من مقام سيّد ولد آدم الذي لا يأتيه سوى جبرائيل).

ومع غض النظر عن الخلل في عبارته هذه، فإنّ الذي هاله من كلمة (أعظم من جبرائيل) هو كون الملك الوارد في الحديث هو ذكر (ميكائيل) مع (جبرائيل) فتصوّر في خياله أنّ الحديث يحتوي على ذكر هذين الملكين بالنسبة إلى الأئمّة، مع أنّ الذي ينزل على النبي صلى الله عليه وآله هو واحد منهما وهو (جبرائيل) فقط!

فقد هال القفاري هذا، وتصوّر أنّ المقام يزداد رفعةً بكثرة الملائكة، وأنّ نزول الإثنين يدلّ على مقام أرفع من نزول الواحد! وهذا من ضحالة رأي القفاري وجهله، كما هو شأن الأطفال الذين ينظرون إلى العدد والكمّ، في تقدير الأمور وتمييز أهمّيتها. أفهل نزول ملك آخر مع جبرائيل ينقص من مقام جبرائيل وحده، أو يزيد من مقام من أتى مع جبرائيل؟.

ثمّ إنّ القفاري في هذا الاعتراض بدأ بقوله: (كأنّهم) وهذه كلمة تدلّ على أنّه يتمثّل أمامه شيءيتخيله؟ وليس واقعاً يلمسه، أو يدل عليه كلام خصمه!

وهكذا، وبهذه التخيّلات يحكم القفاري في مثل هذا المقام الحاوي على اتّهام طائفة من المسلمين، وتشويه سمعتهم، ودعوى أنّهم (أعطوا الأئمّة معنى النبوّة، دون اسمها).

ومن العجيب أنّه يعدّ كلّ هذا الذي سطّره من الزيف والخيال (استنباطاً) فيقول: (ومالنا (!) نتكلّف الاستنباط)؟! فتبّاً لكم، وتعساً لاستنباطكم، وخزياً لما استنبطتموه!

ثمّ إن قوله: (... سيّد ولد آدم، الذي لا يأتيه سوى جبرائيل).

هذا قول غير صحيح، فإنّ جبرائيل عليه السلام كان خاصّاً بإنزال الوحي وهو القرآن الكريم، على قلب الرسول. لكن غير جبرائيل من الملائكة المقرّبين، قد نزلوا عليه كما وردت بذلك الأحاديث الشريفة، ومن الواضح لكلّ ذي عين وعقل أنّ ملك الموت عزرائيل عليه السلام نزل عليه لقبض روحه صلى الله عليه وآله [(٢١)].

وأمّا حديث نزول الملائكة إلى أئمّة أهل البيت عليهم السلام ، فله شأن آخر، لا ربط له بالوحي (المصطلح) ولا يدور مداره، كما لا ربط لذلك بالصحيفة السجّادية الذي هو موضوع كتابه ووريقاته! إلا أنّه ذكر ذلك، تهويلاً للأمر بزيادة هذه الدعاوي وتكرارها، لحاجة خبيثه في نفسه.

ثمّ إنّه ـ بعد أن صرّح بكون ما ذكره (استنباطاً) له يدلّ على أنّه ليس تصريحاً من اللفظ والنصّ، يقول: وقد قالوها صراحة، فقرّوا بّانه من ضرورات مذهبهم: (أن لأئمّته مقاماً لا يبلغه ملك مقرّب ولا نبي مرسل). هكذا نسب هذا إلى عموم الشيعة، لكنّه قال في نهاية كلامه: (وهذا مذهب غُلاة الروافض).

فنقول: مع قطع النظر عن معنى هذا الحديث، وماهو المراد من (المقام) في

سياق الكلام الذي ورد فيه الحديث. وهذا أمر لا يمكن الحكم عليه من دون الفحص عن القرائن التي حفّت به. فإنّ القفاري يعترف بأنّ هذا الكلام ـ حسب ظاهره ـ إنّما هو (من مذهب غُلاة الروافض).

إذن، فلماذا ـ يا قفاري ـ تؤاخذ جميع الشيعة! بما تفهم أنت من الكلام؟!! وأنت تعلم أنّ الغُلاة، مرفوضون عند عموم الشيعة، وأنّهم يحكمون عليهم بالخروج من الإسلام! ومع علمه بأنّ ذلك الكلام ليس لعموم الشيعة، فمع ذلك يؤكّد على تعميمه ويرتّب عليه قوله: (ولذلك(!) لم يَعُد هناك فرق ـ في موازينهم ـ بين قول الأئمّة، وقول رسول الله صلى الله عليه وآله، وقول الله).

فمع اعترافه بأنّ ذلك الكلام هو من خصوص الغلاة، نراه يعمّمه على جميع الشيعة. وقد أطال الادّعاء بعدم الفرق بين (قول الأئمّة، وبين قول الرسول وقول الله) وتجاوز في الإتّهام، فقال: (ولذا قالوا: يجوز لمن سمع حديثاً عن أبي عبدالله، أن يرويه عن أبيه، أو عن أحد أجداده، بل يجوز أن يقول: قال الله تعالى).

أُنظر: كيف يخلط الحقّ المرويّ عن الأئمّة من أهل البيت، بما يراه من الباطل.

أمّا رواية أحد الأئمّة عليهم السلام عن آبائه وأجداده، فأمرٌ لا ريب فيه، فهم يتوارثون العلوم ويتناقلونه عن آبائهم بإسناد متّصل مسندٍ، معروف بسلسلة الأبناء عن الآباء، وهو من أفضل الأسانيد وأصدقها حتّى عُرف بسلسلة الذهب، وهو أصدق وأصحّ من رواية الرواة عن الغرباء.

وقد صرّحوا عليهم السلام فقال كلّ واحد منهم: (حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث رسول الله صلى الله عليه وآله ...).

فهل في هذا ما يُعيب؟ حتّى يشكل عليه القفاري! ويسندوه إليه، مرفوعاً، ويحذفون الأسانيد الوسائط، فيقولون: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله) وهذا أمر متداول، وليس فيه ريبٌ ولا على قائليه عيبٌ، ولكن القفاري يجعله محلاً للنقد إذا كان صادراً

من أئمّة أهل البيت؟!

وإنّما يلتزمون بذلك، لأنّ علومهم كلّها من طرقهم إلى جدّهم النبي الأكرمﷺ فهذا فخرٌ لهم وكرامة، على رغم أعدائهم النواصب. وأمّا قول القفاري مهوّلاً: (بل يجوز أن يقول : قال الله تعالى)؟

فهذا من جهل القفاري بالحديث ودليل حجّيته. فإنّ ما ثبت عن الرسول ﷺ فهو لا بدّ أن يكون عن الوحي الإلهي، وهذا أمر مُجمع عليه بين الأُمّة، ولا يضرّ به جهل القفاري وأذنابه، وقد صرّح بذلك علماء الحديث.

وصرّحوا بأنه وحيٌ، لكنه غير معجز، تفريقاً بينه وبين القرآن الكريم الذي هو معجزٌ. فمن يثبت عنده الحديث عن الرسول ﷺ بالطرق الصحيحة المتيقّنة الصدق، كأحاديث الأئمّة عليهم السلام عن آبائهم، فهو من هذا الذي لا ريب فيه. فهل هذا فيه شيء باطل حتّى يجعله القفاري أمراً يهوّل به، وينكره، ويذكره ممّا يؤاخذ عليه؟!!

ثمّ إنّ النبي ﷺ قد وصف في القرآن الكريم بأنّه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [٢٢].

فليس ما يخرج من فيه الشريف سوى الحقّ الذي هو وحيٌ كما التزم به المحدّثون، سواء كان من آيات القرآن الكريم المعجز، أو كان من الحديث الشريف الذي لم يرد للإعجاز. وقد ورد في قوله عليه السلام مُشيراً إلى فمه، قائلاً: (لا يخرج منه إلا حقّ).

وهل ينكر القفاري هذه الحقائق، وقد اعترف بصوابها أئمّته حتّى السلفيّين منهم. وإذا قال بها كبار رؤوس أهل السنّة، فلماذا يستنكرها لو صدرت من الشيعة، والتزموها؟!

هذا مع أنّ الأئمّة عليهم السلام إنّما أكّدوا على ذلك في كلماتهم، ردّاً على المتعصّبين من النواصب الذين جعلوا أحاديث الأئمّة من أهل البيت (مرسلة) بزعمهم، أي غير

متّصلة بالرسول صلى الله عليه وآله.

وليس ذلك منهم إلا جهلاً بعلوم أهل البيت وبُعداً عنهم، كما هو حال القفاري! فقد حرموا أنفسهم من التزوّد من معين أئمّة أهل البيت، فخسروا علومهم، واتّبعوا الغرباء، فضلّوا وأضلّوا.

والأغرب أنّهم يدّعون العلم والاستنباط ـ كما عبرّ عنه القفاري ـ في كلامه السابق!! والأدهى أنّ القفاري يتّهم الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم بما يعلنه بقوله في (ص ١٣): (لكنّ الغرض أنّهم يعدّون (الصحيفة السجّادية) كالقرآن).

وقد قلنا: إنّ كلامه هذا هو إهانة للقرآن الكريم، واعتداء صارخ على هذا الكتاب المقدّس الإلهي، يهدف إلى إعلانه القفاري بنفسه ومن قلبه، لكنّه ينسبه إلى غيره. بينما أي أحدٍ لم ينطق بهذا، لا من الشيعة، ولا من المتسننين، فهو كذبٌ مفترى على المسلمين أجمع.

نعم، إنّ المسلمين يقدّسون كتباً من التراث لاحتوائها على آيات القرآن، كالتفاسير، وكذلك ما احتوي الأحاديث المرويّة عن الرسول صلى الله عليه وآله لأنّها تحتوي على كلامه الشريف التي هي (وحيٌ يوحى) ولم تكن قرآناً يُتلى!! وكذلك يقدّسون كتب الأدعية المأثورة، بهذا الاعتبار.

ومن كتب الدعاء هي: (الصحيفة السجّادية) المروية عن لسان الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين بن أميرالمؤمنين عليهم السلام الذي أقرّ بصلاحه وعبادته وأهمّية ما في أدعيته من المعاني الروحانية والتوجيهات، أعلام العامّة والخاصّة.

والقفاري يُفزعه تقديس الصحيفة السجّادية، حتّى أنه ينسبها إلى (التزوير) فيقول: (إنّ هذه الصحيفة (المزوّرة!) في جُملته تحظى بهذا التقديس).

نعم، إنّ الشيعة، بل وغيرهم ممّن يعرفون اللغة العربية، ويميّزون بين البليغ منها والفصيح، يقدّسون الصحيفة السجّادية، هذه، لأنّها تحتوي على أبلغ الأدعية

وأروعها في التوجّه إلى الله عزّ وجل، وأقواها دلالة للعبد إلى الوقوف أمام المولى بلسان الأدب والتذلّل والخشوع، والاستدعاء المناسب لمقام الربوبية.

ويكشف القفاري عن غِلّه وغبائه وغرضه، حيث يتجاوز طور العقلاء فيقول: (... ولو كانت (صحيحة النسبة) بجملتها، فلا يسوغ(!) أن توضع بهذه المكانة).

والقفاري هذا يضع نفسه في مقام الحاكم، فيُفتي بأنّه (لا يسوغ) وهذا من البلاء على الأمّة الإسلامية، أن يتظاهر هؤلاء الجهلة المتفيقهون بإصدار الفتاوى المخزية، المخالفة للكتاب والسنّة، ولإجماع الفقهاء.

فنقول له: لماذا لا يسوغ ! وهو نصٌّ يحتوي على امتثال أمر الله حيث يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٢٣]. الدعاء الذي حثّ الباري جلّ جلاله عباده بالتزامه فقال: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ﴾[٢٤].

فيأتي القفاري الأعرابي الأرعن، ويقول : (لا يسوغ) أن يبلغ مكانةً تقديس واحترام.

ولمّا كانت الصحيفة السجّادية، صادرة من قلب زين العابدين، وأفقه العلماء في عصره[٢٥] والمتّفق على جلالته وزهده، وورعه ومقامه، فهو حريٌّ بكلّ تقديسٍ وتقدير.

وقد عبّر عن ذلك كبار العلماء والأُدباء والبلغاء، فما للقفاري البَدَوي الجلف الجافي أن يُدخل أنفه في مالا يعنيه، حقّاً إنّه ظالم لنفسه، حيث لم يعمل بما يعلم، إن كان يفهم ما كتب في المبحث الثالث في شأن الإمام السجّاد عليه السلام صاحب (الصحيفة) ولو كان يفهم لما اعتدى عليها بقوله: (المزوّرة) وقوله: (لا يسوغ أن يكون لها هذه المكانة)!!

لكن حقده المستولي على كيانه في النصب والبغض لأهل البيت النبوي وبالخصوص على أئمّتهم، وعلى شيعتهم، يمنعه من أن يعيَ ما يكتب أو يقول، أو

يرتدع عن أسلوبه الوقح عند ذكر الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام أو ذكر ما يرتبط بهم من حديث أو دعاء أو مناجاة، أو علم، أو كتاب؟؟!!

ولكنه لم يهدأ له بالٌ، إلا أن يصف ما لهم من علوم ومعارف، بالوضع والكذب والتزوير، لما عرفنا من أغراضه الفاسدة، وأهدافه الكاسدة.

ولعلّ في هذا الحوار ما يحثّ القُرّاء الكرام على مراجعة كتاب (الصحيفة السجّادية) ليقرأوا ما يشاءون من أدعيتها، ليقفوا على ما فيها من معانٍ سامية راقية وبلغة ملؤها البلاغة والادب الراقي، والأهداف الإلهية الرائعة.

إنّ مَن يقرأ صفحة من هذه الصحيفة، يقف على الحكم العادل، والقضاء الفاصل بيننا، وبين القفاري، فيما قال وقلنا.

القفاري ونسخ كتاب (الصحيفة السجّادية):

ثمّ إنّ القفاري ـ وبعد ما مضى من محاولاته البائسة ـ دَخل في عمل صعب، وليس له فيه باع ولا ذراع، وهو موضوع: ضبط نصّ الصحيفة، من خلال (نسخها)! فقال: (مع أنّهم في صحيفتهم المقدّسة(!) اختلفوا في قائل : (حدّثنا السيّد الأجلّ...) في صدر سند (الصحيفة السجّادية) وأقرّوا باختلاف نسخها).

وهذا الأمر ممّا يتعلّق بتحقيق النصوص، والتحقّق من نسبتها، واتّصال سندها، واختلاف نسخ الكتب، وغير ذلك ممّا يدخل في (علم تحقيق النصوص)[٢٦].

وهو من اختصاص المحقّقين للتراث، وليس القفاري منهم قطعاً، إذ من شروط المحقّق أن يكون عارفاً باللغة العربية وعلومها، ومطّلعاً على علوم الدين ومصطلحاتها، ومتخصّصاً في موضوع الكتاب الذي يقومون بالعمل فيه، وغير ذلك ممّا هو مذكور في الكتب المؤلّفة في (علم التحقيق).

والقفاري فارغ أعزل، بعيد عن كلّ هذه الأمور، وأهمّها اللغة العربية، فإن القفاري لا يفهم معاني الألفاظ فضلاً عن مصطلحات العلوم الأُخرى، كما عرفنا ذلك ممّا سبق من تفسيره للعبارات، ومن استدلالاته على ما يُريد، مع دلالة ما يذكره من المباحث، وتعرضه بما لا يعنيه من الأمور، ومع ذلك يحكم على ما يبحث بالكذب والتزوير والوضع، ويُفتي حَسب توهّماته وأغلاطه!

فما له والدخول في بحث النسخ ومعرفة رواتها؟

وفي خصوص الراوي الأوّل للنسخة قد يقع في كثير من الكتب ترديدٌ، لكثرة الرواة أو تعدّدهم، وهذا أمرٌ معروف، ومألوف بين المحقّقين، الذين يعرفون كيف يحلّون ذلك بالطرق المحدّدة في (علم التحقيق).

وفي خصوص القائل (حدّثنا) في بداية (الصحيفة السجّادية) فقد أشبع البحث عن الكلام فيه وتعيينه، وكذلك قام المحقّقون للصحيفة، ببذل جهود واسعة، وأعمال رائعة، في التأكيد من النسخ وتصحيحها كما قام الشرّاح بدراسات عميقة في المقارنة بينها وانتخاب الحقّ منها، وأين القفاري الجاهل، من هذه الجهود، وهذه المعارف والعلوم، لكن روح الفضول التي يحملها تدعوه إلى إدخال أنفه في كلّ موضع!

ويدّعي أنّه (يستنبط) فيحكم على الصحيفة المقدّسة بالوضع والتزوير وعلى رواتها بالرفض.... إلى آخر ما عرفنا بعضه، وسنعرف الأكثر من ذلك.

ثمّ إنّه يخلط البحث بين معرفة مَن هو (القائل: حدّثنا) في بداية سند الصحيفة، وهو من قول الرواة للصحيفة، لا من صاحبها الإمام السجّاد عليه السلام، وبين الكلام عن مضمون نصّ الصحيفة، وهو الوارد من الأدعية التي أملاها الإمام السجّاد عليه السلام من لفظه وإنشائه.

فيدلّ هذا الفعل من القفاري أنّه يحاول أن يشكك في الصحيفة كيفما حَصل، ومن أي وجه أمكن، ليصل إلى غرضه الفاسد، ويزيّن له اتّهاماته ودعاواه الباطلة ضد الصحيفة السجّادية.

ومن عادته تكرار الاتّهامات التي افتعلها، ممّا يُثير القارئ، مثل تشبيهه لها بالقرآن، وقد فنّدنا ذلك مرّات عديدة بعدد تكراره لذلك، وهو في ما يأتي يحاول أن يرتّب على اتّهاماته تلك نتيجة لما لفّقه من خزعبلاته، فيقول:

(ونقول لهم: لقد ختم الله سبحانه بمحمّد صلى الله عليه وآله الرسالات، وأكمل برسالته الدين، وأتمّ النعمة، وانقطع بموته الوحي. وهذه أمور معلومة من الدين، بالضرورة).

وأضاف: (هذه الدعاوى الخطيرة لكم، تقوم على إنكار هذه المبادئ، أو تنتهي بقائلها إلى ذلك).

كذا قال ، ولكنه غير واثق من هذين الامرين اللذين جعلهما منشأ للدعاوى الخطيرة، (أو) تنتهي إليها! والفرق بين الأمرين، دليل على عدم تثبّته ممّا يقول، فمع ذلك تراه يحكم حكماً قطعياً، فيقول: (وهذا بلا شكّ نقضٌ لحقيقة شهادة أنّ محمّداً رسول الله صلى الله عليه وآله).



وإذا عرفنا فساد اتّهاماته، وسابق كلامه ولاحقه، وما نسبه أوّلاً، وما بنى عليه حكمه الأخير، كما بيّنا ذلك في موارد ما ذكره من الأمور، وبيّنا خلطه وغلطه، فيما اعتبره (دعاوى خطيرة) فأثبتنا أنّ ما فرضه دعوى خطيرة إنّما هو حقٌّ ظاهر، لكنّه (مُرّ) في حلق السلفي التكفيري، وثقيل على قلبه الأسود المليء بالحقد والتكفير، وخطيرٌ في عقله الناقص وجهله. وبعد هذا، فما جعله نتيجة كلماته يكون باطلاً، مردوداً عليه.

والأهمّ في المقام أنّ ما ذكره في هذه السطور، لا يرتبط بالصحيفة السجّادية، وليس فيها شيء ممّا ادّعاه. وهذه الصحيفة منشورة مشهورة، فمن يقرؤها يجدها مشحونة بخالص الدين القيّم، من التوحيد الأكمل الأتمّ والرسالة المحمّدية العُظمى والأعمّ، وتمام النعمة بالولاية الكبرى!

وهذا يقتضي الحمدُ لله والشكر له، وتقديس قائل الصحيفة ومنشئها الإمام الطاهر عليّ بن الحسين بن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، زين العابدين، وأفقه الناس في عصره.

ولا يضرّ هذا النصّ الشريف، انحراف المنحرفين عنه، ولا ظلم الظالمين له، كما لم يضرّ الأئمّة ما قام به الظالمون من الاعتداء الأثيم. كما لا يضرّنا نحن شيعة أهل البيت عليهم السلام ما كالوه علينا وضدّنا من الاتّهامات الباطلة، ما دمنا على الحقّ ولأهله متّبعين. ولا يضرّنا (من ضلّ) إذا اهتدينا بفضل الله ورحمته.

وقد خسر السلفيون المبتدعون، ما عند الأئمّة عليهم السلام من علم ومعرفة، فابتعدوا عنهم، وخسروا ما عندهم من تراث عظيم فانحازوا عنهم، وعن شيعتهم العلماء والفضلاء الأخيار، واتّبعوا أئمّة لهم ممّن لا خلاق لهم، وكفاهم خسراناً وضلالاً. (فلهم دينهم ولنا دين).

ثمّ إنّ القفاري ـ المتناقض ـ يعترف في نهاية كلامه الأخير، بأنّ تلك الشذوذات (الاتّهامات) التي فرضها ونسبها إلى عموم الشيعة، وتقوّلها عليهم عموماً، اعترف (بأنّها مذهبٌ لطائفة مغمورة، منكرة، غلاه، في نظر كثير من فرق الشيعة نفسها: وقد نسب الإمام الأشعري ! هذه الشواذ من المقالات، إلى الصنف الخامس عشر من أصناف الغالية، فهم الذين يزعمون أنّ الأئمّة ...) إلى آخر ما ادّعاه.

نقول: فإذا كان ما يقوله ـ هذا الإمام الأشعري ـ صحيحاً، وأنت يا قفاري! توافقه على ذلك، فلماذا تعمّم القول على جميع الشيعة الذين تسمّيهم الروافض، وتُريد ممّا أوردته هنا أن تحشر الصحيفة السجّادية، ومنشئها السجّاد زين العابدين عليه السلام ومن يعتقد بها من عموم الشيعة، وتحكم على الجميع بأحكامك الظالمة، تلك؟؟!!!

أليس في فرق أهل السنّة، مَن هو عندكم (أشدّ من الكفّار والملحدين) ومن تتبرّأون منهم أنتم، وكفرهم ظاهر بيّن، وهم يعدّون أنفسهم من أهل السنّة؟!!



فهل يجوز لأحد أن يحكم على عموم أهل السنّة، بحكم أولئك الكفرة، ويحمل شذوذهم على جميع المسلمين وعليكم أنتم بالذات؟!!

وإذا كنتَ تعترف بما نقلته عن (إمامك الأشعري) وأنّ الشذوذات التي افترضتها خاصة ببعض الفرق الشاذة، المغمورة، المعيّنة، وهي تنسب نفسها إلى (الشيعة) ولكن ليسوا منهم، لبراءة عموم الشيعة من تلك الشذوذات ـ إن صحّ نسبتها إليهم ـ . فلماذا تسعى ـ يا قفاري ـ وتدأب على تعميم التّهم لأهل البيت وعموم شيعتهم، ولا تميّز؟!! أليس هذا منك اعتداءً، وظُلما، وزُوراً من القول، تحمل وزره!

ميلاد صُحفٍ أُخرى:

تحت هذا العنوان، بدأ القفاري هجومه، فقال:

(كعادة الروافض في استمرار الكذب، فقد قام جُملة من شيوخهم، بجمع أدعية أخر، ونسبتها لعليّ بن الحسين، وتسميتها بالصحيفة السجّادية).

ثمّ عدّد مجموعة من الكتب المؤلّفة لجمع الأدعية المرويّة عن الإمام السجّاد زين العابدين عليه السلام، ممّا لم يرد في الصحيفة السجّادية المشهورة، فجمع فيها المؤلّفون الأدعية المنتشرة في التراث، وسمّي كلّ منها بالصحيفة السجّادية موصوفة بالثانية، والثالثة، وهكذا إلى السادسة، حسب تأليفها.

جمع هذه المجموعة عدّة من كبار المحدّثين العلماء المختصّين من كتب التراث العظيم، المتوفّر في الثقافة الإسلامية.

والقفاري ـ وتحت ذلك العنوان الذي فيه نوعٌ من الاستهانة، ذكر تلك العبارة الجسورة، أطلقها كعادته من دون أن يدلّ على وجه ذلك، ولماذا اعتبرها (كاذبة) أو (منسوبة) ؟! مع أنّ جميع ما ورد فيها قد استخرجت من كتب معروفة متداولة

ومعتبرة عند الشيعة، وبطرقهم المعروفة عندهم، وبأسانيدهم المتّصلة كسائر المرويّات والأحاديث الشريفة المذكورة في كتب التراث الإسلامي، عند فرق المسلمين.

وأمّا المضامين الواردة في هذه الصحائف فهي كالصحيفة السجّادية الأولى، مروية عن الإمام السجّاد عليه السلام وتحتوي على المعارف الرفيعة الحقّة، وهي من الدعاء لله، الذي يجوز إنشاؤه لكلّ أحد، وبكل لسان، فكيف إذا كان عن إمام عظيم من أئمّة أهل البيت عليهم السلام وهو الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين بن عليّ أمير المؤمنين عليهم السلام.

وهنا ـ أيضاً ـ ندعو القرّاء الكرام أن يقفوا على هذه الصُحُف الأُخرى، كي يقرأوا النصوص الرائعة المحتوية على الحقّ المبين، والمعاني الرفيعة، التي تليق بالعباد الصالحين الذين يعبدون الله تعالى بآدابٍ وعبارات وتضرّعات، صادرة من قلب إمام من أئمّة أهل البيت عليهم السلام وهو الإمام السجّاد زين العابدين عليه السلام.

ليقرأوا ويحكموا بإنصاف ويقين على هذا القفاري السلفي التكفيري، المعتدي على أهل البيت عليهم السلام.

وهذه الصُحُف كلّها مجموعة في كتاب واحد باسم (الصحيفة السجّادية الجامعة) جمعها ونظّمها المرحوم العلامة الفقيه المحدّث الكبير السيّد محمّد باقر الموسوي الأبطحي الأصفهاني رحمه الله.

عنوان أخير، في نهاية (المبحث الأوّل):

دلالة التّسمية:

إنّ عنوان كُتيب القفاري هو : (حقيقة الصحيفة السجّادية) لكنّه يحاول أن يقدح في كلّ ما قيل عنها، فيحمل عليها، ويجعل أفعال الآخرين وأقوالهم، طريقاً إلى إبطالها!

وهذا عمل منافٍ للعدل والإنصاف، ومخالف لأبسط قواعد العلم والمعرفة، وفي هذا العنوان بحث عن أسماء أطلقها آخرون على هذه الصحيفة، اعتزازاً منهم بها، وتعظيماً لها، وإعلاناً عن محتوياتها الحقّة الرائعة، وبالتالي تشويقاً للمؤمنين إلى قرائتها وتداولها.

لكن القفاري يجعل ذلك طريقاً للهجوم على الصحيفة ذاتها، ويجعل ذلك دليلاً ـ بزعمه ـ على بُطلانها.

وقد كرّر هذا الأسلوب في (وُريقاته هذه) في عرض أفكاره أكثر من مرّة، ومن ذلك موضع (تسمية) الصحيفة، بأسماء عديدة من قبل الآخرين، مثل (زبور آل محمّد) و(إنجيل آل محمّد).

فنقول: إن هذه الأسماء ليست متأصّلة في إطلاقها على الصحيفة، بل هي أوصاف أطلقها بعض المتأخّرين، ممّن لم يعرف اسمه، ولا رسمه، واستطابها بعض فأوردها وأطلقها على الصحيفة! فلم ترد في حديث أو نقل، سوى عند المتأخّرين من المفهرسين.

ثم المناسبة لمثل هذا الإطلاق: أن (زبور داود) و(إنجيل عيسى). إنّما هي مجموعة نصائح ومناجاة ومواعظ وأدعية، وهذا هو المتداول منه مقاطع في قسم من أنواع الحديث، المعروف بالأحاديث القدسيّة، في مصطلح المحدّثين.

والصحيفة السجّادية، تقوم بدور هذه المواضيع باللغة العربية وبالعهد الإسلامي، ومن إنشاء إمام من أهل البيت النبوي الشريف، وبأحسن أداء وأبلغه وأفصحه، وبمعانٍ وأغراض أهمّ وأنسب من تلك المذكورة في الأحاديث القدسية، وقد بلغتنا الصحيفة مسندة عن الإمام بأفضل الطرق وأقواها وأصحّها وأسناها.

فالتعبير عنها بالزبور والإنجيل، منسوبين إلى (آل محمّد) والإمام السجّاد منهم، ليس إلا تعبيراً عن الاعتزاز والتنبيه على عظمة الصحيفة ومضامينها، مع أنّ في ذلك افتخاراً بما لثقافة المسلمين المأخوذة عن أهل البيت النبوي، وهو مأخوذ عن

جدّهم المصطفى صلى الله عليه وآله فيه مثل ما في تلك الكتب. فما في ذلك من عيب أو خطأ أو مؤاخذة؟!!

وقد أوغل القفاري في جهله وغرضه الإثارة ضد الصحيفة ومن يلتزم بها وهم شيعة أهل البيت، حيث ذكر في نقده لهذه التسميات، فقال:

(فهو ـ أوّلاً ـ جزءٌ من دعاوى عريضة لديهم، بأنّ عند أئمّتهم كلّ كتاب نزل من السماء، وأنّهم يقرأونها على اختلاف لغاتها).

والعَجب من هذا الأعرابي أنّه يستكثر على أهل البيت وأئمّتهم وشيعتهم أن تكون عندهم من تراث السابقين نسخٌ من أشرف كتبهم المنزّلة على أولئك الأنبياء والعظماء، فلو كانت عنايتهم بها إلى حدّ المحافظة عليها وقراءتها ومعرفة لغاتها من مهمّات ما اهتمّوا بها، فهل في ذلك أمر مكروه، أو باطل أو سيّئ، حتّى يجعلها القفاري الجاهل، مدعاةً للهجوم والاتّهام؟

وقد سبق أن عرض القفاري مثل هذا، مكتفياً ـ كما هنا ـ بالاستغراب، ثمّ الهجوم والاتّهام.

ما دامت أنّ تلك الكتب مقدّسة ونازلة على الأنبياء السابقين، فالسعي لتحصيل نصوصها الأصلية بأعيانها والمحافظة عليها وجمعها، أمر طيّب، بل دليل على عظمة من يقوم بذلك، وفي ذلك يتنافس المتنافسون، ويفتخر بوجوده المحصلون لها، كما هو المتداول في القرون، وفي عصرنا، من سعي العلماء والمؤسّسات على تحصيل النسخ القديمة والتراثية، وحفظها والاستفادة منها، وتفتخر البلاد والأشخاص في العالم بوجود هذه الكتب عندها.

فهل مثل هذا أمر يوجب الاستغراب والنقد والهجوم والاتّهام، أو هو أمر جيّدٌ مهمٌ و موجب للفخر والاعتزاز، ودليل على عظمة أهل البيت الذين قاموا بها، مع غفلة الحكّام والخلفاء والأمراء، وأرباب السلطة ووعّاظ السلاطين عن مثل هذا

التراث الإلهي العظيم والمقدّس، لانغماسهم في الدنيا ولذّاتها ولهوها ولعبها.

ثم يُتابع القفاري قوله:

(ثانياً: فهذا يشي بالجذور العقدية للمذهب، والتوجّهات والانتماءات لأتباع هذا المذهب).

إنّ هذا الكلام المشوّه، يتضمّن أكثر من مدلولٍ، يُحاول القفاري من خلاله إثبات تهمة، على مذهب الشيعة، لا يجرؤ على التصريح بها ـ هنا ـ لشناعتها؛ وهي معروفة، قد عرضها بوضوح في كتابه الذي أرجع إليه هنا، وهو (أصول مذهب الشيعة). فقد أكّد فيه (ج١ ص ٨٢) على هذه التهمة، في ضمن عرضه لعقائد الشيعة ـ بزعمه ـ فنسب المذهب إلى الفلسفات القديمة والأديان غير المسلمة!!

ويكفي في بطلان هذه التّهمة، عدم معرفته أن الزبور والإنجيل، من الكتب المنزّلة من الله على نبيّين من المذكورين في القرآن الكريم، ولا يرتاب مسلم في قدسهما، ومعلوم أنّ الأنبياء كلّهم رسل الله ودعاته إلى توحيده فهذه النسبة لا تضرّ، بل تؤكّد على الإيمان كما جاء في القرآن الكريم بقوله:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كَلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَد مِن رُسُلِهِ﴾[٢٧].

وقال تعالى: **﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾**[٢٨].

والشيعة آمنوا بكتب الله التي أنزلها على داود وعيسى صلى الله عليه وآله، بما نقله الأئمّة من آل البيت عليهم السلام، وبأمر من الله ورسوله، وبإرشاد الأئمّة الأطهار.

فما هو الذي يغيظ القفاري الحاقد، أليس المستنكر على الشيعة في هذا، ممّن **﴿ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾**.

ثمّ إنّ القفاري يستمرّ في تعلّقه بأرجوحة تسمية الصحيفة، ويقول:

(أمّا تسميتهم لها بـ(أخت القرآن) فلمّا يزعمونه من أنّ أقوال أئمّتهم كأقوال الله سبحانه، كما مرّ).

فمع أنّ هذا الاسم، ليس صادراً عن حجّة، ولا عن دليل أو مصدر، له سمة علمية، فإنّ من الواضح أنّه اسم مجازي، فيه نوع من جهة أنّ التمثيل والتقريب الصحيفة وما فيها من المواعظ والعبر مستلهمة من القرآن، وهذا واضح لمن قرأ نصّ الصحيفة، فسيجد أنواعاً مبتكرة من الاستلهام من القرآن، والروعة والبلاغة، وغير ذلك من النصائح والترغيب فيما وعد الله عباده الصالحين، وكذلك الترهيب ممّا توعّد الله منه الذين اتّخذوا طريق الفساد والعناد. فهذا الاسم ـ وإن لم يناسب لفظاً ـ فإنّه لا معنى له إلا ما ذكرنا.

وليس فيه ما يدلّ على انحراف في العقيدة، وإلا فهو مرفوض قطعاً، ولا يقتضي أن يُحاسب من أجله، طائفة كبيرة من المسلمين، لأجل تصرّف شخص مجهول الحسب والنسب، على فرض كونه مريداً للمعنى الذي يتصوّره القفاري السيّئ الظن والفكر والمنهج والأسلوب.

يقرب من صنيعه هذا ما أقدم عليه من طبع صفحات من نسخة من (الصحيفة السجّادية) . مكتوبة بخطّ اليد، ومحرّكة بالإعراب والضبط، والصفحات مجدولة بنقوش، زاعماً أنّ طباعته تشبه طباعة القرآن الكريم، فقال ـ وهو يتحدّث عن طباعة الصحيفة ـ : (المطبوعة على هيئة المصحف الشريف). وقال: على هيئة طباعة القرآن الكريم) و(تُشابه في شكلها طبعات القرآن) و(محاولة مضاهاة كتاب الله سبحانه بالمظهر).

وهكذا راحَ يكرر هذه الدعوى، ويُهرّج، أنّ طبعة الصحيفة السجّادية، تشابه طبع القرآن الكريم، ليصل إلى ما زعمه ظلماً وبهتاناً، أنّ الشيعة يدّعون بكون الصحيفة قرآناً!

وفي تكراره الزعم المذكورة بعباراته المتعدّدة تلك، اتّباع لسياسة أسياده التي تبتني على مقولة : (إكذب ثمّ إكذب ثمّ إكذب.. حتّى يصدّقك الناس)، وحسب أن ذلك يقنع القرّاء الواقفين على صور تلك الصفحات من تلك الطبعة، ويصدّقون بما يقوله هذا الأعرابي ويحاوله بفعله المضحك ذلك.

ومن الواضح أنّ ذلك إن انطلى على الصبيان، والجهّال، فإنّه بلا ريب لا يقنع القرّاء من الناس، الذين سوف يقلبّون صفحات الصحيفة، ويتلون منها سطوراً مليئة بالتقوى والبرّ .

وإنّا نربأ بأن يستعمل اسم القرآن لمثل هذه الأغراض الرخيصة! والفاسدة والمفضوحة!

والقفاري بهذا المنطق الضحل، يستخفّ بالقرّاء الأعزّاء ويستغفلهم، ليصل إلى أغراضه الفاسدة، ولكن أهل العصر هم أذكى وأبصر وأفهم وأعقل من أن تنطلي عليهم هذه الأساليب مع وجود من يكشف لهم دجل تلك التصرّفات وبطلانها.

* * *

المبحث الثاني

إلى مَن تنسب الصحيفة السجّادية ؟

عقد القفاري هذا المبحث ـ الثاني ـ من مطلبين:

فذكر في الصفحات (٢٣ ـ ٢٦) ما يخصّ الإمام زين العابدين، عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، السجّاد عليه السلام .

فنقل فيها ما ذكره كتاب العامّة المتسنّنين، في ترجمته عليه السلام وأورد بعض ما كان له من جميل الصفات والأحوال والمقام علماً وعملاً.

ولم يبلغوا شأوه كلّ أولئك، فإنّهم أقلّ باعاً وأقصر ذراعاً من أن يدركوا ذلك، ولكن الذي يكفي لإتمام الحجّة أنّ أحداً منهم لم يجرؤ على القدح في شخصه، ولا إنكار ما شاع وذاع وانتشر من فضاله وفواضله عليه السلام .

ويدلّ على تقصيرهم، أنّا لا نجد فيما كتبوه كلمة واحدة عن أخصّ أصحابه وأهل بيته الذين هم أولى من عرفه ومن شيعته المقرّبين منه، والمعتقدين بإمامته.

والمطلب الآخر الذي أورده القفاري، فهو ما لفقه ممّا تعوّد عليه ولهج به لسانه من سبٍّ وقذف واتّهام في حقّ شيعة الإمام ومحبّيه ومعتقدي إمامته. وعمدة مصادره التي اعتمدها في هذا المطلب هم أعداء أهل البيت، من أمثال ابن حزم الأندلسي، وابن تيمية الحرّاني، والذهبي التركماني، وأمثالهم من سلف التكفيريين الطالح، أولياء بني أميّة، مضافاً إلى ما ملأه من قلمه المسموم، وكلامه الموهوم، على أسلوبه المعلوم.



أما المطلب الأوّل:

فهو الكلام الطيّب الذي نقله في هذا الكتاب، حول الإمام السجّاد زين العابدين عليه السلام ، فقد نقل ما نصّه:

(إمامٌ من أئمّة الإسلام العظام، وأحد كبار التابعين وسادتهم علماً وديناً).

ونقل عن الذهبي قوله: (وكان له جلالة عظيمة، وحقّ والله له ذلك، فقد كان أهلاً للإمامة العظمى، لشرفه وسؤدده، وعلمه، وتألّهه، وكمال عقله).

ملاحظة:

ومع هذا الاعتراف الصريح والواضح، لماذا لم يلتزم القوم بإمامة هذا الإمام العظيم، والتزموا بإمامة الملوك من بني أمية بدءاً بيزيد إلى آخر أولئك الظلمة؟!! ولماذا

يكفّرون الشيعة الذين التزموا بإمامته، والاقتداء به؟!!

ونقل القفاري عن ابن سعد، قوله: عن الإمام زين العابدين عليه السلام: (وكان ثقةً مأموناً، كثير الحديث عالياً رفيعاً).

ملاحظة:

أين حديثه الكثير؟ لماذا لم يروه المحدّثون من أهل التسنّن؟!! لماذا ترك حديثه مع علوّه وارتفاعه؟!! ولماذا ترك أهل المدينة حديثه، وقد طال مقامه بينهم ما يقارب الأربعين سنة؟!! ولماذا قَدَح دعاة الجرح والتعديل في ما رواه عنه أصحابه الذين رافقوه وعاشروه والتزموا بإمامته، من شيعته؟

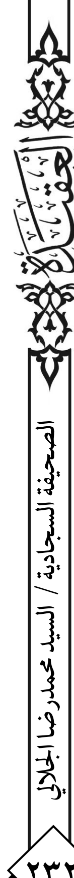
وإذا كان ـ كما نقل عن ابن شيبة ـ (أصحّ الأحاديث ما رواه عن أبيه عن جدّه). فلماذا تزيّفون حديثه الموجود برواية أصحابه؟!!

وهذا موقف القفاري من أشهر تراث مروي عنه عليه السلام وهو (الصحيفة السجّادية) ؟ الذي نعرض ما يندى له جبين أهل العلم والدين من مواجهة السلفية له، أهكذا يُواجه تراث ذلك الإمام العظيم؟!!

ثمّ إنّ القفاري لم ينقل ما نقله أئمّة كبار ممّن لكلامهم شأن عند أهل التسنن، مثل أبي حازم المدني، القائل (ما رأيتُ هاشمياً أفقه من علي بن الحسين...).

ومع هذا الاعتراف الواضح الصريح، واعترافهم السابق بفضل الإمام وعلمه وزهده وتقواه، فلماذا لم يلتزموا بفقهه، بل لم يتداولوه، ولم يرووه؟! وصاروا إلى فقه الآخرين؟ والقفاري، يذكر حديث الإمام السجّاد عن أبيه الإمام الشهيد الحسين بن علي عليه السلام، هكذا:

(وكان معه يوم كائنة كربلاء، وكان يومئذٍ موعوكاً فلم يُقاتل، ولا تعرّضوا له، بل أحضروه مع آله إلى دمشق، فأكرمه يزيد، وردّه...).



وهكذا وبكلّ برودة، يذكر كربلاء، بأنّها (كائنة)!! وكأنّها حادثة بسيطة، لم يقتل فيها سبط رسول الله، الحسين عليه السلام وإخوانه وأولاده، وأصحابه، في فاجعةٍ عظمى، وفي عصر يعجّ بالصحابة، ولم يمضِ على وفاة جدّه المصطفى سوى (خمسين) سنة!

ثم قوله: (كان يومئذٍ موعوكاً فلم يُقاتل)!

جهلٌ منه بالتاريخ، فإنّ الإمام السجّاد عليه السلام (قد حضر القتال وارتُثّ) كما ذكر مَن حضر المعركة وهو ابنه الإمام الباقر محمد بن علي، ورواه أصحابه؟ وقد فصّلنا الحديث عن ذلك في كتابنا (جهاد الإمام السجّاد عليه السلام) .

وقول القفاري: (لم يتعرّضوا له، وأحضروه مع آله إلى دمشق) هكذا، وبكل سهولة، ولو كان من أهل العلم، لفتح أيّ كتاب في التاريخ ووقف على مجريات (فاجعة كربلاء) وما جرى على أهل البيت في كربلاء، لماذا ذكر ما ذكر؟!!



إنّ القوم، وبعد المذبحة الكبرى التي قتلوا فيها الإمام الشهيد الحسين سبط رسول الله ومَن تبعه، حرقوا خيام أهل البيت وفيها النساء والأطفال، والجرحى ومنهم الإمام زين العابدين، ونهبوا ما في خيامهم من أثاث، حتّى سحبوا البساط الذي كان الإمام ملقىً عليه، لما ناله من الجراح في المعركة!!

وأما قوله: (أحضروه مع آله إلى دمشق). هكذا وكأنّهم ساروا بهم في سفرةٍ إلى نزهةٍ. ولو كان له وجدانٌ وضمير، لذكر أنّ أعداء أهل البيت حملوا الإمام مع النساء والأطفال (أسرى) من بلد إلى بلد، مكبّلين على نياق عجاف، وهذا أوّل أسر، لأشرف أسرة، في تاريخ صدر الإسلام! والأسرى هم أهل بيت النبي الأكرم!! شراف البلد الذين دافعوا عن حرم الرسول وأولاده وذويه، قتلوا بأبشع صورة، في تلك الفاجعة الأليمة، التي لم يشهد التاريخ لها مثيلاً في (مكوّناتها).

لكن القفاري يعبّر عنها بـ (كائنة) فقط!!

إنّ ما جرى في كربلاء، على السبط الشهيد وأصحابه، وما جرى على أهل بيته من بعده، ليس أمراً هيّناً يمرّ به القارئ هكذا.

بل ما جرى على أهل بيت الرسالة وبقية النبوّة في طريق كربلاء، إلى الكوفة كان أوّل قافلة أسرى في تاريخ الإسلام، والأسرى هُم ذرّية الرسول نبيّ الإسلام.

فأهل بيته مع شرفهم ومقامهم وكرامتهم عند الله، ووصيّة جدّهم النبي بهم، هكذا يُقتلون ويُستأصلون ويُساق بهم أسرى، في بلاد الإسلام وفي حكم خليفة يدّعي الدين والإسلام، لهو من أكبر جرائم أولئك الأنذال، أنصار بني أمية، الذين انتقموا بهذا من النبي صلى الله عليه وآله الذي حطّم أصنامهم وأباد كفرهم، وقتل أوغادهم، لكنّهم عند القفاري هم (أُمراء المؤمنين).

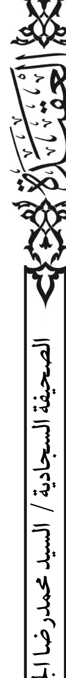
ويذكر في كلامه الماضي: (إنّ يزيد أكرم الإمام وردّه). ولو فتح عينه، لرأى ما كتبه المؤرّخون ـ وهم من أهل نحلته ـ عن مجريات ذلك الأسر، ومواقف أهل البيت في الكوفة والشام في مجالس العتاة القتلة، لما تعرض لهذا الأمر!!

لكن الله أراد أن يكشف عن ما انطوى عليه القفاري، من حقده وظلمه وعدائه، وعدم اهتمامه بأهل البيت النبوي عامّة، وبخصوص الإمام السجّاد عليه السلام، فكيف بتراثه وأهمّه (الصحيفة السجّادية) التي مَن قرأها أقرّ بأحقّية الإمام عليه السلام للإمامة والاتباع في الفقه.

إنّ القفاري في هذا المطلب ـ الأوّل ـ أراد أن يبيّض لنفسه وجهاً، بقناع ما نقله من فضائل الإمام السجّاد عليه السلام، لكن الواقع اللئيم، في سواد قلبه وقد ظهر من خلال كلامه الوقح ولعبه بحقائق التاريخ، وتحريف كلّ الوقائع الثابتة!

وأمّا في مطلبه الثاني:

فقد بدأ به، معطوفاً على ما سبق من كلامه عن الإمام السجّاد عليه السلام فقال: (وقد تعلّقت به الرافضة).



نعم، تعلّقت به، تعلُّق اقتداءٍ واتّباع وتقليد، وولاء، لما فيه وَلَه من الفضائل التي ذكر سلفك بعضها.

والشيعة سُعداء بهذا التعلّق، لأنّهم بذلك يتمثلون أوامر النبي الأكرم ووصاياه، حيث أمر بالتمسّك بعترته أهل بيته، في حديث (الثقلين) المتواتر حيث قال: «إنّي مخلفٌ فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي... ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا». وأفضل أهل بيته وأعلمهم هم الأئمّة الإثنا عشر عليهم السلام.

فآمن الشيعة بإمامتهم والتزموا بخلافتهم من جدّهم النبي فنجوا بذلك من الضلال، ورفضهم أعداء أهل البيت النبوي، أولئك الذين حاربوهم وقتلوهم، وغصبوا حقوقهم في الخلافة النبوية.

ولكنكم ـ يا قفاري ـ رفضتم أهل البيت النبوي، وعلومهم وحديثهم وفقههم، فضللتم باتباعكم أعداءهم الظالمين، واتّبعتم ملوكاً ـ سمّيتموهم خلفاء ـ على ماهم عليه من الجهل بالدين والشريعة، وقيامهم بالرأي والبدع، واقترفوا المظالم والمآثم من قتلهم الأخيار والصالحين واقترافهم المحرّمات وارتكابهم الفجور والفواحش ما ظهر منها وما بطن[٢٩] وقد سوّدوا تاريخ الإسلام، وشوّهوا سمعة الدين الإسلامي، بما أتوا في عصورهم المظلمة.

وحَسبُكُم هذا التفاوتُ بَيْننا   وكلُّ إنـاءٍ بالـذي فيه يَنْضَحُ

وهكذا نرى القفاري يُعَيِّر الشيعة بالتعلّق بالإمام السجّاد الذي ذكر له تلك الأوصاف والفضائل، لكنّه يجعل التعلّق به سُبّة، ويكيل على الشيعة التّهم.

ونقول: يكفي للردّ على هذا الهجوم الوقح، قيامه بتزييف (الصحيفة السجّادية) وتكذيبها، وتضعيفها، ونسبتها إلى التزوير. فإنّا نجعل هذه الصحيفة (حَكَماً) بيننا، لأنّها تحتوي على العدل، وتميّز الخبيث من الطيّب، وتعرّف المحقّ من المبطل. وندعو القرّاء الكرام، إلى مطالعتها والمراجعة إليها، ليقفوا على الحقّ الفاصل.

والشيعة ـ بكلّ فِرَقهم القائمة اليوم ـ يلتزمون بالصحيفة، ويتلونها، بل يقدّسونها، لأنّها صادرة من إنشاء هذا الإمام الهُمام العظيم، الذي اعترف أعيان التسنّن بفضله.

لكن القفاري ـ على رغم سلفه ـ يرفض الصحيفة، ويحاول بكتابه هذا ـ الهزيل ـ أن يُبطلها ويزيّفها.

فنحن ندعو القرّاء المنصفين: أن يقرأوا أيّ دعاء من هذه الصحيفة، ليقفوا على ما فيها، وما لها من الشأن، وأنّها تناسب مقام الإمام السجّاد عليه السلام وما عُرف له من الفضل والورع والعلم.

تنبيهٌ:

إنّ من أسخف ما يقوم به السلفية في محاوراتهم وكتبهم، أنّهم يخلطون بين مواضيع البحث والنقاش، ويقفزون من مطلب إلى غيره،، قبل أن يتمّ السابق.

وقد اقتفى القفاري هذا الأسلوب، فهو قد وضع عنوان كتابه : (حقيقة الصحيفة السجّادية) لكنّه يُدخل في الكتاب بحوثاً عن (العصمة) و(التقية) و... ونراه هنا، يلحق بما سبق (موضوع العصمة) فيقول: (وقد تعلّقت به الرافضة، وادّعت عصمته).

فنقول: نعم، الشيعة تقول بعصمة النبي وابنته فاطمة الزهراء، وأمير المؤمنين، والأحد عشر من ذرّيته.

لكن لا ادّعاءً، بل استناداً إلى نصّ القرآن الكريم، وأحاديث النبي، وكلّ ذلك مفصّل في (علم الكلام) والبحث عن شرائط الإمام.

ولكن البحث عنه لا يُحسم بجملة أو صفحة، ونحن لا نتّبع الأسلوب الخاطئ، في الابتعاد عن الموضوع، بالدخول في بحوث أُخرى، فإنّ له مجاله الخاصّ.

ولكنّ القفاري إنّما يُبعد المسافة عن بحث (الصحيفة السجّادية) لما يعرفه هو من ضعف كلامه عنها بل بطلانه.

وكذلك يستخدم هذا الأسلوب، فيقول: (وغَلَتْ فيه) فيدخل بحث (الغلوّ) هُنا، لتبعيد المسافة، وتحريف البحث عن (الصحيفة)!! هذا، مع أنّه اعترف في سابق كلامه، بأنّ الغلاة فرقةٌ مرفوضة من الشيعة، فكيف ينسب القول بالغلوّ إلى شيعة الإمام السجّاد عليه السلام ؟!! وليس هذا إلا افتراءً وتهمة وإهانة لطائفة من المؤمنين البريئين عن هذا القول. إنّ هذا التصرّف من مناقضاته التي استعملها في وُريقاته هذه.

ثمّ قال القفاري: (وافترت عليه).

إنّ نسبة الافتراء على الإمام السجّاد عليه السلام إلى شيعته والملتزمين بإمامته، أمرٌ باطل بوضوح، إذ من غير المعقول أن يفتري أحد على مَن يقدّسه ويقول بإمامته، وهذه النسبة تطاول على فرقة كبيرة من المؤمنين، وهم شيعة آل محمد صلى الله عليه وآله. وقد تكرّرت هذه التهمة من القفاري، ولو كان يخاف الله لما بادر إلى هذا التصرّف البشع، لكنه... !!

ونقول: إنّ المتّهم بالافتراء على الإمام هم الرواة لنصوص تخالف الحقّ، وتعتبر شيئاً لقائلها. وقد أورد القفاري هنا بعض ما هو باطلٌ واضح، ناسباً له إلى الإمام، فقال ناسباً إلى الإمام السجّاد عليه السلام :

(ولذلك قال منكراً عليهم: يا أيّها الناس؛ أحبّونا حبّ الإسلام، فما برح حبّكم حتّى صار علينا عاراً).

أقول: لا ريب أنّ المسلمين ـ حتّى هذه الساعة ـ يحبّون أهل البيت، ويحترمونهم، لما يرونه في أعمالهم وما لهم من الصلاح والخير والعلم والفضل والكرامة، وهذا أمر لا يمكن إنكاره حتّى من السلفية، مثل القفاري.

لكنّ مجرّد الحبّ، ليس ممّا يرغب فيه أهل البيت عليهم السلام، إذا لم يكن الحبّ عن معرفة لما لهم من المقامات العالية، والذي يستتبع الانتماء والاقتداء.

أمّا الحبّ المجرّد عن المعرفة فليس مطلوباً للأئمّة، فمن يحبّهم بدون معرفة، ويتّبعون الولاة الظلمة والملوك الجائرين، والفقهاء المبتدعين، فهو حبٌّ مستتبع للأذى لأهل البيت، لأنّ الحكّام والأُمراء كانوا يهابون ذلك، وعلى أساسه يضغطون على الأئمّة عليهم السلام بالمراقبة، والمسائلة، وإلى حدّ الاعتقال والاستدعاء كما حصل مع أكثر الأئمّة عليهم السلام.

فالإمام ـ بلا ريب ـ يتبرّأ من هكذا (حبّ) عاطفي، لا عمل يتبعه، ووراءه أذىً واتّهام.

والمهمّ أنّ هذا الحديث ممّا انفرد به الحديث عن المتسنّنين، ويركّز عليه النواصب منهم، وتخصيص الحديث بوروده على أهل العراق، المعروفين بالتشيّع والولاء...!!

والأغرب أنّ بعض النصوص تحتوى على جملة (ولا تحبّونا حُبّ الاصنام).

ونحن نربأ بالإمام عليه السلام أن ينطق به، إذ فيه تشبيه حبّ الناس الذين يُخاطبهم بحبّ الأصنام. وهذا بعيدٌ صدوره من الإمام. ثمّ هل كان في زمان الإمام، أصنام في البلاد الإسلامية؟!! حتى يذكره الإمام.

لكنّ الكذّاب الذي افترى هذا الحديث نسبه إلى الإمام كذباً وجهلاً، لأنّ حقده قد غشّي عينيه وعقله ولسانه، فلا يعي ما يُخرج من فمه، ويرويه. والقفاري الجاهل يستند في دعاويه إلى أحاديث لم تدلّ على ما يريد، مثل هذا الحديث وفي ما يرتبط بأبي بكر وعمر ومقامهما عند النبي صلى الله عليه وآله:

(إنّ الإمام السجّاد عليه السلام سُئِل عن منزلتهما عند رسول الله صلى الله عليه وآله، فأشار بيده إلى القبر، ثم قال: (بمنزلتهما منه الساعة).

ومع انفراد المتسنّنين برواية هذا الحديث، فإنّ له مخرجاً علمياً، ذكرناه مفصّلاً في كتابنا (جهاد الإمام السجّاد عليه السلام) اعتماداً على فقه الحديث، يبعده عمّا يهدف إليه القفاري من إيراده.

وعلى عادته، يقفزُ القفاري إلى موضوع آخر، فيقول:

(إنّ الروافض تُشيع عن مشاهير أهل البيع أنّهم يتظاهرون أمام السلطة (تقيةً)).

وأضاف: (بل قالوا هذه المقالة عن أمير المؤمنين عليّ، حيث لم يجدوا وسيلة للخروج من التباين التامّ بين: أقوال الإمام عليّ وسيرته، وبين أقوال الروافض وعقائدهم).

أقول: وهكذا أقحم القفاري بحث (التقية) في هذا الكُتيب ليخلط الأمور، ويبتعد عن بحث (الصحيفة السجّادية).

ثم عرضه وكأنّه أمر اعتيادي، بينما هو من البحوث المفصّلة التي غطّت صفحات من الكتب، والاستدلال والنقض والإبرام في الفقه الإسلامي، وقد طبّقها علماء المسلمين في التاريخ الإسلامي عند مواجهتهم للصعوبات من الحكّام والظلمة واعتبروها من الضرورات التي تبيح المحظورات.

فليس للقفاري أن يُطلقها ويتهجّم على القائلين بها بهذه الصورة والكلمات النابية...

❋ ❋ ❋

المبحث الثالث

صحفٌ أُخرى منسوبة

خصّص القفاري هذا المبحث ـ الثالث ـ للحديث عن كتب أُخرى، لا ترتبط بالصحيفة السجّادية، سوى ما زعمه من كونها كتباً منسوبة، لكن الأمر الغريب أنّه جعل أكثر صفحات هذا المبحث ـ الثالث ـ في كلامه عن كتاب (نهج البلاغة) الشريف.

ونقول: يُحار القلم في ما يكتب عن كلام هذا الأعرابي المعوّق، الذي يدخل أنفه في ما لا يربطه به رابط، ويتدخّل في ما لا يعنيه، بل ما لا يعيه، ممّا لا ناقة له فيه ولا جمل، ولكنّه يظنّ أو يتخيّل أنّه يقدر عليه، كما تعوّد من رعيه في قِفار نجد وبواديه، فهو يتصوّر أنّ العلم والأدب، تمرٌ يأكله أو حليب ناقة يشربه.

ومنتهى ما لديه هو ما ألقمه المطاوعة وعلّموه، هو أن يعلس الكلمات، التي يخالها (حجّة) وليس له منها ولا حرف، بل يجترّها من الذين فرضتهم السلفية أئمّة لهم، مثل: (ابن تيمية الحرّاني) الذي ملأ القفاري من نتن سُبابه وشتائمه كتاباته وأوراقه، يستشهد بها ويعتمدها حُجّة.

أو (الذهبي التركماني) الذي أبلغ ما عنده هو الجَرْح والقدح وإنكار الحقّ وإحياء الباطل في ملفّقاته.

ومن الغريب أنّ هذا القفاري، وبهذه البضاعة الهزيلة، يريد في بحثه هنا أن يطاول كتاب (نهج البلاغة) الشريف الذي هو بين كتب الأدب كالشمس في رائعة النهار الضاحي، وكالنجم اللامع في سماء البلاغة والفصاحة.

والقفاري أقصر باعاً وأعيى منطقاً من (باقل) في مجاراة كلام أمير البلاغة، وملك الفصاحة والبراعة.

وقد اعتمد القفاري في دعاواه على حرّاني أعجمي (ابن تيمية) وتركماني ألكن (الذهبي) وهما لا يطالان تصريحات أقطاب اللغة، وأعيان الأدب، وثقات العلماء البارعين من الماضين والمعاصرين، فيما قالوه عن (نهج البلاغة) من مدحٍ وثناء وتقدير وتقييم وتجليل وتعظيم.

وحيث أنّ البحث عن (نهج البلاغة) وما يدور حوله من الردّ على خزعبلات القفاري، طويلٌ، ولا يخصّ ما تصدينا له من الكلام حول الصحيفة السجّادية، فقد أرجأنا ذلك إلى مجال آخر.

الخاتمة

وهكذا نجد القفاري قد ملأ أوراقه بما يليق به من السبّ والقذف والاتّهام، والشتائم التي تنطبق عليه وعلى شيوخ إسلامه السلفي التكفيري.

كما رأينا أُسلوبه في استخدام التحريف والمراوغة، والتقلّب، وقد نبّهنا على مواضع لهذه الأمور في أوراقه التافهة، ولم نغادر صغيرة ولا كبيرة إلا كشفنا عوارها، وألقمناه حجراً كي لا يغترّ أحد بأساليبه الماكرة، وأكاذيبه الجائرة.

وهدفنا أن يقف القُرّاء الكرام على الحقّ فيتّبعوه، والحقيقة فيلتزموها.

وننبّه القُرّاء الكرام إلى:

١ ـ إنّ القفاري لم يذكر في أوارقه هذه وجدله ونقاشه، شيئاً عن (متن الصحيفة السجّادية). بل اكتفى بكيل التّهم والقذف والإدّعاء فقط.

٢ ـ إنّا ندعو الإخوة القُرّاء أن يُراجعوا (متن الصحيفة السجّادية) ويتلوها بدقّة فائقة، بغرض التعرّف على محتواها، بعيداً عن التعصّب والعداء وسوء الظنّ، ممّا أوحاه القفاري وأمثاله من الوهّابية والسلفية التكفيرية. ونُسَخ الصحيفة السجّادية

موفورة متداولة ولها طبعات كثيرة.

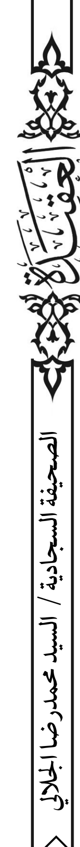
إنّ جميع الناس مدعوّون ليروا بأمّ أعينهم، ونور إيمانهم، ما في هذه الصحيفة الشريفة، من معانٍ لطيفة، ومعارف مهمّة، تزيد القارئ قرباً إلى الله، وصلابة في الاعتقاد، وجمالاً في الروح.

وفي الختام:

نحمد الله عزّ وجلّ ونشكره على ما هدانا من تأليف هذا الكتاب، تحقيقاً للحقّ ونصره، وإبطالاً للباطل ودحره، فنقول:

ربّنا آمنّا بك، واتّبعنا الرسول وآل الرسول صلواتك عليهم، فاكتبنا مع الشاهدين، وانصر الإسلام والمسلمين على الكفر والكافرين وأتباعهم المنافقين، والسلفيّين الوهابيّين والتكفيريّين. واحشرنا مع النبي وآله الطاهرين والشهداء والصدّيقين، وحَسن أولئك رفيقاً.

وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربّ العالمين..



*** هوامش البحث ***

(١) سير أعلام النبلاء ١٣: ١١٩ ـ ١٢١.

(٢) هذا الرقم لصفحات الطبعة الثانية المصرية.

(٣) سورة الأنبياء: ١٠٥.

(٤) سورة الإسراء: ٥٥.

(٥) سورة النساء: ١٦٣.

(٦) سورة الحجرات: ١٢.

(٧) سورة الملك: ١١.

(٨) سورة المائدة: ٣٥.

(٩) سورة الإسراء: ١٤.

(١٠) سورة الحاقة: ١٩.

(١١) سورة الحاقة: ٢٥.

(١٢) سورة الانفطار : ١٢و١٣.

(١٣) سورة التكوير: ١٠.

(١٤) سورة الكهف: ٤٩.

(١٥) الصحيفة الرضوية لليزدي : ٥١.

(١٦) صحيفة رضوي، لليزدي: ٢٥.

(١٧) سورة القصص: ٦.

(١٨) سورة النحل: ٦٨.

(١٩) سورة المائدة:

(٢٠) سورة القدر: ٤ ـ ٥.

(٢١) وذكرّني هذا الكلام عن نزول جبرائيل وعزائيل بما حدث لي في إحدى سفراتي إلى حلب الشهباء صانها الله من كلّ بلاء، حيث ركبت سيارة أجرة عامّة، وكان ركّابها أربعة، أحدهم امرأة كبيرة محجّبة، وكان إلى جنب السائق شابٌ نَزِق يُغنّي بأعلى صوته أغنية مستهجنة، وبمجرّد ركوبي وسماعي صوته العالي، قلتُ له: أخي، هذه السيّارة ليست خاصّة لك، ثمّ إنّ معنا حرمة فلا يجوز أن تغنّي هكذا؟! فأدار وجهه إلى الخلف، فرآني في زي رجل دين وعرف من زيّي أنّي شيعيٌ، فقال: هاه، أنتم الشيعة، تقولون إنّ (عزرائيل) خان ما كان عليه أن ينزل على عليّ، فنزل على محمّد!! فقلت له فوراً: إنّ عزرائيل هو ملك الموت، إن شاء الله يأخذ روحك، والذي تتّهمونه بالخيانة هو الملك جبرائيل. فضحك الركّاب جميعاً، وصار سبباً لسكوت الشابّ، وكان مصرياً، وحينئذٍ توجّه السائق وقال لي: رحم الله والديك يا شيخ! إنّ هذا الولد راكب معي منذ ساعة، وهو يغنّي وينعق ولا يسكت، وأنت خلّصتنا من صوته الأنكر، وكلّما نصحته لم يؤثّر فيه، لكنك خنقته بكلامك الطيّب.

أقول: إنّ ذلك الشابّ النزق، اقتنع وسكت، فهل القفاري المعوق الخرق، يسكت عن نعيقه؟

(٢٢) سورة النجم: ٣ ـ ٤.

(٢٣) سورة غافر : ٦٠.

(٢٤) سورة الفرقان: ٧٧.

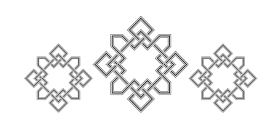
(٢٥) انظر المبحث الثاني من هذا الكتاب .

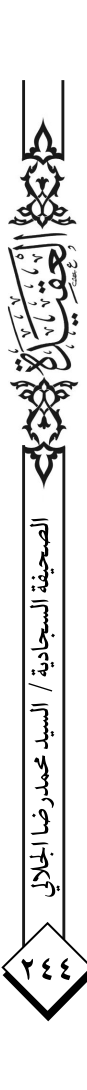
(٢٦) لنا كتاب بهذا العنوان (علم تحقيق النصوص) مطبوع، فليُراجع .

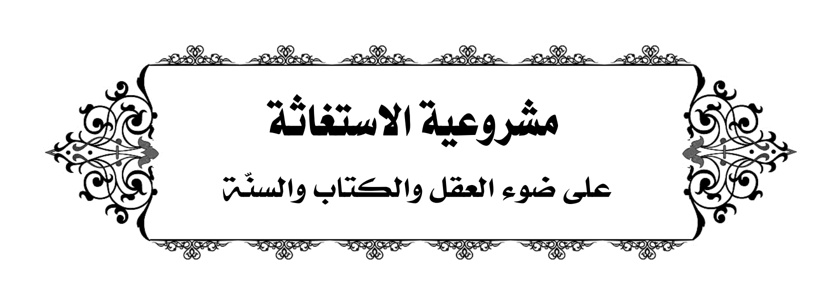
(٢٧) البقرة: ٢٨٥.

(٢٨) النساء: ١٣٦.

(٢٩) وقد جمعها المؤرّخ الشهير أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الفخم (الأغاني) فليُراجع .







مشروعية الاستغاثة

على ضوء العقل والكتاب والسنّة

الشيخ أحمد الدر

تمهيد:

حفلت المذاهب الإسلامية بالمسائل الخلافيَّة، لاختلاف منابع علومها، وتباين مصادر معارفها، نتيجةَ بُعد معظمِهم عن المنهل العذب الذي شرعه الله سبحانه لهم، وتنكبِّهم الصراط السويَّ الذي أمرهم بسلوكه، وتركِهم تركَةَ نبيِّهم التي أمرهم بالتمسُّك بها، حينَ قال لهم ـ والحديث متواترٌ ـ: «إنِّي تاركٌ فيكم الثِّقلينِ، كتابَ الله وعترتي أهلَ بيتي، ما إنْ تمسَّكتُم بهما لن تضلُّوا بعدي أبداً»[1].

وبقيت هذه المسائلُ تتجاذبُها طاولاتُ البحثِ والنِّقاش عبر مرور الأعوام، وتوالي الأيام، تشتدُّ تارةً، وتضعُفُ أخرى، بحسب البيئةِ التي تحتضنُها، والسياسة التي تحكمُها.

وليس لأحدٍ أن يُنكرَ تفرُّدَ الشِّيعةِ الإماميَّةِ بالتمسُّكِ بكتابِ الله وعترةِ نبيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ورفضِهم أيَّ دليلٍ يخالفُهُما، سواءٌ كان قولَ صحابيٍّ أو تابعيٍّ، أو رأيَ عالمٍ من علماء المسلمين.

فلا ترى في عقيدة الشِّيعة الإماميَّة مفردةً إلا ولها دليلٌ في كلام الله وكلام النبيِّ وآله الطاهرين (صلواتُ الله عليهم اجمعين)، فضلاً عن عدم معارضتها لها.

ومن المسائلِ الخلافيَّة التي دام الاختلافُ فيها إلى يومنا هذا مسألةُ الاستغاثة بغير الله سبحانه، حيثُ عدَّها بعضُ المسلمين ضرباً من ضروب الشرك بقولٍ مطلق!! وبعضُ جوَّزها بالحيِّ ومنعها بالميت، والبعضُ الآخر رآها سبيلاً من سُبُلِ التقرُّب إلى الله عزَّ وجلَّ.

ومنعاً من الخلطِ بين مسألةِ التوسُّل ومسألة الاستغاثة يحسنُ بنا بيان الفرقِ بينهما، ثمَّ نشرعُ في عرض الأدلَّةِ تِباعاً لنخرجَ بالنتيجةِ التي تصدِّقُ عنوانَ البحث، وهو: مشروعيةُ الاستغاثة على ضوء العقل والكتابِ والسُّنة.

الفرقُ بين التوسُّل والاستغاثة:

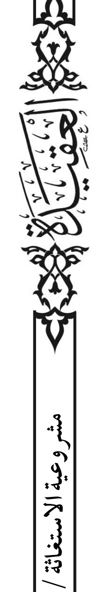
إنَّ خفاءَ الفَرقِ بين المسألتين، والجهلَ بمعنى كلٍّ منهما دفعَ بعضَهم إلى إصدار حكمٍ واحدٍ للمتوسِّلِ والمستغيثِ على حدٍّ سواء، فرماهما بالشِّركِ والضَّلالة جهلاً وجهالة.

والحالُ أنَّ التوسُّل لا يُتصوَّرُ الشركُ فيه عقلاً، فضلاً عن تحقُّقِهِ خارجاً، وهذا ممَّا لا يكادُ يخفى على عاقلٍ انتفع بنعمةِ العقلِ، وقليلٌ ما هم!!

وقبلَ أن نُعَرِّفَ التوسُّلَ والاستغاثةَ، لا بدَّ من تعريفِ الشِّركِ أوَّلاً، لنرى كيفيَّة استحالةِ تصوَّرَ الشِّركِ في التَّوسُّل، لنثبتَ لاحقاً استحالةَ تحقُّق الشركِ في الاستغاثةِ بناءً على تعريفِ الإماميَّةِ لها، واعتقادِهم بها.

تعريفُ الشِّرك:

الشركُ: هو أن يُجعلَ مع الله شريكٌ، يشاركهُ في أمرِهِ؛ وبما أنَّ الشركَ يضادُّ التَّوحيدَ، لزمَ انقسامُ الشركِ بحسبِ أقسامِ التَّوحيد.



فقد يكونُ الشركُ في الذَّات الإلهيَّة، كمن يعتقدُ بأنَّ ذاتَ الله مركبَّةً، أو يعتقدُ بمغايرةِ الصِّفات للذات وتأثيرِها مع الذَّات.

وقد يكونُ في العبوديَّة، كمن يعبدُ مع الله سواه، وهو الذي جعلَ مع الله إلهاً آخر.

وقد يكونُ في الفاعليَّةِ والتَّأثيرِ، كمن يعتقِدُ بعدمِ مؤثِّريَّةِ الله وحدَهُ ويضمُّ إليه غيرَهُ، كالَّذين قالوا أنَّ يدَ الله مغلولةٌ، أو الذينَ قالوا بتأثير الكواكب تأثيراً مستقلّاً عن الله؛ إلى غير ذلك.

والجامعُ لأقسام الشركِ كلِّها هو الاعتقادُ بأنَّ مع الله سواه، والعياذ بالله سبحانه وتعالى عمَّا يشركون.

ولذلكَ نجدُ القرآنَ الكريمَ حرِصَ على استخدام كلمة (مع) في الآيات التي تعرَّض فيها للشركِ والمشركين، ومنها:

﴿أئنَّكُم لَتَشهَدونَ أنَّ مَعَ الله آلهةً أخرى قلْ لا أشهَدُ قلْ إنَّما هو إلهٌ واحدٌ وإنَّني بريءٌ ممَّا تُشرِكون﴾ [٢].

﴿ ولا تَجعَلْ معَ الله إلهاً ءَاخَرَ فَتُلقَى في جَهنَّمَ مَلوماً مَدْحوراَ﴾ [٣].

﴿ قلْ لو كانَ مَعَهُ آلَهَةٌ كما يَقُولونَ إذاً لابتَغَوا إلى ذِي العَرشِ سَبِيلاً﴾ [٤].

﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ الله إلهاً ءَاخَرَ لا بُرهانَ لهُ بِهِ فإنَّما حِسَابُهُ عندَ ربِّهِ إنَّهُ لا يُفْلِحُ الكافِرونَ﴾ [٥].

﴿ ولا تَجْعَلوا مَعَ الله إلهاً ءَاخَرَ إنِّي لَكُم مِنْهُ نَذيرٌ مُبينٌ﴾ [٦].

إلى غيرها من الآيات الكريمة، هذا؛ وقد تكرَّرُ قوله سبحانه **﴿أَإِلَهٌ مَعَ الله﴾** في خمسِ آياتٍ متتاليةٍ من سورة النَّمل[٧] .

إذن اتَّضح بما قدَّمناهُ أنَّ الشِّركَ من المقولةِ العرْضيَّةِ لا الطُّوليَّة، لأنَّ المعيَّة هي جعلُ غير الله في عرْضِ الله سبحانه، أمَّا جعلُ غير الله إلى الله فلا يُتصوَّرُ فيه الشركُ إلا

على القولِ باجتماع النَّقيضين، ولا يقولُ به عاقلٌ مطلقاً، لحكمِ العقلِ باستحالة اجتماعِهما.

وبعد أنْ بيَّنا معنى الشرك، ننتقلُ لبيان معنى التوسُّل والفرقِ بينه وبين الاستغاثة، واستحالة اتِّصاف التَّوسُّل بالشرك كما أسلفنا.

التَّوسُّل:

(هو اتخاذُ الوسيلةِ والواسطةِ بينَ المتوسِّلِ والمتوسَّلِ إليه).

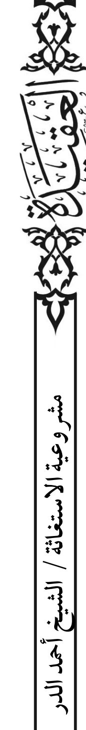
فعندما نتوسَّلُ إلى الله، إنَّما نتَّخذُ وسيلةً تقرِّبُنا إلى الله، وتحقِّقُ مُرادنا من الله بشرفِ تلك الوسيلة وجاهِها عند الله سبحانه.

فالتوسُّلُ طلبٌ من الله لا من سواه، لكنَّهُ طلبٌ مشفوعٌ بوسيلةٍ، يعتقدُ الطالبُ أنَّ لها عند الله جاهاً ومقاماً، فإذا قدَّمها بين يدي طلبِهِ وحاجتِهِ من الله كان الطلبُ أكثرَ قَبولاً، والحاجةُ أسرعَ قضاءً.

وذلك ظاهرٌ في أدعية التوسُّل وعبارات المتوسِّلين، كالدُّعاء الوارد في حديث صلاة يوم الغدير: «**اللهمَّ إنِّي أسألك بحقِّ محمدِ نبيِّكَ، وعليٍّ وليِّكَ، وبالشَّأنِ والقَدْر الذي خَصَصْتَهما به دونَ خلقِكَ، أن تُصلِّيَ عليهما وعلى ذُرِّيتِهما**»(٨).

والدعاء المشهور، الذي علَّمه الإمامُ الصادقُ عليه السلام للجعفي، وهو ما رواه الكليني بسند صحيح، عن محمد الجعفي، عن أبيه، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كنتُ كثيراً ما أشتكي عينَيَّ، فشكوتُ ذلكَ إلى أبي عبد الله عليه السلام فقال: «**ألا أعلِّمُكَ دعاءً لِدُنياكَ وآخِرَتِكَ، وَبَلاغاً لِوَجعِ عينيك**»؟ قلت: بلى.

قال: **تقول في دُبُرِ الفَجر ودُبُر المغرب: «اللهمَّ إنِّي أسأَلُكَ بحقِّ محمَّدٍ وآلِ محمَّدٍ عليك صَلِّ على محمَّدٍ وآلِ محمَّد، واجعل النُّورَ في بَصَري، والبصيرةَ في دِيني، واليقينَ في قلبي، والاخلاصَ في عَمَلي، والسَّلامةَ في نفسي، والسَّعَةَ في رِزقي، والشُّكرَ لك أبداً**



ما أبقيتني»[٩].

ودعاءِ باقرِ علومِ الأنبياء والأوصياء (صلواتُ الله عليهم اجمعين)، المروي في الكافي بسندٍ صحيحٍ، عن أبي عبيدة الحذَّاء، قال: سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول ـ وهو ساجد ـ: «**أسألكَ بحَقِّ حبيبِكَ محمّدٍ إلا بدَّلتَ سيِّئاتي حسنات، وحاسَبْتَني حِساباً يسيراً**».

ثمَّ قال في الثَّانية: «**أسأْلُكَ بحقِّ حبيبِكَ محمَّدٍ إلا كَفَيتني مَؤُونةَ الدُّنيا، وكلَّ هولٍ دونَ الجَنَّة**».

وقال في الثالثة: «**أسأْلُكَ بحقِّ حبيبِكَ محمَّدٍ لَمَّا غَفَرْت لي الكثيرَ من الذُّنوبِ والقليل، وقبلتَ منِّي عملي اليسير**».

ثمَّ قال في الرَّابعة : «**أسأْلُكَ بحقِّ حبيبِكَ محمَّدٍ لَمَّا أدخلتني الجَنَّة، وجعلتني من سُكَّانها، ولَمَّا نَجَّيتني من سَفَعَات النَّار برحمتك، وصلى اللهُ على مُحَمَّدٍ وآلِهِ**»[١٠].

ومن هنا قلنا: لا يُمكنُ تصوُّرُ الشِّركَ في التوسُّل، لكون الشركِ اتخاذَ غيرِ الله مع الله، أمَّا التوسُّلُ فهو اتخاذُ غيرِ الله إلى الله.

ونكتفي بهذا المقدار في التوسُّلِ لوضوح حاله من جهةٍ، ولكون موضوعِنا هو الاستغاثةُ من جهة أخرى.

الاستغاثة في اللغة:

الغوثُ: مِنَ الإعانةِ والنُّصرةِ عند الشِّدَّة[١١].

وغَوَّثَ الرجلُ، واسْتَغاثَ، صاحَ: وا غَوْثاه، والاسمُ: الغَوْث، والغُواثُ، والغَواثُ.

واسْتغاثَني فلانٌ فأَغَثْتُه، والاسم الغِياثُ، صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها[١٢].

الاستغاثة في الاصطلاح:

عُرِّفَت الاستغاثة بتعاريفَ عدَّةٍ، بحسبِ اختلافِ المشارب والمذاهب، ولا يهمُّنا التَّحقيقِ في تلك التَّعاريف، ولا تمييز صحيحِها من سقيمِها، بل المهمُّ تعريفُ الاستغاثة على ضوء عقيدةِ الشِّيعةِ الإماميَّة (أعزهم الله سبحانه)، لنُثبتَ أنَّها موافقةٌ للكتابِ والعترةِ الطاهرة، مؤيَّدةً بالعقلِ وسيرةِ العقلاء.

ومن هنا كان تعريف الاستغاثة عندنا:

«**هي طلبُ الغوثِ ممَّن يُعتقَدُ بقدرتِهِ على الإغاثةِ، بإقدارٍ من الله سبحانه**».

وبناءً على التعريف المذكور:

أولاً: لا يُتصوَّرُ الشركُ في الاستغاثة بغير الله سبحانه، لأنها ـ كما تبيَّن من خلالِ تعريفها ـ هي استغاثةٌ طوليَّةٌ، وليست في عَرْض الله تعالى، حيث اشترطنا الاعتقاد بكون المُقدْرِ على الإغاثة هو الله لا سواه.

ثانياً: لا تصحُّ الاستغاثةُ بمن لم يُقدْرهُ الله عزَّ وجلَّ على الإغاثة، فلا يصح الاستغاثة من نار جهنم بشخصٍ لم يُقدره الله تعالى على ذلك، وإلَّا كانت لغواً محضاً، وإن لم تكن شركاً كما لا يخفى.

ثالثاً: لا فرق في تحقُّق الاستغاثة بين أن يكون المستغاثُ به حيَّاً أو ميتاً، بشرط أن تَثبُتَ له القدرة على الإغاثة بعد موته، وهذا ما سنبيِّنه لاحقاً.

ولازمُ التَّعريفِ أنَّ تصوَّرَ الشِّركِ في الاستغاثةِ ممكنٌ إنْ أخلَّ المستغيثُ بالشرط الثاني، وهو الاعتقاد بأنَّ إغاثةَ الغيرِ إنَّما كانت بإقدارٍ من الله سبحانه.

فلو كان المستغيثُ يعتقدُ بأنَّ المستغاثَ به قادرٌ على إغاثتِهِ بقدرةٍ مستقلَّةٍ عن قدرة الله تعالى لكان مشركاً بلا خلاف.

وعدمُ التفريقِ بين المقامين أوقع بعضَ المسلمين بالظلمِ والبهتان، فرموا كلَّ مستغيثٍ بغير الله بالشرك، دون تمييزٍ بين من يعتقدُ بأنَّ القدرة المطلقة لله سبحانه لا لسواه، ومن يعتقدُ بقدرة غير الله مستقلَّاً عن الله.

تنبيه:

لا يخفى أنَّنا بملاحظة تعريف الاستغاثة استغنينا عن استعراض ومناقشة أدلَّة المانعين من الاستغاثة القائلين بحُرمتها، كابن تيمية وأضرابه، لكون جميع أدلَّتهم قائمةً على إرجاع الاستغاثة إلى الشرك!!

وأنت خبيرٌ بأنَّنا بعدما قدَّمناه ـ من تعريف الشرك والتوسل والاستغاثة ـ عادت أدلَّتهم خاويةً بالية، لا تعدو كونها مصادراتٍ وتحريفاً للكَلِمِ عن مواضعِهِ.

أدلَّةُ مشروعيَّة الاستغاثة:

امتازَ مذهب أهل البيت (سلامُ الله عليهم) بتعدُّد الأدلَّة والبراهين على مسائله، فترى القرآن والحديثَ معتضدَيْن بالعقل حاضرين في جميع المسائل الاعتقاديَّة عند الشيعة الإماميَّة. ولا سيَّما الخلافيَّة منها، مع إضافةٍ فيها، وهي جعلُ أدلَّةَ المخالفين دليلاً عليهم لا لهم، مبالغةً في إظهار الحقِّ، وإسداءِ النُّصح، طلباً لمرضاة الله ومرضاة أوليائه الطاهرين (صلواتُ الله عليهم أجمعين).

ومسألتُنا التي نحن فيها من هذا القبيل، وسنستعرضُ أدلَّتها تباعاً، مقدِّمينَ الدليلَ الأعم على غيره، بالترتيبَ التالي:

- **الأول: الدليل العقلي.**
- **الثَّاني: سيرةُ العقلاء.**
- **الثالث: الدليل النقلي.**
- **القرآن**
- **روايات الإمامية**
- **روايات المخالفين.**



الدَّليلُ العقلي:

لَمَّا كانت الإستغاثة من المسلَّمات عندَ العقل والعُقلاء، لم نحتج لبسط الكلام في بيان الدليل العقلي والعُقلائي عليها، فنكتفي بمختصرٍ في كلٍّ منهما، يُثبتُ المرادَ ويُحقِّقُ الغاية.

يحكمُ العقلُ بقبح العقاب بلا بيان، أي يقبحُ من المولى معاقبةُ عبدِهِ على ارتكاب فعلٍ لم يُبيِّن له النَّهي عنه، أو على ترك فعلٍ لم يُبيِّن لهُ الأمرَ به.

وعليه، فما لم يرد نهيٌّ ـ من الشرع المقدَّس ـ عن فعلٍ ما، نستكشفُ إباحةَ هذا الفعل وعدمَ حرمته بمقتضى القاعدة العقليَّة المذكورة.

نعم، لا إشكال في وجوب البحث والفحص عن الحكم في المسألة قبل اللجوء إلى قاعدة القبح بلا بيان، فإذا كانت نتيجة البحث سلبيَّةً جرت القاعدة، وإلا انتفت بانتفاء الموضوعها.

وستعلم قريباً أنَّ ما استُدلَّ به على حرمةِ الاستغاثة أجنبيٌّ بعيدٌ كلَّ البعد عن الاستغاثة التي نعتقد بها.

ممَّا يحقِّقُ لنا موضوع القاعدة العقلية، وهو انتفاءُ البيان، لعدمِ وجودِ دليلٍ شرعيٍّ ينهى عن الاستغاثة، فيُطبِّقُ العقلُ حكمَهُ: يقبحُ العقابُ بلا بيان؛ وتثبُتُ مشروعيَّةُ الاستغاثة بالدليل العقلي.

الدليل العقلائي:

لقد جَرَت سيرةُ العقلاء على استغاثة النَّاس ببعضهم البعض، فالجاهل يستغيث بالعالم، والمريضُ يستغيثُ بالطبيب، والضعيف يستغيثُ بالقوي، ونحو ذلك.

ولا يستغيثون بهم اعتقاداً بأنَّهم آلهةٌ! أو في عَرْض الله سبحانه!! بل بما هم يملكون ما يفقده المستغيث.



ونفسُ هذه السيرة جاريةٌ بين الموحِّدين والمسلمين والمؤمنين إلى يومنا هذا، فترى الجاهلَ يقصدُ العالمَ ويطلبُ منه تعليمه؛ والمريضَ يقصدُ الطَّبيبَ ويطلبُ منه معالجتَه؛ والضعيفَ يلجأُ إلى القويِّ ويطلبُ منه الانتصار له؛ وهكذا.

ولم يردْ في أيِّ شريعة من الشرائع السماويَّة نهيٌ عن هذه السيرة، كما سننبِّهُ عليه في مناقشة ما زعموه من أدلةٍ على المنع.

وجريان هذه السيرةِ على مرأىً ومسمعٍ من المعصوم عليه السلام مع عدم صدور الردع عنها، كافٍ في إثبات مشروعيَّتها، إذا لو لم تكن ممضيَّةً عندهم عليهم السلام لردعوا عنها ومنعوا منها.

بل ستعرف قريباً أنَّهم (سلامُ الله عليهم) أدَّبوا المسلمين على هذه السيرة، وحثُّوهم عليها، كما في الأدعية التي كانوا يعلمونهم إيَّاها.

الدليل النقلي:

وهو منحصرٌ بالقرآن والعترة الطاهرة عندنا، لكونهما الناطقَين عن الله سبحانه، كما تفيدهُ الأدلةُ المتواترة، من قبيل حديث الثقلين، وغيره.

وأمَّا عند المخالفين فالدليل النَّقليُّ عندهم سنَّةُ النبيِّ صلى الله عليه وآله وقولُ الصَّحابي، على اختلاف بينهم في وجوه حجية قول الصحابي، كما يظهر لمن راجع المطوَّلات من مصنَّفاتهم الفقهية ونحوها.

وها نحنُ نستعرضُ الأدلَّة النقليَّةَ مبتدئين بأشرفها، وهو القرآن الكريم.

القرآن يُقرُّ الاستغاثةَ المذكورة:

إنَّ القرآن الكريم هو المرجعُ الأولُ الذي أُمرنا بالرجوع إليه في أمور ديننا، واتفقَ المسلمون على ذلك رغم اختلاف فِرَقهم، وتعدُّد مذاهبهم، ومن هنا كان

الواجبُ على كلِّ مسلمٍ التسليمَ بما جاء في الكتاب العزيز، وعدم ردِّه مطلقاً، إلا في المتشابه فيُرجعُ فيه إلى من كان القرآنُ آياتٍ بيِّناتٍ في صدورهم.

ومن ردَّ شيئاً منه فقد حكم على نفسه بالكفرِ والجحود والعياذ بالله سبحانه، بدليل نصِّ القرآن والسنَّة المتواترةِ وإجماع المسلمين كافَّة.

ونحنُ إذا رجعنا إلى كتاب الله تعالى نجدُهُ صريحاً في إمضاء الاستغاثة، كما في الآيات التي تحكي قصَّة نبي الله موسى (على نبيِّنا وآله وعليه السلام) مع الرجلِ الذي استغاث به.

يقولُ الله سبحانه: ﴿**وَدَخَلَ الْـمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ**﴾ .

وتقريبُ الاستدلال بهذه الآية الكريمة:

أولاً ـ لقد نصَّ القرآن الكريم على أنَّ الرجل استغاث بموسى عليه السلام، ولم يستغث بالله تعالى

ثانياً ـ لم ينقل القرآنَ اعتراض موسى عليه السلام على الرجل، بأنَّه كيف تستغيثُ بي دون الله سبحانه؟!! وسكوتُ نبي الله عن ذلك إمضاءٌ لفعل الرجل.

ثالثاً ـ لقد أخبرنا الله سبحانه بأنَّ موسى استجاب لاستغاثة الرجل، مما يعني أنَّه أقرَّهُ عملاً، فضلاً عن الإمضاء كما تقدم.

رابعاً ـ لم يُسجل القرآنُ اعتراضَ الله سبحانه على استغاثة الرجل بغير الله، ولو كانت شركاً أو ضلالاً لكان ينبغي أن ينبِّـه عليه، لأنَّ القـرآن لا يقرُّ باطلاً والعياذُ بالله.

خامساً ـ لم ترد أيَّةُ آيةٍ في القرآن ـ في موضعٍ آخر ـ تصرِّحُ أو تلْمِحُ إلى الاعتراض على هذه الاستغاثة، أو تنهى عنها، كما جاء النهيُ عن الصلاة على المنافقين.

النتيجة:

أقرَّ القرآن الكريمُ الاستغاثةَ بغيرِ الله سبحانه، ولا بدَّ لنا من إضافة قيدٍ لهذا الإقرار وهو أن تكون الاستغاثةُ جاريةً على السيرة العقلائية، فلا يدخلُ فيها الاستغاثةُ بغيرِ الله اعتقاداً بأنَّ غيرَ الله له قدرةٌ مستقلَّةٌ عن الله تعالى، لكونِ ذلك شركاً بلا خلاف.

وعليه، فمن منع الاستغاثةَ بغيرِ الله مطلقاً فقد ردَّ على القرآن، والرادُّ على القرآن رادٌّ على الله سبحانه، وهو الكفرُ بعينه.

وهناك آياتٌ أُخَرُ تدلُّ على العنوان، كآيات معجزة نبيِّ الله عيسى (على نبيِّنا وآله وعليه السلام)، حيث كانوا يستغيثون بنبي الله لإحياء موتاهم وشفاء مرضاهم، فكان يغيثهم بإذن الله، واستعراض تلك الآيات وتفصيل الكلام فيها يُطلبُ من مظانِّه.

ففيما ذكرنا الكفاية لمن كان طالباً للهداية، مجانباً لسُبُل أهل الغِواية.

السُّنَةُ النبويَّةُ تُقرُّ الاستغاثةَ بل وتأمر بها:

كثيرةٌ جداً هي الروايات الشَّريفةُ الواردةُ عن عِدل الكتاب، وهم النبيُّ وآله صلى الله عليه وآله في إقرار الاستغاثة، بل الأمر بها، الدالِّ على استحبابها للشارعِ المقدَّس.

بل كذلك الروايات الواردة عن الصَّحابة الأجلَّاء وغيرهم.

وفيما يلي عرضُ لِباقةٍ روائيَّةٍ من رياض التراث الرِّوائيِّ الإمامي الشريف، وإنْ كانت مسألة الاستغاثةِ عندنا من بديهيَّات التشيُّع، قولاً وعملا.

روايات الإستغاثة في التراث الإماميِّ:

لا خلاف بين أحدٍ من فقهاء الطَّائفة الحَقَّة في جواز الاستغاثة بالنبيِّ وآله صلى الله عليه وآله، بل وبغيرهم بالشرط المتقدِّم في تعريف الاستغاثة.

وقد حفلت كتبهم ومصنَّفاتهم بذكر روايات الاستغاثة، أدعيةً وزياراتٍ ونحوها، بدءاً بأهمِّ كتبها وهو كتاب الكافي وصولاً إلى المؤلَّفات المعاصرة.

ودعونا نتبرَّكُ بذِكر خمس رواياتٍ منها تيمُّناً بالخمسة أصحاب الكساء (سلامُ اللهِ عليهم)، يثبتُ بها العنوان، ويتحققُ المطلوب.

الروايةُ الأولى: نقشُ خاتم الإمام العسكري عليه السلام:

روى الشيخُ الصَّدوق (رضوانُ الله عليه) بإسناد صحيح عن إبراهيم بن مهزيار ـ وهو من أصحاب الإمام العسكري عليه السلام ـ حديثَ لقائِهِ بالإمام الحجَّةِ (عجَّل الله فَرَجَه)، وصدرُ الحديث يحكي كيفية لقاء ابن مهزيار برسول الإمام الحجَّة (أرواحنا له الفدا)، وسؤال الرسول عن العلامة التي مع ابن مهزيار، فقال له إبراهيم بن مهزيار: «لعلَّكَ تُريدُ الخاتم الذي آثَرَني اللهُ به من الطَّيِّبِ أبي محمد الحسن بن علي عليه السلام؟

فقال: ما أردتُّ سواه، فأخرجتُهُ إليه، فلمّا نَظَرَ إليه استعبر وقَبَّله، ثمَّ قرأَ كتابَتَهُ، فكانت: **يا اللهُ يا محمَّدُ يا عليُّ**.

ثم قال: بأبي يداً طالما جِلْتَ فيها...»(١٣).

محلُّ الشاهد: جعلُ الإمام المعصوم عليه السلام نقشَ خاتَمِهِ استغاثةً بالله ونبيِّه ووليِّه.

الروايةُ الثانية: زيارة المعصومة عليها السلام

وهي السيِّدةُ الطاهرةُ العالمةُ فاطمة بنتُ موسى بن جعفر، أختُ الإمام السلطان عليِّ الرضا (صلواتُ الله عليهم أجمعين)، التي شرَّفت مدينةَ قم مذ نزلت فيها، وبها أصبحت حرماً لآل محمد صلى الله عليه وآله.

شَرُفَت فكانت في الحديثِ المُسنَدِ	حرماً لآل البيتِ آلِ محمَّدِ
ودَنَت لتلثمَها السَّما مُذ ضُمِّنت	ريحانةً تُنمى لِعِترةِ أحمدِ
هي بنتُ موسى لا الكليمُ بل الذي	خرَّ الكليمُ لنورِهِ المتوقِّدِ[١٤]

أوردَ زيارتها العلَّامةُ المجلسي (رضوانُ الله عليه) بسندٍ صحيحٍ أعلائيٍّ عن الرضا (سلامُ الله عليه)، قال: «**يا سعدُ! عندكم لنا قبرٌ**».

قلت: جُعِلْتُ فداك، قبرُ فاطمةَ بنتِ موسى عليهما السلام؟

قال: «**نعم، من زارها عارفا بحقها فله الجَنَّة، فإذا أتيت القبر فقم عند رأسها، مستقبلَ القِبلة، وكبِّر أربعاً وثلاثين تكبيرةً، وسبِّح ثلاثاً وثلاثين تسبيحةً، واحْمَدِ ثلاثاً وثلاثين تحميدةً، ثمَّ قل: السلام على آدم صفوة الله... [إلى قوله]: يا فاطمةُ اشفعي لي في الجنَّة...**» الزيارة[١٥].

وزيارتُها هذه (صلوات الله عليها) عاليةُ المضامين، محكمةُ المباني، مُتقنةُ المعاني، سطورُها تدلُّ على صدورِها، ولنا شرحٌ بليغٌ عليها نسألُ الله التَّوفيقَ لإتمامه.

محلُّ الشاهد: الاستغاثةُ بمولاتنا المعصومة فاطمةَ بنتِ موسى (سلامُ اللهِ عليها).

الروايةُ الثالثة: دعاء التَّوسُّل:

وهو دعاءٌ جليل في التوسُّل والاستغاثة، مرويٌّ عن أئمَّتنا (صلواتُ اللهِ عليهم)، أورده العلَّامة المجلسيُّ (رضوانُ اللهِ عليه) في بحاره[١٦]، قائلاً:

وجدت في نسخة قديمة من مؤلفات بعض أصحابنا (رضي الله عنهم) ما هذا لفظه:

هذا الدُّعاءُ رواه محمدُ بنُ بابويه[17] رحمه الله عن الأئمة [18] عليهم السلام، وقال: ما دعوتُ في أمرٍ إلا رأيتُ سرعةَ الإجابة، وهو:

«**اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وآله، يا أبا القاسم! يا رسول الله! يا إمام الرحمة! يا سيدنا ومولانا! إنَّا توجَّهنا، واستشفعنا، وتوسَّلنا بك إلى الله، وقدَّمناك بين يدي حاجاتنا، يا وجيهاً عند الله! اشفع لنا عند الله...**» الدعاء.

وهو يعدِّدُ المعصومين الأربعةَ عشرَ واحداً تلو الآخر، بدءاً برسول الله صلى الله عليه وآله وانتهاءً بخاتم الأئمَّة المهدي (عجَّل الله اليُمنَ بلقائه)، ويتوسَّل بهم فرداً فرداً، ثم يتوسَّل بهم جمعاً.

وهذا الدُّعاءُ له قداستُهُ عند المسلمينَ الشيعةِ (أعزَّهم الله)، يدمنون تلاوتَهُ في بيوتهم ومساجدهم وحسينيَّاتهم، ولكَم فرَّجَ الله به عنهم، وقضى حاجاتهم، ببركةِ محمدٍ وآلِ محمدٍ صلى الله عليه وآله.

الروايةُ الرَّابعة: يا مولاتي فاطمةُ أغيثيني

روى الفقيهُ الجليلُ الشيخ سليمان بن الحسن الصهرشتي ـ وهو من تلامذة السيد المرتضى وشيخ الطائفة (رضوانُ الله عليهم) ـ في كتابه: قبس المصباح، عن المحدِّث الجليل المفَضَّل بن عمر، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إذا كانت لك حاجةٌ إلى الله، وضِقتَ بها ذَرْعاً، فَصَلِّ ركعتين، فإذا سلَّمت كَبِّر اللهَ ثلاثاً، وسَبِّحْ تسبيحَ فاطمةَ** عليها السلام.

ثمَّ اسجد وقل مائة مرة: يا مولاتي فاطمةُ أغيثيني[19].



ثمَّ ضعْ خدَّكَ الأيمنَ على الأرض، وقل مثل ذلك، ثم عُدْ إلى السجود، وقل ذلكَ مائةَ مرةٍ وعشرَ مرَّات، واذكر حاجتَكَ، فإنَّ الله يقضيها»[٢٠].

الروايةُ الخامسة: استغاثةُ الأئمَّة بأمِّهم الزهراء (صلواتُ الله عليهم أجمعين)

روى ثِقةُ الإسلام الكليني (رضوانُ الله عليه) بسندٍ صحيحٍ عن علي بن أبي حمزة، عن أبي إبراهيم عليه السلام[٢١]، قال: قال لي: **«إنِّي لموعوكٌ منذ سبعةِ أشهر، ولقد وعكَ ابني اثني عَشَرَ شهراً، وهي تَضاعفُ علينا، أشْعَرتُ أنَّها لا تأخذُ في الجسد كلِّهِ، وربما أخذت في أعلى الجسدِ ولم تأخذْ في أسفَلِهِ، وربَّما أخَذَت في أسفَلِهِ ولم تأخذْ في أعلى الجسدِ كلِّهِ»**.

قلت : جُعِلتُ فداك، إنْ أذنتَ لي حدَّثْتُكَ بحديثٍ عن أبي بصير، عن جدِّكَ أنَّهُ كان إذا وعكَ استعانَ بالماء البارد، فيكونُ له ثوبان، ثوبٌ على جسده، وثوبٌ في الماء، يُراوِحُ بينهما، ثمَّ ينادي ـ حتى يُسمَعُ صوتُهُ على بابِ الدار: **«يا فاطمةُ بنتَ محمَّد»**؟!

فقال: **«صَدَقَ»**.

فقلت: جُعلتُ فداك، فما وجدتُّم للحُمَّى عندَكُم دواءً؟!

فقال: **«ما وجدنا لها عندنا دواءً إلا الدُّعاءَ والماءَ البارد.**

إنِّي اشتكيتُ، فأرسل إليَّ محمدُ بنُ إبراهيمَ بطبيبٍ له، فجاءَني بدواءٍ فيه قَيءٌ، فأبيتُ أن أشرَبَهُ، لأنِّي إذا قيئتُ زالَ كلُّ مِفصَلٍ عنِّي»[٢٢].

والمرادُ بالدعاء استغاثتهم عليهم السلام بأمِّهم فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله، وهو محلُّ الشاهد.

ونكتفي بهذا المقدار من الرِّوايات الشريفة في باب الاستغاثة، ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى كتب الأدعية والزيارات فهي عابقة برياحينها فوَّاحةٌ بشذاها.

رواياتُ الاستغاثة في التراث المخالف:

يتعجَّب المتتبِّعُ لأقوال المخالفين وآرائهم في الاستغاثة، فقولٌ حرَّم الاستغاثة

بغير الله مطلقاً، وقولٌ خصَّ الحرمةَ بالاستغاثة بالميت دون الحي، وقولٌ جوَّز الاستغاثة بالنبي ﷺ دون غيره، إلى غيرها من الأقوال التي تكشف عن الأهوائيَّة التي عبثت بدين الله وشرعه!!

ويزدادُ المرءُ تعجُّباً عندما يجدُ أنَّ مصادرهم حافلةً بالأدلَّة النافيةِ لأقوالهم، المثبتة لنقيضِها، فيثبت التناقض بين الدليل المفترض والنتيجة المعتمدة.

وها نحنُ نستعرضُ شطراً من رواياتهم الدالَّة على مشروعيَّة الاستغاثة مطلقاً، بالنبي ﷺ وغيره، حياً كان أم ميِّتاً، مع الالتفات لتعريف الاستغاثة الآنف الذكر.

الرواية الأولى: استغاثة الصحابي بالنبي في قبره!

روى ابن أبي شيبة الكوفي (المتوفى سنة ٢٣٥هـ) في مصنَّفه قائلاً: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن مالك الدار ـ وكان خازنَ عمر ـ قال: أصاب النَّاسَ قحطٌ في زمن عُمَر، فجاء رجلٌ إلى قبر النبي (صلى الله عليه [وآله] وسلم، فقال: يا رسول الله! استسق لأمَّتك، فإنَّهم قد هلكوا.

فأتى الرجلَ في المنام، فقال له ائت عمر... الحديث[٢٣].

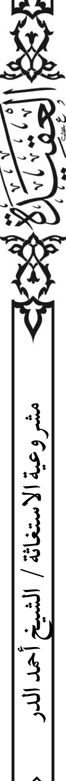
ومحلُّ الشاهد في الحديث هو الاستغاثة بالنبي ﷺ في قبره، على مرأى ومسمعٍ من الصَّحابة!! فيدلُّ على مشروعيَّة الاستغاثة عندهم جزماً، مع الالتفات لكونها استغاثة بالميت، وهي غايةُ هذا الباب.

غير أنَّ الاستدلال بهذا الحديث يتوقَّفُ على أمرين:

الأول: إثباتُ صحة السند.

والثاني: معرفةُ هوية الرجل المستغيث.

أمَّا السند: فلا إشكال في صحَّته بناءً على مبانيهم، بل نصَّ إمامهم ابن حجر على صحَّته بقوله: وروى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمَّان عن



مالك الدار...ثم ذكَرَ هذا الحديث[٢٤].

ومالكُ الدَّار: هو مالك بن عياض، له إدراك، أي كان صغيراً يوم أدرك النبي[٢٥] صلى الله عليه وآله، روى عن أبي بكر وعمر[٢٦]، وروى عنه أربعةٌ من ثقاتهم[٢٧]، بل ذكرهُ ابن حبَّان في الثِّقات[٢٨].

هذا، ولا مجالَ عندهم للطعن فيه عندهم، لإنَّ الطعنَ فيه طعنٌ في عمر وعثمان، فمالك الدار هذا كان ثقة عمر وعثمان، ولذلكَ ولَّياه بعضَ أمورهم[٢٩]، بل كان عمر يعدُّ مالكاً من آله[٣٠]!!

ومن أراد تفصيلاً أكثر حولَ حجيَّة سند هذا الحديث عندهم فليرجع إلى كتاب (رفع المنارة)، فلقد بحث الرواية سنداً بحثاً وافياً[٣١].

وامَّا هوية الرجل المستغيث، فهو الصحابي بلال بن الحرث المزَنِي، ذكر ذلك إمامهم ابن حجر في شرحه[٣٢].

ولو فرضنا جهالتَهُ فهي لا تقدح في الاستدلال بالرواية، حيثُ أقرَّه سيِّدُهم عمر ـ كما جاء في الحديث ـ ولم يعترض عليه، بل لم يُنقل اعتراضُ أحدٍ من الصحابة عليه، وهذا إقرار لا يتطرَّقُ إليه الإنكار.

أقول: ولو لم يرد في كتبهم غير صحيحتهم هذه لكانت فيها الكفاية وحصول الغاية بثبوت مشروعيَّة الاستغاثة بالنبيِّ صلى الله عليه وآله بعد موته، فضلاً عن حياته.

الرواية الثانية:

روى إمامهم البخاري في صحيحه، بإسناده عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم): «**ما يزالُ الرجلُ يسألُ الناسَ حتى يأتي يومَ القيامة ليس في وجهه مزعة لحم**».

وقال: «**إنَّ الشمسَ تدنو يومَ القيامة، حتَّى يبلغَ العَرَقُ نصفَ الأذن، فبينما هم**

كذلك استغاثوا بآدم، ثمَّ بموسى، ثمَّ بمحمَّد (صلى الله عليه [وآله] وسلم».

وزاد عبد الله، حدثني الليث، قال: حدثني ابن أبي جعفر: «**فيشفع، ليقضى بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب، فيومئذٍ يبعثُهُ الله مقاماً محموداً، يحمَدُهُ أهلُ الجمع كلُّهم**»(٣٣).

وهذا الحديث من أبلغ أحاديثهم في مشروعيَّة الاستغاثة، حيثُ إنَّه يخبرُ بأنَّ الناس يوم المحشر، يوم ﴿**لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً**﴾، يومَ ﴿**لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُون إلا مَنْ أتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيْمٍ**﴾، يستغيثون بغير الله، بآدم فلا يؤذنُ له بإغاثتهم، ثمَّ بموسى فلا يؤذنُ له كذلك، ثم بمحمد صلى الله عليه وآله فيؤذنُ له.

الرواية الثالثة: استغاثة هاجر (رضوانُ الله عليها)

روى إمامهم البخاري في صحيحه، بإسناده عن ابن عباس، قال: **لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان، خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة فيها ماء، فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيِّها حتى قدم مكة، فوضعها تحت دوحة، ثم رجع إبراهيم إلى أهله...**

[إلى أن قال]: **فذهبَتْ فصعَدَتْ الصَّفا، فنظَرَت ونظَرَت، فلم تحسَّ أحداً، حتى أتمَّت سبعاً، ثم قالت: لو ذهبتُ فنظرتُ ما فعل، فإذا هي بصوتٍ! فقالت: أغثْ إن كان عندكَ خير.**

فإذا جبريل، قال: **فقال بعقبه هكذا، وغمز عقبه على الأرض**، قال: **فانبثق الماء فدهشت أم إسماعيل، فجعلت تحفر.**

قال: فقال أبو القاسم (صلى الله عليه [وآله] وسلم: **لو تركته كان الماء ظاهراً**...الحديث»(٣٤).

ومحلُّ الشاهد استغاثتُها بصاحب الصوت الذي سمعته، مع نقل النبيِّ صلى الله عليه وآله لاستغاثتها دون الاعتراض عليها.



وتوهُّمُ أنَّها استغاثت بالله سبحانه ظاهرُ الفساد، لكونها استغاثت بمن أصدر صوتاً، مضافاً لقولها: إن كان عندك خير!!

الرِّواية الرابعة: أعينوا عبادَ الله:

روى الطبراني عن الثِّقات، عن ابن عباس، أنَّ رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم قال: «**إنَّ لله ملائكةً في الأرض سوى الحفظة، يكتبونَ ما يسقطُ من ورَقِ الشَّجرِ، فإذا أصاب أحدَكُم عُرجةً**[٣٥] **بأرض فلاة، فليُنادِ: أعينوا عباد الله**»[٣٦].

وأخرجَهُ البيهقي في شُعب الإيمان، وفيه: «**فإذا أصابَ أحدَكُم عُرجةً في الأرض، لا يقدرُ فيها على الأعوان، فليَصحْ فليَقُلْ: عبادَ الله أغيثونا! أو: أعينونا رحمكم الله، فإنه سَيُعانُ**»[٣٧].

وروى الطبراني نحوه، وقال بعده: وقد جُرِّبَ ذلك[٣٨].

وقال الحافظ ابن حجر ـ في حاشيته على إيضاح المناسك ـ: وهو مجرَّبٌ كما قاله الراوي للحديث[٣٩].

والحديث صريحٌ في مشروعيَّة الاستغاثة بالملائكة، وطلب العون منهم، بل يدلُّ على أنَّ الاستغاثةَ بغير الله قد تكون أدباً من آداب الله، فالنبي ﷺ علَّمَ أصحابه هذه الاستغاثة، ووعدهم بالإغاثة.

وسنَدُهُ كما أفدنا، لا غبار عليه، ولو أمكن النقاش في بعض رجال السَّنَد فإنَّ عملَ أئمَّتهم وفقهائهم ـ كالطبراني وابن حجر وغيرهم ـ كاشفٌ عن اعتبار الحديث عندهم، وهذا أبلغُ من تصحيح السند بتوثيق الرواة.

بل رووا بالاسناد الصحيح[٤٠] عن إمامهم أحمد بن حنبل أنَّه قال: (حَجَجْتُ خمسَ حِجَجٍ منها ثنتين راكباً وثلاثة ماشياً، أو ثنتين ماشياً وثلاثة راكباً.

فَضَلَلْتُ الطريقَ في حِجَّةٍ، وكنتُ ماشياً، فجعلتُ أقول: **يا عبادَ الله دلُّونا على الطَّريق**، فلم أزلْ أقولُ ذلك حتى وقعْتُ على الطَّريق)[٤١].

الرواية الخامسة: استغاثة عائشة، وعام الفتق!

روى الدَّارمي في سُنَنِهِ، بإسناده عن أبي الجوزاء أوس بن عبد الله، قال: **قُحطَ أهلُ المدينة قحطاً شديداً، فشَكَوا إلى عائشة، فقالت: انظروا قبرَ النبيِّ (صلَّى الله عليه [وآله] وسلم)، فاجعلوا منه كوى إلى السماء، حتى لا يكونَ بينَهُ وبينَ السَّماءِ سقُفٌ.**

قال: ففعلوا، فمُطِرنا مَطَراً، حتَّى نبتَ العُشبُ، وسمنت الإبلُ، حتَّى تفتَّقت من الشحم، فسُمِّيَ عامُ الفَتْق[٤٢].

وسند الحديث صحيح كما يظهرُ لمن راجع رجاله، ومن شاء الوقوف على تفصيل رجال السند وتعديلهم، والجواب على جهالات الألباني فليراجع كتاب رفع المنارة[٤٣].

أمَّا **محلُّ الشاهد** في الحديث فهو أمرُ عائشة لأهل المدينة بالاستغاثة بقبر النبيِّ صلى الله عليه وآله !!

والقدرُ المتيقَّنُ منه أنَّه استغاثةٌ برسول الله صلى الله عليه وآله وهو في قبره، مع أنَّ الظاهر كونه استغاثةً بقبر النبي فضلاً عن الاستغاثة به صلى الله عليه وآله.

وهو صريح بمشروعية الاستغاثة بل بكونها من بديهيَّات المسلمين منذ ذلك الزمن كما لا يخفى، حيث ساراعوا لامتثال أمرها، وعاينوا أثر الاستغاثة بأعينهم، وتناقلوها كرامةً للنبيِّ صلى الله عليه وآله.

وبما استعرضناه من روايات الاستغاثة من الطُرُق المعتبرة لدى الشيعة والسنة ثبَتَ العنوان وتحقَّقَ المراد، وبانَ أنَّ الاستغاثةَ سيرةُ المسلمين منذ عهد النبيِّ صلى الله عليه وآله وإلى يومنا هذا، لم يردع عنها أحدٌ، بل جاء التأييدُ لها، بل الأمر بها.

نعم، بقي علينا أن نُنبِّهَ على إشكاليَّةٍ أثارها بعضهم، جهلاً بالواقع أو تجاهلاً له وجهالة، وهي إشكالية الاستغاثة بالميت.

مشروعيَّة الاستغاثة بالميِّت والحيِّ سيَّان:

لا يكادُ ينقضي التَّعَجُّب ممَّن فرَّق بين الاستغاثة بالحيِّ والاستغاثة بالميت، فأجازها في الأول وحرَّمها في الثاني، وهو تحكُّمٌ محضٌ، وترجيحٌ بدون مرجِّح.

لأنَّ منشأَ حرمةِ الاستغاثة بغير الله ـ عند القائلين بالحرمة ـ رجوع الاستغاثة إلى الشرك، وليس ثمَّةَ وجهٌ للتفريق بين الشرك بالحيِّ والشرك بالميت!! فالشركُ حرامٌ مطلقاً.

ولو سلَّمنا بوجود الشبهة لديهم، أفلم يجدوا في الأحاديث الصحيحة التي أوردنا بعضها ما ينفي توهُّمَهم ويرفعُ جهلهم؟!

فصحيحة مالك الدَّار التي تقدَّم ذكرها صريحةٌ في جواز الاستغاثة بالنبيِّ صلى الله عليه وآله بعد موته، بل ظاهرةٌ في كون ذلك من المسلَّمات عند الصحابة والتابعين، إذ لم يُنقل اعتراض أحدٍ منهم على الصحابي بلال المزَني، حتى سيدُهُم عمر!

بل نقول: حتى لو لم ترد الرواية بمشروعية الاستغاثة بالميت فلا مجال لدعوى الحرمة، إذ الأصل يقتضي الإباحة ما لم يرد النهي.

والجهل بكيفيَّة إغاثته لنا لا يستلزم انتفائها، فقد يكون بدعائِهِ لنا، وقد يكون بغير ذلك، والمهم في المقام أن يكون قادراً على إغاثتنا بإقدارٍ من الله سبحانه، لا لنُثبتَ مشروعيَّة الاستغاثة بالميت، بل لننفي لَغْوِيَّتَها، وقد نبَّهنا على هذه النكتة عند تعريف الاستغاثة.

توهمٌ فاسد:

وأمَّا التمسُّك للحرمةِ بكون الميِّت لا يسمع كما زعمَهُ ابن تيمية وأضرابه فهو ـ مضافاً لكونه لو ثبتَ فلا يُثبِتُ حرمةً، وإنما يثبتُ لغويَّة الاستغاثة ـ بيِّنُ الفساد واضحُ البطلان لمنافاته للصحيح من أحاديث الفريقين، بل لمعارضته لظاهر القرآن.

ولنبسطُ الكلام قليلاً في بيان هذه المسألة تعميماً للفائدة وتشييداً للبرهان، فنقول:

إدراك الميت بعد موته:

إنَّ عالمَ ما بعد الموت عالمٌ غيبيٌّ بالنسبة لنا، لكونه محجوباً عنَّا، إلا بالمقدار الذي وصلنا من جهة السمع والنقل على لسان الوحي وتراجمته.

ولا خلاف في أنَّ الموت عبارةٌ عن خروج الرُّوح من الجسد، لا فناء الروح.

قال العالم النحرير ابن ميثم البحراني (رضوانُ الله عليه): أمّا حقيقة الموت: فاعلم أنّ الَّذي نطقت به الأخبار، وشهَدَ به الاعتبار، أنَّ الموتَ ليس إلَّا عبارة عن تغيّر حالٍ، وهو مفارقة الروح لهذا البدن الجاري مجرى الآلة لذي الصنعة.

وأنّ الروحَ باقيةٌ بعده، كما شهدت به البراهين العقليّة في مظانّها، والآثار النبويّة المتواترة.



ومعنى مفارقتها له هو انقطاع تصرّفها فيه، لخروجه عن حدّ الانتفاع به، فما كان من الأمور المدرَكَة لها تحتاجُ في إدراكه إلى آلة فهي متعطِّلةٌ عنه بعد مفارقة البدن، إلى أن تعاد إليه في القبر، أو يوم القيامة.

وما كان مدرَكَاً لها لِنَفسها من غير آلةٍ فهو باقٍ معها، يتنعَّم به، ويفرح أو يحزن، من غير حاجة إلى هذه الآلة في بقاء تلك العلوم والإدراكات الكلِّيّة لها هناك[٤٤].

ومع بقاء الروح لا يمكنُ أن نشخِّص كيفيَّةَ إدراكها، فضلاً عن دعوى انتفاء الادراك، ما لم ينطق الوحيُ ويزيل الشكَّ باليقين، وإلَّا يبقى إدراك الروح وعدمه في بقعة الإمكان.

فكيفَ والوحيُ قد نطقَ في محكمات آيات الكتاب مصرِّحاً بإدراك الميِّت بعد موتِهِ، وذلك قوله سبحانه: ﴿**ولا تَقولوا لِـمَنْ يُقتَلُ في سَبِيْلِ الله أمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلكِنْ لا تَشْعُرُوْنَ**﴾ [٤٥].

فالله سبحانه ينهانا عن وصف الشهيد بأنه ميتٌ! ويؤكِّد لنا حياتَه، ثمَّ ينفي عنا الشعورَ بحياة الشهيد لانحجابنا عن عالم ما بعد الموت.

وحياةُ النَّفس ملازمةٌ لإدراكِها، بل فسَّروا الحياةَ بالإدراك؛ وقد يُستفادُ من الآية معنىً زائدٌ على أصل الإدراك، فيكون إدراكه أقوى وأسمى من إدراكنا للأشياء.

حيث إنَّه بملاحظة الروايات التي ستأتي يظهرُ أنَّ جميع الأموات لديهم القابلية والقدرة على سماع الأحياء، فيكون تخصيص الشهداء في هذه الآية بالحياة مفيداً لكونهم أكثرَ من مدرِكين بالنحو المعروف، فيثبت لهم إدراكٌ خاص، يميِّزهم عن سائر الأموات.

وهناك آياتٌ أُخَر تفيدُ في هذا الباب، لكنَّنا فضَّلنا عدم نقلها احترازاً من الاطناب، واكتفاءً بهذه الآية حيثُ فيها لبُّ اللباب.

أما الرِّوايات من طُرُق الفريقين فصحيحةٌ صريحةٌ في سماع الميت لكلام الحي، ومن تلك الروايات روايات تلقين الميت، وهي محلُّ وفاق.

وعندنا أحاديث هذا الباب أكثر من أن تُحصى، إذ جميعُ أحاديث الزِّيارات ومجاميعها قائمةٌ على عقيدة سماع النبيِّ وأهل بيته (صلواتُ الله عليهم أجمعين) ومن أُلحِقَ بهم لسلام الزَّائر كما لا يخفى.

بل نصَّت بعض الرِّوايات على أنهم عليهم السلام يرون ويسمعون ويردُّون سلام الزَّائر، كما في حديث الاستئذان عند زيارة المعصوم (سلامُ الله عليه)، على ما رواه الشيخ المفيد والسيد ابن طاووس والشهيد الأول وابن المشهدي[٤٦] والكفعمي (رضوانُ الله عليهم اجمعين)، واللفظُ للكفعمي:

«اللّهُمَّ إنِّي أَعْتَقِدُ حُرْمَةَ صاحِبِ هذا المَشْهَدِ الشَّرِيفِ فِي غَيْبَتِهِ كَما أَعْتَقِدُها فِي حَضْرَتِهِ ، وَأَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَكَ وَخُلَفائَكَ عَلَيْهِمْ السَّلامُ أَحْياءٌ عِنْدَكَ يُرْزَقُونَ يَرَوْنَ مَقامِي وَيَسْمَعُونَ كَلامِي وَيَرُدُّونَ سَلامِي، وَأَنَّكَ حَجَبْتَ عَنْ سَمْعِي كَلامَهُمْ وَفَتَحْتَ

باب فَهْمِي بِلَذِيذِ مُناجاتِهِمْ»[٤٧].

وروينا بسندٍ صحيح، عن أبي عبد الله عليه السلام أنَّه قال: «**إنَّ المؤمنَ لَيَزُورُ أهلَهُ فَيَرى ما يُحِبُّ، ويُستَرُ عنه ما يَكرَهُ، وإنَّ الكافرَ لَيَزُورُ أهلَهُ، فَيَرَى ما يكرَهُ، وَيُستَرُ عنه ما يُحَبُّ**».

قال: «**ومنهم من يزورُ كلَّ جُمُعةٍ، ومنهم من يَزورُ على قَدرِ عَمَلِهِ**»[٤٨].

ومن طرُقِ المخالفين ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما ـ واللفظ للأول ـ قال: اطَّلعَ النَّبيُّ (صلى الله عليه [وآله] وسلَّم على أهل القليب، فقال: «**وجدتُّم ما وعَدَ ربُّكُم حقّاً؟**

فقيل له: أتدعو أمواتاً؟

فقال: **ما أنتم بأسمعَ منهم! ولكن لا يُجِيبون**»[٤٩].

والمستنكر على النبيِّ صلى الله عليه وآله هو عمر بن الخطاب، كما صرَّح بذلك البخاري لاحقاً عندما روى الحديث بشيءٍ من التفصيل[٥٠].

وروى البخاري أيضا بإسناده، عن أنس بن مالك، قال: «إن رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلَّم قال: «**إنَّ العبدَ إذا وُضِعَ في قبره، وتولَّى عنه أصحابه ـ وإنَّه لَيَسمَعُ قَرْعَ نعالهم ـ أتاه ملكان فيقعدانه...**»[٥١].

فتلخَّص مما تقدَّم أنَّ الميتَ يُدرك، يسمع ويرى ويتكلَّم، وإن كانت الكيفية عندنا مجهولة، لفقدانه آلة السمع المعهودة وكذا غيرها.

وبختام هذه المسألة نكون قد أتممنا ما أردنا بيانه، فأثبتنا ـ بالدليل العقلي والنقلي قرآنا وسنَّةً، والسنَّة من طريق الفريقين ـ مشروعيَّة الاستغاثة بغير الله سبحانه ما دام المستغيثُ معتقداً بأن القادر بالذات المُقْدِرِ للغير هو الله لا سواه.

وليكن آخر ما نذكرُهُ قصيدةَ استغاثةٍ بأمير المؤمنين (سلامُ اللهِ عليه) ليكون ختامها مسكاً.

أنسُ المحفل

مَـــا تـــمَّ أُنـــسُ المحفِـــلِ إلا بِـــذِكرك يـــا عَـــلي

مـــا ذاقَ ثغـــري طعْـــمَ لفـــظٍ كـــانَ أحـــلى مِـــنْ عـــلي

أنـــا إنْ شـــكوتُ الهـــمَّ زالَ الهـــمُّ باســـمكَ يـــا عـــلي

وإذا غزَتْنـــي النّائِبـــاتُ زمتُهـــا بـــكَ يـــا عـــلي

أنـــا لســـتُ أملـــكُ للإلـــهِ وســـيلةً إلا عـــلي

أنـــا مَـــا عرَفـــتُ اللهَ إلا مُـــذْ عرفتُـــكَ يـــا عـــلي

***

إنـــا رضِـــيناكَ الخليـــفةَ بعـــدَ طَـــهَ يـــا عـــلي

لم يَعبُـــدِ الـــرّحمنَ مَـــنْ لا يهتـــدي بِهُـــدَى عـــلي

صِرنـــا الـــرّوافِضَ مُـــذْ رفضـــنَا حُـــبَّ خصـــمِكَ يـــا عـــلي

عَـــابُوا علينـــا قولَنـــا في كـــلِّ شيءٍ يـــا عَـــلي

لم يجهَلُـــوا أنَّ الإلـــهَ يحـــبُّ إسـمَكَ يـا عـــلي

حتَّـــى النَّبـــيُّ محمـــدٌ مُـــذْ ضَـــاقَ نـــادَى يـــا عـــلي

مِفتَـــاحُ بـــابِ إجابـــةِ الـــدعَوَاتِ صرخـــةُ يـــا عـــلي

سَنَظلُّ حَتَّى آخر الأنفاسِ نهتِفُ يا علي

وكان الفراغ من تنقيح هذه المقالة وتهذيبها ـ بحمد الله ولطف أوليائه عليهم السلام يوم الاثنين ٢٩ رجب ١٤٣٦ هجرية.



* هوامش البحث *

(١) الكافي للكليني ج٢ ص٤١٥، وبصائر الدرجات للصفار ص٤٣٣، وكمال الدين وتمام النعمة للصدوق ص٢٤٠ باب: اتصال الوصية، وقد أورد فيه حديث الثقلين بطرقٍ كثيرة، وغيرها من مصادرنا.

ومن مصادر العامة: صحيح مسلم ج٧ ص١٢٣، وصحيح ابن خزيمة ج٤ ص٦٣، ومسند أحمد ج٣ ص١٤ و١٧ و٢٦ وج٤ ص٣٧١، وسنن الدارمي ج٢ ص٤٣٢، وفضائل الصحابة للنسائي ص١٥ و٢٢، والمستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ج٣ ص١٠٩ وقال في ذيله: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بِطُوله، وج٣ ص١٤٨، والسنن الكبرى للبيهقي ج٧ ص٣٠ وج١٠ ص١١٤، وغيرها.

(٢) سورة الأنعام ١٩.

(٣) سورة الإسراء ٣٩.

(٤) سورة الإسراء ٤٢.

(٥) سورة المؤمنون ١١٧ .

(٦) سورة الذاريات ٥١ .

(٧) الآيات ٦٠ و٦١ و٦٢ و٦٣ و٦٤.

(٨) المقنعة للمفيد ص٢٠٥، وغيره .

(٩) الكافي للكليني ج٢ ص٥٤٩ ح١١.

(١٠) المصدر نفسه ج٣ ص٣٢٢ ح٤.

(١١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ج٤ ص٤٠٠ .

(١٢) لسان العرب لابن منظور ج٢ ص١٧٤.

(١٣) كمال الدين وتمام النعمة للصدوق ص٤٤٥.

(١٤) مرآة الشعور ص ، من قصيدة: هي بنتُ موسى.

(١٥) بحار الأنوار ج٩٩ ص٢٦٧.

(١٦) نفس المصدر ص٢٤٧.

(١٧) محمد بن بابويه: شيخُ الأجلَّاء الشَّيخُ الصَّدوق (رضوانُ الله عليه)، صاحب المؤلَّفات الجليلة، والمصنَّفات الجميلة، وعلى رأسها كتاب: من لا يحضره الفقيه، وهو أحد الكتب الأربعة التي تدور عليها رحى استنباط الأحكام الشرعية عند فقهاء الإماميَّة الاثني عشرية، وتوفي رحمه الله سنة ٣٨١ هجرية.

(١٨) فما ذهبَ إليه بعضُ المعاصرين من المشكّكين زاعماً أنَّ دعاء التَّوسُّل من تأليف بعض العلماء إنَّما هو محضُ كذبٍ وافتراء، أراد من خلاله ثنيَ المؤمنين عن التوسُّل إلى الله بسادة العالمين، فلم يزدد الدعاءُ إلا انتشارا، ولم يزدد أهل الريب إلا تَبارا.

(١٩) استفزَّت هذه العبارة بعضَ أهل الريب والضَّلالة ممَّن يُظهِرونَ التشيُّع، فسارعوا لمحاربَتِها بمنهجيَّةٍ وهَّابيَّة، معطِّلينَ عقولَهُم، مستغشينَ ثيابَهم، واضعين أصابِعهم في آذانهم، مستكبرينَ استكبارا!!

وانتَ أيُّها العزيز! بعد أن تلونا عليكَ ما تلوناهُ من بيان معنى الاستغاثة وأدلَّتها، بات لك جليًّا بيِّناً أنَّ محاربةَ هذه العبارةِ ونحوها من عبارات الاستغاثة لا يتصدَّى لها شيعيٌّ إماميٌّ إلا إذا كان جاهلاً، أو مبتدعاً!! أعاذنا الله من مُضلات الفتن.

(٢٠) عنهُ بحار الأنوار ج٩٩ ص٢٥٤.

(٢١) الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام.

(٢٢) الكافي ج ٨ ص١٠٩ ح٨٧.

(٢٣) المصنَّف لابن أبي شيبة الكوفي ج٧ ص٤٨٣ ح٣٥، وأخرجه من هذا الوجه ابن أبي خيثمة كما في الإصابة ج٣ ص٤٨٤، والبيهقي في الدلائل ج٧ ص٤٧، والخليلي في الإرشاد ج١ ص٣١٣ـ٣١٤، وابن عبد البر في الإستيعاب ج٢ ص٤٦٤.

(٢٤) فتح الباري – ابن حجر – ج ٢ ص ٤١٢.

(٢٥) الجرح والتعديل – ابن أبي حاتم الرازي – ج ٨ ص ٢١٣.

(٢٦) الإصابة – ابن حجر – ج ٦ ص ٢١٦.

(٢٧) تاريخ الإسلام – الذهبي – ج ٥ ص ٢٢٤.

(٢٨) الثقات – ابن حبان – ج ٥ ص ٣٨٤.

(٢٩) الإصابة – ابن حجر – ج ٦ ص ٢١٦.

(٣٠) تاريخ المدينة – ابن شبة النميري – ج ٢ ص ٧٥١.

(٣١) رفع المنارة – محمود سعيد ممدوح – ص ٢١١.

(٣٢) فتح الباري – ابن حجر – ج ٢ ص ٤١٢.

(٣٣) صحيح البخاري – البخاري – ج ٢ ص ١٣٠.

(٣٤) صحيح البخاري – البخاري – ج ٤ ص ١١٦.

(٣٥) العُرجة: موضع العرَجَ من الرِّجل. انظر: العين للخليل الفراهيدي ج١ ص٢٢٣.

(٣٦) عنه: مجمع الزوائد للهيثمي ج١٠ ص١٣٢، وذيَّله بقوله: رواه الطبراني البزار، ورجاله ثقات.

(٣٧) شعب الإيمان للبيهقي ج٦ ص١٢٨ باب٥٣.

(٣٨) المعجم الكبير للطبراني ج١٧ ص١١٨.

٣٩) الدرر السنية في الرد على الوهابية لزيني دحلان ص٣٣.

(٤٠) حيث رواهُ إمامهم البيهقي، عن إمامهم الحاكم النيسابوري، عن إمامهم المحدث الفقيه أحمد بن سلمان، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه.

(٤١) شعب الإيمان للبيهقي ج٦ ص١٢٨، و تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج٥ ص٢٩٨،

(٤٢) سنن الدارمي ج١ ص٤٤.

(٤٣) رفع المنارة لمحمود ممدوح ص٢٠٣.

(٤٤) شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني ج٣ ص٩١.

(٤٥) سورة البقرة ١٥٤.

(٤٦) عنهم في بحار الأنوار للمجلسي ج٩٧ ص١٦٠.

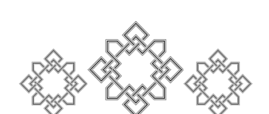
(٤٧) المصباح ص٤٧٢.

(٤٨) الكافي للكليني ج٣ ص٢٣٠ باب: أنَّ الميت يزور أهله.

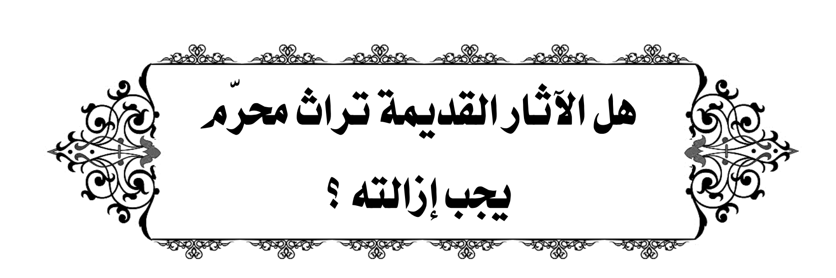
(٤٩) صحيح البخاري ج٢ ص١٠١.

(٥٠) المصدر نفسه ج٥ ص٨، وصحيح مسلم ج٨ ص١٦٣.

(٥١) صحيح البخاري ج٢ ص٩٢.







هل الآثار القديمة تراث محرّم يجب إزالته ؟

السيد محمود المقدس الغريفي

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا شريك له ولا ولد، والصلاة والسلام على نبي الأمة محمد الأمين والمبعوث رحمة للعالمين، الراضي منهم بقول (لا اله الا الله) ليكونوا آمنين، وعلى آله الطاهرين الهداة الأبرار الميامين، وعلى أصحابه الغرّ المنتجين المخلصين، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

وبعدُ: قد سمع العالم ورأى ما فعلته الزمرة الضالة التي تعرف اليوم (داعش)[1] بالآثار الحضاريّة القديمة في مدينة الموصل الحدباء، من تدمير معالمها وتهديم تماثيلها، وإزالة ومحو كامل مدنها الأثريّة والحضاريّة لما سلف من الأمم، وطمس كل ما له قيمة حضاريّة وإنسانية في محاولة لِطمسِ الهُـويّةِ الحضاريّة لتلك الشعوب ومسح ذاكرتها وشطب تأريخها، لبدأ كتابة تأريخ مشوه جديد تكتبه (داعش) المجرمة بأناملها الحادة المتوحشة، وتخطه بمداد دماء الأبرياء، على أشلاء الإنسانيّة، باسم الإسلام والإسلام منهم براء.

وقد استنكرت هذا الفعل الشنيع وأدانت أعمال (داعش) ومَنْ وراءها من المُتَسلِّفة[٢] الوهابيّة، جميع المرجعيات الدينيّة في العالم الإسلامي على اختلاف مذاهبها وتوجهاتها، لاسيما المرجعية العليا للشيعة الإمامية في الحوزة العلميّة في النجف الأشرف، والمرجعية العليا لأهل السنة والجماعة في الأزهر الشريف في مصر.

أما المرجعية العليا في النجف الأشرف فقد قالت على لسان ممثلها في كربلاء المقدسة خلال خطبة صلاة الجمعة: إن ما قامت به عصابات (داعش) الإجرامية من تدميرٍ وتخريبٍ لآثار مدينة الموصل ومتحفها الوطني دليل آخر على مدى وحشية هذا التنظيم وعدائه للشعب العراقي ليس لحاضره فقط وإنما لحضارته الضاربة في القدم ومستقبله. كما أَكَّدَت: الحاجة لتكاتف الجميع لمحاربة هذا التنظيم المتوحش الذي لايسلم منه البشر ولا الحجر...

وكان سماحة المرجع الديني الأعلى السيد علي الحسيني السيستاني دام ظله قد أفتى بحرمة أخذ أو شراء أو بيع أو اقتناء أي قطعة أثريّة سُرِقَت من المتحف الوطني العراقي أو من أماكن المواقع الأثريّة، إسلاميّة كانت الآثار أم غير إسلاميّة، فضلاً عن التجاوز عليها والعبث بها واتلافها، ونذكر لك بعض هذه الفتاوى التي أجاب عنها سماحته دام ظله:

السؤال١: لقد نهبت ـ كما تعلمون ـ كمية كبيرة من مقتنيات المتحف العراقي في بغداد بعد سقوط النظام السابق، وقد هُرِّبَ قسمٌ منها إلى خارج العراق:

أ ـ فهل يجوز لمن يقع شيء منها في يده ان يحتفظ به لنفسه أو يمنحه لغيره ؟

الجواب: لا يجوز بل لابدّ من إعادته إلى المتحف العراقي.

ب ـ وما حكم شراء ما يعرض منها للبيع في الداخل أو في الخارج ؟

الجواب: لا يَصِحُّ شراؤه أي لا يصبح ملكاً لـ (المشتري) فلو تسلّمه وجب عليه إِرجاعُهُ إلى المتحف المذكور.

ج ـ وإذا لم يَجُز شراءُ ما يُعرَضُ منها للبيع فهل يجوز دفع المال لغرض استنقاذها؟

الجواب: يجوز ولكن لابدّ من إعادة ما يُستنقذ منها إلى المتحف كما تقدم .

السؤال٢: يقوم البعض بحفر مواقع الآثار في مناطق مختلفة في العراق واستخراج قطع منها وبيعها في الداخل أو تهريبها إلى الخارج وبيعها هناك فهل يجوز ذلك ؟

الجواب :سماحة السيد مد ظله يمنع من ذلك .

السؤال٣: هل يختلف الحكم في الموارد السابقة بين الآثار الإسلاميّة وبين غيرها؟

الجواب :لا فرق بينهما في ما تقدم من الأحكام .

أما الأزهر الشريف ومن دار الإفتاء المصرية فقد أصدر بياناً أدان فيه هذا العمل الهمجي، بعد بث تنظيم (داعش) شريطا يظهر فيه رجال (داعش) وهم يحطمون تماثيل ومنحوتات تعود إلى الدولة الآشورية والأكدية في متحف الموصل مستخدمين مطارق كبيرة وآلات ثقب كهربائي، وأن فعلهم هذا يفتقرُ إلى أسانيد شرعية، فقال:

إِن الآراء الشاذَّة التي اعتمد عليها (داعش) في هدم الآثار واهية ومضللة ولا تستند إلى أسانيد شرعية.

وأشارت إلى أن هذه الآثار كانت موجودة في جميع البلدان التي فتحها المسلمون ولم يأمر الصحابة الكرام بهدمها أو حتى سمحوا بالاقتراب منها.

وأوضحت أن الصحابة جاؤوا إلى مصر إبان الفتح الإسلامي ووجدوا الأهرامات وأبا الهول وغيرها ولم يصدروا فتوى أو رأياً شرعياً يمس هذه الآثار التي تعد قيّمة تأريخيّة عظيمة.

وأضافت دار الإفتاء المصرية: إِن الآثار تعتبر من القيم والأشياء التأريخيّة التي لها أثر في حياة المجتمع والأمة؛ لأنها تعبر عن تأريخها وماضيها وقيمها، كما أن فيها عبرة بالأقوام السابقة، وتابعت أن الحفاظ على الكنوز الرائعة من الحصاد المادي للحضارة الإنسانيّة، التي يعود بعضها إلى العصر الإسلامي وبعضها إلى حضارات الأمم السابقة، أمر ضروري، وبالتالي فإن مَن تُسوِّلُ له نفسه ويتجرأ ويدعو للمساس بأثر تأريخي بحجة أن الإسلام يحرم وجود مثل هذه الأشياء في بلاده فإن ذلك يعكس توجهات متطرفة تنم عن جهل بالدين الإسلامي. وشددت على أن الحفاظ على هذا التراث ومشاهدته أمر مشـروع ولا يحرمه الدين، بل شجع عليه وأمر به لما فيه من العبرة من تأريخ الأمم.

وبينت دار الإفتاء المصرية في معرض ردها على هذه الفتاوى الشاذة التي استند إليها التنظيم، إنه يوجد العديد من الآيات والأحاديث النبوية التي تنهى عن هدم تراث الأسلاف مستشهدة بالآية الكريمة ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بعاد * إِرَمَ ذَاتِ العماد * الَّتِي لَمْ يُخلق مِثْلُهَا فِي البلاد * وثمود الَّذينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالوَاد** ﴾، وهى الآية التي تؤكد ضرورة لفت الأنظار في ما تفوق فيه هؤلاء القوم، كما ذكرت حديث الرسول الكريم ﷺ، الذى نهى فيه عن هدم آطام المدينة والمقصود بها الحصون. وأشارت دار الإفتاء إلى أنه عند دخول الإسلام حافظ على تراث الحضارات والآثار في مصـر وبلاد الرافدين ومختلف الحضارات التي سبقت الإسلام، وأبقوا على آثارها حتى وصلت إلينا كما تركوها، وأن دعوات التدمير تشير إلى جهل أصحابها).

وقال الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي القريب من المُتَسلِّفة الوهابيّة: بأن التماثيل التي صنعها الأقدمون قبل الإسلام تمثل تراثاً تأريخياً ومادة حيّة من مواد التأريخ لكل أمة فلا يجوز تدميرها وتحطيمها باعتبار أنها محرمات أو منكرات يجب تغييرها باليد. ورأى أنها (أي تماثيل الأقدمين) دلالة من نعمة الله تعالى على الأمة الذي هداها للإسلام وحررها من عبادة الأصنام .

وكان الشيخ القرضاوي يرد على سؤال لـصحيفة (الحياة) عن رأيه في قرار حركة(طالبان)[٣] ازالة كل التماثيل الأثريّة التي تقود إلى حقبة ما قبل الإسلام في أفغانستان، وبينها أكبر تمثال في العالم لبوذا واقفاً ـ وذلك سنة ٢٠٠١م ـ حيث قالت (طالبان): إن الاحتفاظ بها مخالف للشريعة).

وقال القرضاوي: ان للإسلام حكم معروف في إقامة التماثيل أو صنع الصور المجسمة وهو التحريم .. لكنه لفت إلى ان هذا كله يتعلق بالتماثيل التي يصنعها المسلمون بعد أن منّ الله عليهم بالإسلام وعرفوا منه الحلال من الحرام) وشدد: على أن التماثيل التي صنعها الأقدمون قبل الإسلام هي تراث تأريخي.

ولفت إلى أن المسلمين فتحوا أفغانستان منذ القرن الأول الهجري وكانت فيه هذه الأصنام ولم يفكروا في ازالتها وتدميرها وهم خير القرون من الناحية الدينيّة، كما كانوا أعظم قوة عسكرية في العالم يومئذ، ومع ذلك وسعهم السكوت على هذه المخلفات الأثريّة القديمة.

واستدل القرضاوي على فتواه قائلاً: ان المسلمين فتحوا مصـر في عهد عمر بن الخطاب وفيها معابد وآثار فلم يشغل عمرو بن العاص ومن معه من الصحابة انفسهم بإزالة آثار الوثنية المصـرية في المعابد بل اتجهوا إلى تحرير البشر أولاً وإخراجهم من عبادة العِباد إلى عبادة رب العباد .

وأضاف: أنه لا يكاد يخلو بلد فتحه المسلمون من بلاد الحضارات القديمة من وجود آثار جاهلية في معابده وقصوره التأريخيّة ومع هذا لم يهتم المسلمون الفاتحون وهم خير من اليوم بمحوها وازالتها كما يفكر بعض المسلمين اليوم .

ورأى القرضاوي: أنه لو كانت هذه التماثيل في أفغانستان أو غيرها من بلاد المسلمين تشكل خطراً عليهم في عقيدتهم ويخشى أن تفتن الناس عن عقيدة التوحيد وتردهم إلى الوثنية القديمة التي حررها الإسلام منها لقلنا يجب هدم هذه التماثيل

وازالتها حفاظاً على عقيدة الأمة وتوحيدها، لكن من المؤكد أن المسلمين اليوم في أفغانستان لا ينظرون إلى هذه التماثيل إلا أنها من آثار ابداع الأقدمين في فن النحت ونبوغهم فيه.

وقال: إن المصري المسلم ينظر إلى تمثال رمسيس المنصوب في قلب القاهرة إلى أنه مجرد أثر من آثار الحضارة الفرعونية القديمة التي تفننت في صناعة هذه التماثيل ولا أحسب أن هناك مصرياً واحداً ينظر إلى هذا التمثال وغيره في الجيزة أو الأقصر أو غيرها نظرة فيها رائحة للعبادة أو التقديس.

ثم خاطب القرضاوي حركة (طالبان) قائلا: أنصح إخواننا! في حركة (طالبان) أن يراجعوا أنفسهم فإن هذا القرار مع عِظم خطره فيه:

أولاً: يتضمن الإنكار على من سبقهم من المسلمين في أفغانستان من عصر الفتح الإسلامي إلى اليوم وقد كان فيهم العلماء الربانيون والرجال الصالحون ولم يزيلوا هذه الأشياء التي يريدون إزالتها اليوم وقد كانت موجودة من غير شك.

ثانياً: أنه يحرج كثيراً من إخوانهم المسلمين في أقطار شتى عندهم آثار ولم يفكروا مثل تفكيرهم ولهذا أحدث قرارهم قرار تدمير الآثار في أفغانستان ضجة في العالم الإسلامي كله وقوبل بدهشة واستنكار.

وثالثاً: إن العالم يعتبر هذه الآثار القديمة من الكنوز البشرية النفيسة التي لا تقدر قيّمها ولا بمليارات بلايين الدولارات كما تعتبرها ملكاً للبشرية جمعاء ولهذا تسارع منظمة اليونيسكو بالإسهام في انقاذ ما يتعرض منها لخطر التلف أو الغرق أو عوامل الطبيعة أو غير ذلك حماية للتراث الحضاري الإنساني.

ورأى القرضاوي: أن المهم هو تحرير العقول والأنفس من عبادة غير الله تعالى.

وفي المقابل أصدر بعض رجال هذه الجماعات الشاذة عن الأمة الإسلاميّة وعن سلوك عامة المسلمين من المُتَسلِّفة الوهابيّة بيانات وفتاوى للدفاع عن أفعال (داعش)

وما اقترفته بحق التراث الإنساني في العراق وسوريا بمبررات واهية وأدلة خاوية، ومن جملة مَنْ كتب في ذلك المُتَسلِّف الوهابي (محمد صالح المُنَجِّد) في صفحته على الأنترنت (الإسلام سؤال وجواب).

وحيث أنه جمع شتات أدلتهم وما تناقلته مواقعهم وأبواقهم من ردود وإجابات وتبريرات مهلهلة لأفعال (داعش) البربرية، جعلناها في مَعْرِضِ الرد على آراءهم، وبيان خوائها ووهنها وبُعدها عن الروح الإسلاميّة السّمحة، فكراً ومنهجاً.

ولله تعالى المنةُ على ما كتب لي من التوفيق في بيان ذلك، وأسألهُ تعالى الهداية والسداد في القول والعمل والاعتقاد إنه خير من سئل وأكرم من أجاب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

هل الآثارُ القديمةُ تراثٌ محرمٌ يجبُ إزالتُه ؟

لا يخفى على المتابع ما جرى في الآونة الأخيرة من الحرب الجاهلية التي شنتها الحركة المُتَسلِّفة الوهابيّة المتمثلة بما يسمى (داعش) على الآثار العراقية القديمة في الموصل، بعد أن باعوا ما استطاعوا منها خصوصاً ما يمكن حمله إلى الأسواق العالمية، ثم أجهزوا على ما تبقى منها تدميراً وتخريباً واتلافاً، بل وصل الأمر إلى نسف المدن الأثريّة بكاملها ومحوها عن الوجود، وما هذا إلا نتيجة الانحطاط الفكري الذي تعيشه هذه الجماعات الشاذة، والتي تراهم يعيشون أزمات نفسية داخلية قاهرة، وتخلفاً حضارياً لا يستطيعون معه أن يتكيفوا مع الواقع الحضاري للمسلمين، أو يتعايشوا في ظل النظام المدني الذي أمر به الإسلام ودعا اليه رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في جميع شؤون الحياة.

وخير شاهد على ذلك ما قرره النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في وثيقة المدينة المنورة، وقد رسم فيها



حدود التعايش السلمي والمدني بين سكانها على اختلاف اديانهم وتوجهاتهم، إلا أن تشبع أفكار هذه الجماعة المُتسلِّفة الوهابيّة بقيّم البداوة والصحراء، والجاهلية الرعناء، جعلت من سلوك الأعراب الجفاة، ذوي القسوة والعناد، منهجا لهم وأسوة يقتدون بها، بالرغم ممّا تقلقل به ألسنتهم كثيراً، وتترنم به أسماعهم دوما، من ذَمِّ الله تعالى للأعراب في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ الله عَلَى رَسُولِهِ وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَـمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[٥]، لأنهم بعيدون عن روح الإسلام وجوهره، وعن أخلاق القرآن ومنهجه، وعن سيرة النبيﷺ وسلوكه.

وعلى الرغم من أن ما تفعله اليوم هذه الجماعات الشاذة بالمسلمين خصوصا أعظم جرما من تدمير هذه الآثار الحضاريّة القديمة ـ بعد أن استراح منهم اليهود والنصارى في الجملة لاسيما يهود إسرائيل ـ من القتل والذبح والحرق، والتشـريد والتهجير، والسلب والنهب، والدمار والخراب، بل وصل الأمر إلى إبادة قرى ومدن بأكملها من ساكنيها قتلاً وتشريداً، ولا ترى مكاناً دخلوه إلا وعاثوا فيه فساداً، وتركوه خراباً.

وقد سلطنا الضوء على هذه الظاهرة المستهجنة، وإن كانت بمستوى لا يرقى إلى حرمة سفك الدماء وهتك الأعراض واستباحة الأموال، التي حفظت لابن آدم المكرم من الله عز وجل: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾[٦]. بالإسلام وهو الاقرار بالشهادتين، وبها تحقن الدماء والأموال والأعراض، قال النبيﷺ: من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله فقد حقن ما له ودمه إلا بحقهما، وحسابه على الله عز وجل[٧].

وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما، وغيرهما، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله(٨).

وبالإنسانيّة إن لم يقاتلك، فمن عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إلى مالك الأشتر لما ولّاهُ مِصْرَ قسَّم الناس صِنفَين: إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق(٩).

وبهذه الكلمة، أصبح دم المسلم وماله وعرضه خطا أحمرَ لا يمكن تجاوزه أو الاعتداء عليه، وبالمعاهدة والسلام لغيره، إلا عند هذه الحركة المُتَسلِّفة الوهابيّة، فإن كل من خالف آراءهم وسيرتهم من المسلمين فهو خارج عن الدين كافر.

والغريب في الأمر أن هذه الأفعال الشنيعة والأمور الفظيعة التي ترتكبها هذه الزمر المنحرفة تنسبها إلى الدين الإسلامي الحنيف وهو منها براء، براءة الذئب من دم يوسف، بل وتتقرب بها إلى الله تعالى كذباً وزوراً، وكأن الله عز وجل ارسل رسله لإبادة البشـرية جمعاء خصوصاً من لم يؤمن بهم، ومحو ما على وجه البسيطة من معالم الحياة المدنيّة ورقيها، لأن الحياة الكريمة في الآخرة لا في الدنيا؛ لتبقى خيمة الصحراء هي المأوى والملجأ والهدف لبني آدم ـ على ما يفهمه المُتَسلِّفة من الدين، وكأن الله تعالى ـ بزعمهم ـ لم يبعث رسله رحمة للعالمين ولهداية الناس وبناء حياة كريمة لهم، يألفون فيها ويؤلفون، في ضمن قيم إسلاميّة حضاريّة ساميّة، تحثهم على التعارف والتعايش مع الشعوب والأمم والفرق الأخرى، بيسـر وسلام ورخاء وأمان، قال عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾(١٠).

والعندية عند الله في الآية الكريمة (عِنْدَ الله) لا يعلمها إلا هو تعالى، وأنه المسؤول عنها وحده، واليه يعود الأمر، لا أن يُأخذَ الإنسان بفهم قاصر للنصوص

الدينيّة من بعض ذوي العقول القاصرة والشاذة، فيستبيح بفهمه القاصر دم أخيه وعرضه وماله؛ لأمر اشتبه عليه فأراد أن يفهمه على مزاجه السقيّم وفهمه القاصر وإدراكه المضطرب ورؤيته العوراء للموضوع، وكأنه قد جعل من نفسه وكيلا عن الله عز وجل في أرضه كالطاغية النمرود الذي ﴿ **قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾[١١]، فكفّروا جميع المسلمين واستباحوا دماءهم واستحلوا اعراضهم وغنموا أموالهم؛ لأن المُتَسلِّفة الوهابيين يرون أنفسهم ورثة الأرض جميعا بعد إبادة أهلها وحرقها وتدميرها، ليجلسوا على خرابها يعبدون الله عز وجل وحدهم كما يشاؤون وبما يفهمونه من الدين ويتصورونه، وكأن الأنبياء والأوصياء عليهم السلام غاب عنهم هذا الأمر ولم يَدُرْ في خَلَدِهِمْ ولم يعرفوه، حتى وصل إلى هذه الشـرذمة المارقة، وكأنهم عليهم السلام لا يستطيعون فعل ذلك بأي نحو من الأنحاء، إلا أنهم غير مأمورين بذلك، ولا هو هدفهم الذي بعثوا لأجله، ففعل هؤلاء الفِعلة النكراء واستباحوا البشـرية باسم الدين، مع أن عبادة الأنبياء والأوصياء لو حدث الأمر قطعا تكون هي العبادة الصحيحة والمثالية والثابتة عند الله عز وجل، وأن ميزانها يعدل ميزان عبادة الثقلين، لا كعبادة هؤلاء(المنافقين) الذين يَمرقُون من السهم كما يَمرق السهم من الرَّميِّة، ففي صحيح مسلم: روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: سيخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم عند الله يوم القيامة[١٢].

وروى البخاري، ومالك بسنده في الموطأ عن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: (يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وأعمالكم مع أعمالهم، يقرؤون القرآن ولا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، تنظر في النصل فلا ترى شيئاً، وتنظر في القدح فلا ترى شيئاً، وتنظر في الريش فلا ترى شيئاً، وتتمارى في الفوق)[١٣].

ولكنهم عليهم السلام لم يفعلوا هذا الأمر؛ لأنهم لم يبعثوا لأجل ذلك، وإنما بعثوا لهداية الناس وإرشادهم مهما استطاعوا، قال تعالى: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾(١٤)، وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وآله: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ**﴾(١٥)، وإلى الله ترجع الأمور، بل أن الله تعالى امتحن نبيه يونس بن متى عليه السلام على دعائه بالهلاك على قومه الكفار، بعد أن كذبوه ويَئِسَ من هدايتهم، فالقاه الله في بطن الحوت وجرى عليه ما جرى وهو نبي الله عز وجل، فكيف تحكمون يا أبناء الصحراء.

لقد أسمعت لـو ناديـت حيـا ... ولكـن لا حيـاة لمـن تنـادي

ولو ناراً نفخت بهـا أضـاءت ... ولكـن أنـت تـنفخ في رمـادِ

هذا، وقد اعتمدت هذه العصابة المنحرفة عن الطريق المستقيّم في تدمير الآثار الحضاريّة للأمم السالفة القديمة واتلافها ـ موضوع بحثنا ـ على ما رواه مسلم النيسابوري في صحيحه وغيره(١٦)، حدثنا وكيع عن سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي وائل عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وآله أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشـرفاً إلا سوّيته(١٧).

والكلام في هذا الحديث يقع من ناحيتين:

الأولى: ناحية السند. والثانية: ناحية الدلالة.

أما من ناحية السند:

فيقع في سند الرواية وكيع بن الجراح وعلى الرغم مما قيل فيه من مدح إلا أنه قد روى الذهبي عن أحمد بن حنبل أنه قال في وكيع : أنه أخطأ في خمسمائة حديث(١٨).

وقال فيه محمد بن نصر المروزي : كان يحدث بِأَخَرَةٍ من حفظه فيغير ألفاظ الحديث كأنه كان يحدث بالمعنى ولم يكن من أهل اللسان[١٩].

وليت شعري ربما يكون هذا الحديث من تلك الخمسمئة، لا أقل من وقوع الشبهة المحصورة في مروياته بالخطأ، فتركها والإعراض عنها أسلم.

أما سفيان الثوري فمع ما أثني عليه فقد عرف عنه التدليس، وقد روى الحافظ العسقلاني عن ابن المبارك: حدث سفيان بحديث فجئته وهو يدلسه فلما رآني استحيى، وقال: نرويه عنك[٢٠]. وفي ترجمة يحيى القطان قال أبو بكر: سمعت يحيى يقول: جهد الثوري أن يدلس عليَّ رجلاً ضعيفاً، فما أمكنه قال مرة: حدثنا أبو سهل عن الشعبي فقلت له: أبو سهل محمد بن سالم؟! فقال: يا يحيى ما رأيت مثلك لا يذهب عليك شيء[٢١]. وهذا أمر مشهور عنه ومعروف، فكيف يمكن الركون إلى مروياته.

وكذلك حبيب بن أبي ثابت مع توثيقهم له فإنه كان مدلساً بشهادة ابن حبان وابن خزيمة بأنه كان مُدلساً، كما أفاد الحافظ العسقلاني، وقد أضاف: وقال العقيلي غمزه ابن عون، وقال القطان: له غير حديث عن عطاء لا يتابع عليه، وليس بمحفوظة. وقال ابن جعفر النحاس كان حبيب بن ابي ثابت يقول: إذا حدثني رجل عنك بحديث ثم حدثت به عنك كنت صادقاً![٢٢].

أما أبو وائل وهو الأسدي شقيق بن سلمى الكوفي لرواية حبيب ابن أبي ثابت عنه كما ذكر المزي أنه من الراوين عنه[٢٣]، وليس هو أبا وائل عبد الله بن بحير القاص الصنعاني، وكان أبو وائل شقيق ناصبياً من أهل البدع منحرفا عن أميرالمؤمنين علي عليه السلام مبغضا له!!، وقد عدَّه ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة من الرجال المنحرفين عنه عليه السلام [٢٤]، وكفى بهذا جرحاً؛ لأنه منافق بشهادة رسول الله صلى الله عليه وآله لقوله: يا علي لايحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق[٢٥].

فضلاً على أن حديث أبي الهياج هذا شاذ انفرد به، بل قال السيوطي في شرح

سنن النَّسائي: أنه ليس لأبي الهياج في الكتب إلا هذا الحديث الواحد[٢٦].

فالرواية التي فيها هكذا عقبات لا يؤمن الوثوق بصدورها واعتبارها.

وأما من ناحية دلالة الحديث والمتن:

ففيه وقفات لا تخفى على ذوي العقول السليمة وإن قصرت عن صيدها ذوو النفوس المريضة وأصحاب العقول السقيمة:

فالطمس معناه الدرس والإمحاء في قوله: وأن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، وفيه الأمر بالإزالة والإمحاء للأصنام والأوثان التي تعبد من دون الله عز وجل وصورها، والتي كانت منتشـرة في صدر الرسالة الإسلاميّة؛ لقرب عهدهم بالجاهلية وربما ما زال أقوام من أهل الجاهلية يعبدونها ويقدسونها، وليس المراد طمس كل تمثال وجد على وجه البسيطة، وإن اهمل أو ترك واعرض عنه، فأصبح بمرور الأيام وتطاولها مَعلَماً تأريخياً، وأثراً حضارياً يرمز إلى معنىً من معاني الأمم السالفة ويخبر عن قيمها الحضاريّة والتأريخيّة، وما يدعم هذا القول ويوضحه ما رواه أحمد في مسنده عن علي رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله في جنازة، فقال: أيكم ينطلق إلى المدينة فلا يدع بها وثناً إلا كسـره، ولا قبراً إلا سواه، ولا صورة إلا لطخها.

فقال [رجل]: أنا يا رسول الله، فانطلق فهاب أهل المدينة فرجع!

فقال علي رضي الله عنه: أنا أنطلقُ يا رسول الله.

قال: فانطلق فانطلق ثم رجع.

فقال: يا رسول الله لم أدع بها وثناً إلا كسـرتُهُ، ولا قبراً إلا سويته، ولا صورة إلا لطختها[٢٧].

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من عاد لصنعة شيء من هذا فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وآله[٢٨].

فأرسله ﷺ لكسر كل وثن وصنم يُعبد من دون الله عز وجل، وصناعة شيء من هذه الأصنام والأوثان لعبادتها والإِشراك بالله الواحد القهار الذي جاء الإسلام لمحاربتها وإِزالتها وقد رفع شعار التوحيد لله عز وجل يوجب الكفر بما أنزل على رسول الله ﷺ حتماً، لاسيما وأن في ذلك الوقت كانت صناعة الآلهة والأصنام وتجارتها رائجة متداولة ولما يتركز الإسلام في قلوب القوم ونفوسهم.

ولا يخفى على اللبيب أن لفظ الأصنام و الأوثان التي أمرت الرواية بكسرها وطمسها يطلق على ما يُعبد من دون الله عز وجل ولا يطلق على كل تمثال، فإن لفظ التمثال أعم من الصنم والوثن، ويطلق التمثال على صورة الشيء بشكل جسمه وهيئته وهو المعمول لغير العبادة، فإن اعد للعبادة فهو صنم وليس تمثالاً[٢٩]. وقيل الصنم: هو الوثن المتخذ من الحجارة أو الخشب، وقيل: ما كان على صورة حيوان، وقيل: كل ما عبد من دون اللهَّ يقال له صنم. ثم أنّ الأصنام مصوّرة منقوشة، وليس كذلك الأنصاب لأنها حجارة منقوشة منصوبة.

أما الوثن فهو كالنصب سواء. ويدل على أن الوثن اسم يقع على ما ليس بمصور، فإن النبيّ ﷺ قال لِعَدِي بن حاتم حين جاءه في عنقه صليب: ألق هذا الوثن من عنقك. فسمّى الصليب وثناً، فدل ذلك على أن النّصب والوثن اسم لما نصب للعبادة، وإن لم يكن مُصوراً ولا منقوشاً.

فعلى هذا الرأي تكون الأنصاب كالأوثان في أنها غير مصورة، وعلى الرأي الأول يكون الفرق بين الأنصاب والأوثان: أن الأنصاب غير مصورة، والأوثان مصورة[٣٠].

وعليه فإرسال النبي ﷺ عَلِيّاً عليه السلام كان لطمس الأصنام والأوثان التي كانت تُتَّخَذُ للعبادة من دون الله عز وجل، وليس لكل تمثال.

فقياس ما قام به النبي ﷺ من إِرسال الرجال لطمس هذه الأصنام والأوثان التي تُعبد من دون الله عز وجل في صدر الإسلام مع هذه الآثار القديمة التي كان

بعضٌ منها يُعبد من عشرات القرون المتطاولة وقد باد أهلها وانقرضوا، قياس مع الفارق، وأنه قياس يدل على سذاجة وحماقة من يتبناه، فافهم.

كما أن هناك جملة من الروايات تشير إلى خصوص هذا المعنى وتفسره، وتدعم هذا الرأي منها:

ما رواه مسلم في صحيحه عن عمرو بن عبسة السلمي أنه قال للنبي صلى الله عليه وآله: وبأي شيء أرسلك؟

قال: أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يُوَحَّدَ الله لا يشرك به شيء[٣١].

وقد أرسل النبي صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد في سرية لهدم العُزّى [٣٢].

كما أرسل سعد بن زيد الأشهلي في سرية لهدم مناة[٣٣].

وأرسل عمرو بن العاص في سرية لهدم سواع [٣٤].

وجميعها من أصنام الجاهلية، وقد أرسلهم صلى الله عليه وآله بعد فتح مكة.

وقد استشهد بهذه الأخبار والروايات المُتَسلِّف بلا دراية وتمييز وقال:(ويتأكد وجوب هدمها إذا كانت تعبد من دون الله). ولم نسمع أو نرى أو نعرف أن هذه الآثار القديمة وأصنامها تُعبد الآن من دون الله عز وجل، فتأمل.

وما رواه البخاري ومسلم: عن جرير بن عبد الله البجلي قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جرير ألا تريحني من ذي الخلصة بيت لخثعم كان يدعى كعبة اليمانية.

قال: فنفرت في خمسين ومائة فارس، وكنت لا أثبت على الخيل فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فضرب يده في صدري فقال: اللهم ثبته واجعله هاديا مهديا.

قال: فانطلقَ فحرَّقها بالنار، ثم بعث جرير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يبشره يكنى أبا أرطاة منا، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له: ما جئتك حتى تركناها

كأنها جمل أجرب، فبرك رسول الله ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات(٣٥).

قال صاحب القاموس: وذو الخلصة محركة وبضمتين بيت كان يدعى الكعبة اليمانية لخثعم كان فيه صنم اسمه الخلصة) (٣٦).

وقال الكلبي في كتاب (الأصنام): ذو الخلصة كانت مروة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج، وكانت بتبالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة، وكان سدنتها بنو أمامة من باهلة بن أعصر، وكانت تعظمها وتهدى لها خثعم وبجيلة وازد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن(٣٧).

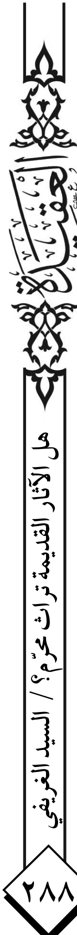
واستشهد المُتَسلِّف بقول الحافظ ابن حجر: «وَفِي الْحَدِيث مَشْرُوعِيَّة إِزَالَة مَا يُفْتَتَن بِهِ النَّاس مِنْ بِنَاء وَغَيْره، سَوَاء كَانَ إِنْسَانًا أَوْ حَيَوَانًا أَوْ جَمَاداً».

وظاهر كلام ابن حجر أن المراد من الافتتان هو ما يتخذ للعبادة من دون الله عز وجل والخروج عن حدوده إلى الشرك، بقرينة دلالة الحديث النبوي، حيث ارسل النبي ﷺ الرجال إلى ذي الخلصة لإزالتها ومحوها؛ لافتتان أهلها بها وتعظيمها من دون الله عز وجل، وأن بعض القبائل أخذت تحج اليها وتهدى لها الذبائح.

وانطباق هذا على الآثار القديمة وأصنامها وأوثانها أول الكلام، فأي قوم في بلاد المسلمين يفعل هذا اليوم في الآثار القديمة، ومن يقول أنهم فتنوا بها وعبدوها دون الله عز وجل، فدون إثبات ذلك خرط القتاد.

على أن الافتتان أعم من تقييده بالعبادة لغير الله عز وجل، فإن الافتتان هو الإِعجابُ بالشيء وانشغالُ الفكرِ فيه، وانصِرافُ الهِمَةِ إليه، مما قد يوصله لإكثار القولَ فيه بالباطل. ومنه يقال فتن بالمرأة وافتتن بها أي عشقها.

فربما يفتتن الإنسان بعالم من العلماء لغزارة علمه، أو خطيبٍ مُفوهٍ لقوة بيانه وموعظته، أو أديب أو شاعر، وربما يفتتن بامرأةٍ جميلة، وقد يفتتن بحيوان كما يفتتن مربي الطيور بها، ومنهم من يفتتن بالجماد كمن يهوى جمع التحف والآثار القديمة



(الانتيكة) أو يكون من هواة جمع الطوابع البريدية، أو الكتب الخطية أو نحو ذلك، فيبقى فكره مشغولا بها، ويعطي الكثير من وقته لها، ولم يقل أحد إن هذا الافتتان محرم فيجب إزالة سببه، ما لم يخرج عن حدود طاعة الله عز وجل، واهمال الواجبات الإسلاميّة فيكون آثماً وعاصياً.

هذه وغيرها، فإنك ترى أنه ﷺ ارسلهم في كسر الأصنام والأوثان وما كان يُعبد من دون الله عز وجل كالعزى ومناة وسُواع وذي الخلصة وغيرها. وليس كل ما كان ماثِلاً للأمم السالفة التي اندثرت وباد أهلها ولم تصبح معالمها إلا عبرة للمعتبر وتذكرة للأنام ومادة حيّة للباحث والدارس لمسيرة الأمم السالفة ونحو ذلك.

كما يُفهم من إرساله لتسوية كل قبر مشـرف خُصوصاً قبور المشـركين، الذين كان أبناؤهم يتفاخرون بقبور آبائهم وأجدادهم المشركين، لا إزالة كل قبر شاخص بما فيها قبور المسلمين كما فهمها من لا حريجة له في الدين، وإلا فقد استفاضت الأخبار أن رسول الله ﷺ زار قبر أمه وبكى وأبكى من حوله، وكانت أمه قد توفيت في السنة السادسة من عمره الشـريف بالمدينة المنورة (يثرب)، وعلى هذا فقد زار الرسول قبر أمه بعد نيف وأربعين سنة حين هاجر إلى المدينة المنورة، وأن أثر قبر أمه عند ذاك كان ماثلاً للعيان وإلا لما عرف قبرها، وإذا كان الحكم الإسلامي، هو تسوية القبور فلم لم يأمر النبي ﷺ بهدم قبر أمه عند ذاك؟![٣٨] فتأمل.

كما أن معنى التسوية هو التعديل، ففي (المصباح المنير): استوى المكان اعتدل وسوّيته عدلته[٣٩].

وفي (القاموس): سواه تسوية جعله سوياً[٤٠]. في مقابل تسنيم القبر غير المسنون وجعله كسنام البعير.

وليس التسوية معناها جعل القبر سوياً أي متساوياً مع الأرض، فإن التسوية بالأرض ليست من السنة باتفاق المسلمين، للاتفاق على استحباب رفع القبر عن الأرض في الجملة.

قال الشوكاني في (نيل الأوطار): إن السنة أن القبر لا يرفع رفعاً كثيراً من غير فرق بين من كان فاضلاً ومن كان غير فاضل، والظاهر أن رفع القبور زيادة على القدر المأذون فيه محرم، وقد صرح بذلك أصحاب أحمد وجماعة من أصحاب الشافعي ومالك، والقول بأنه غير محظور لوقوعه من السلف والخلف بلا نكير[٤١].

وروي عن عمران بن حدير عن أبي مجلز قال: تسوية القبور من السنة[٤٢].

وعن عثمان بن عفان أنه أمر بتسوية القبور وأن ترفع من الأرض شبرا[٤٣].

وعن القاسم بن محمد بن أبي بكر قال: دخلت على عائشة فقلت: يا أمه، اكشفي لي عن قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وصاحبيه، فكشفت لي عن ثلاثة قبور، لا لاطئة ولا مشرفة، مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء...)[٤٤].

وقال الشيخ الطوسي في (الخلاف): تسطيح القبر هو السنة، وتسنيمه غير مسنون، وبه قال الشافعي وأصحابه، وقالوا هو المذهب إلا ابن أبي هريرة (الفقيه الشافعي المشهور) فإنه قال: التسنيم أحبُّ إلي، وكذلك ترك الجهر (ببسم الله الرحمن الرحيم) لأنه صار شعار أهل البدع[٤٥]. وقال أبو حنيفة والثوري: التسنيم هو السنة.

دليلنا: إجماع الفرقة وعملهم. ورووا عن النبي صلى الله عليه وآله أنه سطح قبر إبراهيم ولده[٤٦].

وقال الشهيد الأول في (الذكرى): و يستحب تربيع القبر، لما سلف من خبر محمد بن مسلم. وليكن مسطحاً بإجماعنا نقله الشيخ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وآله سطح قبر ابنه إبراهيم، وقال القاسم بن محمد: رأيت قبر النبي صلى الله عليه وآله والقبرين عنده مسطحة لا مشرفة، ولا لاطئة، مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء، ولأن التربيع يدل على التسطيح، ولأن قبور المهاجرين والأنصار بالمدينة مسطحة، وهو يدل على أنه امر متعارف[٤٧].

فالأمر الوارد هنا هو الأمر بتسطيح القبر وتعديله وتربيعه لا تسنيمه، للكراهة في التسنيم، ومع ذلك اتخذه بعض العامّة سُنة لهم ـ كما مرَّ ـ للتمييز عن شيعة أهل البيت الذين اتخذوا التسطيح والتربيع المسنون طريقة لهم؛ فإن القبر المشرف وإن كان معناه العالي كما كان يتخذه أهل الجاهلية مباهاة ومفاخرة إلا أن التسنيم نوع من العلو أو معنى من معانيه. فافهم.

وكما ترى فإن هذا لا يدل على ما فهمه ذوو العقول القاصرة عن إدراك روح الإسلام، فاقدموا على نسف ومحو كل قبر ماثل للعيان كما فعل أبناء المُتَسلِّفة الوهابيّة في قبور أهل البيت والصحابة في بلاد المسلمين، ووليدتهم اليوم(داعش).

ثم أن في قول الإمام علي عليه السلام لأبي الهياج: أبعثك فيما بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله أمرني أن أسوي كل قبر واطمس كل صنم. يقتضي أن يكون إرسال الإمام لأبي الهياج في هذا الأمر زمن خلافته وحكمه من عام (٣٦هـ ـ ٤٠هـ) وهذا ما أقره الشوكاني في كتاب (شرح الصدور)[٤٨].

وعليه فحق علينا أن نتساءل ـ كما تساءل العلّامة العسكري ـ : أن في عصر خلافة الإمام علي عليه السلام وبعد انتشار ما يسمى بالفتوحات الإسلاميّة وامتدادها إلى بقاع كثيرة في زمن الخلفاء الثلاثة قبله، فإلى أي بلد بعث الإمام علي عليه السلام أبا الهياج لتهديم القبور وطمس الأصنام؟!

هذا كله على فرض صحة الرواية وقبولها. فتأمل.

هذا، وقد فهم الصحابة ورجال الصدر الأول[٤٩] هذه النصوص النبوية والأحاديث الشريفة ـ وأن فيهم مَنْ هو حُجة في فهم النص لقربه منه ـ حيث ترى انتشارهم في البلدان والأصقاع التي فيها معالم الأمم السالفة وآثارهم، والتي دخلوها تحت ما يسمى الفتوحات الإسلاميّة، فلم نسمع من أحدهم أنه أتلف تراثهم أو دمر مقابرهم المشيدة ولا المعالم الأثريّة وهياكل الأصنام ممن أنقرض أهلهم وبادوا، ولم يبق

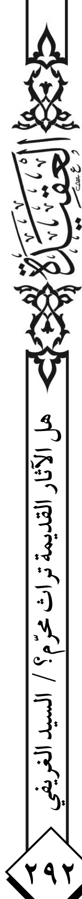
مَن يتعبد بها أو يقدسها، حيث كانت تُعبد في سالف القرون، ولم يبق من هذه الأمم إلا هذه الأطلال والأصنام وبعض المعالم الأثريّة.

أما ما يتمحك به المُتَسلِّف من أن ما يقال في ترك الصحابة ورجال الصدر الأول للأصنام قائمة في البلاد المفتوحة ولم يتعرضوا لها بسوء، فهذا من الظنون والأوهام، فما كان لأصحاب النبي صلى الله عليه وآله أن يدعوا الأصنام والأوثان، لاسيما مع كونها معبودة في ذلك الزمن).

إن خير دليل على وهم هذا المُتَسلِّف وقوله بالهوى والخيال هو أن التأريخ الإسلامي لم ينقل لنا شاهداً واحداً لفعل الصحابة ورجال الصدر الأول على تهديم هذه الآثار وتدميرها، مع أن الأصنام القديمة والأوثان والآثار القائمة للبابليين والفراعنة والفينيقيين وغيرهم من بلاد فارس وما حولها، كانت ماثلة أمامهم في مسيرهم وتنقلهم لا أقل من سماعهم بوجودها وشخوصها، ومع ذلك فإنهم تركوها لأنها آثار لا حياة بشرية فيها، ولا حياة مخالفة للشرع والدين قائمة عليها، إنما هي أطلال وآثار للأمم السالفة تفيد التذكار والاعتبار.

وأما ما يقال بأن الصحابة ورجال الصدر الأول لا يعلم وصولهم إليها، وأن هذه الأصنام والآثار والمقابر كانت في أماكن نائية، فإن فتح بلد لا يعني وصولهم إلى جميع أماكنه وأراضيه؟

فإن هذا قول بلا دليل؛ لأنه أليس من الغريب أن أمة فاتحة لبلاد عظيمة، وقيادة عسكرية عالية الشأن، مدعومة بالعدة والعتاد قطعت الفيافي والقفار للوصول إلى مبتغاهم في فتح بلدان عظيمة كالعراق (بلاد ما بين النهرين) ومصر والشام وبلاد فارس وما حولها، ولا تعرف شعوب هذه البلدان ولا تأريخها ولا حضارتها ومقوماتها ولو في الجملة، إذاً هي لَقِيادةٌ مخبولةٌ قائمةٌ على البركة كما يقال، وأنها لا تدخل تحت عنوان فتوح إسلاميّة دينيّة هدفها نشر الإسلام وعقائده في بلاد الكفر، إنما هي محاولة



لنهب خيرات هذه الشعوب والسيطرة عليها لتوسيع أرض المملكة وزيادة دخل بيت المال بكل الوسائل والسبل ـ كما هو الواقع ـ.

وهذا ما لا يقول به عاقل من أهل السنة والجماعة فضلاً عن مُتَسلِّف يقظ!.

وما يزيد الطين بلة ما يتذرع به المُتَسلِّفة لتبرير انحرافهم وجهلهم بالدين من أن الصحابة ورجال الصدر الأول إنما لم يهدموا تلك الأصنام والآثار لأنها لم تكن ظاهرة لهم وإنما كانت داخل المنازل أو القبور، وهذا القول كسابقه مردود؛ لأن كثيراً من المعابد والمعالم في بلاد الرافدين والشام ومصر وغيرها كانت شاخصة لِلعِيانِ وقريبة من المدن المأهولة بالسكان، لا أقل طريقا للمسافرين والفاتحين يمرون عليه، وما زالت، وفيها من الأصنام والأوثان الكثير، فضلاً عن مدونات العلوم والمعرفة والتأريخ في الألواح والرقاع الطينية والخزفية، وعلى جدران القلاع والقصور والصروح ماثل أمام الأنظار لكل من مرَّ عليها، ومع ذلك لم نسمع أو نقرأ أن الصحابة ورجال الصدر الأول قد تعرضوا لها بسوء، بل أهملوها وأعرضوا عنها؛ لأنهم لم يروا فيها ما يخالف الشـرع، أو تقام فيها قرابين أو طقوس دينيّة يمنع منها الإسلام، إنما هي معالم أثريّة باد أهلها وأهملت، فاضحت علماً دارساً، وشيئاً تخطاه الزمن.

وأما ما يقال من أن الصحابة ورجال الصدر الأول ربما مروا بها مرور الكرام سِراعاً؛ لأنها ديار الظلمة والمعذبين، فهذا أول الكلام، ومن قال إِن جميعها ديار المعذبين من الله عز وجل وهذا كلام لا يستقيّم معه العلم ولا التأريخ، فإن ثبت لبعضها فلا تشمل الجميع، وأما ديار الظلمة فما اكثرها وحتى يومنا هذا ولم يقل أحد من العلماء المسلمين بوجوب تركها وعدم المكوث بها، ولا يحتاج هذا الأمر إلى دليل وبرهان.

مع أن وجـوب الالتزام بالأمـر الوارد في الرواية (أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته)

ـ على ما يريد فهمه المُتَسلِّف ـ يوجب عليهم الدخول إلى هذه الأماكن وإزالة ما فيها لاسيما على مبنى قطع الذريعة المفضية إلى الفساد المناسب لجلب المصالح ودفع المفاسد. فدفع هذه المفسدة التي ربما تفضـي إلى فساد الآن أو بعد حين على مبنى المُتَسلِّفة وقولهم، ويوجب على الإنسان المؤمن بنظرهم طمس هذه الآثار وإزالتها، ولكنهم لم يفعلوا؛ إما لأنهم فهموا من النصوص والروايات ما بيناه وقد فهم ذلك أيضا عموم المسلمين، لا ما فهمه المُتَسلِّفة ، من أنه لا داع لإزالتها ولا موجب شرعي ولا عرفي ولا أخلاقي يدفع إلى الأمر بإزالتها وتخريبها، لأنه أمر قد تخطاه الزمن.

وإما أنهم خالفوا الأمر والشـرع فيكونوا مأثومين عاصين لله تعالى!! مع أنكم حكمتم لهم بأنهم من خير القرون على حد تعبيركم من الناحية الدينية والتمسك بأحكام الإسلام وتعاليمه، وأنهم أهل خير وصلاح، وبشهادة رسول الله صلى الله عليه وآله على ما رواه البخاري ومسلم النيسابوري في صحيحيهما عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)![٥٠].

وقد جاء اليوم لمدعي التمسك بسيرة السلف فعملوا بما فهموه من النصوص في حدود تفكيرهم القاصر، مخالفين لفهم سلفهم وسيرتهم، فعاثوا في هذه الآثار والمقابر والمدن الأثريّة نهباً وحرقاً وتدميراً، وكأنهم أرادوا تعويض ما أهمله الصحابة ورجال الصدر الأول من ادراك فعله، وتصحيح عملهم!؟. وكأن المُتَسلِّف الوهابي الداعشـي اليوم أفقه وأعلم وأورع من الصحابة ورجال الصدر الأول!!.

ولو تنزلنا، وقلنا كما قال المُتَسلِّفة: أنه جاء نهي النبي عن دخول هذه الأماكن الأثريّة القديمة كما في الصحيحين: لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم مثل ما أصابهم[٥١].

قال ذلك صلى الله عليه وآله عند مروره على أصحاب الحجر، في ديار ثمود قوم صالح عليه السلام .

وفي رواية في الصحيحين أيضاً: فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن

يصيبكم مثل ما أصابهم)(٥٢).

وقد تمسك بهذا النهي الصحابة ورجال الصدر الأول ولم يدخلوا مدينة أثريّة، ولا معبداً، ولا محلاً لآثار الأمم السالفة كما ظن المُتَسلِّفة، ولم يطلعوا على ما فيه، وهذا لشدة تقواهم وورعهم عن محارم الله عز وجل، فلماذا أنتم أيها المُتَسلِّفة اليوم لم تتورعوا عن محارم الله وتسيروا بسيرة سلفكم الصالح وتتجنبوا دخول هذه الأماكن والبلدان الأثريّة حتى عثتم فيها فساداً بدعوى إزالة الشركيات! الجاثمة في أوهام عقولكم لا في هذه الآثار، وقد قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْـمُتَّقِينَ** ﴾ (٥٣) ولا يطاع الله من حيث يعصى، بمعنى أن هذا الفعل الذي فعلتموه وإن كان إطاعة للأمر ـ على فرض ثبوته ـ إلاّ أنّه معصية للنهي عن الدخول لهذه الأماكن.

ولا نغفل ما قامت به (داعش) بنت مُدَّعِي السلفية من بيع الكثير من القطع الأثريّة التي سرقتها من متاحف الموصل والمواقع الأثريّة فيها والتي يسمونها(بالتراث المحرم الذي يجب ازالته) إلى الأسواق العالمية وقد شاعت وانتشرت هذه القطع الأثريّة في ربوع العالم وبيعت بأسعار خيالية لتجار الآثار؛ لأن الشيء كلما ندر ارتفع ثمنه، فحق لنا أن نتساءل أليس في بيعها هذا نشر للشركيات وصور الضلال والأصنام، أليس هذا فتحاً لأبواب الفساد وأنه يفضي مع بُعد العهد وفشو الجهل إلى ما كان عليه الأمم السابقة من عبادة الأوثان والأصنام كما تدعون. فما هذا التناقض والتضارب، وإن كان ليس بغريب منهم، ألا ساء ما يحكمون، ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ (٥٤).

وأمّا ما يقال أن اغلب هذه الآثار كانت مغمورة ومطمورة وقد اكتشفت حديثاً ولهذا لم يرها الصحابة ورجال الصدر الأول فهذا قول بلا دليل، وإلا فإذا غمرت بعض هذه الآثار لا سيما الصغيرة والقريبة من الأرض، فليس معنى ذلك أن جميع

هذه الآثار ومعالمها من المعابد والحصون والقلاع والقصور والمسارح وآثار المدن القديمة الشاخصة لاسيما الصخرية منها، والتي تحتوي في ثناياها ما كان يتعامل به أهل هذه البلاد من أصنام الآلهة والأوثان والتماثيل الشخصية لملوكهم وعوائلهم والحاجيات المنزلية والأواني والأسلحة الحربية ومعداتها، فضلاً عن الألواح المكتوبة والرسوم والنقوش على الجدران وغيرها التي توضح طريقة حياتهم وعاداتهم، قد دثرت وغمرت في الأرض جميعاً، فهذا مما لا يقول به أحد من العوام فضلاً عن مُتَسلِّف يقظ.

وأمّا قول الزِرِكلي حين سئل عن الأهرام وأبي الهول ونحوها هل رآها الصحابة الذين دخلوا مصر؟

فقال: كان أكثرها مغموراً بالرمال، ولاسيما أبا الهول(٥٥).

وقد استشهد به المُتَسلِّف ثم علَّق فرحا بذلك لما فيه من تأييد لهوى قلبه وخيال عقله، وكأن قول خير الدين الزِرِكلي المعاصر تام وثابت، إذ قال: (وهذا مما يزيل الإشكال حول عدم تعرض الصحابة للأهرام وما فيها، مع احتمال كون أبوابها ومداخلها مطمورة بالرمال في ذلك الوقت).

فأقول: فإن احتملنا انغمار أبو الهول بالرمال وهذا أمر ممكن؛ لصغر حجمه نسبة للأهرامات العملاقة فلا يمكن أن نصدق اندثار عشرات الأهرامات بها، مع أن سكان المناطق القريبة منها يعرفون هذه الآثار الفرعونية وما في داخلها من كنوز وأصنام ونحو ذلك منذ عهد قديم؛ لأنها كانت محلاً للنهب والسرقة إلى ما قبل الإسلام لمن يدخلها، حتى وضعت الدولة الحديثة يدها عليها، وهذا لا يخفى على من تتبع تأريخ هذه المناطق الأثريّة على مرّ القرون المتطاولة.

هذا، وليس مسألتنا منحصرة وقائمة في حدود أهرامات مصر، وأن المسلمين لم يفتحوا غير هذا البلد الذي يحوي آثاراً قديمة لأمم سالفة، بل العراق والشام وبلاد

فارس وما جاورها مليئة بهذه الآثار فلا تختزل مسألتنا في خصوص الأهرامات، مع أنها نار على علم لكل من دخل مصر من الشخصيات والرحالين، وسجلوا ما شاهدوه ودونوه في كتبهم ومذكراتهم من شواخص الأهرامات وعجائب هندستها وغيرها، كما في مذكرات رجال اليونان والرومان والفرس، ولو أراد الصحابة ورجال الصدر الأول فتحها لفتحوها ووجدوا مدخلاً لها كما فعل الخليفة العباسي المأمون ابن الرشيد عندما أراد أن يعرف ما في داخل هذه الأهرامات والاطّلاع على ما فيها، وليس تهديما لها، قال الحميري في (الروض المعطار): فلما كان في زمن المأمون بن الرشيد أراد هدم الأهرام، فعرفه بعض شيوخ المصـريين أن ذلك غير ممكن ولا يحسن بأمير المؤمنين أن يطلب شيئاً لا يبلغه، فقال: لا بد أن أعلم ما فيها، ثم أمر بفتح هرم من أعظمها، فَفُتِحَ فيه ثلم في جانبه الشمالي لقلة دوام الشمس على من يعمل فيه، فعملوا فيه فوجد حجراً صلداً يكل فيه الحديد، فكانوا يقدون النار عند الحجر فإذا حمي رش بالخل ورمي بالمنجنيق بزبر الحديد، وأقاموا على ذلك أياماً حتى فتحوا الثلمة التي فيها الآن، فدخلوا ذلك الهرم فوجدوا بنيانه بالحديد والرصاص، ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعاً، ووجدوا بالقرب من الموضع الذي فتحوا مطهرة من حجر أخضـر فيها مال.

فقال المأمون: زنوه، فوزنوا الجملة فوجدوا فيها مالاً معلوماً، وكان المأمون فطناً فقال: ارفعوا ما أنفقتم على فتح هذه الثلمة، فوجدوه موازياً لما وجد من المال، فعجب المأمون من معرفتهم بالموضع الذي يفتح على طول الزمان، وازداد بعلم النجوم غبطة، ووجد المأمون في الهرم صنماً أخضـر ماداً يده وهو قائم فلم يعلم خبره، ونظر إلى الزلاقة والبئر التي في الهرم وأمر بالنزول فيه، فأفضوا إلى صنم أحمر عيناه من جزعتين سواد في بياض كأنهما حدقتا إنسان ينظر إليهم، فهالهم أمره وقدروا أن له حركة فجزعوا منه وخرجوا.

ويقال: إنه وجد فيها مالاً كثيراً.

وسأل المأمون من وجد بمصر من علمائها هل لهذه الأهرام أبواب؟

فقيل: لها أبواب تحت الأرض في آزاج مبنية بالحجارة كل واحد منها عشرون ذراعاً له باب من حجر واحد يدور بلولب إذا أطبق لم يعرف أنه باب، وصار كالبنيان لا يدخل إليه الذر ولا يوصل إليه إلا بكلام وقرابين وبخورات معروفة(٥٦)، وإن في هذه الأهرام فنوناً من الذهب والفضة والكيمياء وحجارة الزبرجد الرفيع والجواهر النفيسة ما لا يسعه وصف واصف، وفيها من الكتب المستودعة فيها طرائف الحكمة وكمال الصنعة ومن التماثيل الهائلة من الذهب الملون على رؤوسها التيجان الفاخرة مكللة بالجواهر النفيسة ما يستدل به على عظم ملكهم، وجعلوا على ذلك من الطلسمات ما يمنع منه ويدفع عنه إلى أوقات معلومة، وقصدوا بذلك أن تكون تلك الأشياء ذخيرة لأعقابهم ولمن يكون بعدهم ليروا عظيم مملكتهم، ووضعوا أساس تلك الأعلام وقت السعادة، وجعلوا في أساس كل علم منها صنماً، وزبروا في صدورها دفع المضار والآفات عنها، وفي يد كل صنم منها آلة كالبوق وهو واضعه على فيه، وفى وسط كل هرم منها شرفات موجهة إلى آزاج ضيقة المنافذ واسعة المداخل، تجتذب الرياح إليها على طول الزمان، وتخرج من وجه الداخل إليها، ولها صفير فمن لم يحس دفعها أهلكته.

قال: فعجب المأمون من ذلك ولم يتعرض إلى شيء من تلك الأعلام(٥٧).

وهكذا تقرأ الرواية بأكملها والتي ختمها بأن المأمون (لم يتعرض إلى شيء من تلك الأعلام)، ولو أنه هدم هذه الأصنام والتماثيل وطمسها كما يفعل مُدَّعُوا السلفية اليوم لذُكر في الرواية، ولأصبح فعله ـ لو جرى ـ دليلاً يتشبثون به ويتبجحون بأعلى الأصوات.

على أن هذا الدليل عليهم لا لهم كما يتصور المُتَسلِّف، اذ قال: أن الخليفة المأمون



أراد أن يهدم الأهرام في مصر فجمع الفعلة ولم يقدر) ولكن بعد أن فتحها وجد فيها الأصنام والتماثيل والهياكل، ولكنه لم يتعرض إلى شيء منها، ولم يشر عليه أحد من علماء مصر ولا من علماء حاشيته وخاصته بإتلافها وقد رأوها ماثلة أمامهم، لوجوب إزالة وطمس هذه المعالم الأثريّة وما فيها من الأوثان والأصنام كما تدعي المُتَسلِّفة الوهابيّة. فتأمل.

عكس ما يحاول المُتَسلِّفُ من تبرير عدم تدمير الصحابة ورجال الصدر الأول لهذه الآثار والأصنام القديمة التي باد أهلها على فرض رؤيتهم لها بعدم القدرة والعجز عن ذلك، فقال: ثم يقال لو قدر وجود تمثال ظاهر غير مطمور، فلا بد من ثبوت أن الصحابة رأوه، وأنهم كانوا قادرين على هدمه. والواقع يشهد أن بعض هذه التماثيل يعجز الصحابة رضي الله عنهم عن هدمه، فقد استغرق هدم بعض هذه التماثيل عشرين يوماً، مع وجود الآلات والأدوات والمتفجرات والإمكانيات التي لم تتوفر للصحابة قطعاً).

ولا يخفى أن كل زمان له أسلحته وأدواته وآلاتُهُ ورجاله، وهم اعرف بكيفية فعل ذلك ومعالجته، وإلا كيف بنيت البيوت في الجبال ونحتت الصخور وعمرت الكهوف وعولجت الجبال ونحو ذلك على قِدم العصور وتطاول القرون مع عدم وجود الآلات والأدوات والمتفجرات والإمكانيات التي لم تتوفر للصحابة ورجال الصدر الأول قطعاً.

ولكن إذا كانت الغاية أسمى والقصد أنبل والأجر أعظم لما يتقرب به إلى الله عز وجل في تهديم الأصنام والتماثيل والآثار ـ على فرض المُتَسلِّفة ـ فالأمر وإن طال فيه الزمن وبذل جهداً استثنائياً لذلك، وأنفقوا أموالاً إضافية عليه، فالمفروض أن الأمر يهون ويرخص كل شيء لأجل مصلحة الإسلام العليا والقضية الرسالية..!!

وكذا استشهاد المُتَسلِّفُ بفعل الخليفة العباسي هارون الرشيد (وأنه عزم على

هدم إيوان كسرى، فشرع في ذلك وجمع الأيدي، واتخذ الفؤوس، وحَمَّاه بالنار، وصب عليه الخل، حتى أدركه العجز)[٥٨].

ولم يكن دافع هارون الرشيد من فعل ذلك إلا الهوى الشخصي والنزعة النفسية في إزالة هذا الصرح المعماري واختبار وزرائه من بني برمك، ولأجل كون أصلهم مجوسياً أتهم الرشيد جعفر البرمكي على ما حكي أنه استشاره في هدم إيوان كسرى، فأشار عليه بترك ذلك، فما طاب ذلك على هارون، وظن أنه أراد بها مشرف آثار المجوس.

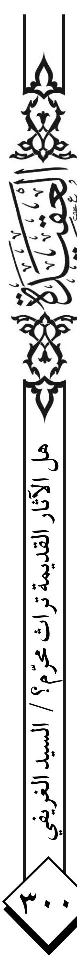
وربما قيل: إنه شافهه بذلك مبكتاً له، فقال له: اهدموا فلما شرعوا في هدمه صعب الهدم، وتعسر لقوة إحكام بنائه، فاستشاره ثانياً في ترك الهدم، فأشار عليه بأن لا يترك ما شرع فيه من الهدم!

فقال له: سبحان الله، أشرت أولاً بترك الهدم وأشرت ثانياً بالهدم، فقال ما معناه: إني إنما أشرت بترك الهدم ليعرف شرف الإسلام وعلوه وقوة تأييده كل من رأى تلك الآثار التي ظهر عليها الإسلام وأذل أهلها وأزال ملكهم الذي زواله لا يرام وعزة لا يضام، فلما لم تقبل مشورتي وشرعتم في هدمه واستشرتني في ترك ذلك، أشرت عليك بعدم الترك لئلا يدل ذلك على ضعف الإسلام، ويقال: عجز المسلمون عن هدم ما بناه المخالفون لدينهم.

فعند ذلك عرف صواب رأيه وغزارة عقله، وقد كان غرم على هدم قطعة يسيرة أموالاً كثيرة[٥٩].

وتروى أيضا لوالد جعفر يحيى البرمكي وأنه لما اعتزم الرشيد على هدم إيوان كسرى وبعث إلى يحيى بن خالد وهو في محبسه يستشيره في ذلك.

فقال: يا أمير المؤمنين لا تفعل واتركه ماثلا يستدل به على عظم ملك آبائك الذين سلبوا الملك لأهل ذلك الهيكل.



فاتهمه في النصيحة، وقال: أخذته النعرة للعجم والله لأصرعنه.

وشرع في هدمه وجمع الأيدي عليه واتخذ له الفؤوس وحماه بالنار وصب عليه الخل حتى إذا أدركه العجز بعد ذلك كله وخاف الفضيحة بعث إلى يحيى يستشيره ثانيا في التجافي عن الهدم.

فقال: لا تفعل واستمر على ذلك لئلا يقال عجز أمير المؤمنين وملك العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم فعرفها الرشيد وأقصر عن هدمه[٦٠]. وإن عشت اراك الدهر عجبا.

ولو تنزلنا وقبلنا هذا القول بعدم قدرة الأصحاب ورجال الصدر الأول على إتلاف هذه الأصنام والأوثان وغيرها من المعالم الأثريّة فلا أقل من القيام بتشويه صورتها وتغيير معالمها وفعل بها ما ينبغي فعله، بأي نحو كان مما يمكن فعله، إن لم يستطيعوا تدميرها وازالتها ـ على ما فهمه المُتَسلِّفة ـ، ولكن لم نر شيئا من ذلك، وهذا دليل على أن الصحابة ورجال الصدر الأول لم يفهموا من هذه النصوص الأمر بإزالة هذه المعالم التأريخيّة القديمة التي باد أهلها، وعلى هذا قامت سيرة عامة المسلمين إلى يومنا هذا، إلا من شذ منهم ممن فهم النصوص وقرأها بعين عوراء ضبابية ممن يدعي السلفية الوهابيّة.

وأما استشهاد المُتَسلِّفُ بقول النووي في شرح مسلم في كلام له على التصوير: ((وَأَجْمَعُوا عَلَى مَنْع مَا كَانَ لَهُ ظِلّ، وَوُجُوب تَغْيِيره)) والذي له ظل من الصور هو الصور المجسمة كهذه التماثيل).

فالإجماع هذا مردود بما روي في صحيح البخاري عن عائشة قالت: كنت العب بالبنات عند النبي صلى الله عليه وآله وكان لي صواحب يلعبن معي فكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا دخل يتقمعن منه فيسرب بهن إلي فيلعبن معي[٦١].

وفي صحيح مسلم عن عائشة أنها كانت تلعب بالبنات(وهن اللُعب) عند رسول الله صلى الله عليه وآله قالت: وكانت تأتيني صواحبي فكن ينقمعن من رسول الله صلى الله عليه وآله.

قالت: فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يسر بهن إلي[٦٢].

قال ابن الأثير في (النهاية): وفي حديث عائشة (كنت ألعب بالبنات) أي التماثيل التي تلعب بها الصبايا[٦٣].

وعن عائشة، قالت: قدم رسول الله صلى الله عليه وآله من غزوة تبوك، أو خيبر، وفي سهوتها ستر، فهبت ريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة لعب، فقال:(ما هذا يا عائشة)؟

قالت: بناتي، ورأى بينهن فرسا له جناحان من رقاع.

فقال: (ما هذا الذي أرى وسطهن)؟

قالت: فرس.

قال: (وما هذا الذي عليه)؟

قالت: جناحان.

قال: (فرس له جناحان)؟

قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة؟

قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه[٦٤]. وغيرها.

وفي هذه الروايات دلالة على أن رسول الله صلى الله عليه وآله يرفض ذلك وينكره على فرض حرمتها لاسيما إذا كانت بيد الأطفال والصغار حتى لا ينشئوا على حب هذه الأصنام والتماثيل، فافهم.

وما قيل فيه من التوجيه كتدريبهن على تربية الأولاد، أو أنه منسوخ، أو كانت القضية أول الهجرة قبل تحريم الصور وغير ذلك لا وجه له أبدا، غايته إذا خصصتم لعب الأطفال وتماثيلهم من عموم النهي عن اتخاذ التماثيل، فتخصيص هذا العموم بما لم يُتخذ من التماثيل للعبادة أولى لما مرّ سابقا من دلالة الأحاديث النبوية على ذلك، فراجع.

وأما ما يقال من المُتَسلِّفة من أن ترك هذه الآثار والأصنام القديمة التي باد أهلها قد يفضي مع بُعد العهد وفشو الجهل إلى ما كانت عليه الأمم السابقة من عبادة الأوثان.

أقول: قد مَرَّت القرون المتطاولة عليها وهي ماثلة أمام المسلمين، والمتاحف مَلْأى بالأصنام والأوثان الأثريّة للأمم السالفة، ولم نر أحداً من المسلمين اتخذ هذه الأصنام القديمة وآلهة الفراعنة والبابليين والاشوريين للعبادة بل ولا من غيرهم.. على الرغم من أنها كانت موجودة قبل الإسلام أي منذ اكثر من الف واربعمئة سنة، وأن بعضها عمرها أكثر من الفين وخمسمئة عام قبل ولادة السيد المسيح عليه السلام، ولم نر أحداً اتخذ أماكنهم محلاً للعبادة ولا الهتهم رباً يُعبد من دون الله، وإنما كانت عبرة وتذكرة ودراسة لسيرة ومسيرة الأمم السابقة وحضارتهم ورقيهم في سُلَّمِ الحياة، وقد مرَّت على الأمة الإسلاميّة عصور تخلف وانحطاط فكري ونكبات لاسيما في المناطق القريبة من أماكن هذه الآثار القديمة ومدنها ولم نسمع أن أحداً من المسلمين ولا غيرهم اتخذها محلاً للعبادة ولا أصنامها آلهة، فيكون وجودها في هذه العصور الحضاريّة اليوم مع الرقي المعرفي للبشـرية ـ دون المُتَسلِّفة ـ أولى بعدم اتخاذها محلاً للعبادة ولا أصنامها آلهة معبودة، إنما اتخذت كتحف أثريّة ومقتنيات نفيسة تعود إلى حقبة زمنية من تأريخ الأمم السالفة ليس أكثر من ذلك، فلا تفضـي إلى شيء مما في أذهان المُتَسلِّفة الفارغة، ولا مبرر لهذا الخوف الأعمى بدعوى قطع الذريعة المفضية للفساد؛ لأنها لم توجد أصلاً، والدليل على ذلك أنها ما زالت قائمة على مدار القرون المتطاولة وليس هناك من اتخذها محلاً للعبادة وأصنامها الهة إلا في خيال وعقول المُتَسلِّفة وأوهامهم.

وعليه، فلا يقال إِنّ في تدمير هذه الآثار القديمة جلباً للمصلحة ودفعاً للمفسدة بل على العكس من ذلك، فإن فيها دلالة على الانحطاط الفكري للفاعلين والتخلف السلوكي والاجتماعي لهم، مما أثر على صورة الإسلام الناصعة وشوه

منظومته المعرفيّة المشـرقة، حيث يحسب العالم المتحضر اليوم بمختلف ألوانه وأطيافه أن هؤلاء الجهال والحمقى والشاذين ممن قاموا بتدمير التراث الحضاري والإنساني للأمم السالفة والغابرة أنهم بهذا يمثلون رؤية الإسلام، ولم يعلموا أن الإسلام وعموم المسلمين منهم ومن أفكارهم وافعالهم براء.

ولهذا دافع المُتَسلِّفُ عن أفعاله (داعش) الهمجية في تهديم الآثار الحضاريّة للأمم السابقة في موصل العراق وغيرها بعد أن استنكرتها جميع دول العالم، الإسلاميّة وغير الإسلاميّة، المتقدمة منها ودول العالم الثالث بل حتى الدول الناميّة عدا إسرائيل فيها احسب، وجميع المؤسسات الثقافيّة والعلميّة والمعرفيّة الدوليّة، وجميع المرجعيات الدينيّة على اختلاف معتقداتها ومذاهبها، وحتى الشخصيات الإسلاميّة والمعرفيّة والثقافيّة التي لها ثقلها في المجتمع العربي والإسلامي والعالمي وتأثيرها في النفوس، حيث قال:

وأما التعلل بكون هذه التماثيل من التراث الإنساني، فهذا كلام لا يلتفت إليه، فإن اللات والعزى وهبل ومناة وغيرها من الأصنام كانت تراثاً لمن يعبدها في قريش والجزيرة وهو تراث، لكنه تراث محرم يجب إزالته).

أقول: لا يخفى على اللبيب أن هناك فارقا بين ما كان يُعبدُ في زمن الجاهلية وصدر الإسلام، وبين ما كان يُعبدُ منذ قرون متطاولة وانقرض أهلها وبقيت هذه الآثار أطلالاً.

فإنه لا خلاف بين المسلمين في وجوب تحطيم الأصنام وما يُعبد من دون الله عند التمكن منها وإلغاء وجودها مع وجود من يعبدها أو يدعوا اليها؛ لقطع دابر هذا الأمر كما فعل رسول الله عندما دخل مكة وتمكن من رقاب أهلها فأمر أمير المؤمنين عليّاً بهدم أصنامهم وازالتها من الوجود وارسل بعض الصحابة ورجال الصدر الأول إلى تهديمها في أماكن تواجدها خارج مكة، حتى استقر الأمر وسقطت عبادة الأصنام

من الجزيرة العربية، وجاء بعده عصر الخلافة وانتشر الإسلام في ربوع المعمورة وعرف القاصي والداني أن الإسلام لا يسمح بعبادة الأوثان والأصنام، وأن المسلمين وحتى يومنا هذا تربوا ونشأوا على هذا المبدأ وساروا على هذه العقيدة منذ أكثر من الف واربعمئة عام من بزوغ شمس الإسلام العظيم، ولم نسمع أن أحدا من المسلمين اتخذ صنما إلها له سواء على نحو الاستقلال أو من هذه الأصنام والأوثان القديمة التي باد أهلها، إلا أوهام في عقول أبناء (ابن تيمية) صاحب العقد النفسية والأمراض الاجتماعيّة، والبدوي الأعرابي محمد بن عبد الوهاب النجدي ومن قَفا خُطاهما من المُتَسلِّفة.

وعلى فرض أن اليوم وجدنا أصنام اللات والعزى وهبل ومناة وغيرها من أصنام الجاهلية بين ظهرانينا، فما الموجب لهدمها وازالتها مع عدم وجود من يعبدها أو يقدسها، وإنما يكون وجودها يمثل حالة تأريخيّة في حضارة الإسلام بعد أن احتواها ومحاها من الوجود فكراً ورجالاً، وأنها أصبحت أثراً غابراً يشير إلى معالم وسلوك أمة من الأمم قد دثرها نور الإسلام وفكره وتعاليمه الراقية وروحه السمحة، وأصبحت أثراً بعد عين، ثم أنظروا إلى هذه الأصنام والأوثان فإنها مخلفاتهم تثير الاستغراب والاستهجان والاستنكار على تلك العقول السالفة التي روضها الإسلام من عبادتها إلى عبادة الواحد القهار، وأن مشاهدة هذه الآثار القديمة تُقوي صِلة الإنسان بِرَبه سبحانه وتعالى، وتشد رابطتهُ بدينه عندما يرى ويشاهد أمام عينيه الحقائق والأشياء للأمم السالفة دون أن يسمع ويخبر عنها، فسوف يعرف ضحالة هذه الأفكار والعقول التي كانت تعبد هذه الأحجار من دون الله عز وجل.

إن هذا لا يُعد تراثا محرماً اليوم، ولا يوجد عاقل ينظر اليه نظرة قداسةٍ، فلا مانع من وجوده، وإن كان محرماً في عصره لوجود المقتضي لذلك، وهذا ينطبق على كل ما يُعبد من دون الله عز وجل.

أما وقد باد أهلها ولم يبق منها إلا الأطلال والمعالم والأصنام التي تحكي حياتهم وطريقة معاشهم وأسلوب حياتهم في عبادتهم وعاداتهم، والاطّلاع على علومهم ومعارفهم ونحو ذلك، مما يرتبط بشؤون حياتهم العامة، فأضحت تراثاً إنسانياً عاماً يستلهم منه الدارسون والباحثون تأريخ الأمم السالفة، والوقوف على حقيقتهم وأحوالهم، من خلال هذه الآثار والمعالم الحضاريّة، والإسلام ندب إلى السير والقصد، والنظر والتأمل، في آثار الأمم السالفة؛ لأخذ العبرة منها في آيات كثيرة من كتابه العزيز، لا أن نقوم بطمسها وتهديمها، منها:

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأرض فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأرض وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٦٥).

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأرض فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأرض فَأَخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَـهُمْ مِنَ الله مِنْ وَاقٍ﴾ (٦٦).

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأرض فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأرض إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ (٦٧).

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأرض فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْـخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ (٦٨)

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ الله وَمَا أَنَا مِنَ الْـمُشْرِكِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أهل الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأرض فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٩).

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأرض فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ (٧٠).

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأرض ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْـمُكَذِّبِينَ﴾ (٧١).

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأرض فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْـمُجْرِمِينَ﴾ (٧٢).

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأرض فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ (٧٣). وغيرها من الآيات الشريفة.

فالأمر الإرشادي في الآيات الشريفة بالسير ﴿قُلْ سِيرُوا﴾، والنظر ﴿انْظُرُوا﴾، لأجل النظر والتأمل والاعتبار فيما يوصل الإنسان إلى العلم بالله تعالى والإيمان به، لا أن يكون سيره سير الغافلين.

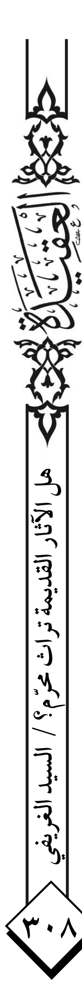
فإن النظر في هذه الآيات الشريفة هو طلب الإدراك بالبصر والفكر والاستدلال، وإنما أمرهم الله تعالى بذلك؛ لأن ديار الأمم السالفة ما زالت باقية قائمة جملة منها، وأخبارهم شائعة، فإذا سار الإنسان في الأرض وسمع أخبارهم وشاهد آثارهم دعاه ذلك إلى الإيمان بالله تعالى، وزجره عن الكفر والطغيان ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأرض فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأرض إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيراً﴾ (٧٤).

فإذا انقرضت الأقوام وبادت ماذا بقي شاهداً عليهم للنظر والتأمل والقصد بالسير لهم إلا آثارهم ومساكنهم وحاجاتهم ونحو ذلك.

وعليه فإن هذه الآثار القديمة من الأمم السالفة لا تكون تراثاً محرماً، ولا دليل على ذلك من كتاب أو سنة أو عقل يمكن الركون اليه، إلا أوهام وخيالات في عقول عصابة شاذة عن الإسلام والمسلمين تدعي الانتماء إلى سيرة السلف الصالح، فشوهوا صورتهم وأماتوا سيرتهم؛ بآرائهم المنحرفة وأفعالهم الشنيعة، فتأمل وافهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْـمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِـرُوا بِالْـجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ * وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْـمُسْلِمِينَ﴾ (٧٥).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..



* هوامش البحث *

(١) وهي كلمة مؤلفة من الأحرف الأولى لما يسمى بـ(الدولة الإسلاميّة! في العراق والشام).

(٢) السلفيّون هم المنسوبون إلى السلف وقد حرص أتباع هذه الحركة ومن شاكلهم وسايرهم على نهجهم الضال والمنحرف على اطلاق هذا اللفظ على أنفسهم بدعوى أنهم يَقْفُونَ آثار السلف الصالح في أفعالهم وتروكهم، ومع الاغماض عن تحديد هُويّة (السلف) الذين يزعمون اقْتفاءَ آثارهم، فإنه لا يصح اطلاق ذلك عليهم إلا من باب الادعاء والتمحل، ولذا أطلقنا عليهم (المُتَسلِّفة) بمعنى أنهم مُدَّعون لهذه النِسبة، وهم أبعد ما يكونوا عنها.

(٣) وهي حركة عنصريّة طائفيّة وهابيّة على غرار (داعش) وشقيقتها فكراً وسلوكاً ومنهجاً، تسلطت على شعب أفغانستان ما بين سنة (١٩٩٦ ـ ٢٠٠١م) وعاثت في البلاد فساداً وأهلكوا الحرث والنسل، وما زالت فلولها المخذولة تفتك بالأبرياء...

(٤) سورة التوبة/ آية ٩٧.

(٥) سورة الحجرات/ آية ١٤.

(٦) سورة الإسراء/ آية ٧٠.

(٧) كمال الدين وتمام النعمة ـ الشيخ الصدوق ص٤١٠.

(٨) صحيح البخاري ـ البخاري ج ٢ ص ١١٠ ، صحيح مسلم ـ النيسابوري ج١ ص٤٠.

(٩) نهج البلاغة ـ شرح محمد عبدة ج٣ ص٨٤.

(١٠) سورة الحجرات/ آية ١٣.

(١١) سورة البقرة/ آية ٢٥٨.

(١٢) صحيح مسلم ـ النيسابوري ج ٣ ص١١٤.

(١٣) صحيح البخاري ج ٦ ص١١٥، موطأ مالك ج ١ ص٢٠٤، وقد أوضح محمد فؤاد عبد

الباقي ألفاظ الحديث بقوله: (يخرج فيكم) أي عليكم (قوم) هم الذين خرجوا على علي بن أبي طالب يوم النهروان، فقتلهم. فهم أصل الخوارج [والمُتَسلِّفة الوهابيون اليوم ومنهم ما يسمى(داعش) فرع من أصل تلك الحركة، فهم خوارجُ العصر]. (تحقرون) تستقلون. (صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم) لأنهم كانوا يصومون النهار ويقومون الليل. (ولا يجاوز حناجرهم) جمع حنجرة، وهي آخر الحلق مما يلي الفم. والمعنى أن قراءتهم لا يرفعها الله ولا يقبلها. (يمرقون) يخرجون سريعا. (الرَّمِيَّة) الطريدة من الصيد. فعيلة بمعنى مفعولة. شبه مروقهم من الدين بالسهم الذي يصيب الصيد، فيدخل فيه ويخرج منه. ومن شدة سرعة خروجه، لقوة الرامي، لا يعلق من جسد الصيد بشيء. (النصل) حديدة السهم. (القدح) خشب السهم. أو ما بين الريش والسهم. (وتتمارى) أي تشك. (الفوق) موضع الوتر من السهم، أي تتشكك هل علق به شيء من الدم.= =والمعنى أن هؤلاء يخرجون من الإسلام بغتة كخروج السهم إذا ما رماه رام قوي الساعد، فأصاب ما رماه، فنفذ بسرعة، بحيث لا يعلق بالسهم، ولا بشيء منه، من المرمى شيء، فإذا التمس الرامي سهمه لم يجده علق بشيء من الدم ولا غيره).

(١٤) سورة الإنسان/ آية ٢ ـ ٣.

(١٥) سورة الغاشية/ آية ٢١ ـ ٢٦.

(١٦) وأخرجه أيضاً أبو داوود، والنَّسائي، والترمذي، والحاكم، والبيهقي، والطيالسي، وأحمد من طريق أبي وائل عن أبي الهياج، والطبراني في المعجم الصغير من طريق أبي إسحاق عن أبي الهياج.

وقريب منه روي في كتبنا الحديثية، منها ما رواه الكليني في الكافي(ج٦ ص٥٢٨) عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام : بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة فقال: لا تدع صورة إلا محوتها، ولا قبراً إلا سويته، ولا كلباً إلا قتلته. ورواه البرقي في المحاسن (ج٢ ص٦١٣ ـ ٦١٤) عن النوفلي، مثله.

وفيه أيضاً (ج٦ ص٥٢٨) عن عدة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن جعفر بن محمد الأشعري، عن ابن القداح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله في هدم القبور وكسر الصور. ورواه البرقي في المحاسن(ج٢ ص٦١٤) عن جعفر بن محمد الأشعري، مثله. أقول: إلا أن في أسنادها كلام، ودلالتها على المطلوب قاصرة كما سيتضح.

(١٧) صحيح مسلم ـ النيسابوري ج ٣ ص ٦١

(١٨) سير اعلام النبلاء ـ الذهبي ج٩ ص١٥٤

(١٩) تهذيب التهذيب ـ ابن حجر ج١١ ص١١٤

(٢٠) تهذيب التهذيب ـ ابن حجر ج٤ ص١٠٢

(٢١) تهذيب التهذيب ـ ابن حجر ج١١ ص١٩٢

(٢٢) تهذيب التهذيب ـ ابن حجر ج٢ ص١٥٦ ـ ١٥٧

(٢٣) تهذيب الكمال ـ المزي ج١٢ ص٥٤٨.

(٢٤) شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد ج ٤ ص ٩٩.

(٢٥) تهذيب الكمال ـ المزي ج١٢ ص٥٤٨.

(٢٦) شرح سنن النسائي ـ السيوطي ج ٤ص٨٩.

(٢٧) وقد علق على هذه الرواية العلّامة العسكري فقال: إِن أهل المدينة بعد أن أسلم بعضهم أرسل لهم الرسول صلى الله عليه وآله بادئ ذي بدء مصعب ابن عمير يعلم من أسلم منهم ما ورد من الإسلام يوم ذاك ولما وفدوا إلى الحج حضر المسلمون منهم العقبة وبايعوا رسول الله سراً ولم ينتشر الإسلام بينهم حتى هاجر الرسول إليهم وتبعه بعد ثلاث أو أكثر الإمام علي، وقصة وروده المدينة بعد ذلك مشهورة. وتدرج الرسول في بسط حكمه على المدينة بعد أن عاهد يهود قريضة والنظير وبني قينقاع ودخل أهل المدينة كلهم في الإسلام متدرجاً. فمتى كان ارسال النبي الإمام علياً من تشييع جنازة إلى المدينة ليهدم الأصنام ويسوى القبور ويلطخ الصور كالحاكم الذي لا راد لأمره. أضف إليه أن محتوى الخبر: أن المرسل الأول ذهب وهم في تشييع الجنازة ورجع خائباً ثم أرسل النبي الإمام علياً بعده وهم لا يزالون في تشييع الجنازة، فكيف يتم ذلك؟! .

(٢٨) مسند احمد ـ ابن حنبل ج ١ ص٨٧.

(٢٩) انظر معجم الفاظ الفقه الجعفري ـ د. أحمد فتح الله ص١٢٥.

(٣٠) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية ـ محمود عبد الرحمن عبد المنعم ج١ ص ٢٠٦.

(٣١) صحيح مسلم ـ النيسابوري ج ٢ ص٢٠٨.

(٣٢) مجمع الزوائد ـ الهيثمي ج٦ ص١٧٦.

(٣٣) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ج ٢ ص١٤٦.

(٣٤) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ج ٢ ص١٤٦.

(٣٥) صحيح البخاري ـ البخاري ج ٤ص٢٢ ، صحيح مسلم ـ النيسابوري ج٧ ص١٥٧.

(٣٦) القاموس المحيط ـ الفيروزآبادي ج٢ ص٣٠١.

(٣٧) كتاب الأصنام ـ ابن الكلبي ص٣٤ ـ ٥٣.

(٣٨) معالم المدرستين ـ مرتضى العسكري ج١ ص٥١.

(٣٩) المصباح المنير ـ الفيومي ص١١٣

(٤٠) القاموس المحيط ـ الفيروزآبادي ج٤ص٣٤٥

(٤١) نيل الأوطار ـ الشوكاني ج ٤ ص١٣١

(٤٢) المصنف ـ ابن ابي شيبة ج ٣ص٢٢٢.

(٤٣) المحلى ـ ابن حزم ج ٥ ص١٣٣.

(٤٤) سنن ابي داوود ـ السجستاني ج ٢ص٨٤.

(٤٥) انظر الفتاوى الكبرى ـ ابن تيمية ج ٢ص١٧٤. وأهل البدع يريد بهم شيعة أهل البيت عليهم السلام فإنهم ذهبوا إلى تسطيح القبر وتربيعه، والجهر ببسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة، تبعاً لما هو مسنون ووارد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار عليهم السلام .

(٤٦) الخلاف ـ الشيخ الطوسي ج ١ ص٧٠٦ ـ ٧٠٧.

(٤٧) ذكرى الشيعة ـ الشهيد الأول ج ٢ ص٢٧ ـ ٢٨.

(٤٨) شرح الصدور ـ الشوكاني ص١١.

(٤٩) هناك فارق بين عنوان الصحابة الذين تمسكوا بما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله ولازموا سيرته وسنته حتى لحقوا بالرفيق الأعلى ولم يفارقوا منهاجه، وبين رجال الصدر الأول الذين عاشوا تلك الفترة واختلفت احوالهم وتقلبت أوضاعهم وسيرتهم وخالفوا وصية رسول الله صلى الله عليه وآله خصوصاً بعد وفاته، فإن هؤلاء لم يرتقوا إلى شرف هذا المصطلح (الصحابة) فاسميتهم للتمييز برجال الصدر الأول، فتأمل.

(٥٠) صحيح البخاري، البخاري ج٣ ص١٥١، صحيح مسلم ـ النيسابوري ج٧ ص١٨٥ـ١٨٦.

(٥١) صحيح البخاري ـ البخاري ج٥ ص١٣٥، صحيح مسلم ـ النيسابوري ج٨ ص٢٢١.

(٥٢) صحيح البخاري ـ البخاري ج ٥ص٢٢٢، صحيح مسلم ـ النيسابوري ج٨ ص٢٢١.

(٥٣) سورة المائدة/ آية ٢٧.

(٥٤) سورة الجاثية / آية ٢١.

(٥٥) انظر شبه جزيرة العرب ـ الزركلي ج ٤ص١١٨٨.

(٥٦) من أين علموا هؤلاء العلماء هذه الأمور ؟

(٥٧) الاستبصار في عجائب الأمصار ج١ص٥٧، الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري ص١٧.

(٥٨) تأريخ ابن خلدون (المقدمة) — ابن خلدون ج ١ ص ٣٤٦.

(٥٩) مرآة الجنان وعبرة اليقظان ـ اليافعي ج ١ ص٣٢٧.

(٦٠) تأريخ ابن خلدون (المقدمة) ـ ابن خلدون ج ١ ص ٣٤٦.

(٦١) صحيح البخاري ـ البخاري ج ٧ ص١٠٢.

(٦٢) صحيح مسلم ـ النيسابوري ج ٧ ص١٣٥.

(٦٣) النهاية ـ ابن الأثير ج١ ص١٥٨.

(٦٤) سنن أبي داوود ـ السجستاني ج ٢ ص٤٦٢ ـ ٤٦٣، السنن الكبرى ـ البيهقي ج١٠ ص٢١٩.

(٦٥) سورة الروم/ آية ٩.

(٦٦) سورة غافر/ آية ٢١.

(٦٧)سورة فاطر/ آية ٤٤.

(٦٨) سورة العنكبوت/ آية ٢٠ ـ ٢١.

(٦٩) سورة يوسف/ آية ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٧٠) سورة محمد/ آية ١٠.

(٧١) سورة الانعام/ آية ١١.

(٧٢) سورة النمل/ آية ٦٩.

(٧٣) سورة الروم/ آية٤٢ .

(٧٤) سورة فاطر/ آية ٤٤.

(٧٥) سورة فصلت/ آية٣٠ ـ ٣٣.

* المصادر والمراجع *

١. القرآن الكريم ـ كلام رب العالمين.

٢. الاستبصار في عجائب الأمصار ـ كاتب مراكشي (متوفى في القرن السادس الهجري) نشر دار الشؤون الثقافيّة، بغداد/ ١٩٨٦م.

٣. تأريخ ابن خلدون (المقدمة) ـ ابن خلدون، الطبعة الرابعة، نشر دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان.

٤. تذكرة الفقهاء ـ العلامة الحلي ، تحقيق مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، الطبعة الأولى/ محرم ١٤١٤هـ ، المطبعة مهر ـ قم ، نشر مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث ـ قم.

٥. تهذيب التهذيب ـ ابن حجر، الطبعة الأولى/ ١٤٠٤ ـ ١٩٨٤ م ، نشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.

٦. تهذيب الكمال ـ المزي، تحقيق وضبط وتعليق الدكتور بشار عواد معروف، الطبعة الرابعة/ ١٤٠٦ ـ ١٩٨٥ م، نشر مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان.

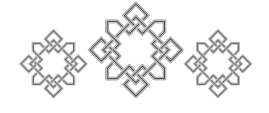
٧. الخلاف ـ الشيخ الطوسي، تحقيق جماعة من المحققين/ جمادي الآخرة ١٤٠٧هـ ، نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.



٨. ذكرى الشيعة في أحكام الشـريعة ـ الشهيد الأول، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم، الطبعة الأولى/ محرم ١٤١٩هـ ، المطبعة ستاره ـ قم.
٩. الروض المعطار في خبر الأقطار ـ الحميري، حققه د.إحسان عباس، الطبعة الثانية/ ١٩٨٤ م، طبع على مطابع هيدلبرغ ـ بيروت، نشر مكتبة لبنان.
١٠. سنن ابي داوود ـ السجستاني ، تحقيق وتعليق سعيد محمد اللحام، الطبعة الأولى/ ١٤١٠ ـ ١٩٩٠م، نشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
١١. السنن الكبرى ـ أحمد بن الحسين البيهقي، دار الفكر . بيروت.
١٢. سنن النسائي– النسائي، الطبعة الأولى/ ١٣٤٨ ـ ١٩٣٠م، نشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.
١٣. سير اعلام النبلاء ـ الذهبي، إشراف وتخريج شعيب الأرنؤوط، تحقيق حسين الأسد الطبعة التاسعة/ ١٤١٣ ـ ١٩٩٣ م، نشر مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان.
١٤. شبه جزيرة العرب ـ خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين ـ بيروت.
١٥. شرح الصدور بتحريم رفع القبور ـ محمد بن علي الشوكاني.
١٦. شرح سنن النسائي ـ جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ لبنان.
17. شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى/ 1378 ـ 1959 م، نشـر دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه.
١٨. صحيح البخاري ـ البخاري/ ١٤٠١ ـ ١٩٨١ م ، نشر دار الفكر للطباعة والنشـر والتوزيع.
١٩. صحيح مسلم ـ مسلم النيسابوري، طبعة مصححة، دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان.
٢٠. صحيفة الحياة، رقم العدد ١٣٨٦٦، تأريخ النشر ٧/ ذي الحجة/ ١٤٢١ هـ الموافق ٢/ ٣/ ٢٠٠١ م.
٢١. الطبقات الكبرى ـ ابن سعد، طباعة ونشر دار صادر ـ بيروت.
٢٢. الفتاوى الكبرى ـ ابن تيمية، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى/ ١٤٠٨ ـ ١٩٨٧م، نشر دار الكتب العلميّة.
٢٣. القاموس المحيط ـ محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، برسم الخزانة السلطانية الملكية الناصرية الصلاحية الرسولية، دار العلم للجميع بيروت ـ لبنان.
٢٤. الكافي ـ الشيخ الكليني، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، الطبعة الخامسة/ ١٣٦٣ ش، المطبعة حيدري ، نشـر دار الكتب الإسلاميّة ـ طهران.
٢٥. كتاب الأصنام ـ ابن الكلبي. تحقيق احمد زكي باشا.
٢٦. كمال الدين وتمام النعمة ـ الشيخ الصدوق، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، محرم الحرام ١٤٠٥ ـ ١٣٦٣ ش، نشر مؤسسة النشـر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.



٢٧. مجمع الزوائد ـ الهيثمي/ ١٤٠٨ ـ ١٩٨٨ م ، نشر دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ لبنان.
٢٨. المحلى ـ ابن حزم ـ طبعة مصححة، دار الفكر.
٢٩. مرآة الجنان وعبرة اليقظان ـ اليافعي، وضع حواشيه خليل المنصور، الطبعة الأولى/ ١٤١٧ ـ ١٩٩٧ م، نشـر منشورات محمد علي بيضون / دار الكتب العلميّة.
٣٠. مسند أحمد ـ ابن حنبل، نشـر دار صادر ـ بيروت ـ لبنان.
٣١. المصباح المنير ـ احمد الفيومي، ١٩٨٧م ، مكتبة لبنان، بيروت ـ لبنان.
٣٢. المصنف ـ ابن ابي شيبة، تحقيق وتعليق سعيد اللحام، الطبعة الأولى/ جماد الآخرة ١٤٠٩ ـ ١٩٨٩ م، نشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.
٣٣. معالم المدرستين ـ السيد مرتضى العسكري/ ١٤١٠ ـ ١٩٩٠ م، نشر مؤسسة النعمان للطباعة والنشـر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.
٣٤. معجم الفاظ الفقه الجعفري ـ د. أحمد فتح الله، الطبعة الأولى/ ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م، مطابع المدوخل ـ الدمام.
٣٥. معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية ـ محمود عبد الرحمن عبد المنعم، نشـر دار الفضيلة ـ القاهرة.
٣٦. الموطأ ـ الإمام مالك، تصحيح وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي/ ١٤٠٦ ـ ١٩٨٥م نشر دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان.
٣٧. موقع (الإسلام سؤال وجواب) على شبكة الأنترنت محمد صالح المُنَجِّد، وجوب تكسير الأصنام.
٣٨. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين ابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، الطبعة الرابعة/ ١٣٦٤ ش، نشـر مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشـر والتوزيع ـ قم ـ ايران.
٣٩. نهج البلاغة ـ خطب الإمام علي عليه السلام ـ شرح محمد عبدة، الطبعة الأولى/ ١٤١٢ ـ ١٣٧٠ ش، المطبعة النهضة ـ قم، نشـر دار الذخائر ـ قم ـ ايران.
٤٠. نيل الأوطار ـ الشوكاني/ ١٩٧٣ م ، نشر دار الجيل ـ بيروت ـ لبنان.
وسائل الشيعة(آل البيت) ـ الحر العاملي، تحقيق مؤسسة آل البيت(ع) لإحياء التراث، الطبعة الثانية/ ١٤١٤هـ، المطبعة مهر ـ قم، نشـر مؤسسة آل البيت(ع) لإحياء التراث بقم المشرفة.





رؤية الله سبحانه وتعالى في المنام

الشيخ لؤي المنصوري

تمهيد

من العقائد المسلّمة بين علماء السلفيّة هي إمكان رؤية الله سبحانه وتعالى، وقد عمموا إمكان هذه للمؤمنين وغيرهم، وقد ذهب إلى ذلك أيضاً علماء الأشاعرة، دون الشيعة والمعتزلة وبعض الفرق الأخرى، إذ ذهبوا إلى استحالة رؤية الله سبحانه وتعالى وعدم إمكان ذلك.

وقد قسّم السلفية رؤية الله إلى أقسام عدّة:

١ـ رؤية الله تعالى في الآخرة: وقد أجمعوا عليها جميعاً ولم يختلفوا فيها.

٢ـ رؤية الله تعالى في الدنيا: فقد ذهب جمهورهم إلى امتناعها النقلي دون العقلي، وذهب بعضهم إلى إمكانها.

٣ـ رؤية الله تعالى في المنام: وقد ذهب جمهورهم إلى إمكانها بل ووقوعها، بل جعلوا رؤية الله في المنام دليلاً على إيمان الرائي وتقواه.

وممّا يؤيد ما ذكرناه في الجملة، ما صرّح به الإمام النووي، حيث قال: (**اعلم أنّ مذهب أهل السنّة بأجمعهم أنّ رؤية الله تعالى ممكنة غير مستحيلة عقلا وأجمعوا أيضا**

على وقوعها في الآخرة وأنّ المؤمنين يرون الله تعالى دون الكافرين وزعمت طائفة من أهل البدع المعتزلة والخوارج وبعض المرجئة أنّ الله تعالى لا يراه أحد من خلقه وأن رؤيته مستحيلة عقلاً وهذا الذي قالوه خطأ صريح وجهل قبيح)[1].

ففي كلمات النووي تصريح بيّن بإمكانيّة رؤية الله سبحانه وتعالى، بل وبإجماعهم على وقوع ذلك في الآخرة.

أمّا ما يتعلّق برؤيته في المنام فهو ما سنتناوله في هذه المقالة، ونترك تفاصيل رؤيته في الآخرة إلى موطن آخر.

منشأ الاعتقاد برؤية الله سبحانه وتعالى في المنام:

يظهر عند التتبع أنّ منشأ هذا الاعتقاد هو بعض النصوص التي نسبوها إلى النبي صلى الله عليه وآله والدالة على رؤيته لربّه في المنام، منها ما رواه الترمذي في سننه، إذ أورد روايات عدّة حول الموضوع نقتصر منها على ما رواه الصحابي معاذ بن جبل.

قال الترمذي: (حدّثنا محمّد بن بشار، حدثنا معاذ بن هانئ أبو هانئ السكري، حدثنا جهضم بن عبد الله عن يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن سلام، عن أبي سلام، عن عبد الرحمن بن عائش الخضرمي أنّه حدثه عن مالك بن يخامر السكسكي، عن معاذ بن جبل قال: احتبس عنّا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذات غداة من صلاة الصبح حتّى كدنا نتراءى عين الشمس، فخرج سريعاً فثوّب بالصلاة، فصلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتجوّز في صلاته، فلمّا سلّم دعا بصوته فقال لنا: على مصافكم كما أنتم، ثم انفتل إلينا فقال: أما إنّي سأحدّثكم ما حبسني عنكم الغداة: أنّى قمت من الليل فتوضأت فصليت ما قدر لي فنعست في صلاتي فاستثقلت، فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة فقال: يا محمّد، قلت: ربّ لبيك، قال: فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت: لا أدرى ربّ، قالها ثلاثاً ، قال: فرأيته وضع كفّه بين كتفيّ، قد وجدت برد

أنامله بين ثديّ، فتجلّى لي كلّ شيء وعرفت فقال: يا محمد . قلت: لبيك ربّ، قال: فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت: في الكفّارات، قال: ما هنّ؟ قلت: مشي الأقدام إلى الجماعات، والجلوس في المساجد بعد الصلاة، وإسباغ الوضوء في المكروهات، قال: ثم فيم؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة بالليل والناس نيام. قال: سل، قلت: اللهم إنّي أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحبّ المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقرب إلى حبك. قال رسول الله صلى الله عليه وآله إنّها حقّ فادرسوها ثمّ تعلّموها).

وعلّق عليه الترمذي فقال: (**هذا حديث حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال: هذا صحيح**)[٢].

وفي الموضوع ذاته يقول الإمام الذهبي: (**ولم يأتنا نص جلي بأنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم رأى الله تعالى بعينيه. وهذه المسألة مما يسع المرء المسلم في دينه السكوت عنها، فأمّا رؤية المنام، فجاءت من وجوه متعدّدة مستفيضة، وأما رؤية الله عياناً في الآخرة، فأمر متيقن تواترت به النصوص**)[٣].

وقد رتّبوا على ذلك بحثهم العقدي، وعنونوا له عنواناً مستقلاً، وهو أنّ الله سبحانه وتعالى يُرى في المنام، وكتب بعضهم في ذلك رسائل وأبحاث منفصلة، ككتاب الرؤية لابن أبي الدنيا، وكرسالة (اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى) لابن رجب الحنبلي، وكذلك صرّحوا في كلماتهم برؤيته في المنام، بل نسبوا إلى مجموعة من علمائهم ومحدثيهم بأنّهم قد رأوا الله في المنام، وسنذكر الآن جملة من أقوال علمائهم في ذلك ونتبعها بذكر مناماتهم التي رأوها في رب العالمين.

تصريح علمائهم بإمكان رؤية الله في المنام:

عرفنا ممّا سبق أنّ رؤية الله في المنام ممكنة عند القوم، بل صرّح بعضهم بأنّها من علامات الإيمان، نورد مجموعة من أقوالهم في ذلك:



١ـ محمد بن سيرين (ت: ١١٠هـ) حيث قال: (من رأى ربّه في المنام دخل الجنّة)[٤].

٢ـ الإمام أبو محمد الدينوري، ابن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ):

قال في كتابه تعبير الرؤيا: باب معرفة الأصول: تأويل رؤية الله تعالى في المنام، قال المفسـرون: من رأى الله ـ عز وجل ـ بمكان شمل العدل ذلك الموضع، وأتي أهله الخصب والفرح والخير؛ لأنّ الله هو الحقّ المبين، له الدنيا والآخرة، وعنده مفاتح الرزق، وقال المفسرون في قول الله عز وجل: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْـحُسْنى وَزِيادَةٌ﴾ يونس : ٢٦، (النظر إلى الله).

وإن رآه ينظر إليه فهي رحمته له، وإن رآه معرضاً عنه فهو تحذير للذنوب، يقول الله عز وجل في قوم لا تنالهم رحمته: ﴿ أُولئِكَ لا خَلاقَ لَـهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾ آل عمران: ٧٧.

ويقول الداعون في الدعاء: (اللهم انظر إليّ برحمتك)

وإن أعطاه شيئاً من متاع الدنيا: (فإنّ ذلك عِزٌّ وابتلاء من مصايب وأسقام تؤديه إلى رحمته،وكذلك إن رآه معه على فراش، أو في بيت، أو رآه يعظه، أو يعاتبه، أو يمرضه، أو يكتنفه: فذلك كله بِرَّه به، وعطفه عليه مع تمحيص واختبار منه؛ لأنّ الله ووعظه وإقباله: هو نظره لعبده بما يبقى له عنده، لا بما يزول عنه وليس يتغير هذا إلا أن يراه بغير ما هو أهله، أو على خلاف ما يوصف به جل جلاله؛ فيكون ذلك دليلاً على هوى في الدين من بغي وكذب عليه أو بدعة في الإسلام)[٥].

٣ـ الإمام عثمان بن سعيد الدارمي (ت: ٢٨٠هـ):

إذ قال: (وفي المنام يمكن رؤية الله تعالى على كلّ حال وفي كلّ صورة)[٦].

٤ـ القاضي أبو يعلى الفراء ، محمد بن الحسين(ت: ٤٥٨هـ):

إذ قال: (جواز رؤيته سبحانه في المنام وهذا غير ممتنع في حقه صلى الله عليه وآله أو في حق غيره من المؤمنين)[٧].

٥ـ أبو القاسم القشيري (ت: ٤٦٥هـ):

إذ قال ما حاصله: «إنّ رؤياه على غير صفته لا تستلزم إلا أن يكون هو، فإنّه لو رأى الله على وصف يتعالى عنه وهو يعتقد أنّه منزه عن ذلك لا يقدح في رؤيته بل يكون لتلك الرؤيا ضرب من التأويل»[٨].

٦ـ الإمام البغوي، الحسين بن مسعود (ت: ٥١٠ هـ):

قال: (رؤية الله في المنام جائزة، قال معاذ عن النبي صلى الله عليه وآله: (إني نعست فرأيت ربي)، وتكون رؤيته جلت قدرته ظهور العدل ، والفرج والخصب والخير لأهل ذلك الموضع ، فإن رآه فوعد له جنة أو مغفرة ، أو نجاة من النار ، فقوله حق ووعده صدق ، وإن رآه ينظر إليه، فهو رحمته ، وإن رآه معرضاً عنه ، فهو تحذير من الذنوب ، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أُولئِكَ لا خَلاقَ لَـهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾[٩] وإن أعطاه شيئاً من متاع الدنيا فأخذه ، فهو بلاء ومحن وأسقام تصيب بدنه، يعظم بها أجره لايزال يضطرب فيها حتى يؤديه إلى الرحمة، وحسن العاقبة)[١٠].

٧ـ القاضي عياض (ت: ٥٤٤هـ):

قال: (إنّه لا نزاع في وقوعها وصحّتها فإنّ الشيطان لا يتمثل به تعالى كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام)[١١].

وفي شرح مسلم للنووي أنّه قال: (واتفق العلماء على جواز رؤية الله تعالى في المنام وصحتها وإن رآه الانسان على صفة لا تليق بحاله من صفات الأجسام؛ لأن ذلك المرئي غير ذات الله تعالى إذ لا يجوز عليه سبحانه وتعالى التجسم ولا اختلاف الأحوال)[١٢].

وتعقّبه بعضهم قائلاً: (إنّ الشيطان يتمثّل به تعالى دون النبي صلى الله عليه وآله والفرق أنّ النبي بشر فيلزم من التمثل به اللبس بخلاف المولى فأمره معلوم)[١٣].

٨ـ القرافي، أحمد بن إدريس(ت: ٦٨٤هـ)

قال: (**فإذا رأى الرائي أنّه بالمشـرق وهو بالمغرب أو نحوه فهي أمثلة جعله الله تعالى دليلاً على تلك المعاني كما جعلت الحروف والأصوات والرقوم الكتابية دليلاً على المعاني، فإذا رأى الله تعالى أو النبي فهي أمثلة تضرب له بقدر حاله فإن كان موحداً رآه حسناً أو ملحداً رآه قبيحا وهو أحد التأويلين في قوله رأيت ربي في أحسن صورة**)[١٤].

٩ـ ابن تيمية الحراني، أحمد بن عبد الحليم (ت: ٧٢٨هـ):

قال: (**وقد يرى المؤمن ربه في المنام في صور متنوعة على قدر إيمانه ويقينه، فإذا كان إيمانه صحيحاً لم يره إلا في صورة حسنة، وإذا كان في إيمانه نقص رأى ما يشبه إيمانه...**)[١٥].

وقال في موضع آخر: (**ومن رأى الله عز وجل في المنام فانه يراه في صورة من الصور بحسب حال الرائى إن كان صالحاً رآه في صورة حسنة، ولهذا رآه النبى في أحسن صورة**)[١٦].

وقد صرّح بأنّ هذه العقيدة محل اتفاق بين المسلمين باستثناء الجهمية[١٧].

١٠ـ شمس الدين الذهبي (ت: ٧٤٨هـ):

حيث قال: (**ولم يأتنا نص جلي بأنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم رأى الله تعالى بعينيه. وهذه المسألة مما يسع المرء المسلم في دينه السكوت عنها، فأما رؤية المنام، فجاءت من وجوه متعدّدة مستفيضة، وأما رؤية الله عياناً في الآخرة ، فأمر متيقن تواترت به النصوص، جمع أحاديثها الدارقطني والبيهقي وغيرهما**)[١٨].

١١ـ ابن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ):

في تفسير قوله تعالى: ﴿ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْـمَلَإِ الأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[١٩]، حيث قال: (**أي لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملا الأعلى؟ يعنى في شأن آدم عليه الصلاة والسلام وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربّه في تفضيله عليه** (ثمّ ساق حديث معاذ وقال بعده:) **فهو حديث المنام المشهور ومن جعله يقظة فقد غلط**)[٢٠].

١٢ـ ابن حجر العسقلاني(ت: ٨٥٢هـ) حيث قال:

(**جوز أهل التعبير رؤية الباري عز وجل في المنام مطلقاً ولم يجروا فيها الخلاف في رؤيا النبي صلّى الله عليه وسلم، وأجاب بعضهم عن ذلك بأمور قابلة للتأويل في جميع وجوهها، فتارة يعبر بالسلطان وتارة بالوالد وتارة بالسيد وتارة بالرئيس في أي فن كان، فلما كان الوقوف على حقيقة ذاته ممتنعا وجميع من يعبر به يجوز عليهم الصدق والكذب كانت رؤياه تحتاج إلى تعبير دائما بخلاف النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا رؤي على صفته المتفق عليها وهو لا يجوز عليه الكذب كانت في هذه الحالة حقاً محضاً لا يحتاج إلى تعبير**)[٢١].

١٣ـ الملا علي القاري (ت: ١٠١٤هـ):

قال في المرقاة بعد أن ذكر رؤيا النبي لرب العالمين في المنام:(وعلى هذا لم يكن فيه إشكال إذ الرائي قد يرى غير المتشكل متشكلاً ، والمتشكل بغير شكله. ثم لم يعد ذلك بخلل في الرؤيا ولا في خلد الرائي ، بل له أسباب أخر تذكر في علم المنام ، أي التعبير. ولولا تلك الأسباب لما افتقرت رؤيا الأنبياء عليهم السلام إلى تعبير)[٢٢].

١٤ـ العلامة الآلوسي (ت: ١٢٧٠هـ):

قال: (**فأنا ولله تعالى الحمد قد رأيت ربي مناماً ثلاث مرات وكانت المرة الثالثة في السنة السادسة والأربعين والمائتين والألف بعد الهجرة ، رأيته جل شأنه وله من النور ما له متوجهاً جهة المشرق فكلمني بكلمات أنسيتها حين استيقظت ، ورأيت مرة**

في منام طويل كأني في الجنة بين يديه تعالى وبيني وبينه ستر حبيك بلؤلؤ مختلف ألوانه، فأمر سبحانه أن يذهب بي إلى مقام عيسى عليه السلام ثم إلى مقام محمد صلى الله عليه وسلم فذهب بي إليهما فرأيت ما رأيت ولله تعالى الفضل والمنة)[٢٣].

١٥ـ محمد بن العربي التباني (ت: ١٣٩٠هـ):

قال: (**رؤية الله تعالى في المنام جائزة باتفاق العلماء**)[٢٤].

١٦ـ عبد العزيز بن باز (ت: ١٤٢٠هـ):

إذ أجاب على سؤال جاء فيه: **ما حكم من يدعي أنه قد رأى رب العزة في المنام؟ وهل كما يزعم البعض أن الإمام أحمد بن حنبل قد رأى رب العزة والجلال في المنام أكثر من مائة مرة؟**

فقال: (**ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وآخرون أنه يمكن أن يرى الإنسان ربه في المنام، ولكن يكون ما رآه ليس هو الحقيقة؛ لأنّ الله لا يشبهه شيء سبحانه وتعالى، قال تعالى : سورة الشورى الآية ١١ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ فليس يشبهه شيء من مخلوقاته، لكن قد يرى في النوم أنه يكلمه ربه، ومهما رأى من الصور فليست هي الله جل وعلا؛ لأن الله لا يشبهه شيء سبحانه وتعالى، فلا شبيه له ولا كفو له.**

وذكر الشيخ تقي الدين رحمه الله في هذا أنّ الأحوال تختلف بحسب حال العبد الرائي، وكل ما كان الرائي من أصلح الناس وأقربهم إلى الخير كانت رؤيته أقرب إلى الصواب والصحة، لكن على غير الكيفية التي يراها، أو الصفة التي يراها؛ لأن الأصل الأصيل أن الله لا يشبهه شيء سبحانه وتعالى.

ويمكن أن يسمع صوتاً ويقال له كذا وافعل كذا، ولكن ليس هناك صورة مشخصة يراها تشبه شيئاً من المخلوقات؛ لأنه سبحانه ليس له شبيه ولا مثيل سبحانه وتعالى ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى ربه في المنام، من حديث معاذ

رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى ربه، وجاء في عدة طرق أنه رأى ربه، وأنه سبحانه وتعالى وضع يده بين كتفيه حتى وجد بردها بين ثدييه، وقد ألف في ذلك الحافظ ابن رجب رسالة سماها: «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» وهذا يدل على أن الأنبياء قد يرون ربهم في النوم، فأما رؤية الرب في الدنيا بالعيان فلا...

وأمّـا الـرؤيا في النوم التي يدعيها الكثير من الناس فهي تختلف بحسب الرائي ـ كما قال شيخ الإسلام رحمه الله ـ بحسب صلاحهم وتقواهم؛ وقد يخيل لبعض الناس أنه رأى ربه وليس كذلك، فإن الشيطان قد يخيل لهم ويوهمهم أنه ربهم، كما روي أنه تخيل لعبد القادر الجيلاني على عرش فوق الماء، وقال: أنا ربك وقد وضعت عنك التكاليف، فقال الشيخ عبد القادر: إخسأ يا عدو الله لست بربي ؛ لأن أوامر ربي لا تسقط عن المكلفين، أو كما قال رحمه الله، والمقصود أن رؤية الله عز وجل يقظة لا تحصل في الدنيا لكن قد تحصل الرؤية في المنام للأنبياء وبعض الصالحين على وجه لا يشبه فيها سبحانه الخلق، كما تقدم في حديث معاذ رضي الله عنه، وإذا أمره بشيء يخالف الشرع فهذا علامة أنه لم ير ربه وإنما رأى شيطاناً، فلو رآه وقال له: لا تصل قد أسقطت عنك التكاليف، أو قال: ما عليك زكاة أو ما عليك صوم رمضان أو ما عليك بر والديك أو قال لا حرج عليك في أن تأكل الربا... فهذه كلها وأشباهها علامات على أنه رأى شيطاناً وليس ربه.

أمّا عن رؤية الإمام أحمد لربه فلا أعرف صحتها، وقد قيل: إنّه رأى ربه، ولكنّي لا أعلم صحة ذلك)[٢٥].

وسيجيئ منّا ذكر رؤية أحمد لاحقاً فانتظر.

١٧ـ الشيخ محمد صالح العثيمين (ت: ١٤٢١هـ):

سئل في اللقاء المفتوح حول رؤية الله في المنام: السؤال: فضيلة الشيخ: بالنسبة

لرؤية الله عز وجل في المنام، هل يصح القول بأن الرؤية يمكن أن تقع لأي مؤمن من المؤمنين؟

فأجاب: «**رؤية الله تعالى في المنام في الدنيا -أما في الآخرة فليس هناك نوم- هذه جاءت في حديث اختصام الملأ الأعلى الذي أخرجه أهل السنن (أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه في المنام) ورؤية الله لغير النبي صلى الله عليه وسلم لا أعلم أنها ثابتة ولا أدري هل تقع أم لا؟ لكنه قد ذكر أن الإمام أحمد رحمه الله رأى ربه في المنام، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن الإنسان قد يرى ربه في المنام، وذلك بأن الله سبحانه وتعالى يضرب له مثلاً بحسب تمسكه بالدين، يراه رؤية حسنة يكون في ذلك مساعدة له على التمسك بالدين والاستمرار على ما هو عليه، فالله أعلم. أنا أتوقف في أن الإنسان يرى ربه في المنام رؤيةً حقيقة، أما إذا كان الله تعالى يضرب له مثلاً يبين له تمسكه بدينه فهذا شيءٌ ليس بغريب**»(٢٦).

فهو إذن يتبنى رؤية النبي لربه في المنام ويتوقف في رؤية الناس ولا يرى ذلك ممتنعاً.

١٨ـ الشيخ مقبل الوادعي (ت: ١٤٢٢هـ):

إذ وُجّه له سؤال ما نصّه: **هل يرى المؤمن ربه في المنام مع الدليل؟ وهل ثبت عن بعض السلف أنّهم رأوا ربّهم في المنام أم لا؟**

فأجاب: (**ليس هناك ما يمنع، وقد جاء في حديث معاذ وحديث عبد الرحمن بن عائش وابن عباس، وبعضهم يقول: إنّها ترتقي إلى الحجية، جاء فيها أنّ النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه... لكن لو رأى الإنسان ربه وأتى بشيء يخالف التشريع الإسلامي الموجود فلا يقبل؛ لأنّ الذي رآه يحتمل أن يكون رآه حقيقةً، وأن تكون وساوس نفس، كما جاء أن الرؤيا تنقسم إلى ثلاثة أقسام: رؤيا من الله، وحلم من الشيطان، وحديث نفس، وزيادة على هذا أن النائم ليس بوعيه حتى يقبل ما رآه في منامه**)(٢٧).

١٩ـ الشيخ ابن جبرين (ت:١٤٣٠هـ):

سئل في شرح كتاب اعتقاد أهل السنة: هل من الممكن رؤية الله في المنام؟ وهل ثبت أن أحداً من السلف رأى الله؟

فأجاب: (الرؤية في المنام واقعة، والنبي – صلى الله عليه وسلم – أخبر بقوله: ((رأيت ربي في أحسن صورة)) وذكر أنه وضع يده على صدره، وقال: ((حتى وجدت برد أنامله بين صدري)) وهذا تمثيل، والرؤيا المنامية إنما هي خيال، ولا يلزم منها أن يكون ذلك الذي رئي مشابهاً لله تعالى، فالإنسان يتخيل أنه رأى في المنام ربه، وأنه تهيأ له بكذا وكذا، ولكن لا يلزم أن يكون الرب مماثلاً لتلك الرؤيا، أو لذلك الشيء الذي تمثّل أمام ذلك الرائي) [٢٨].

٢٠ـ الشيخ محمد الحسن الددو الشنقيطي:

قال في سلسلة الأسماء والصفات: **(اختلف في رؤية الله في النوم، فقالت طائفة من السلف: لا يمنع نص من رؤيته في النوم؛ لأن الرؤية في النوم إنما هي بالأرواح لا بالأشباح فليست راجعة للبصر، والنفي إنما جاء معلقاً بالأبصار بقوله: ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْـخَبِيرُ ﴾** [الأنعام:١٠٣]، **وعلى هذا فالرؤيا غير الرؤية، فيمكن أن يرى من الرؤيا لا من الرؤية في الدنيا.**

وروي عن الإمام أحمد أنه رآه في النوم مرات كثيرة...) [٢٩].

إلى غير ذلك من الكلمات المبثوثة في كتب العقيدة والحديث والتي تتحدث عن إمكان رؤية الله في المنام.

فيمن رأى الله من الرواة والمحدثين والعلماء:

ذكرت كتبهم بأنّ هناك مجموعة من العلماء والرواة قد رأوا الله في المنام منهم:

١ـ أبو مرثد:

قال ابن تيمية في كلامه عن معنى النفس: **(ويراد بالنفس عند كثير من**

المتأخرين صفاتها المذمومة فيقال فلان له نفس ويقال اترك نفسك ومنه قول أبي مرثد: رأيت رب العزة في المنام فقلت أي رب كيف الطريق اليك فقال: اترك نفسك، ومعلوم أنه لا يترك ذاته وإنّما يترك هواها وأفعالها المذمومة)[٣٠].

وأبو مرثد هذا إن كان الصحابي فهو كناز بن الحصين الغنوي توفي سنة ١٢ هـ، وإن كان غيره فلم نقف عليه إلى الآن، والمهم هو استدلال ابن تيمية بهذه الرؤية، الأمر الذي يعكس عقيدته في ذلك.

٢ـ رقبة بن مسقلة العبدي (ت: ١٢٩هـ):

قال العجلي: (**وكان ثقة مفوهاً يعد من رجالات العرب، ويروى عن جرير عن رقبة أنّه قال: رأيت ربّ العزة في النوم فقال: وعزتي وجلالي لأكرمنّ مثوى سليمان التيمي، وكان صديقاً لسليمان مؤاخيا له)**[٣١].

٣ـ الإمام الأوزاعي، عبد الرحمن بن عمرو (ت: ١٥٧هـ):

أخرج ابن عساكر بسنده إلى عبد الله بن عروة قال: (**سمعت يوسف بن موسى القطان يحدث أنّ الأوزاعي قال: رأيت ربّ العزة في المنام، فقال لي: يا عبد الرحمن أنت الذي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فقلت: بفضلك يا رب، فقلت: يا رب أمتني على الاسلام، فقال: وعلى السنّة)**[٣٢].

٤ـ يزيد بن هارون (ت: ٢٠٦هـ):

روى الخطيب بسنده عن **أحمد بن سنان، قال: (سمعت يزيد بن هارون يقول: رأيت رب العزة في المنام فقال لي: يا يزيد تكتب من حريز بن عثمان ؟ فقلت: يا رب ما علمت منه إلا خيراً، فقال لي: يا يزيد لا تكتب منه فإنّه يسب علياً)**[٣٣].

ويزيد هذا، قال عنه ابن حجر: (**ثقة متقن عابد)**[٣٤].

٥ـ سريج بن يونس (ت: ٢٣٥هـ):

قال الذهبي: (**قال عبد الله بن أحمد : سمعت سريج بن يونس ، يقول : رأيت**

رب العزة في المنام، فقال: سل حاجتك، فقلت: رحمان سر بسر، يعني: رأسا برأس (وعلّق الذهبي قائلاً:) قلت: كان سريج من الأئمة العابدين، له أحوال ، وكان رأساً في السنة)[٣٥].

وقال في تاريخه بعد نقل القصّة: (وكان سريج من الزهاد والعباد ببغداد ، له حكايات شبه الكرامات رحمه الله . وكان إماماً في السنة)[٣٦].

تنويه: قال ابن خلّكان: (ابن سريج أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج الفقيه الشافعي قال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في حقه ... كان من عظماء الشافعيين وأئمة المسلمين وكان يقال له الباز ...

وكان جده سريج رجلاً مشهوراً بالصلاح الوافر ...ورأيت في بعض الأجزاء أنه كان أعجمياً لا يعرف بالعربية شيئا وأنه رأى الباري سبحانه وتعالى في النوم وحادثه وقال له في الآخر: يا سريج طلب كن، فقال: يا خذا سر بسر قالها ثلاثاً، وهذا لفظ عجمي معناه بالعربية يا سريج اطلب فقال: يا رب رأس برأس كما يقال رضيت أن أخلص رأسا برأس، ثم وجدت في تاريخ بغداد أن صاحب المنام المذكور هو سريج بن يونس بن إبراهيم بن الحارث المروزي الزاهد العابد صاحب الكرامات، وكانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة خمس وثلاثين ومائتين ببغداد رحمه الله تعالى ورأيت بالمنام جزءاً منفرداً متصل السماع بالإسناد إلى سريج المذكور، والقول الأول كنت سمعته من بعض المشايخ والله أعلم)[٣٧].

٦ـ أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ):

نقل الإمام الذهبي بسنده إلى عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: (سمعت أبي، يقول: رأيت رب العزة في المنام، فقلت : يا رب، ما أفضل ما تقرب به إليك المتقربون؟ قال: بكلامي يا أحمد . قلت: يا رب، بفهم، أو بغير فهم؟ قال: بفهم وبغير فهم)[٣٨].

وفي حاشية ابن عابدين، وهو يتحدث عن مناقب الإمام أحمد بن حنبل، قال:

(رؤيته ربه تعالى في المنام قصة مشهورة ذكرها الحافظ النجم الغيظي. وهي أنّ الامام رضي الله عنه قال: رأيت رب العزة في المنام تسعاً وتسعين مرة فقلت في نفسي: إن رأيته تمام المائة لأسألنه: بم ينجو الخلائق من عذابه يوم القيامة . قال : فرأيته سبحانه وتعالى فقلت: يا رب عز جارك وجل ثناؤك وتقدست أسماءك ، بم ينجو عبادك يوم القيامة من عذابك؟ فقال سبحانه وتعالى: من قال بعد الغداة والعشي (سبحان الأبدي الأبد، سبحان الواحد الأحد، وسبحان الفرد الصمد، سبحان رافع السماء بلا عمد، سبحان من بسط الأرض على ماء جمد، سبحان من خلق الخلق فأحصاهم عدد ، سبحان من قسم الرزق ولم ينس أحد، سبحان الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولد، سبحان الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) نجا من عذابي اهـ)[٣٩].

٧ ـ أحمد بن خضرويه، أبو حامد البلخي (ت: ٢٤١هـ):

فقد روى ابن الجوزي عن جعفر بن علي الترمذي قال: (**أحمد بن خضرويه قال: رأيت رب العزة في منامي فقال لي: يا أحمد كل الناس يطلبون منّي إلا أبا يزيد فإنّه يطلبني**)[٤٠].

وأحمد هذا قال عنه الذهبي: (**الزاهد الكبير الرباني الشهير، أبو حامد البلخي ، من أصحاب حاتم الأصم . قال السلمي: هو من جلة مشايخ خراسان...**)[٤١].

٨ـ أبو يزيد البسطامي (٢٦١هـ):

قال ابن تيمية: (**وقال الشيخ عبد القادر**: ...

والحكاية المشهورة عن أبى يزيد البسطامى رحمه الله تعالى لما رأى ربَّ العزة في المنام فقال له كيف الطريق إليك، فقال: أترك نفسك وتعال، قال أبو يزيد: فانسلخت من نفسى كما تنسلخ الحية من جلدها)[٤٢].

٩ـ الفتح بن شخرف(ت: ٢٧٣هـ):

قال الخطيب: (**أخبرنا إبراهيم بن عمر البرمكي، أخبرنا أبو الفضل الزهري**

عبيد الله بن عبد الرحمن قال: سمعت أبا الطيب المعلم يقول: سمعت البربهاري يقول: سمعت فتح بن شخرف يقول: رأيت رب العزة تعالى في النوم فقال: يا فتح إحذر لا آخذك على غرة، قال: فتهت في الجبال سبع سنين)[٤٣].

والفتح هذا كان رجلاً صالحاً عابداً زاهداً وفيه يقول أحمد بن حنبل: (ما أخرجت خراسان مثل فتح بن شخرف)[٤٤].

١٠ـ أبو بكر المقرئ البغدادي ابن مجاهد (ت: ٣٢٤هـ):

قال عنه الصفدي: (شيخ القراء في عصره ومصنف السبعة، سمع جماعة وحدث عنه آخرون وكان ثقة مأموناً ... وقال أبو سعد السمعاني في اختيار تاريخ يحيى ابن منده: سمعت الإمام أبا المظفر عبد الله بن شبيب المقرئ يقول: سمعت أحمد بن منصور المذكر يقول: سمعت أبا بكر ابن مجاهد المقرئ يقول: سمعت الحسن بن سالم البصري يقول وهو صاحب سهل بن عبد الله التستري قال سمعت أبا بكر بن مجاهد المقرئ يقول: رأيت رب العزة في المنام فختمت عليه ختمتين فلحنت في موضعين فاغتممت لذلك، فقال لي: يا ابن مجاهد الكمال لي الكمال لي)[٤٥].

١١ـ عبد الله بن إبراهيم بن واضح : أبو بكر الإصبهاني (ت: ٣٤٥هـ):

قال الذهبي: (أحد العبّاد المذكورين، يقال إنّه رأى الحقّ تعالى في النوم مرتين، جاء ذلك عنه من وجهين)[٤٦].

١٢ـ عبد الله بن عبدان (ت: ٤٣٣هـ):

قال عنه الذهبي: (شيخ همذان ، وعالمها ... وكان ثقة فقيهاً ، ورعاً جليل القدر ممن يشار إليه .

قال شيرويه : رأيت بخط ابن عبدان: رأيت رب العزة في المنام ، فقلت له: أنت خلقت الأرض و خلقت الخلق ثم أهلكتهم، ثم خلقت خلقاً بعدهم، وكأني أرى أنّه يرتضي كلامي ومدحي له، فقال لي كلاماً يدل على أنّه يخاف علي الافتخار بها أولانيه،

فقلت له: أنا في نفسي أخس، ووقع في ضميري: أخس من الروث، ثم قال لي: أفضل ما يدعى به: ألا له الخلق والأمر)[٤٧].

١٣ـ أبو القاسم القشيري (ت: ٤٦٥هـ):

قال ابن خلّكان: (قال أبو القاسم القشيري: رأيت رب العزة عز وجل في المنام وهو يخاطبني وأخاطبه، فكان في أثناء ذلك أن قال الربّ تعالى إسمه، أقبلَ الرجل الصالح، فالتفتُّ فإذا أحمد الثعالبي مقبل)[٤٨].

١٤ـ أبو المظفر السمعاني، منصور بن محمد (ت: ٤٨٩هـ):

ترجمه الذهبي وقال: (الامام العلامة، مفتي خراسان، شيخ الشافعية، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد التميمي، السمعاني، المروزي، الحنفي كان، ثم الشافعي... قال عبد الغافر في (تاريخه): هو وحيد عصره في وقته فضلاً وطريقة، وزهداً وورعاً، من بيت العلم والزهد، تفقه بأبيه، وصار من فحول أهل النظر، وأخذ يطالع كتب الحديث، وحج ورجع، وترك طريقته التي ناظر عليها ثلاثين سنة، وتحول شافعياً، وأظهر ذلك في سنة ثمان وستين، فاضطرب أهل مرو، وتشوش العوام، حتى وردت الكتب من الأمير ببلخ، في شأنه والتشديد عليه، فخرج من مرو، ورافقه ذو المجدين أبو القاسم الموسوي، وطائفة من الأصحاب، وفي خدمته عدة من الفقهاء، فصار إلى طوس...

وسمعت شهردار بن شيرويه، سمعت منصور بن أحمد، وسأله أبي، فقال: سمعت أبا المظفر السمعاني يقول: كنت حنفياً، فبدا لي، وحججت، فلما بلغت سميراء، رأيت رب العزة في المنام، فقال لي: عد إلينا يا أبا المظفر، فانتبهت، وعلمت أنه يريد مذهب الشافعي ، فرجعت إليه)[٤٩].

١٥ـ ابن راجح، أحمد بن محمّد بن خلف (ت: ٦٣٨هـ):

ترجمه الذهبي بقوله: (الشيخ الامام العلامة البارع الحافظ نجم الدين أقضى



القضاة أبو العباس أحمد بن الإمام شهاب الدين محمد بن خلف بن راجح بن بلال المقدسي ثم الصالحي الحنبلي ثم الشافعي ... ومن محفوظاته كتاب «الجمع بين الصحيحين». اشتغل وتخرج به العلماء ، وكان ذا تهجد وتأله وتعبد وذكاء مفرط . قال الشيخ الضياء: سمعت عمر بن صومع يذكر أنّه رأى الحق تعالى في النوم فسأله عن النجم بن خلف فقال: هو من المقربين.

قلت: وذكر النجم أنه رأى البارئ عز وجل في النوم إحدى عشرة مرة ، قال له في بعضها : أنا عنك راض)[٥٠].

ولكن الذهبي قال عنه في تاريخه: (وذُكر أنّه رأى الحق تعالى عشـرة مرات ورأى النبي صلى الله عليه وسلم بضعاً وأربعين مرة. وقد ساق ذلك كله الضياء في ترجمته فمنها: قال: رأيت كأني أسمع كلامه سبحانه يقول: إنّ سهامنا ستصيب من أرادك بسوء. قال: ورأيت كأنّه تعالى يقول: أدن مني مرحباً بالحاكم الفاضل، أوصيك بالقاضي الخويي . ورأيت في سنة ثمان وعشرين كأني أسمع من الحق تعالى : أنا عنك راض، فهل أنت عنّي راض)[٥١].

تنويه:

ما تناولناه في البحث لا يمثل إلا نماذج تعكس واقع العقيدة التي يتبنونها، لذلك بيّنا مقدّماً منشأ اعتقادهم واقتصرنا على ذكر روايـة واحدة فقط، ثم انتقلنا لذكر نماذج من كلماتهم المصـرّحّة بجواز الرؤية، ثم أتبعناها بما دل على وقوع الرؤية عند علمائهم وثقاتهم من الرواة، فكان المجموع على اختصاره يمثل واقع عقيدة الرؤية عند السلفية بل وجماعة من غيرهم، ولو أردنا أن نبسط الكلام في ذلك لطال بنا المقام، لذا سنذكر فيما يلي خلاصة ما يستفاد من الكلام المتقدم لنتبعه بأسئلة تبين وهن ما ذكروه.



نظر وتحليل في خلاصة عقيدتهم بالرؤية المنامية:

انتهينا من جميع ذلك إلى أمور عدّة لا بدّ من بيانها:

الأمر الأول: إنّ رؤية الله في المنام عند السلفيّة بل وعند جماعة من غيرهم أمر جائز لا إشكال فيه، لورود الأخبار الصحيحة والمستفيضة على ذلك، والتي تبيّن أنّ الرسول رأى ربّه على أحسن صورة بل وجرت بينهما محادثة، وأنّ الرب وضع أصابعه بين كتفي النبي محمّد ﷺ، ويظهر أنّها كانت باردة، لذا قال النبي ﷺ: قد وجدت برد أنامله بين ثديي، وتفيد الرواية بأن وضع الرب أصابعه بين كتفي النبي كانت سبباً لتجلّي الأمور وانكشافها عند النبيّ، واستطاع الإجابة على سؤال الله له: فيمَ يختصم الملأ الأعلى، إذ إنّ النبيّ ﷺ كان لا يعرف ذلك، وبعد وضع اليد تجلّى له كلّ شيء فأجاب على سؤال الرب!! إذ جاء في الرواية أنّه قال: فتجلّى لي كلّ شيء وعرفت...

الأمر الثاني: إنّ النقل عند السلفيّة يمثّل أقصى غايات المعرفة، وإن كان فيه إساءة إلى ربّ العالمين، ورسوله الأمين، لذلك سلّموا بصدور الرواية معتبرينها دليلاً على جواز رؤية الرسول لربّ العالمين في المنام، من دون الأخذ بنظر الاعتبار الأحكام العقلية القطعيّة الرافضة لتجسيم الله سبحانه وتعالى بأي نحو اتّفق.

الأمر الثالث: إنّ الروايات وإن وردت في خصوص الرسول الأكرم، إلاّ أنّ كثيراً منهم عدّاها إلى غيره، فصرّحوا بجواز وإمكانية رؤية ربّ العالمين في المنام من دون أن يقصروه على النبي ﷺ.

الأمر الرابع: لم يكتفوا بتعدية حكم الرؤية إلى غير الرسول ﷺ بل صرّحوا بأنّ ذلك دليل على إيمان الرائي وتقواه، وفسروا الرؤية بأنّها تمثل الخير والبركة في ذلك المكان وأن الرائي يدخل الجنّة...

الأمر الخامس: تعدّوا من مرحلة الرؤية وجوازها إلى مرحلة الحجية، وإنّ ما



يقوله الربّ في المنام حجّة يجب الانقياد لها، لذلك فإنّ النبي ﷺ، بعد أن أخبر أصحابه بما رأى وجرى قال لهم: إنّها حقّ فادرسوها ثمّ تعلّموها.

ولعله من هنا وجدنا البغوي يقول: **فإن رآه فوعد له جنة أو مغفرة، أو نجاة من النار ، فقوله حق ووعده صدق.**

ومن هنا وجدنا أنّ السمعاني ترك مذهب الحنفية وتحول إلى مذهب الشافعية نتيجة رؤياه لربّ العالمين، حيث قال له في المنام: **عد إلينا يا أبا المظفر، يقول السمعاني: فانتبهت، وعلمت أنّه يريد مذهب الشافعي، فرجعت إليه.**

الأمر السادس: صرّح بعضهم بأنّ الرؤية تكون متناسبة مع عقيدة الرائي فإن كان مؤمناً رأى الربّ بصورة حسنة، وإن كان ملحداً رآه بهيئة قبيحة، وإن كان في إيمانه نقص رآه بما يشابه إيمانه**!!**.

الأمر السابع: يرى بعضهم أنّ الشيطان يمكن أن يتمثل برب العالمين، فيكون الرائي رأى شيطاناً ويتخيّل أنّه رب العالمين، وجعلوا من علامات ذلك نوع الأوامر التي يوجهها الرب إلى الرائي، فإذا أمره بترك التكليف من رأس أو ترك بعض الواجبات أو أمره بشيء يخالف التشريع، دلّ ذلك على كون المرئي شيطاناً.

الأمر الثامن: حاول بعضهم التفصي من مشكلة التجسيم التي تلازم الرؤية، بدعوى أنّ الصورة القلبية تختلف عن الصورة العينية، وأنّ الرؤية في المنام هي بالأرواح لا بالاشباح، فليست راجعة للبصر، أو بعدم التلازم بوجود التشابه بين ما يرى في المنام وبين الواقع، فيكون ما رآه في المنام ليس هو الحقيقة.. وسيأتي التعليق على ذلك وبيان الحال في هذا التفصي لاحقاً.

أسئلة نقديّة:

من خلال ما تقدّم تبيّن أنّه يمكن رؤية الله في المنام، وأنّه قد وقع فعلاً لمجموعة



من علمائهم وصلحائهم، وعدّوا ذلك علامة على حسن حال صاحب المنام، بل قد أعطيت هذه الرؤية الحجيّة الشـرعيّة وتم العمل على طبقها كما عرفنا.

وإذ إنّ هذه العقيدة توجب نحواً من الريب لمساسها بالذات القدسية وتأثيرها على أساس العقيدة وهو التوحيد، لذا نورد مجموعة من الأسئلة والاستفهامات يتبيّن من خلالها الخلل الكبير الملازم لهذه النظرية.

١ـ إن رؤيته تعالى كيف ما كانت تعني أنّ له جسماً يرى وهذا معناه التجسيم، فهل ربهم الذي يعبدونه جسم؟

٢ـ ثم نسأل إذا كان الله تعالى جسماً فهذا يعني أنه محدود بحدود معينة كما هي طبيعة كل جسم له حدود واضحة ومعينة، واذا كان كذلك فهو بحاجة إلى تلك الحدود وبحاجة إلى مكان وجهة، وإذا ثبت أنه محتاج يعني أنّه ليس بغني مطلق بل بحاجة إلى من يسد ذلك الاحتياج، وينتج من ذلك انّ هناك من هو أغنى منه، فهل يلتزمون بهذه اللوازم؟

٣ـ بناءً على إمكان الرؤيـة في المنام أنّـه يمكـن أن يـدرك وإذا أمكـن إدراكه دل ذلك على محدوديته، فيرد عليه ما تقدم من الإشكال ، فهل يمكنهم الالتزام بذلك؟

٤ـ بناءً على ما تقدم من رأي ابن تيمية وغيره من أنّ صورة الرب تكون بحسب إيمان صاحب المنام وعقيدته، فنسأل هل أنّ هذه الصور المتعددة هي جميعها ربّ العالمين أي إنّ كل صورة منها تعني الرب بحيث يصح لمن رأى هذه الصورة أن يقول رأيت الله أو إنّ أحدها هي رب العالمين؟

٥ـ فإذا كـانت كل صورة هي الـرب فنسأل أن هذه الصورة متعـددة ومتغـايرة حسب تصريح ابن تيمية وغيره، فهـل الرب متعدد، وألا يعني هذا الشرك الاكبر؟

٦ ـ وإن كان واحداً فكيف تعددت صوره وكل واحدة منها هو نفسه.

٧ ـ ثم نسال إنّ هذه الصور حادثة أو قديمة، فاذا كانت حادثة مخلوقة فكيف قلتم هي الله مع ان الله ليس بحادث، وإن قلتم أنّها قديمة مع الله فيلزم من ذلك تعدد القدماء وهذه العقيدة فيها ما فيها من اللوازم الباطلة.

٨ ـ وإذا كانت صورة واحدة هي الرب فنسأل: كيف عرفتم صورة الرب من غير صورته؟

٩ ـ فإن أجبتم بأن صورة الرب هي الصورة الأحسن حسب درجات الايمان، فستكون هذه الصورة مختصة بالرسول الاعظم صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فكيف تدعون صحّة المنامات الاخرى وان اصحابها رأوا الله؟

١٠ ـ ونسأل مرة أخرى إذا كانت صورة واحدة هي صورة الرب فكيف تدعون أن الله له صور متعددة بحسب عقيدة الرائي وتصفون من يرى أي صورة من تلك الصور بأنّه رأى الله.

١١ ـ ذكر ابن تيمية وغيره بأن صورة الرب تكون حسب عقيدة الشخص بالحسن والقبح فصورة الرب قد تكون حسنة وقد تكون قبيحة فنسأل: هل لكم رب صورته قبيحة ورب آخر صورته حسنة؟ أوليس هذا من الشرك الأكبر ومن أوهام البشر وما يمليه عليه الشيطان؟

١٢ـ تقدم أنّهم يعتقدون أنّه من الممكن أن يتمثل الشيطان برؤية الرب، وذكروا أنّ التمييز بين الاثنين يكون من خلال الأوامر والنواهي فان أمر بخلاف التشريع فهو الشيطان، وحينئذٍ نسأل: كيف لو تمثّل الشيطان بصورة الرب لشخصٍ عامي بسيط لا يميز بين بعض المحرمات والواجبات فكيف يعمل وقد جوزتم له رؤية ربه في المنام؟

١٣ـ ثم نسأل كيف لو أجاب الشيطان المتقمص صورة الرحمان عن المسائل

الخلافية ولم يتدخل في الحلال والحرام البين فهل يجب أن يطاع؟

١٤ـ ثم كيف لو مدح لنا هذا الشيطان المتقمص شخصاً مشكوكاً في صدقه وعدالته فما هو العمل؟

١٥ـ فإن قيل: إنّنا لا نأخذ بكل كلام الرب في المنام سألناكم: كيف يكون هو الرب ولا تاخذون بكل كلامه؟ أليس هذا مخالفة صريحة لرب العالمين؟

١٦ـ وإن قلتم: نأخذ بجميع أوامره ونواهيه ونطبق إرشاداته، فنسألكم: كيف يمكن ذلك ومن المحتمل أن يكون هذا هو الشيطان؟

١٧ـ ثم نسأل كيف جعلتم رؤية الرب علامة على الصلاح بل ودخول الجنة مع أنّكم جوزتم أن يراه ضعيف الايمان بصورة ليست حسنة، وجوزتم أيضاً أن يتمثل به الشيطان؟

ولعل هذا هو الذي دعا القاضي عياض وغيره إلى ادعاء أنّ الشيطان لا يتمثل بالرب كما تقدم، وهذا يعكس التضاد في كلماتهم وعدم وضوح هذه الفكرة والعقيدة.

١٨ـ إذ إنّ الرب أمر ونهى في المنام فنسأل: إذا لم يكن هو الله فقد بطلت عقيدتكم برؤية الله في المنام، وإذا كان هو الله فما الفرق بين هذه الرؤية وبين الوحي من جهة عملية ؟ بل هنا الإطاعة أشد وأكد لأن الأمر هنا صادر بالمباشرة من الرب، فهل يلتزم مسلم بذلك؟

١٩ـ ثم نسأل ما هي وظيفة من يعتقد ويطمئن بكلام صاحب المنام؟

٢٠ـ ثم نسال لماذا نجد انتقائية في إطاعة هذا الرب الذي يرى في المنام حيث نجد أنّه من جهة يطاع بشكل تام بحيث يغير صاحب المنام مذهبه من حنفي إلى شافعي، بينما نجد أنّ من أمر الرب بعدم الرواية عنه لأنّه يسب علياً أنّهم يوثقونه ويروون عنه، وهو حريز بن عثمان كما تقدم.



٢١ـ ثم نأتي إلى كلام بعض متأخّري الوهابية كابن باز وأمثاله الذين وقعوا في حيرة بين الآيات القرآنية وبين الموروث الفكري من أشياخهم وأسلافهم، فصرّح ابن باز وغيره بأنّه يمكن رؤية الله في المنام ولكن بصورة ليست هي الرب معتقداً بذلك توجيه هذا المعتقد الباطل، فنسأل: إنّ هذا الشخص الذي رأى صورة الرب هل رأى ربه أم لا، فإن كانت الصورة ليست هي الرب بطلت هذه العقيدة من الأساس، وإن كانت هي الرب عادت جميع الإشكالات، فابن باز بدلاً من ان يدفع الاشكالات وقع في التناقضات.

والكلام نفسه يأتي على من ادّعى أن الصورة ليست هي الله فلازمه إما إبطال هذه العقيدة أو عودة الإشكالات.

٢٢ـ ادّعى ابنُ تيمية ومن تبعه أنّ رؤية الله في المنام مما اتفقت عليه طوائف المسلمين إلا الجهمية، فنسأل كيف يدعي ذلك مع مخالفة الشيعة الامامية والزيدية والمعتزلة وغيرهم، بل هل خفي عليه تشدد بعض الحنفية في ذلك وحكمهم بكفر صاحب هذه العقيدة[٥٢]؟

ألا يعني هذا كذب واضح من قبل شيخ الإسلام السلفي؟

٢٣ـ وأخيراً نقول: أليس هذا المعتقد يفتح الباب لكل من هبّ ودبّ ليدّعي أنّه رأى الله في منامه وأمره بكذا وكذا؟

*** هوامش البحث ***

(١) شرح مسلم للنووي: ج٤ ص١٥

(٢) سنن الترمذي: ج٥ ص٤٧، ح٣٢٨٨.

(٣) سير أعلام النبلاء: ج٢ ص١٦٧.

(٤) انظر: سنن الدارمي: ج٢ ص١٢٦.

(٥) تعبير الرؤيا: ص٩٠ـ ٩١.

(٦) نقض الدارمي على المريسي: ج٢ ص٧٣٨.

(٧) إبطال التأويلات لأخبار الصفات: ج١ ص١٢٧.

(٨) فتح الباري: ج١٢ ص٣٤٢.

(٩) آل عمران: ٧٧.

(١٠) شرح السنة للبغوي: ج١٢ ص٢٢٧ـ ٢٢٨.

(١١) مقدمة تحقيق كتاب الرؤية للدارقطني، الشيخ العلي والرفاعي: ص٧٨.

(١٢) انظر شرح مسلم للنووي: ج١٥ ص٢٥.

(١٣) شرح جوهرة التوحيد: ص١١٨.

(١٤) الذخيرة: ج١٣ ص٢٧١ـ ٢٧٢.

(١٥) مجموع الفتاوى: ج٣ ص٣٩٠.

(١٦) مجموع الفتاوى: ج٥ ص٢٥١ ونحوه في ص٤٩٢.

(١٧) تلبيس إبليس: ج١ ص٦٦.

(١٨) سير أعلام النبلاء: ج٢ ص١٦٧.

(١٩) ص: ٦٩.

(٢٠) تفسير ابن كثير: ج٤ ص٤٧.

(٢١) فتح الباري: ج١٢ ص٣٤٢.

(٢٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: د٢ ص٣٩٩.

(٢٣) تفسير الآلوسي المعروف بروح المعاني: ج٩ ص٥٢.

(٢٤) تحذير العبقري من محاضرات الخضري: ج١ ص١٣٩.

(٢٥) مجموع فتاوى ابن باز: ج٧ ص١٢١ـ ١٢٣.

(٢٦) من اللقاء المفتوح، وهي سلسلة لقاءات كان يعقدها الشيخ في بيته، وقد فرغت الكاسيتات الصوتية على ملفات وورد.





(٢٧) تحفة المجيب: سؤال رقم ٦٨.

(٢٨) شرح كتاب اعتقاد أهل السنة: ج٨ ص١١.

(٢٩) سلسلة الأسماء والصفات، الدرس الصوتي الخامس.

(٣٠) مجموع الفتاوى: ج٩ ص٢٩٣.

(٣١) معرفة الثقات: ج١ ص٣٦٣، وانظر ايضاً: الثقات لابن حبان: ج٤ ص٣٠١، سير أعلام النبلاء: ج٦ ص١٧٩.

(٣٢) تاريخ دمشق: ج٣٥ ص١٩٣.

(٣٣) تاريخ بغداد: ج٨ ص٢٦١.

(٣٤) تقريب التهذيب: ج٢ ص٣٣٣.

(٣٥) سير أعلام النبلاء: ج١١ ص١٤٦ـ١٤٧.

(٣٦) تاريخ الإسلام: ج١٧ ص١٧٠.

(٣٧) وفيات الأعيان: ج١ ص٦٦ـ٦٧.

(٣٨) سير أعلام النبلاء: ج١١ ص٣٤٧.

(٣٩) حاشية رد المختار: ج١ ص٥٥.

(٤٠) صفة الصفوة: ج٤ ص١١٣.

(٤١) سير أعلام النبلاء: ج١١ ص٤٨٧ـ٤٨٨.

(٤٢) مجموع الفتاوى: ج١٠ ض٥١٨، وانظر مدارج السالكين لابن القيم: ج٢ ص٧.

(٤٣) تاريخ بغداد: ج١٢ ص٣٨٢.

(٤٤) تاريخ بغداد: ج١٢ ص٣٨٣.

(٤٥) الوافي بالوفيات: ج٨ ص١٣٠.

(٤٦) تاريخ الإسلام: ج٢٥ ص٣٥٠.

(٤٧) تاريخ الإسلام: ج٢٩ ص٣٨٢.

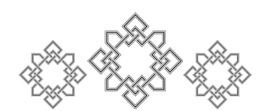
(٤٨) وفيات الأعيان: ج١ ص٨٠.

(٤٩) سير أعلام النبلاء: ج١٩ ص١١٦ـ١١٧.

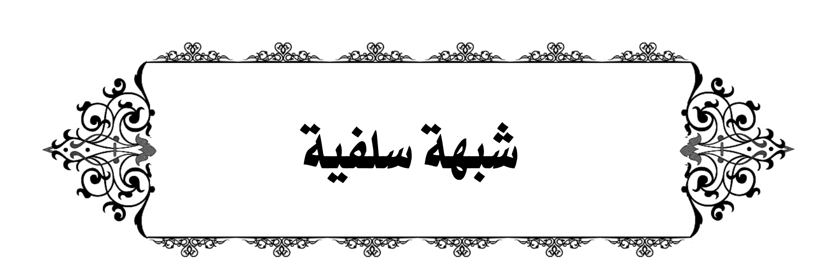
(٥٠) سير أعلام النبلاء: ج٢٣ ص٧٥ـ٧٦.

(٥١) تاريخ الإسلام: ج٤٦ ص٣٦٢.

(٥٢) انظر: شذرات الذهب: ج٥ ص١٦٠.







مقارنة بين البخاري والكافي في الرواية عن أهل البيت عليهم السلام

مروان خليفات

إن أغلب الشبهات المثارة ضد مدرسة أهل البيت عليهم السلام منشؤها المقدمات الخاطئة، والمغالطات الهزيلة، وعدم فهم مباني الآخرين.

وقد عرض علي أحدهم شبهة انتشرت في بعض مواقع الأنترنت، وقد أرتأيت أن أجيب عليها، لئلا ينخدع بها أحد ،ولتعم الفائدة، وأورد كلامه شبه كامل ثم أعلق عليه بعد أن أضع كلامه بين قوسين ، لتمييزه عن كلامي.

تحت عنوان : (المقارنة بين البخاري و الكافي) كتب أحدهم قائلاً:

(فإن حب آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم هو جزء من الإيمان فلا يحبهم إلا مؤمن ولا يكرههم إلا منافق... ومعلوم أن الحبل الأول من آل بيت رسول الله كعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم مبشرون بالجنة فهم جزء من أهل السنة والجماعة إن لم يكونوا هم أركان السنة هم وباقي الصحابة...

لنرى الآن كيف يأخذ أهل السنة تراثهم من آل البيت رضوان الله عليهم...مرويات أهل البيت في كتب أهل السنة:

- أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام في الكتب الأربعة عند الشيعة = ٦٤٤ حديث فقط ...

أما في الكتب التسعة عند أهل السنة فتبلغ عشرات الألوف !! ...

علي بن ابي طالب ـ رضي الله عنه ـ :

كما اعتمد أهل السنة على روايات آل البيت بشكل كبير فروايات علي بن أبي طالب في البخاري مع المكرر (٩٨) وغير المكرر (٣٤) ورواياته رضي الله عنه في صحيح مسلم (٣٨) حديثا ..

وعندما نعمل عملية حسابية يسيرة نرى أن الناتج هو =٧٢ رواية في أصح الكتب عند أهل السنة بينما أحاديث علي رضي الله عنه المرفوعة إلى النبي ﷺ في أصح كتب الشيعة وهو الكافي =٦٦ فهل يقول لنا قائل من هو المكثر من المقل!!...بل وروايات علي رضي الله عنه في كتب السنة أكثر من روايات أبي بكر !!بل هي أكثر من روايات عمر !!بل روايات علي رضي الله عنه المنقولة في كتب السنة أكثر من روايات عثمان !!



بل لا أخفيكم حديثاً إن قلت إنّ روايات علي رضي الله عنه أكثر من مرويات أبي بكر وعمر وعثمان مجتمعين!!! فأي انصاف بعد هذا؟ وهل يصح أن نقول أن أهل السنة أعداء لأبي بكر وعمر وعثمان؟

فاطمة ـ رضي الله عنها ـ :

وأما فاطمة رضي الله عنها فلها حديث واحد في البخاري برقم (٤٤٦٢).

بينما ليس لها ولا حديث واحد مرفوع في كل الكافي وهو عندي ٩ مجلدات!! أفلا يصح لنا أن نقول أن صاحب الكافي «الكليني» ناصبي لأنه جفا فاطمة الزهراء رضي الله عنها.

أحاديث الحسن رضي الله عنه:

أما مروياته في كتب اهل السنة فبلغت (٣٥) حديثاً فأحاديث الحسن في مسند الامام احمد وحده قد بلغت (١٨) حديثاً ...

الحسين رضي الله عنه :

وأمّا الحسين رضي الله عنه فله حديثان عن أبيه علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتاب الجمعة برقم (١١٢٧) وكتاب فرض الخمس برقم (٣٠٩١) من صحيح البخاري ومثله في صحيح مسلم ..أي: أربعة أحاديث.

بينما في الكافي رواية واحدة وكذا عن الحسن رضي الله عنه ،فهل يصح بعد هذا أن نقول: إنّ صاحب الكافي وهو اصح كتاب عند الشيعة قد جفا سيدَي شباب أهل الجنة؟ وفي الكتب التسعة السنية = ٤٣ رواية !!

محمد الباقر رحمه الله تعالى:

نأتِ الآن إلي الإمام محمد الباقر رحمة الله عليه ذاك الإمام الكبير الفذ المحدث الكبير. فروايته في الكتب التسعة (٢٤٠) رواية، وتعالوا معي نقارن بين مرويات محمد الباقر رحمه الله ورضي عنه وبين روايات أفضل رجل بعد الأنبياء والرسل عند أهل السنة إنها مرويات أبي بكر...لتعلموا والله إنصاف أهل السنة ولكن الحق عزيز والإنصاف صعب، فما لهؤلاء الناس لا يعلمون وعن الحقيقية يحيدون!!!

مرويات محمد الباقر رحمه الله في صحيح مسلم (١٩) رواية بينما مرويات الصديق (٩) فأيّ إنصاف بعد هذا!!

بل إن مرويات الباقر رحمه الله وجمعنا به في جنات النعيم في سنن النسائي فقط(٥٦)، بينما مرويات (أبي بكر) (٢٢) فهل يصح لمنصف أن يرمي أهل السنة بالجفاء لتراث آل البيت!!

جعفر الصادق رحمه الله تعالى:

نأتِ الآن إلى مرويات ذاك الإمام الفذ جعفر الصادق رحمه الله ورضي عنه، فهي في الكتب التسعة (١٤٣)...وقد أخرج أصحاب الكتب السنة المعتمدة عند أهل



السنة (مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه) للإمام جعفر الصادق عدا البخاري فقد أخرج له حديثين في الأدب المفرد.

ولمتنطع أن يقول لماذا لم يخرج البخاري لجعفر الصادق في صحيحه؟ فنقول : ولماذا لم يخرج البخاري لأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل والإمام مسلم وغيرهم من الكبار هل هو تنقص لهم أم هي شروط أراد تطبيقها في صحيحه!...).

جواب الشبهة:

قال : (فإن حب آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم هو جزء من الإيمان فلا يحبهم إلا مؤمن ولا يكرههم إلا منافق ... ومعلوم أن الحبل الأول من آل بيت رسول الله كعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم مبشرون بالجنة فهم جزء من أهل السنة والجماعة إن لم يكونوا هم أركان السنة هم وباقي الصحابة).

كم نتمنى أن يكون آل البيت من أركان السنة، وأن نطبق عمليا الحديث الذي ينص على أن حب آل البيت أو علي عليه السلام من الايمان وبغضهم نفاق ولكن كلامه مجرد دعوى دون دليل، وإنما هو حبر على ورق كما يقال، ولو صدقت هذه الدعوة لتم نبذ كل الرواة النواصب الذين يعتمدون عليهم في أخذ معالم الدين، ولكان ينبغي أن يتبرؤوا من كل أعداء أهل بيت النبوة ومبغضيهم! فهم يتبرؤون من أعداء الصحابة ومبغضيهم، وحين يأتي الأمر لأهل البيت عليهم السلام الذين وجبت مودتهم في القرآن، والذين حبهم إيمان وبغضهم نفاق تراهم يترضون عن مبغضيهم ويوثقونهم ويقدمونهم على غيرهم في نقل السنة.

قال (اولاً : احاديث النبي عليه السلام : أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام في الكتب الأربعة عند الشيعة = ٦٤٤ حديث فقط ... أما في الكتب التسعة عند أهل السنة فتبلغ عشرات الألوف !! لأن معظم احاديثهم عنه صلى الله عليه وسلم ...).

إنها عملية اسقاط ساذجة تلك التي يقوم بها هؤلاء، فهم يظنون أن المدرسة الإمامية تشترك معهم في المباني ، وإن خالفتهم فهذا نقص فيها وطعن في شرعيتها ، متناسين خصوصيات هذه المدرسة العريقة.

لقد جهل هذا القائل إن كل أحاديث ائمة أهل البيت عليهم السلام خاصة في الحلال والحرام مأخوذة عن النبي صلى الله عليه وآله، وبهذا صرح الأئمة عليهم السلام فأي حديث رواه أحد الأئمة فهو مأخوذ عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

يقول محمد أبو زهرة الأزهري: «لقد قام أولئك الأبناء بالمحافظة على تراث أبيهم الفكري، وهو إمام الهدى، فحفظوه من الضياع، وقد انتقل معهم إلى المدينة...وبذلك ننتهي إلى أن البيت العلوي فيه علم الرواية كاملة عن علي (رضي الله عنه)، رووا عنه ما رواه عن الرسول كاملا! أو قريبا من الكامل! ورووا عنه فتاويه كاملة، وفقهه كاملا أو قريبا من الكمال، واستكنوا بهذا العلم المشرق في كن من البيت الكريم...ومهما يكن فقد كان جزء كبير من علم آل البيت هو علم علي، آل إليهم من تركته المثرية» الإمام الصادق: ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

«قال سعيد بن أبي مريم: قيل لأبي بكر بن عياش: مالك لم تسمع من جعفر ـ الصادق عليه السلام ـ وقد أدركته؟ قال: سألناه عما يتحدث به من الأحاديث، أشئ سمعته؟ قال: لا ولكنها رواية رويناها عن آبائنا» تهذيب التهذيب: ٢ / ٨٨.

وقال ابن سعد: «وسئل مرة ـ جعفر الصادق ـ : سمعت هذه الأحاديث من أبيك؟ فقال: نعم، وسئل مرة فقال: إنما وجدتها في كتبه» المصدر السابق: ص ١٠٤

«وكان عند محمد بن علي الباقر بن علي بن الحسين كتب كثيرة، سمع بعضها منه ابنه جعفر الصادق وقرأ بعضها» المصدر السابق.

وقال الصادق عليه السلام : «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث أبيه، وحديث أبيه حديث علي بن أبي طالب، وحديث علي حديث

رسول الله صلى الله عليه وآله، وحديث رسول الله قول الله عز وجل» الكافي ج١ ص ٥٣.

قال الصادق عليه السلام: والله ما نقول بأهوائنا ولا نقول برأينا، ولا نقول إلا ما قال ربنا، فمهما أجبتك فيه بشيء فهو عن رسول الله، لسنا نقول برأينا من شيء. بحار الأنوار ج٢ ص ١٧٣ نقلا عن بصائر الدرجات للصفار.

وسأل رجل أبا عبد الله ـ الصادق عليه السلام ـ عن مسألة فأجابه فيها، فقال الرجل: أرأيت إن كان كذا وكذا ما يكون القول فيها؟ فقال له: (مه، ما أجبتك فيه من شيء فهو عن رسول الله صلى الله عليه وآله، ولسنا من: (أرأيت) في شيء). الكافي، ج١ ص ٥٨.

وقال الإمام الباقر عليه السلام: إنا لو كنا نحدثكم برأينا وهوانا لكنا من الهالكين، ولكنا نحدثكم بأحاديث نكنزها عن رسول الله صلى الله عليه وآله كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم.. بحار الأنوار ج٢ ص ١٧٢ نقلا عن بصائر الدرجات.

وقد عاتب أحدهم ابان بن تغلب على ولائه للإمام الباقر عليه السلام وروايته عنه فقال: كيف تلومونني في روايتي عن رجل ما سألته عن شيء إلا قال: قال رسول الله . بحار الأنوار ج٥٣ ص٧٧

فكل أحاديث الباقر أو الصادق أو الرضا وسائر الأئمة عليهم السلام هي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد كان بحوزتهم عليهم السلام صحيفة أو صحائف عديدة وهي من إملاء النبي صلى الله عليه وآله، وخط علي عليه السلام. قال الامام جعفر الصادق عليه السلام لأحد أصحابه وهو أبو بصير: «يا أبا محمد وإنّ عندنا (الجامعة) وما يدريهم ما الجامعة ! قال: قلت: جعلت فداك، وما الجامعة ؟ قال: صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله صلى الله عليه وآله وإملائه من فلق فيه، وخط علي بيمينه، فيها كل حلال وحرام، وكل شيء يحتاج إليه الناس حتّى الارش في الخدش. الكافي ج١ ص ٢٣٩.

روى أبو الحسن ابن بابويه، بسنده، عن الامام الباقر عليه السلام عن آبائه عليهم السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام: أكتب ما أملي عليك. فقال: يا نبي الله،



وتخاف عليَّ النسيان ؟ فقال: لستُ أخاف عليك النسيان، وقد دعوت الله لك أن يحفظك ولا يُنسيك، ولكن، أكتب لشُركائك. قال: قلت: ومن شُركائي، يا نبي الله ؟ قال: الائمة من وُلدك...» . تدوين السنة الشريفة للسيّد محمد رضا الجلالي ٧٣ ـ ٧٤، نقلاً عن «الامامة والتبصرة من الحيرة» ١٨٣ ح٣٨، «بصائر الدرجات» للصفّار ١٦٧...

وعن عذافر الصيرفي، قال: «كنت مع الحكم بن عتيبة عند أبي جعفر عليه السلام فجعل يسأله، وكان أبو جعفر عليه السلام له مكرماً، فاختلفا في شيء ،فقال أبو جعفر عليه السلام : يا بني قم فأخرج كتاب علي عليه السلام ، فأخرج كتاباً مدروجاً عظيماً، ففتحه، وجعل ينظر حتّى أخرج المسألة.

فقال أبو جعفر عليه السلام : هذا خط علي عليه السلام وإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله. وأقبل على الحكم، وقال: يا أبا محمّد اذهب أنت وسلمة وأبو المقدام حيث شئتم يميناً وشمالاً فوالله لا تجدون العلم أوثق منه عند قوم كان ينزل عليهم جبريل عليه السلام . فهرست النجاشي ٢ / ٢٦١، وراجع كتابنا النبي ومستقبل الدعوة، فقد فصلنا هناك المسألة أكثر.

فمما سبق نستطيع أن ندرك المغالطة التي وقع بها هذا الرجل وكثيرون ممن هم على شاكلته، وبهذا يتبين جواب سائر كلامه، ومع هذا سنتابعه ونقف على مغالطاته.

أما قول صاحب الشبهة أن أحاديثهم تبلغ الألاف، فهذا صحيح حين ننظر لها في كتب السنن، وأوصلها بعض المحدثين إلى ستمائة ألف حديث صحيح[1]، ولكن أغلبها مفقود حاليا وهذه طامة كبرى[2] ولكن ما هو مقدار الصحيح من هذه الألاف التي ذكرها؟ الراجح ما ذكره ابن حجر في كتاب «النكت على ابن الصلاح» أنها : «أربعة آلاف وأربعمئة حديث»[3] ويقصد الصحيحة بلا تكرار. ونحن لا نسلم بصحتها كلها بسبب الإرسال من قبل صغار الصحابة الموجود في الكثير منها،

والإشكال الذي يرد عليها أنهم قد يرسلون أحاديثهم عن بعض المنافقين المندسين وهؤلاء كانوا في ضمن الصحابة !!

إن أحاديث الشيعة بلغت الألاف أيضا ! لأن كل أحاديثهم ـ وليس معظمها ـ مصدرها النبي صَلَّىٰاللهُعَلَيهِوَآلِهِ وإن لم يصرحوا باسمه، وهذا متفق عليه في المدرسة الإمامية كما بيّنا. وأحاديث الأحكام تعادل عند الإمامية أضعاف ما هو موجود عند غيرهم، ومقارنة بسيطة بين أهم كتابين تبين لنا الفرق!

فأهمّ كتاب عند الجمهور: هو: « بلوغ المرام من أدلة الأحكام» لابن حجر العسقلاني، يقع في جزء واحد متوسط الحجم، عدد أحاديثه : حوالي ٥٠٠ حديث[٤].

أما أهم كتاب عند الشيعة فهو: « وسائل الشيعة» وعدد أجزائه : ١٨ جزءا من الحجم الكبير، وعدد أحاديثه حوالي ٣٦ ألف حديثا، وقد استدرك عليه الشيخ النوري في (مستدرك الوسائل) أكثر من ٢٣ ألف حديث، فهناك حوالي: ٦٠ ألف حديث في الأحكام.

إننا نشك بالرقم الذي أورده حول عدد أحاديث النبي صَلَّىٰاللهُعَلَيهِوَآلِهِ، ونشك بكل الأرقام التي أوردها في شبهته ، مع العلم أن للإمامية كتبا أخرى شهيرة غير الكتب الأربعة، فقد كتب أصحاب الأئمة الكثير من المؤلفات، حوت كلامهم عَلَيهِمُالسَّلَامُ فنقل منها أصحاب الكتب الأربعة ونقل منها أيضا غيرهم كالمجلسي في بحار الأنوار وكانت له طرق خاصة إلى تلك الأصول، فلا ينبغي الاقتصار على الكتب الأربعة حين المقارنة.

قال: (لنر الآن كيف يأخذ أهل السنة تراثهم من آل البيت رضوان الله عليهم، اعتمد أهل السنة على روايات آل البيت بشكل كبير فروايات علي بن أبي طالب في البخاري مع المكرر (٩٨) وغير المكرر (٣٤) ورواياته رضي الله عنه في صحيح مسلم (٣٨) حديثا .. وعندما نعمل عملية حسابية يسيرة نرى أن الناتج هو =٧٢ رواية في

أصح الكتب عند أهل السنة بينما أحاديث علي رضي الله عنه المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وآله في أصح كتب الشيعة وهو الكافي ٦٦ رواية. فهل يقول لنا قائل من هو المكثر من المقل؟ بل وروايات علي رضي الله عنه في كتب السنة أكثر من روايات أبي بكر، بل هي أكثر من روايات عمر، بل روايات علي رضي الله عنه المنقولة في كتب السنة أكثر من روايات عثمان ، بل لا أخفيكم حديثاً إن قلت إنّ روايات علي رضي الله عنه أكثر من مرويات أبي بكر وعمر وعثمان مجتمعين! فأي انصاف بعد هذا وهل يصح أن نقول أن أهل السنة أعداء لأبي بكر وعمر وعثمان؟)

يُخيل للمرء أن هذا المقارنة صحيحة وهي اكراما لعلي عليه السلام وتقديرا له، ولكن سرعان ما يزول هذا التبادر إذا عرفنا أن المقارنة قائمة على أساس خاطئ، ولا تصح من الأساس ! فالخلفاء الثلاثة المذكورون كانوا من المقلين جدا في الرواية.

قال الصنعاني: «والسبب في قلة ما روي عن الصديق أبي بكر مع جلالته وتقدمه وملازمته للنبي صلى الله عليه وآله أنه قد تقدمت به الوفاة قبل عناية الناس بسماع الحديث وحفظه» توضيح الأفكار: ص ٤٢٩.

وقال محمد عجاج الخطيب – استاذ في الحديث ـ عن أبي بكر وعمر: «حملا علما كثيرا عنه عليه الصلاة والسلام، لم يظهر علمهما كلّه لنا، وبخاصة أبو بكر، لأ نه لم يعش كثيرا بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ليحتاج إليه...» أصول الحديث: ص ٤٠٣.

وقد اتخذ الخلفاء الثلاثة من منع الرواية عن النبي سياسة لهم، وأمروا الناس بذلك، بل أحرقوا سننا جمعوها، فكيف يصلنا عنهم والحال هذا أكثر من علي عليه السلام ؟ ولنأخذ أمثلة بسيطة على ما قاموا به تجاه الحديث :

عن ابن أبي مليكة: « إن الصديق جمع الناس بعد وفاة نبيهم، فقال: إنكم تحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وآله أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشد اختلافا، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئا، فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا

حلاله وحرموا حرامه» تذكرة الحفاظ: ١ / ٢ و ٣.

وعن عائشة: « جمع أبي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت خمسمائة حديث، فبات ليلته يتقلب كثيرا، قالت: فغمني فقلت: أتتقلب لشكوى أو لشيء بلغك؟ فلما أصبح قال: أي بنية هلمي الأحاديث التي عندك، فجئته بها فدعى بنار فحرقها، فقلت: لِـمَ أحرقتها؟ قال: خشيت أن أموت وهي عندي، فيكون فيها أحاديث عن رجل ائتمنته ووثقت، ولم يكن كما حدثني، فأكون قد نقلت ذاك» تذكرة الحفاظ: ص٥.

وعن يحيى بن جعدة أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنة، ثم بدا له أن لا يكتبها، ثم كتب في الأمصار من كان عنده شيء فليمحه. جامع بيان العلم: ١/ ٦٤ و٦٥.

وعن قرظة بن كعب قال: « خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر بن الخطاب إلى صرار ـ موضع قرب المدينة ـ فتوضأ ثم قال: إنكم أتدرون لم مشيت معكم؟ قالوا: نعم نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله مشيت معنا، قال: إنكم تأتون أهل قرية لها دوي بالقرآن كدوي النحل فلا تبدونهم بالأحاديث فيشغلونكم، جددوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله وامضوا وأنا شريككم، فلما قدم قرظة قالوا: حدثنا، قال: نهانا ابن الخطاب» . مستدرك الحاكم: ١ / ١٠٢ وصححه. سنن الدارمي: ١ / ٨٥. تذكرة الحفاظ: ١ / ٥٢٤، وانظر سنن ابن ماجة: ١ / ١٢. جامع بيان العلم: ٢ / ١٢٠، المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، الرامهرمزي:ص ٥٥٣.

وروى ابن سعد عن عبد الله بن العلاء قال: « سألت القاسم يملي علي أحاديث، فقال: إن الأحاديث كثرت على عهد عمر بن الخطاب فأنشد الناس أن يأتوه بها فلما أتوه بها أمر بتحريقها ثم قال: مثناة كمثناة أهل الكتاب، قال: فمنعني القاسم يومئذ أن أكتب حديثاً» الطبقات: ٥/ ١٨٨. تقييد العلم، الخطيب البغدادي: ص٥٢.



يقول ابن قتيبة: «وكان عمر شديدا على من أكثر الرواية...» تأويل مختلف الحديث: ٣٩.

لقد اختار صاحب الشبهة ثلاث شخصيات غير مناسبة ليقارن أحاديثها بأحاديث علي عليه السلام ولماذا لم يختر صاحب الشبهة أبا هريرة الذي روى ٥٣٧٤ حديثا ـ بالرغم من قصر مدة صحبته للنبي ـ أو عبدالله بن عمرالذي روى ٢٦٣٠ حديثا؟ أسماء الصحابة الرواة، ابن حزم ص ٣٢.

فليس رواية القوم عن علي عليه السلام هذا العدد وقلة الرواية عن باقي الخلفاء نابعا من الحرص على اتباع علي عليه السلام وإنما الخلفاء أنفسهم تسببوا بقلة الرواية عنهم، وعلي عليه السلام كان من المكثرين من التحدث عن المصطفى وعاش إلى سنة ٤٠ للهجرة واحتيج إليه، بل إن روايتهم عن علي عليه السلام قليلة قياسا لعلمه، وقد اعترف بهذا الشيخ محمد أبو زهرة يقول في ذلك: «وإنه يجب علينا أن نقرر هنا أن فقه علي عليه السلام وفتاويه وأقضيته لم ترو في كتب السنة بالقدر الذي يتفق مع مدة خلافته، ولا مع المدة التي كان منصرفا فيها إلى الدرس والإفتاء في مدة الراشدين قبله، وقد كانت حياته كلها للفقه وعلم الدين، وكان أكثر الصحابة اتصالا برسول الله صلى الله عليه وآله، فقد رافق الرسول وهو صبي قبل أن يبعث صلى الله عليه وآله، واستمر معه إلى أن قبض الله تعالى رسوله إليه، ولذا كان يجب أن يذكر له في كتب السنة أضعاف ما هو مذكور فيها» الإمام الصادق: ص١٦٢.

ثم ذهب صاحب الشبهة يستعرض مسند أحمد، فقال:(إن الامام احمد وحده روى عن علي رضي الله عنه (٨٠٤) أحاديث وهو أكثر من مرويات علي في الكتب الاربعة الشيعية والبالغة (٦٩٠) إن هذا العدد الذي ورد في مسند أحمد يشمل بقية أحاديث علي عليه السلام الواردة في بقية كتب الحديث السنية، ولو تنازلنا فإنه ينبغي مقارنة هذا العدد بما ورد عن علي عليه السلام في كل كتب الشيعة. وهذا العدد قليل جدا مقارنة بما رواه الأمامية عن علي عليه السلام، فمسند الإمام علي عليه السلام للسيد حسن القبانجي يقع في

عشرة مجلدات وكله منقول من تراث أهل البيت عليهم السلام، وقد جمع المؤلف روايات علي عليه السلام، فبلغت ١١٤٥١ رواية!! فهل هناك وجه للمقارنة بين المسندين؟! وهل تبين الآن كم روى الشيعة عن علي عليه السلام؟

ولعل الأمام أحمد بروايته عن علي عليه السلام أراد اصلاح ما أفسده الآخرون، إذ كان يُسب عليه السلام على منابر المسلمين، فأحمد هو الذي ربع به وجعله رابع الخلفاء! وهذه مأساة ، إذ لم يكن علي عليه السلام محسوباً كخليفة شرعي حتى عهد أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ).

وهذه الأحاديث ـ ولا أقول كلها ـ محلّ شك ، إذ كثيرا ما كذب الناس على علي عليه السلام ونسبوا له أشياء ينصرون بها مذاهبهم، كحديث تحريم المتعة ، وحديث تفضيله الخلفاء الثلاثة على نفسه!

والذي يؤكد ما نذهب إليه أنه لم يصح من أحاديث علي عليه السلام عند ابن حزم سوى خمسين حديثا !! الملل والنحل: ٣/ ٦٠.

فهل بقي وجه للمقارنة بين أحاديثه عليه السلام وأحاديث الخلفاء، وهل تصح بعد الذي قدمناه ؟!

أمّا قوله: (وهو اكثر من مرويات علي في الكتب الاربعة الشيعية والبالغة (٦٩٠)، فيدل على أن صاحب الشبهة لا زال يصدر في كلامه من مغالطات، فإنه ينبغي محاورة الإمامية حسب مبانيهم، فهم أنفسهم لا يقبلون بأن يحاورهم أحد بغير مبانيهم؟!

وقوله هذا مبني على فهم خاطئ ، وكان حري بهم أن يجمعوا روايات بقية الأئمة لأنها مأخوذة عن علي عليه السلام وإن لم يصرّحوا باسمه.

قال: (ثانياً: أحاديث فاطمة : وأما فاطمة رضي الله عنها فلها حديث واحد في البخاري برقم (٤٤٦٢) روى الامام أحمد لها (٧) روايات في مسنده بينما ليس لها ولا حديث واحد مرفوع في كل الكافي وهو عندي ٩ مجلدات!! فهل يصح لنا أن نقول أن



صاحب الكافي (الكليني) جفا فاطمة الزهراء رضي الله عنها).

من السهل أن نقلب السؤال على هذا القائل، بالقول: لماذا لم يرو البخاري عن الزهراء عليها السلام سوى رواية واحدة فقط؟! ولما لم يرووا عنها إلا هذا العدد القليل جدا وهي سيدة نساء العالمين؟

ينبغي الإنصاف حين نكتب، والزهراء عليها السلام بقيت بعد أبيها صلى الله عليه وآله أشهراً قليلة جداً، وهي مدة غير كافية لكي تتحدث بما سمعته من أبيها، هذا مع الأمر الصادر من الخلفاء بمنع التحدث عن النبي صلى الله عليه وآله، وقد روى ابناؤها عنها كثيراً مما جرى خلال فترة حياتها بعد أبيها، وبالرغم من ذلك ورد عنها من الأحاديث الشيء المهم، ولقد راجعنا الكافي ووجدنا لها عليها السلام أحاديث عديدة، وقد وجدنا على وجه السرعة روايات عديدة، فراجع الكافي ج ١ ص ٥٢٧ – ٥٢٨، وج٢ ص ٥٠٠ وج٣ ص ٣٤٢ـ ٣٤٣ وج١ ص ٢٤٢ فقول هذا المشتبه ليس لها ولا حديث واحد في كل الكافي مجرد افتراء.

ثم إنه من الخطأ ذكر كم روت الزهراء عليها السلام من خلال مسند أحمد، ومقارنته بما روي لها في الكافي فقط. فلابد هنا لإنصاف البحث من ذكر كل ما روي عنها في مصادر الإمامية، ثم هل رواية سبع روايات عنها عليها السلام يبرئ ذمة الجمهور من المساءلة عن عدم اتباعها وعن عدم الرواية عنها؟! أضف لهذا أنه لم يصح من أحاديثها سوى حديثين !! كما في مسند فاطمة الزهراء عليها السلام للسيوطي، تحقيق : أحمد زمرلي.

ولما لم يذكر صاحب الشبهة عائشة ويُقارن أحاديث الزهراء بأحاديثها؟! لقد رووا للزهراء عليها السلام سبعة أحاديث في حين يُروى لعائشة ١٥٦٣٦ من الروايات !! فإن لم يكن هذا هو الظلم والجفاء فما هو الظلم والجفاء إذن؟

١ ـ وهذا الرقم حسب دراسة جديدة قام بها الدكتور عبد المنعم الحفني، يقول في مقدمة (موسوعة أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر): (وتتضمن الموسوعة نحو٥٦٣٦

جميعها لأم المؤمنين عائشة أو عنها... حتى أن أحاديثها أكثر عددا من أحاديث كل من أبي هريرة وأنس...) فهل يجوز مقارنة سبعة أحاديث روتها الزهراء عليها السلام بخمسة ألاف وستمائة وستة وثلاثين حديثا روتها عائشة؟!! وعلى الرأي المشهور أنها روت ٢٢١٠ من الأحاديث، يبقى الفارق كبير جدا بين أحاديثها وأحاديث الزهراء عليها السلام .

أمّا الإمامية فهم لو لم يرووا إلا «خطبتها العظيمة» سلام الله عليها لكفى، ففيها من المعارف، والعلوم ما يُعادل رواية مئات الأحاديث[٥]!

قال: (رابعاً: أحاديث الحسن :أما مروياته في كتب اهل السنة فبلغت (٣٥) حديثاً فأحاديث الحسن في مسند الامام احمد وحده قد بلغت (١٨) حديثاً ...).

لعل هذا الكاتب يذكر عدد الأحاديث مكررة ، وإلا فابن حزم ذكر للإمام الحسن عليه السلام ١٣ حديثاً، أسماء الصحابة الرواة ص١٤٣، وأين هذا المقدار مما راوه أبو هريرة وابن عمر وعائشة؟ فقد روى الأول (٥٣٧٤حديثا) وروى ابن عمر ٢٦٣٠ حديثا، أسماء الصحابة الرواة، ص ٣٧ و٣٨.

ثم هل أوصانا النبي بحديث الثقلين باتباع أبي هريرة وابن عمر أم باتباع الحسن عليه السلام ؟ فلما لم يرووا عن الأمام عليه السلام إلا هذا العدد القليل بالرغم من طول المدة التي عاشها الإمام عليه السلام ؟ إنّ لدى الأمامية الكثير من الأحاديث عن الأمام الحسن عليه السلام وليس كما يدعي الكاتب، فمسند الأمام المجتبى، لمؤلفه، عزيز الله العطاردي يقع في ثمانمائة صفحة، وهو مليء بالروايات عن الأمام عليه السلام .

قال :(خامسا أما الحسين رضي الله عنه فله حديثان عن أبيه علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتاب الجمعة برقم (١١٢٧) وكتاب فرض الخمس برقم (٣٠٩١) من صحيح البخاري ومثله في صحيح مسلم .. أي أربعة بينما في الكافي رواية واحدة ، فهل يصح بعد هذا أن نقول: أن صاحب الكافي وهو اصح كتاب عند الشيعة قد جفا سيدي شباب أهل الجنة؟) .

إنه لأمر مدهش أن يروي عن الحسين عليه السلام حديثان، وبالرغم من هذا فكاتب الشبهة مسرور لأنه روى عن الحسين عليه السلام حديثين ! ثم إنه ينبغي مقارنة (عدد ما روى أي أربعة أحاديث!!)(٦) بما روي عن الإمامين عليهما السلام في كل كتب الإمامية، وينبغي حساب أحاديث بقية الأئمة وكأن الحسن عليه السلام راويها عن علي عن النبي، فهو الذي أوصلها لهم، وفق المبنى الإمامي، ولا ينبغي الحوار بغير هذا، وبهذا يتضح الجواب على كلامه، فالحسن : روى ثلاثة عشر حديثا عند القوم، أما عند الشيعة فروى آلاف الأحاديث.

الحسين : روى ثمانية أحاديث عندهم، أسماء الصحابة الرواة ص ١٧٠ أما عند الشيعة فروى آلاف الأحاديث.

وقد راجعنا الكافي ووجدنا للحسين عليه السلام أكثر من رواية فزعمه أن له رواية واحدة في الكافي غير صحيح(٧).

قال: (محمد الباقر ـ رحمه الله تعالى ـ : نأتِ الآن إلى الإمام محمد الباقر رحمة الله عليه ذاك الإمام الكبير الفذ المحدث الكبير. فروايته في الكتب التسعة (٢٤٠) رواية، وتعالوا معي نقارن بين مرويات محمد الباقر رحمه الله ورضي عنه وبين روايات من؟؟ روايات أفضل رجل بعد الأنبياء والرسل عند أهل السنة إنها مرويات أبي بكر...).

لا زال الكاتب يقع في مغالطاته، فلا ينبغي مقارنة روايات الباقر عليه السلام بما روى أبو بكر، فأبو بكر، منع الرواية عن النبي وأحرق السنن، وعاش قرابة سنتين بعد النبي صلى الله عليه وآله، والمقارنة ينبغي أن تكون مع رواة عاصروا الإمام الباقر عليه السلام، والغريب أن الرجل قفز وتناسى الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، وذاك لأنه يعلم قلة ما روي عن الإمام عليه السلام في تراثه الحديثي، فمثلا لو قارنا عدد ما رواه الأمام زين العابدين بما رواه عروة بن الزبير لرأينا الفرق كبيراً جداً، فالبخاري روى للإمام زين

العابدين: ثمانية أحاديث بينما روى لعروة: ستمائة واثني عشر حديثاً!!

ومسلم روى للإمام : ستة أحاديث بينما روى لعروة ثلاثمائة وتسعة وسبعين حديثا !!

وروى أحمد في مسنده ثلاثة عشر حديثا عن الإمام، بينما روى لعروة أكثر من تسعمائة وخمسين حديثا !!وكأن رسول الله صلى الله عليه وآله أرجعنا إلى عروة ابن الزبير، وليس إلى عترته! في حين نجد كتاباً كاملاً بعنوان (الصحيفة السجادية الكاملة) يقع في ثمانمائة وست وستين صفحة يحوي كلام الأمام السجاد عليه السلام من أدعية ومناجاة وغيرها، مروي من طرق الأمامية!

وإذا رجعنا للأمام الباقر عليه السلام فينبغي مقارنة رواياته بما رواه أحد معاصريه، وليكن مثلا عامر الشعبي، فعلى افتراض صحة ما قاله من أن أصحاب الكتب التسعة قد رووا عن الأمام الباقر عليه السلام مائتين وأربعين رواية، نراهم يروون عن عامر الشعبي ـ ولا علاقة له بعترة النبي من قريب ولا من بعيد ـ يروون له في الكتب التسعة: ألف ومائة وأربعين رواية! أي قرابة خمسة أضعاف ما رووا للباقر عليه السلام ! ولكن الإمامية هم من تمسك بالعترة ورووا الكثير عن الباقر عليه السلام ، فمسند الإمام الباقر عليه السلام لعزيز الله العطاردي يقع في خمسة أجزاء كبيرة ويضم أكثر من ثلاثة آلاف رواية عنه عليه السلام .



قال: (جعفر الصادق رحمه الله تعالى: نأتِ الآن إلى مرويات ذاك الإمام الفذ جعفر الصادق رحمه الله ورضي عنه، فهي في الكتب التسعة (١٤٣)...وقد أخرج أصحاب الكتب السنة المعتمدة عند أهل السنة (مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه) للإمام جعفر الصادق عدا البخاري فقد أخرج له حديثين في الأدب المفرد).

هذا الأمام الذي ملأ علمه الشرق والغرب رووا له مائة وثلاث وأربعين رواية! فكم رووا للزهري وهو من معاصري الإمام؟ حين نرجع للكتب التسعة نجد

أنهم رووا عن الزهري أكثر من أربعة آلاف وخمسمائة رواية[٨]!! أي أكثر من ثمانية عشر ضعف ما رووا عن الصادق عليه السلام ! وهذا يبين أنهم تركوا سيد العترة في زمنه وأخذوا عن الزهري الأموي[٩]!

في حين روى الإمامية للصادق عليه السلام آلاف الأحاديث، ويكفي أن نرجع لمسند الإمام الصادق عليه السلام للعطاردي، إذ يقع في اثنين وعشرين مجلدا من القطع الكبيرة، وكله مأخوذ من تراث أهل البيت عليهم السلام !، أمّا موسوعة الإمام الصادق ، لمحمد كاظم القزويني، فتقع في أكثر من ثمانية وعشرين جزءا وتضم : أكثر من تسعة عشر ألف حديث عن الصادق عليه السلام !

قال: (ولمتنطع أن يقول لماذا لم يخرج البخاري لجعفر الصادق في صحيحه؟ فنقول : ولماذا لم يخرج البخاري لأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل والإمام مسلم وغيرهم من الكبار هل هو تنقص لهم أم هي شروط أراد تطبيقها في صحيحه!..).

يريد صاحب الشبهة أن يقول إنّ الشروط التي جعلها البخاري لم تتحقق في روايته عن الصادق عليه السلام، ولا أدري هل دخل إلى قلب البخاري حتى يعرف هذا الأمر؟ أم عثر على نص للبخاري يبين فيه هذه المسألة؟ أما عدم روايته عن أبي حنيفة مثلا، فلأن أبا حنيفة لم يكن مهتما بالحديث وروايته على رأي الكثيرين، إضافة للعداء الذي كنه البخاري لأبي حنيفة[١٠].

ثم كيف تحققت تلك الشروط فروى البخاري للنواصب والخوارج في صحيحه وترك أعلم الناس في زمانه؟! لقد أبان ابن تيمية عن السبب في عدم رواية البخاري عن الصادق عليه السلام، إذ قال : (فهؤلاء الأربعة ، ليس منهم من أخذ عنه ـ يعني الصادق عليه السلام ـ من قواعد الفقه ، لكن رووا عنه الأحاديث ، كما رووا عن غيره ، وأحاديث غيره أضعاف أحاديثه ، وليس بين حديث الزهري وحديثه نسبة لا في القوة ولا في الكثرة ، وقد استراب البخاري في بعض أحاديثه لما بلغه عن يحيى بن

سعيد فيه كلام ، فلم يخرج له ، ويمتنع أن يكون حفظه للحديث كحفظ من يحتج بهم البخاري) منهاج السنة، ٥٣٣.

عجبا أيُقال هذا للصادق عليه السلام ؟ إذن كيف يزعم هؤلاء أنهم رووا عن أهل البيت وأنهم هم المتمسكون بهم؟!

وتوقف صاحب الشبهة عند الصادق عليه السلام ولم يكمل خوف الفضيحة لندرة روايتهم عن بقية الأئمة عليهم السلام [١١].

وتبقى الرواية عن أهل البيت عليهم السلام والعمل بها محصورة باتباعهم من الإمامية، ورواياتهم عليهم السلام مبثوثة في الكتب المختلفة، حتى قام أحد العلماء وجمع أحاديثهم في مسانيد خاصة بهم ـ قد تصل إلى ثلاثين جزءا ـ ، فبالإضافة لما ذكرنا سابقا فهناك :

ـ مسند الإمام الكاظم، في ثلاثة أجزاء كبيرة، عزيز الله العطاري.

ـ مسند الإمام الرضا عليه السلام [١٢] وفيه: ألف ومائتين وثلاثة وأربعين حديثا، عزيز الله العطاري.

ـ مسند الإمام الجواد عليه السلام [١٣]، وفيه: خمسمائة واثنا عشر حديثا، عزيز الله العطاري.

ـ مسند الإمام الهادي عليه السلام ، وفيه: خمسمائة وحديثان، عزيز الله العطاري.

ـ مسند الإمام العسكري عليه السلام [١٤]، وفيه: خمسمائة وأربعة وثمانين حديثا، عزيز الله العطاري.

إن خط عداء أهل البيت عليهم السلام امتد ليشمل بقية أئمة أهل البيت عليهم السلام من القرون الأولى حتى وصل إلى عهد ابن تيمية فأبان عنه بكل وضوح في كتاباته، فمن المتقدمين يقول ابن حزم عن الأئمة عليهم السلام وبكل جرأة: (وأما من بعد جعفر بن محمد فما عرفنا لهم علما أصلا ، لا من رواية ، ولا من فتيا على قرب عهدهم منا ، ولو كان

عندهم من ذلك شيء لعرف كما عرف عن محمد بن علي وابنه جعفر وعن غيره منهم ممن حدث الناس عنه) الفصل في الملل والنحل (٤ / ١٧٥).

إن كلام ابن حزم لا يحتاج إلى نقاش، فهو رجل متعصب قد عاش في الأندلس بعيدا عن المدينة المنورة والعراق، وقد خفيت عليه أمور عديدة لبعده ذاك. وقد قال أحد أعلام السلفيين: «... وَكَانَ بَنُوْ فَاطِمَةَ فِيْ عَصْرِ تَأْسِيْسِ الْـمَذَاهِبِ مُضْطَهَدِيْنَ مُرَوَّعِينَ لَا يَكَادُ أَحَدٌ يَتَّصِلُ بِهِمْ إِلَّا وَهُوَ خَائِفٌ عَلَى نَفْسِهِ (!!) فَلَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنَ نَشْرِ عِلْمَهُمْ كَمَا يَنْبَغِيْ!) وهو المعلمي في كتابه «التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل» ـ (٢ / ٦٣١).

وفي كلام المعلمي جواب لابن حزم ولكل من يذهب مذهبه.

وجعل العقيلي الإمام موسى بن جعفر في كتابه الضعفاء، ج٤ ص ١٥٦ وفي سلسلة الأحاديث الضعيفة ، ج ٥ ص ٢٩٦ قال الألباني : (موسى بن جعفر حديثه غير محفوظ ، ولا يتابع عليه إلا من جهة تقاربه)

وقال ابن القيسراني في تذكرة الحفاظ (أطراف أحاديث كتاب المجروحين لابن حبان) تحقيق : حمدي عبد المجيد السلفي، ج١ ص٢٤ بعد أن ذكر حديثا : (رواه علي بن موسى الرضا عن آبائه ، وكان يأتي عنهم بالعجائب) وهذا اتهام صريح للرضا عليه السلام في الرواية عن آبائه.

وقال ابن حبان معرضا بالإمام الجواد عليه السلام : (علي بن موسى الرضا وهو علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أبو الحسن من سادات أهل البيت وعقلائهم وجلة الهاشميين ونبلائهم يجب أن يعتبر حديثه إذا روى عنه غير أولاده وشيعته وأبى الصلت خاصة فان الاخبار التي رويت عنه وتبين بواطيل إنما الذنب فيها لأبي الصلت ولأولاده وشيعته) الثقات، ج ٨ ص ٤٥٦.

قال ابن تيمية: (الثالث أن يقال: القول بالرأي والاجتهاد والقياس والاستحسان خير من الأخذ بما ينقله من يعرف بكثرة الكذب عمن يصيب ويخطئ

نقل غير مصدق عن قائل غير معصوم ولا يشك عاقل أن رجوع مثل مالك وابن أبي ذئب وابن الماجشون والليث بن سعد والأوزاعي والثوري وابن أبي ليلى وشريك وأبي حنيفة ... والبخاري وعثمان بن سعيد الدارمي وأبي بكر بن خزيمة ومحمد بن جرير الطبري ومحمد بن نصر المروزي وغير هؤلاء إلى اجتهادهم واعتبارهم مثل أن يعلموا سنة النبي صلى الله عليه وسلم الثابتة عنه ويجتهدوا في تحقيق مناط الأحكام وتنقيحها وتخريجها خير لهم من أن يتمسكوا بنقل الروافض عن العسكريين وأمثالهما فإن الواحد من هؤلاء لأعلم بدين الله ورسوله من العسكريين أنفسهما فلو أفتاه أحدهما بفتيا كان رجوعه إلى اجتهاده أولى من رجوعه إلى فتيا أحدهما بل ذلك هو الواجب عليه فكيف إذا كان ذلك نقلا عنهما من مثل الرافضة والواجب على مثل العسكريين وأمثالهما أن يتعلموا من الواحد من هؤلاء !!)

«كبرت كلمة تخرج من أفواههم» وهنيئاً له اختيار هؤلاء بدلاً من العسكريين عليهما السلام !

وقد طعن بعض الأئمة بالعسكري عليه السلام، فبعد أن أورد السيوطي رواية عن الحسن العسكري عليه السلام في فضل الزهراء عليها السلام قال: موضوع : (الحسن العسكري ليس بشيء) اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ٣٦١، وكذا ورد في كتاب الموضوعات لابن الجوزي، وهو اتهام منهما للأمام بوضع الحديث ـ والعياذ بالله.

تتملك المرء الحيرة والعجب وهو يقرأ كلام هؤلاء في أئمة العترة، أما ابن تيمية فمنهاجه مليء بالطعن والتعريض بهم[١٥] حتى اتهمه ابن حجر العسقلاني وغيره بالنصب[١٦].

ويبقى الإشكال قائما في قلة رواية الجمهور عن عترة النبي صلى الله عليه وآله وعدم الرجوع لهم لأخذ معالم الدين عنهم وروايتهم عن النواصب والخوارج كحريز بن عثمان[١٧] ابن وعمران بن حطان وعمر بن سعد قاتل الحسين عليه السلام، وهؤلاء ينطبق عليهم وصف النفاق، كما هو مفاد الحديث الصحيح[١٨].



*** هوامش البحث ***

(١) وهو مروي عن أحمد بن حنبل، راجع تدريب الراوي، للسيوطي ،ج١ ص ٥٠ و تهذيب التهذيب، ج٧ ص ٣٠.

(٢) ليراجع القارئ كتابنا (وركبت السفينة) ص١٢١ـ١٩٤، فصل ضياع السنة، لير كيفية اختفاء تلك الأحاديث!

(٣) (ص٩٩٢) وذهب لهذا الرأي شعبة ويحيى بن سعيد وعبد الرزاق وإسحاق بن راهوية وابن معين، فقالوا : الأحاديث المسندة أربعة ألاف ونيف، النكت على مقدمة ابن الصلاح، بدر الدين الزركشي، ج١ ص ١٨١ـ١٨٣.

(٤) وهي عند الشافعي وعبدالرزاق ويحيى بن سعيد وغيرهم نيف وخمسمائة وهي مع السنن لاتتعدى الألفين حديث، النكت على مقدمة ابن الصلاح، بدر الدين الزركشي، ج١ ص ١٨١ـ ١٨٣.

(٥) ويمكن للوقوف على أحاديثها من طرق أهل البيت عليهم السلام مراجعة مسند فاطمة، وهو يقع في مجلد ضخم ، تأليف : عزيز الله عطاردي.

(٦) أو ثمانية كما في أسماء الصحابة الرواة، ص ١٧٠

(٧) فراجع مسند الإمام الشهيد أبي عبدالله الحسين عليه السلام ، ويقع في ثلاثة أجزاء كبيرة، تأليف: عزيز الله العطاردي ، كله منقول من تراث أهل البيت عليهم السلام .

(٨) بالإضافة لكتابة الزهري للسيرة النبوية تحت إشراف أزلام من بني أمية، روى أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني ،ج ٢٢ص ٢١ – ٢٢ نقلا عن المؤرخ المدائني، قال : (وأخبرني ابن شهاب بن عبد الله قال قال لي خالد بن عبد الله القسري ... واكتب لي السيرة فقلت له فإنه يمر بي الشيء من سير علي بن أبي طالب (صلوات الله عليه) فأذكره؟ فقال لا ،إلا أن تراه في قعر الجحيم) أما خالد القسري هذا الذي عمل الزهري له، فكان زنديقا (صعد خالد القسري المنبر فقال إلى كم يغلب باطلنا حقكم أما آن لربكم أن يغضب لكم وكان زنديقا أمه نصرانية فكان يولي النصارى والمجوس على المسلمين ويأمرهم بامتهانهم وضربهم وكان أهل الذمة يشترون الجواري المسلمات ويطئونهن فيطلق لهم ذلك ولا يغير عليهم وقال المدائني كان خالد يقول لو أمرني أمير المؤمنين نقضت الكعبة حجرا حجرا ونقلتها إلى الشام) المصدر نفسه.

(٩) قال الزهري كما في سير أعلام النبلاء، ج ٥ ـ ص ٣٣١ (وتوفي عبد الملك ، فلزمت ابنه الوليد ، ثم سليمان ، ثم عمر بن عبد العزيز ، ثم يزيد ، فاستقضى يزيد بن عبد الملك على قضائه الزهري، وسليمان بن حبيب المحاربي جميعا . قال : ثم لزمت هشام بن عبد الملك وصير هشام الزهري مع أولاده ، يعلمهم ويحج معهم، وعن مكحول ، وذكر الزهري ، فقال : أي رجل هو

لولا أنه أفسد نفسه بصحبة الملوك ، قلت ـ أي الذهبي ـ : بعض من لا يعتد به لم يأخذ عن الزهري لكونه كان مداخلا للخلفاء) سير أعلام النبلاء، ج ٥ ـ ص ٣٣٣.

(١٠) للوقوف على هذا الأمر يمكن مراجعة كتاب(البخاري وفقه أهل العراق) حسين غيب غلامي.

(١١) وهناك كلام آخر لكاتب الشبهة، أعرضنا عنه لضعفه، وفيما قدمنا كفاية لكل عاقل منصف.

(١٢) وهناك موسوعة الأمام الرضا عليه السلام في ثمانية أجزاء كبيرة، محمد الحسيني القزويني، صدرت عن مؤسسة ولي العصر للدراسات الإسلامية.

(١٣) وهناك موسوعة الإمام الجواد عليه السلام ، في جزأين كبيرين، تأليف اللجنة العلمية في مؤسسة ولي عصر.

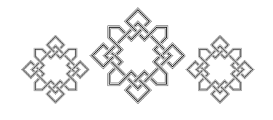
(١٤) وهناك موسوعة الأمام العسكري في خمسة أجزاء، صدرت عن مؤسسة ولي العصر للدراسات الإسلامية.

(١٥) يقول ابن تيميه في منهاجه (٧ / ١٤٧) : « وقد عُلم قَدحُ كثيرٍ مِن الصحابة في عليٍّ» وقال ابن تيمية في (منهاج السنة النبوية ٧/ ١٣٧ – ١٣٨) :(..لَا سِيَّمَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ؛ فَإِنَّ عَامَّةَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ كَانُوا يَوَدُّونَهُمَا ، وَكَانُوا خَيْرَ الْقُرُونِ. وَلَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ عَلِيٌّ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ كَانُوا يُبْغِضُونَهُ وَيَسُبُّونَهُ وَيُقَاتِلُونَهُ!!)

(١٦) وقال ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان ، ج٦ / ٣٩٠ ـ ٣٩١ في رد ابن تيمية على العلامة الحلي: (...وكم من مبالغة لتوهين كلام الرافضي [أَدَّتْهُ] ـ أحياناً ـ إلى تنقيص علي رضي الله عنه !!).

(١٧) قال الألباني في (سلسلة الأحاديث الصحيحة ،(١٣ / ٣٠) : (وحريز بن عثمان: هو الرَّحبي الحمصي، وهو ثقة من رجال البخاري؛ ولكنه كان يُبْغِضُ علياً أبغَضَه الله !!) يبغض عليا وثقة! أين المعقول في اللامعقول!

(١٨) في صحيح مسلم كتاب الفضائل، باب من فضائل علي بن أبي طالب، وفيه (إنه لعهد النبي الأمي إلي أنه لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق)، فراجع ترجمة المذكورين وغيرهم في كتب الرجال لتر توثيق العلماء لهم بالرغم من انطباق صفة النفاق عليهم (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) المنافقون: ١.





«آية السيف» واندحار مشروعية مقولة
«الجهاد ، الفريضة الغائبة»

أ.م.د عادل عباس النصراوي

جامعة الكوفة / مركز دراسات الكوفة

تتعدّد القراءات للنص اللغوي بحسب العصور والأزمان، فقد تكون هناك قراءة واسعة وناهضة بكل ما يحمله النص من تداعيات دلالية وإشكالات معرفية، كل منها تفضي الى دلالات أخرى لها، لا يمكن رؤيتها من خلال قراءة ساذجة أو سطحية للنص، وإنّما تحتاج الى عمق في التفكير حتى تتضح كل ملامح الدلالة المطلوبة، وهناك قراءة ثانية ربما تكون غير ناهضة بكل أعباء الدلالة التي يكتنزها لأنّها قراءة تهتم بالسطح من دون الغور في أعماقه، فتكون ساذجة وغير ملبية لكل طموحات النص ومتطلباته، وهذه القراءة ربّما تأخذ بأيدي قرائها الى رؤى مخالفة للعقل والمنطق العلمي الرصين، بسبب اهتمامها بسطح النص وظاهر اللفظ فيه من دون الغور في العمق الحاوي لكنوز الدلالة.

هاتان القراءتان للنصوص قسّمت الفكر العربي الإسلامي على نفسه، فقُسِّمَ المجتمع وفقاً لهما الى فئة تهتم بتفعيل العقل وإعماله في النص المقروء وأهملت بدرجة معيّنة الاهتمام بالرواية في تفسير النص، وفئة أهملت العقل فاستعانت بالنصوص الأخرى لتفسير ما بأيديها من نصوص .

وبمرور الزمن اتسعت موارد هاتين القراءتين، وكثر مُريدوها، واتجه كل حزب من هؤلاء الى وضع القواعد والأسس لما يحمله من أفكار وقيم آمنوا بها، فكلما تَقدّم فيهم الزمن ازدادت الهوة بينهما واتسعت، فتحزّب أتباعهم، فاستغل السياسيون هذه الظاهرة الفكرية التي حُصِرت بين الانفتاح العقلي والجمود والتسطّح في الفكر لصالح ما يرونه، فعملت السلطات على تحريك أدوات كل قراءة لضرب القراءة الأخرى قصد السيطرة ومدّ النفوذ وتحقيق مآرب سياسية وإضعاف الخصوم .

وقد ظهرت قراءة توفيقية بين هاتين القراءتين وذلك لرأب الصدع الحاصل في مجمل الفكر العربي الإسلامي، غير أنّ هذه القراءة التوفيقية لم تكن باستطاعتها أن تحقق روح الوحدة والانسجام بينها، فبقيت في ضحضاح لا تقوى على شيء لأنها لم تستطع أن تزحزح أيّ من القراءتين عن قواعدها وأسسها التي بُنيت عليها كل قراءة.

إن هذا الاختلاف في قراءة النصوص يترتّب عليه إشكالات واسعة، ذلك أنّ أياً من الفئتين قد وضعت لها منهجاً للحياة ورتّبت عليه قواعدها في صياغة الأحكام وتنفيذها في المجتمع الذي خضع لها .

فمن الإشكالات التي وقع فيها مجمل الفكر العربي الإسلامي ما جاء في قسم من سورة التوبة لما ورد فيها من آيات تدعو لقتال المشركين ومجاهدتهم، ولعلّها من أكثر الآيات إشكالية في فهم فلسفة الجهاد في المنظور السلامي، وقد عُدَّت من الآيات المؤَسَّسَة للعنف لدى ما يُعرف في عصرنا الحديث بالتيار السلفي الجهادي الذي بات يقود حرباً ضد الأنظمة الحاكمة في العالمين العربي والإسلامي وكذلك الغربي فضلاً عن محاربته لبعض الفرق الإسلامية للسبب ذاته.

ولعلّ في سوء التفسير وخطأ التأويل الذي وقع فيه هؤلاء قادهم الى فهم خاطئ لهذه الآيات، فأعملوا السيف في رقاب الناس قصد الدخول في الإسلام، ممّا أظهروا وجهاً سلبياً للإسلام المتسامح المبني على الفضيلة وحبّ الحياة واحترام الناس

بمختلف أديانهم واتجاهاتهم الفكرية ما لم يعتدوا على غيرهم أو يُظاهروا عليهم، فدماؤهم محفوظة بحفظ العهود والمواثيق وما خلا ذلك خاضع لسلطة القانون وما تعاهدوا عليه، لكن القراءة الخاطئة لبعض نصوص القرآن وخاصة في سورة التوبة قد أبعدت كثيراً من المفكرين عن جادة الصواب، فبرز السيف حاكماً على رقاب المسلمين بحجة أن هذه الآيات التي سميت بآيات السيف قد نسخت كل آيات الموادعة والمصالحة بين الناس ولمختلف أديانهم.

هذا مماّ نفّر الناس عن دين الإسلام، ولا شك أنَ قصة ذلك الأعرابي الذي كان يقرأ سورة الفتح بصوت مجهور (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يخرجون من دين الله) فردعه الحجاج بن يوسف الثقفي مصححاً له ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ﴾[1] فردّ الأعرابي بسذاجة، منذ وليت عليهم يا حجاج وهم يخرجون؟

فإنموذج الحجاج ومن على شاكلته الى يومنا الحاضر قدموا الإسلام دموياً الى العالم، فرسموا صورة السيف يحصد رقاب الناس مستعيناً بذلك بمن يؤوّل لهم تلك الآيات بأنها تدعو الى قتال كل مشرك وكافر بالله لمجرد عدم إيمانه بالله وكفره زاعمين بذلك أنّ آيتي السيف تدعوان الى ذلك، وهي قوله سبحانه: ﴿**فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْـمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[2]، وقوله سبحانه ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْـحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْـجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾[3].

ومُعدّين أيضاً أنّ هاتين الآيتين قد نسختا كل آيات الموادعة والمصالحة التي تضمّنها القرآن الكريم حتى بلغ ما ذكروا منها (١١٤) آية منسوخة بهما[4]، وأوصلها ابن العربي الى (١٢٤) آية [5]، غير ناظرين الى البعد التأريخي لهما، بل إنّ مؤوّلي القتل

فيهما قد خلعوها من سياقهما الذي وردتا فيه، فظهرت الآيتان تدعوان لقتل من لم يشهد الشهادتين لا لسبب آخر.

ولعّل مسألة النسخ في القرآن الكريم هي التي بعثتهم الى هذه التأويلات المنحرفة لتلك النصوص، إذ إنّ فيه مخلّصاً لهم من ادّعاء التناقض والتنافي في القرآن الكريم (ومنشأ هذا قلّة التدبّر أو التسامح في إطلاق لفظ النسخ بمعناه اللغوي)[6]، فوجدوا في نسخ الآيات لبعضها حلاً لهذا الإشكال.

إنّ الإسراف في قضية النسخ في القرآن الكريم فيه تعطيل لكثير من أحكام الله تعالى وإبطال لآياته، ومنها قسم من الآيات المحكمة التي يُبْنى عليها قواعد الحكم و أسسه فالأخذ بنسخها يعني هدم لصرح تلك الأحكام وقواعدها، ويقع ذلك بسبب من التأويلات الفاسدة والرؤى المعتمة وقراءة النص القرآني بعيداً عن مسبباته ومكوناته، قراءة سطحية لا تغور الى أعماقه، وهذا ما حدث في منسوخات آية السيف في سورة التوبة إذ عدّ منظرو التيار السلفي عدم النسخ لآيات الموادعة تعطيل لفريضة الجهاد في الإسلام مسترشدين في ذلك بآراء ابن تيمية[7]، فكفّروا كثيراً من طوائف المسلمين وحاربوهم وهاجموا الأنظمة العربية والإسلامية متهميهم بالكفر والخروج عن ملّة الإسلام بسبب من سياساتهم مع الغرب المسيحي، على أن الإسلام يدعو لمجاهدتهم ومحاربتهم وإعمال السيف في رقابهم، كما صوّرها منظروهم، ولذلك عدّوا فريضة الجهاد غير معمول بها في زماننا ،مع أنّ العمل فيها في صدر الإسلام كان له الفضل في توسيع ربقة الدولة الإسلامية حتى قيل في آية السيف إنّها تصنع التأريخ وتنشر الإسلام.

وقد وردت هذه الآية المباركة بتأويل فاسد لها في إحدى أخطر الوثائق المؤسسة لفكر التيار السلفي، الذي يدّعي الجهاد، في النصف الثاني من القرن الماضي ونُشر في كتاب (الجهاد، الفريضة الغائبة) للمهندس محمد عبد السلام فرج أمير جماعة الجهاد

الإسلامي التي اغتالت الرئيس المصري أنور السادات يقول فرج في هذه الآية: (ولقد تكلّم أغلب المفسرين في آية من آيات القرآن وسمّوها آية السيف، وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾[٨] قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية «قال الضحاك بن مزاحم: إنّها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ و بين أحد من المشركين وكل عقد ومدة، قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية ، لم يبق لأحدٍ من المشركين عهد ولا ذمّة منذ نزلت براءة»[٩] ... وقال الحسين بن فضل فيها هي آية السيف نسخت هذه كل آية فيها ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعداء .. فالعجب ممّن يستدل بالآيات المنسوخة على ترك القتال والجهاد)[١٠].

لكن لو دُرست هذه الآية وغيرها من الآيات الداعية الى مجاهدة المشركين ضمن سياقها التأريخي والنصّي الذي وردت فيه، قراءة معمقّة لأرشدتنا الحوادث التي عاصرت نزول النص المبارك لوقفنا على قيم دلالية غير الدلالة التي برزت من قطع المعنى واتلافه أو انحرافه عن أصل وجوده الذي بُني عليه من خلال الحادثة التأريخية الممثّلة لأسباب نزولها ولأجل معرفة الدلالة المرجوة في آية السيف وغيرها من آيات سورة التوبة ينبغي أن نسأل عن سبب عدم ابتداء السورة بالبسملة، وهل نسخت فعلا آيات الموادعة التي وردت في القرآن الكريم، وغيرها من الأسئلة التي سوف تقود البحث .

ولإتمام ما بُدئ به لابُدّ من دراسة هذه السورة المباركة من خلال معرفة الظروف التي أحاطت بنزولها من حوادث مهمة ربّما كان لها أثر في تغير مسار حركة الإسلام والمسلمين آنذاك، إذ اتخذ النبي محمد ﷺ طريقاً آخر غير المهادنة والملاينة في التعامل مع الواقع العربي خارج المدينة المنورة، والواقع المسلم الذي عاشه فيها، إذ جاهد الكافرين والمشركين جهاد دفاع لا جهاد هجوم وغزو، فالنبي محمد ﷺ لم يبدأ أيّ عدوٍّ بقتال أبداً في كل غزواته ومعاركه.

سورة التوبة والظروف التي أحاطت بنزولها:

عندما تجهّز الرسول محمد صلى الله عليه وآله لغزوة تبوك بعد رجوعه من حصار الطائف في آخر ذي القعدة من سنة ثمان للهجرة، أقام النبي صلى الله عليه وآله بالمدينة ذا الحجة والمحرم وصفراً وربيعاً الأول وربيعاً الثاني وجمادى الأولى وجمادى الآخرة، فلما كان في رجب من سنة تسع من الهجرة أذّن رسول الله صلى الله عليه وآله بغزو الروم ثم مضى لسفره واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب عليه السلام وذلك في اليوم العاشر من رجب، وكانت تسمى بغزوة العسرة أيضاً، لقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ**﴾[11]، فلما رجع منها بعد انتصاره على الروم وفرض الجزية عليهم، وأقام بالمدينة نزلت سورة التوبة في شوال من السنة ذاتها، وهي آخر ما نزل من القرآن في المدينة ولمّا كان موسم الحج، بعث علياً عليه السلام فيها ليقرأها على أهل الموسم في يوم النحر عند هجرة العقبة من تلك السنة[12]، ولها عدّة أسماء فهي تسمى التوبة وبراءة، والفاضحة، والمبعثرة، والمقشقشة أو البحوث، والمدمدمة، والحافرة والمثيرة، وسورة العذاب، فهذه عشرة أسماء، وكلّ اسم منها له دلالته ذكرها العلماء[13].

لقد رافق نزول هذه السورة المباركة عدة حوادث، كان لها أثرٌ عظيم في تشكيل دلالات الصورة ومضامينها، إذ كان لأغلب الحوادث التي وقعت في المدينة أو خارجها صدىً فيها، وربّما أثمرت عن حكمٍ قيّد العاملِين به، وحدّد مسار عمل الرسول صلى الله عليه وآله والمسلمين تجاه ما يواجهونه من تهديدات القبائل العربية المشركة لكيان الدولة الإسلامية الفتية، سواء كان من خارج المدينة المتمثّلة بنقض قريش وحلفائها لبنود الصلح مع رسول الله صلى الله عليه وآله في صلح الحديبية أم من داخل المدينة المتمثّلة بخطر المنافقين واليهود المتعاونين معهم.

ولأجل قراءة سورة التوبة قراءة واقعية لابدّ من مناقشة الظروف التي أحاطت بنزولها ودراسة مجمل الوقائع التي حدثت في المدينة وخارجها كي نتوصّل الى

المضامين الحقيقية التي تحملها، لا كما يؤوّلها المتأوّلون من أنّها أعملت السيف في رقاب الناس منذ نزولها، حتى استمر الأمر الى يومنا هذا من خلال القراءة السلفية المعاصرة التي اتخذت من آراء ابن تيمية طريقاً في قتل كل من لم يشهد الشهادتين أو يخالفهما في الرأي ممّن شهد الشهادتين وليس لسبب آخر، وقد سلك في عصرنا الحاضر هذا السلوك الدموي ما يسمى بالتيار السلفي الجهادي المتمثل في تنظيمات القاعدة والنُصرة وداعش وغيرها من التنظيمات الأخرى التي ربّما تستيقظ من رقدتها في يوم ما التي أعملت القتل في رقاب الناس كافة ومن مختلف الطوائف الإسلامية والمسيحية والأيزيدية في العراق وسوريا .

لقد أحاط نزول هذه السورة مجموعة من العوامل والظروف التي برزت واضحة في مضامينها وإشاراتها لتلك الحوادث، التي أضفت بظلالها عليها، ولعلّ في كلِّ آية منها ستجد حدثاً أو أثراً لحدث ما .

يمكن تقسيم هذه العوامل الى:

أولاً: العوامل الخارجية:

وهي مجمل الظروف التي أخذت تحدّد مسار السورة المباركة الآتية من خارج المدينة المنورة وقد تمثلت الظروف بما يأتي:

١ – حشود الروم والقبائل العربية المتنصّرة في بلاد الشام.

لقد قدِم المدينة جماعة من الأنباط أخبروا رسول الله صلى الله عليه وآله أن الروم تستعد بجيش جرار لمهاجمة المسلمين في عقر دارهم، لأن المسلمين في ظن الروم أخذوا يهددون دولتهم في المناطق المحاذية لهم في بلاد الشام، فلما سمع النبي صلى الله عليه وآله بذلك عدّ العُدّة وتهيّأ لمبادرتهم بالحرب والهجوم عليهم.

ولمّا شاع من قوة المسلمين بين القبائل العربية المشركة والمتنصّرة، فقد رجع

الروم عن مقاتلة المسلمين عند وصول النبي صلى الله عليه وآله بجيشه اليهم، خوفاً من تقدّم المسلمين على بلادهم فضلاً عن بلاد الشام، فركنوا للصلح معه فتحصّنوا في قلاعهم، ولما انتهى صلى الله عليه وآله إلى تبوك أتاه يوحنّة بن رؤبة وهو من عظماء تبوك وصاحب أيلة، فصالحه وأعطاه الجزية، وكذلك طلب أهل جرباء وأذْرُح من النبي صلى الله عليه وآله الصلح وأعطوه الجزية، وكتب ليحنة بن رؤية هذا الكتاب، الذي جاء فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم: هذه أمنة من الله ومحمد النبيّ رسول الله ليحنة بن رؤية وأهل أيلة سفنهم وسياداتهم في البر والبحر، لهم ذمة الله، وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً، فأنّه لايحول ماله دون نفسه، وإنّه طيبٌ لمن أخذه من الناس، وأنّه لا يحلّ أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يريدونه، من برٍّ أو بحر)[١٤].

فرجع جيش المسلمين منتصراً في تبوك من دون حرب أو قتال، وهذا مما غاض المنافقين في المدينة الذين مردوا على النفاق فكانوا ما أن يسمعوا نصراً للرسول صلى الله عليه وآله إلاّ أساءهم، وكان لذلك صداه في سورة التوبة حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿**إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ**﴾[١٥] أي: أخذنا حذرنا ولم نشركه في أمر القتال أو الجهاد حين يقع في المحذور، أي: إنّهم كانوا يثبطون من عزائم المسلمين في الخروج مع النبي صلى الله عليه وآله في جهاد الروم بتبوك ويبثوا الدعاية التي توهن من عزيمة المقاتلين، قال ابن هشام: (قال ابن إسحاق: قد كان رهط من المنافقين منهم وديعة بن ثابت، أخو بني عمرو بن عوف، ومنهم رجل من أشجع، حليف بني سلمة، يقال له: مُخُشن بن حمير، قال ابن هشام: ويقال: مخشى، يشيرون الى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو منطلق الى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ ... والله لكأني بكم غداً مقرنين في الحبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين)[١٦].

فلما وُوجهوا بذلك وعلموا أن رسول الله ﷺ قد علم بكلامهم اعتذروا منهﷺ، وقالوا: (يارسول الله إنّما كُنّا نخوض ونلعب)[١٧] فأنزل الله فيهم قوله سبحانه: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِالله وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ**﴾[١٨].

وقد رافق هذا النصر العظيم على الروم أن ازداد تمسّك المؤمنين بالرسول محمدﷺ، وفي المقابل أغاض المنافقين كثيراً، وإنّ صدى هذا النصر قد وصل الى كل قبائل العرب مما زاد من هيبة الدولة الإسلامية وعظمتها في نفوس القبائل العربية في الجزيرة.

٢- دور الأكيدر في دومة الجندل:

كان الأكيدر بن مالك عظيم دومة الجندل، وهو من كندة وكان على دين النصارى، وكانت له مراسلات مع منافقي المدينة منهم أبو عامر الراهب الذي سمّاه رسول الله ﷺ بالفاسق[١٩]، وكان هذا الملك يشكل خطراً على الدولة الإسلامية لذا عمل ﷺ على القضاء عليه بسرعة بعد انتهائه من تبوك، فأرسل اليه الزبير وأبا دجانة وجماعة يُقدّر عددهم بأربعة وعشرين فارساً، ويقال خالد بن الوليد[٢٠]، حتى وصلوا الى قلاع دومة الجندل، وكان الأكيدر قد خرج منها للصيد مع نفر من أهلِ بيته فيهم أخٌ يقال له حسان، فخرجوا معه ليصطادوا، فلما خرجوا تلقتهم خيلُ رسول الله ﷺ فقتلوا أخاه وأُخِذَ الأكيدرُ أسيراً الى رسول الله ﷺ، (قال ابن اسحق: ثم إنّ خالداً قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ فحقن دمه وصالحه على الجزية، ثم خلّى سبيله فرجع الى بيته)[٢١] .

وكان المنافقون قد عقدوا معه اتفاقاً للقضاء على رسول الله ﷺ عند رجوعه من تبوك على أن يُحيط الأكيدر وجنده على جيش الرسول من الخلف، وأما جيش المنافقين فمن الأمام مع اشتداد الحرب عليه من هرقل ملك الروم[٢٢]، لكن الله تعالى نصر نبيه فأُسْقِطَ في أيديهم ورجعوا خائبين خاسرين .

إنّ آثار هذه الواقعة واضحة في سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾[٢٣]، فقد نزلت في المنافقين الذين اجتمعوا في مسجد الضرار، وكان مكاناً للتآمر على المسلمين ويقودهم في ذلك أبو عامر الراهب الذي سماه النبي محمد ﷺ أبا عامر الفاسق، وقد خرج الى الشام ليعقد اتفاقاً مع ملك الروم لنصرة المنافقين على رسول الله ﷺ[٢٤].

ومن آثار هذه الواقعة أيضا ما جاء في قوله سبحانه: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[٢٦]، إذ نزلتا في بعض الأعاريب من أسد وغطفان ومن أعاريب حاضري المدينة، وفي أبي عامر الراهب لما لهم من دور في تخذيل الناس عن الجهاد في سبيل الله، وتحريضهم للقبائل العربية المتنصرة ضد المسلمين[٢٧].

ثانياً: العوامل الداخلية:

ترتبط العوامل وظروفها ارتباطاً وثيقاً مع العوامل الخارجية وذلك لتعلّق الظروف مع بعضها، ولتماسها للحدث ذاته، ولذا قد تتكرر بعض الأحداث وفقرات البحث الخارجية بالظروف الداخلية التي عنت بها يحدث في المدينة المنورة من مؤامرات للمنافقين وتحركات لليهود سواء كانت في المدينة أم في خارجها بما يتعلّق منها بالقبائل العربية التي ما زالت على شركها في الجزيرة.

لقد تمثّلت العوامل الداخلية التي تسببت في نزول سورة التوبة لحرب المنافقين للنبي محمد ﷺ داخل المدينة، فقد كان لهم نشاط كبير في توهين الدولة الإسلامية

وإضعافها من الداخل، ويقودهم في ذلك زعيمهم عبدالله بن أُبي فضلاً عن أبي عامر الفاسق وبعض المهاجرين الذي اتبعوا هواهم، وتمثّلت حربهم على الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وظهر صداها في سورة التوبة، بما يأتي:

١ ـ **محاولتهم إفشال التحشيد لغزوة تبوك** من خلال تثبيط عزم المؤمنين وتخويفهم من مواجهة بني الأصفر (الروم) بوصفهم دولة عظمى في ذلك الزمان وفي ظروف جوية صعبة وأن محمداً والمسلمين غير قادرين على توفير عُدّة الحرب في مثل هذا المناخ الحار وقلة الماء والجدب فتقاعس كثير من المؤمنين عن الجهاد، حتى أنزل الله تعالى فيهم: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ الله اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْـحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْـحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾[٢٨]، فقد نزل في الحضّ على غزوة تبوك وكان الزمان زمان عسرٍ وجدب وحرٍ شديد، فَعَظُم على الناس غزو الروم وأحبّوا المقام في المساكن وشقَّ عليهم الخروج الى القتال، فلما علم اللهُ تثاقلَ الناس أنزل قوله: ﴿**انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا**﴾، نزلت في الذين اعتذروا بالصنيعة والشغل[٢٩].

وبعد ذلك أنزل الله تعالى في المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين[٣٠]. قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ**﴾، وقوله سبحانه: ﴿**لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًاوَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ واللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾[٣١] ومن توهين المنافقين لعزائم الخارجين الى غزوة تبوك أنهم وجهوا سهام نقدهم الى رسول الله صلى الله عليه وآله وطعنوا في الدين فقد (أخرج ابن جرير عن قتادة: أن أناساً من المنافقين قالوا في غزوة تبوك: يرجو هذا الرجل ـ أي النبي محمد صلى الله عليه وآله ـ أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات، فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وآله على ذلك، فقال لهم: قلتم كذا وكذا، قالوا، أنما كن نخوض ونلعب)[٣٢] فنزل قوله سبحانه: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِالله وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ**﴾[٣٣] فجاءوا يعتذرون الى النبي صلى الله عليه وآله، فأنزل

تعالى: ﴿**لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾ (٣٤).

ومن تخذيل المنافقين أيضاً تخويفهم من قوة الروم ومجالدهم لهم، فقال المنافقون: (أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ، والله لكأنّا بكم غداً مقرنين في الجبال، أرجافاً وتخويفاً)(٣٥) ـ كما ذكرنا ذلك من قبل ـ وذكر السيوطي ايضاً من أحد طرقه أنه قد نزل فيهم قوله سبحانه: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ**﴾ (٣٦)، ومن شأن المنافقين أيضاً قول بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحَرّ زهادة في الجهاد وشكاً في الحق، وارجافاً برسول الله ﷺ (٣٧)، فأنزل تبارك وتعالى فيهم: ﴿**وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ (٣٨)، فهكذا كان المنافقون يثبّطون المجاهدين عن الاستعداد لغزوة تبوك، وأنّ الغرض من ذلك افشال الرسول ﷺ في مهمته لأجل القضاء على دولة الإسلام، وبقاء شعلة الكفر في الجزيرة العربية .

ومما يثبّط عزيمة المسلمين لقتال الروم هو ما قام به المنافق الجدّ بن قيس من بني سلمة وكان سيدهم وقد ندبه النبي ﷺ لمجاهدة بني الأصفر، ليكون قدوة لعشيرته، فقال له: (هل لك العام في جهاد بني الأصفر فقال: يارسول الله أوتأذن لي ولا تفتنّي؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشدّ عجباً بالنساء مني وأني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: قد أذنت لك)(٣٩) فنزل فيه قوله سبحانه: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾ (٤٠) وكان الإعراض عنه من قبل النبي ﷺ ازدراءً به وتضعيفاً لشأنه، مع ثرائه ويُسره، إذ فضّل البقاء على مجاهدة الكافرين، ولمّا نزلت هذه الآية: (قال رسول الله ﷺ لبني سلمة الجدُّ منهم، من سيدكم يا بني سلمة، قالوا: الجدّ بن قيس غير أنه بخيل. فقال النبي محمد ﷺ وأي داءٍ أدوأ من البخل، بل سيدّكم الفتى الأبيض الجعد بن بشر بن البراء بن معرور، فقال فيه حسان بن ثابت:

وقـــال رســـول الله والحـــقُّ لاحـــقُ بمـــن قـــال منـــاّ مـــن تعـــدون ســـيدا

فقلنـا لـه جـدُّ بـن قـيس عـلى الـذي يبخلـــه فينـــا وإن كـــان أنكـــدا

فقـال: وأي الـداء أدوى مـن الـذي رميـتم بـه جـداً وعـالي بهـا يـدا

وسوَّ بشـر بـن البـراء بجـوده وحـق لبشـرٍ ذي النـدا أن يسـودا

إذ مـا أتـاه الوفـد أنهـب مالـه وقـال خـذوه إنـه عائـدٌ غـدا

٢- المؤامرات على النبي صلى الله عليه وآله :

شغلت مؤامرات المنافقين على النبي صلى الله عليه وآله حيزاً كبيراً سواء كان ذلك في المدينة أم من خارجها من الأعراب المشركين، وما كان ذلك إلاّ كراهةً بالنبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين، وقد اشترك المنافقون واليهود ومشركو العرب في ذلك على حدّ سواء ؛ وقد برز أثرها في سورة التوبة واضحاً، ولعلَّ أغلب ما جاء فيها كان يُشير الى تلك المؤامرات والمكائد التي لحقت بالرسول صلى الله عليه وآله منهم، ومن ذلك عند اتخاذهم مسجد الضرار ليكون لهم مكان تجمّعٍ لحياكة المؤامرات تحت غطاء الدين المتمثل بالمسجد بوصفه دار عبادة للمسلمين، وكي يذرون التراب في أعين مَن يقول فيهم سوءً، فاتخذوا المسجد غطاء لسوءاتهم، وقد بناهُ المنافقون مضاهياً لمسجد قباء، وكانوا يجتمعون فيه يُعيبون النبي صلى الله عليه وآله ويستهزؤون به، وبناه اثنا عشر رجلاً وكان أبو عامر الفاسق منهم[٤١] ، وطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ يصلّي فيه وهو يتجّهز لتبوك: (فقالوا: يارسول الله، إناّ قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإناّ نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال: إنّي على جناح سفر، وحال شغل، وإن قدمنا إن شاء الله صلينا بكم فيه)[٤٢] وكان قبل بناء المسجد قد اتفق أبو عامر الفاسق قبل خروجه الى الشام، مع المنافقين على بنائه وقال لهم: (ابنوا مسجدكم واستمدوا فيه بما استطعتم من قوة وسلاح فإنّي ذاهب الى قيصر ملك الروم، فآتي

بجيش من الروم فأُخرِجُ محمداً وأصحابه)[٤٣] فكان بناء المسجد مكيدة كبيرة على الإسلام والمسلمين وهذه المؤامرة الكبيرة مغطاةُ بغطاء الدين.

بيد أنّ الله تعالى أراد أن يعصم النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين من هذه المكيدة، فعند رجوعه من تبوك نزل بذي أوان، وهو مكان بينه وبين المدينة ساعة من نهار ـ أنزل الله سبحانه قوله ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَارًا وَكُفْراً**﴾ [٤٤]، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله مالك بن الدخشم ومعن بن عدي، فقال لهما (انطلقنا الى هذا المسجد الظالم أهله فأهدماه وحرّقاه... ونزل فيهم من القرآن ما نزل)[٤٥]، وكان يسمى أيضاً مسجد الشقاق[٤٦].

ومن المؤامرات أيضاً ما أظهره عبدالله بن أُبيّ من مناصرة الرسول صلى الله عليه وآله في غزوة تبوك وما أن تحرك صلى الله عليه وآله حتى تخلّف عنه ابن أُبيّ ومن معه من المنافقين قصد الإيقاع به وتخذيل جيشه، (قال ابن إسحق: وضرب عبدالله بن أُبيّ معه على عسكره أسفل منه، نحو دباب ـ وهو جبل بالمدينة ـ وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين، فلما سار الرسول صلى الله عليه وآله تخلّف عنه عبدالله بن أُبي فيمن تخلّف من المنافقين وأهل الريب)[٤٧].

بيد أن هذا الخبر فيه شيء من مبالغة وتضخيم لأمر المنافقين، وقد يكون عددهم كبيراً وخاصة بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وآله الى المدينة، لكن بعد فتح مكة، أي قبل مدة يسيرة من غزوة تبوك أظهر كثير منهم إسلامه فأنزلت آيات كثيرة تعالج الوضع وتؤنبهم على خبثهم ونفاقهم، فنجحت محاولة النبي صلى الله عليه وآله لمعالجة هذا الوضع واستعاد النبي صلى الله عليه وآله قسماً كبيراً منهم، وبقيت طائفة كبيرة وخطيرة[٤٨].

إنّ بقاء هذه الطائفة من المشركين في المدينة هو الآخر يشكل خطراً على كيان الإسلام، لذا نجد ان النبي محمداً صلى الله عليه وآله قد خلّف علي بن أبي طالب عليه السلام بالمدينة لمواجهة هذا الوضع السيئ فيها فيما لو حدث تحرك منهم، لعالجه الإمام علي عليه السلام وقال صلى الله عليه وآله «يا عليّ إنّ المدينة لا تصلح إلاّ بي أو بك»[٤٩] غير أن المنافقين عندما علموا



بذلك وبخطر الإمام علي عليه السلام عليهم أرجفوا به (وقالوا: ماخلّفه الاّ استثقالاً له وتخففاً منه، فلما قال ذلك المنافقون، أخذ عليّ بن أبي طالب عليه السلام سلاحه، ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو نازل بالجرف ـ وهو مكان بينه وبين المدينة ثلاثة أميال ـ فقال (يا نبي الله، زعم المنافقون أنّك إنّما خلفتني أنك استثقلتني وتخفّفت منيّ، فقال: كذبوا، ولكني خلفتك لمّا تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك ألا ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى . إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي)(٥٠)، فكان هذا الإرجاف بعليّ عليه السلام محاولة منهم لشق عصا الوحدة والطاعة ولتخذيل الإمام في متابعة أمرهم في المدينة كي يخلو لهم وما يريدون من دون متابع أو منازع في هدم دولة الإسلام .

٣- كراهة المنافقين للنبيّ محمد صلى الله عليه وآله وأذاهم له :

أظهر مجموعة من منافقي المدينة حقدهم على النبي محمد صلى الله عليه وآله، وعملوا مابوسعهم في أذاه وبالغوا فيه، حتى نزل فيهم قرآنٌ يؤنبهم على ذلك، فقد نُقِلَ أن منهم مَن كان يجلس في مجلس الرسول صلى الله عليه وآله فيسمع منه وينقل حديثه الى المنافقين، وكذلك يقولون ما لا ينبغي أن يُقال في رسول الله صلى الله عليه وآله حتى قال بعضهم لا تفعلوا فإنّا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا، قال الجلاّس بن سويد نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدّقنا بما نقول فإنّما محمدٌ أذنٌ سامعةٌ قال تعالى ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾(٥١)، نزلت في هؤلاء المنافقين٥٢ وقد نقل أيضاً عن بعض المهاجرين ما يؤذي النبي صلى الله عليه وآله، حتى لقد آذوه في عرضه وأزواجه، فقد نقل الشعبي قول الإمام علي عليه السلام لأهل الشورى: (وكان قد بلغه عنهم هناتٌ وقوارض، فقال لهم: لكنّي أخبركم عن أنفسكم ... وأما أنت يا طلحة فقلت: إن مات محمد لنركضَنَّ بين خلاخيل نسائهِ كما ركض بين خلاخيل نسائنا)(٥٣) وقد مات النبي محمد صلى الله عليه وآله وهو ساخط عليه(٥٤) .

٤ – اتصال المنافقين بالروم للإغارة على الإسلام :

مارس هذا الدور عدد من قادة المنافقين، يدفعهم الى ذلك رغبتهم في القضاء على الإسلام في عقر داره، ومن هذه الممارسات ما قام به بعض هؤلاء من الإتصال بالروم وتحشيد القوى ضد الإسلام، وقد نجح أبو عامر الفاسق في تأليب هرقل وملك غسان وغيرهم.

وكان هذا في اطار خطة شاملة وضعها المنافقون للقضاء على المسلمين والإغارة عليهم ومحاصرتهم من كل الجهات، وقد أعلنوا بأنهم (يضعون المسلمين بين خطرين داهمين ؛ خطر يأتي من قبلهم، فهم يهاجمونهم، فيصطلون مخلّفي المسلمين إذ أخرجوا فإذا عادوا من تبوك، فإنّ الأكيدر يلاحقهم، والمتخلفون في المدينة يهاجمونهم من جهة المدينة، والأكيدر يهاجمهم بمجموعة من الخلف، ويجده هرقل، وملك غسان من جهة الشام)[٥٥]، لكن الله سبحانه قد أفشل خطتهم وأذهب ريحهم وجرت الرياح بما لا يشتهونه نصرةً للإسلام والمسلمين.

والظاهر أنّ هناك اتصالات لبعض الشخصيات الأخرى غير أبي عامر الفاسق مع الغساسنة وغيرهم، فقد روي عن كعب بن مالك وهو أحد الثلاثة الذين خلّفوا في المدينة وقال فيهم تعالى: ﴿**وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ**﴾[٥٦] حين قاطعهم النبي ﷺ والمسلمون، قد قال: (حينما أنا أمشي في سوق المدينة إذا بنبطي من أنباط الشام ممّن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: مَن يدلّ على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يُشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غسان ... فإذا فيه: أما بعد، فإنّه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، فأقصاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فإنْ تَكُ متحولا فالحق بنا نواسيك)[٥٧] وهذا الأمر في غاية الخطورة إذ يوحي بوجود اتصالات واسعة في المدينة مع أعداء الإسلام، وأن هؤلاء كانوا يتربصون بالإسلام الدوائر ويحاولون أن يفيدوا من أي حدثٍ في المدينة كي يُوقعوا الفتنة ويُضعفوا الإسلام.



٥- تآمر يهود المدينة على الإسلام والمسلمين:

لقد كان أناس من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي وكان البيت عند جاسوم، (يثبطون الناس عن رسول الله محمد ﷺ في غزوة تبوك، فعندما علم ﷺ بذلك بعث اليهم طلحة بن عبيد الله في نفرٍ من أصحابه، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ففعل طلحة)[٥٨]، ولعلّ في فعل الرسول ﷺ ذلك ما يسوّغه، وذلك أن اليهودي قد نقض عهده، فلم يبق له ولا لبيته حرمة، وأن في حرق البيت دلالة كبيرة وهي أن لا يكون عدم الحرق ذريعة لإثارة الشعور بأن البيت قد أُخذَ ظلماً، وذلك تشكيك بصوابية فعل الرسول ﷺ ويتضمن خدشاً في هيبته وعدله.

٦- محاولة اغتيال النبي محمد ﷺ والانقلاب على الإسلام:

لعلّ هذه الحادثة هي أقصى ما كان بوسعهم أن يقوموا بها، وهي القضاء على شخص الرسول ﷺ، وكان ذلك عند رجوعه من تبوك، عند العقبة فلما بلغ رسول الله ﷺ تلك العقبة نادى مناديه للناس: أن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد، وأسلكوا بطن الوادي فإنّه أسهل لكم وأوسع، فسلك الناس بطن الوادي إلا النفرالذين تآمروا على الرسول ﷺ فإنّهم اتبعوه، وكان عمار بن ياسر يأخذ بزمام ناقته وحذيفة بن اليمان يسوقها من خلفه، فيما رسول الله ﷺ يسير من العقبة إذ سمع حسّ القوم قد غشوه ، فنفّروا ناقته ﷺ، حتى سقط بعض متاعه ويُقال أرادوا أن يقطعوا أنساع راحلته ثم ينتخسوا به فغضب الرسول ﷺ لذلك، وكان حذيفة قد ردهم فضرب وجوه رواحلهم، وعرفوا أنهم قد عرفهم الرسول ﷺ فانحطوا من العقبة وخالطوا الناس كي يخفى أمرهم واخْتُلِفَ في عددهم وأسمائهم[٥٩] ،وقال الإمام الباقر عليه السلام (كانت ثمانية منهم من قريش وأربعة من العرب)[٦٠] ونزلت فيهم قوله تعالى ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [٦١]. كانت هذه الحادثة تمثل مفترق طريق في الإسلام، إذ كشّر فيه المنافقون عن أنيابهم، وما تخفيه دواخلهم، حقداً على الرسول ﷺ وطمعاً في

السيطرة على مقدرات الدولة الإسلامية لكنّ أمَر الله أقوى من مؤامراتهم، فأسقطهم في الهوة وأرْجعَ كيدهم الى نحورهم .

وفي مراجعة لمجمل هذه الظروف التي كان يعيشها النبي محمد صلى الله عليه وآله والمسلمون، يظهر مدى الخطورة التي تحيط بالدولة الإسلامية الفتية، وأن الحرب فيها لم تَستثنِ أحداً فيها ابتداءً من المسلم والمواطن البسيط، الى شخص القائد الأعظم الرسول صلى الله عليه وآله، لا لشيء إلاّ بغضاً للإسلام وطلباً للكسب و للمصلحة الخاصة وإبقاء شعلة الكفر في جزيرة العرب.

إنّ هؤلاء الظلاميين لا يرقبون في المسلمين عهداً ولا ذمة إذا شعروا أو ظنوا أنَّ مصالحهم قد تتعرض الى بعض الضرر، لذا كانوا يُحيكون المؤامرات ليلاً ونهاراً، ولم يهدأ لهم بال في ذلك.

لذلك كان توجّه مضامين سورة التوبة ودلالتها باتجاه مواجهة هؤلاء النفر المنحرف الذين ارادوا أن يعبثوا بمقدرات دولة الإسلام ، فبعد أن قُمعَ الخطر الخارجي المتمثّل بالروم والقبائل المتنصّرة في بلاد الشام من دون قتال أُمِرَ صلى الله عليه وآله في هذه السورة المباركة بمجاهدة الخطر الداخلي وتنقية الأجواء ممّا أثيرَ من غبار، مع الحفاظ على العهود والمواثيق المبرمة مع القبائل العربية المشركة التي لم تنقض عهودها مع الرسول صلى الله عليه وآله، وكانت القبائل التي دخلت في الحلف هم بنو خزيمة من قبائل بكر، وبنو مدلج وبنو ضمرة وبنو الدئل، وهؤلاء كانوا قد دخلوا عهد قريش يوم الحديبية الى المدة التي كانت بين الرسول صلى الله عليه وآله وقريش، ولم ينقضها إلاّ قريش وبنو الدئل من بكر[٦٢] إذ عَدَت بنو بكرٍ على خزاعة وهم ممّن دخل في حلف النبي صلى الله عليه وآله وظاهرتهم قريش بالسلاح حتى وفد عمرو بن سالم الخزاعي مع ثلةٍ من قبيلته على رسول الله صلى الله عليه وآله فانشد في حضرته:



لا هُمَّ[63] إنّي ناشدٌ محمداً حلفَ أبينا وأبيكَ الأتلدا

إنّ قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ذِمامك المؤكَّدا

هُمْ بيّتَونا بالحطيم هُجدًّا وقتلونا رُكعاً وسجَّدا

فقال (عليه الصلاة و السلام): «لا نُصِرْتُ إن لم أَنصركُم»[64].

وكذلك مجاهدة الخطر الأكبر من كل هذه الأخطار وهو المتمثل بالمنافقين الذين يُظهرون إسلامهم ويخفون كفرهم، وكان الرسول صلى الله عليه وآله لو لم يأخذهم لظاهر إسلامهم أصلاً، ولكن بعد أن انزاح الغطاء وكُشِفت المؤامرات، لم يبق له صلى الله عليه وآله مسوّغ لذلك، فبدأ بالكشف عنهم واحداً واحدا أو مقاطعتهم وعدم الصلاة عليهم عند موتهم، وعدم الاستغفار لهم، ولم يستعمل السيف في رقابهم بل استعمل أساليب معنوية وطرقاً حضارية لردعهم عسىَ أن ينحرفوا عن طريق الضلالة الى طريق الهدى.

غير أنّه صلى الله عليه وآله لم يعفُ عن المشركين من بني بكر الذين أعملوا السيف في رقاب المسلمين من خزاعة فواجههم بالأسلوب ذاته بعدما اعتدوا ونقضوا عهدهم، فكان ذلك مسوّغاً له صلى الله عليه وآله في محاربتهم، أي إنَّ حربه لهم لم تكن لشركهم أبداً بل كان لخرقهم ونقضهم ما تعاهدوا عليه وإغارتهم على حلفائه وقتلهم وتشريدهم، لأن الإسلام لم يكن دين حرب، بل هو دين سلام ومحبة، ولكنّهُ لا يعدو وسيلة السيف إذا كان هناك ما يدعو لها من أجل عودة الحق الى نصابه والاقتصاص من المعتدي بما يُناسب الذنب والجريمة، لا كما يتصرف اليوم ما يُسمى بالتيارات السلفية الجهادية من قتل وإرهاب لمجرد عدم اعتناق دين الإسلام، أو الاختلاف المذهبي في ديننا الحنيف، وكان ذلك بسبب من قراءتهم الخاطئة لآية السيف في الظاهر لقوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ** ﴾[65]، وقولهم بأنها نُسخت كل آيات الموادعة والمصالحة مع غير المسلمين.

ولو كان طريق النبي محمد ﷺ القتل لمجرد اعتناق غير الإسلام لما عفا عن المتآمرين على قتله وهدم دولة الإسلام، بل كان يوجههم لما فيه الخير، فقد روي (أن اثني عشر رجلاً من المنافقين ائتمروا فيما بينهم واجتمعوا على أمر مكيدة لرسول الله فأتاه جبريل فأخبره بها فقال عليه السلام إنّ قوماً دخلوا يريدون أمراً لا ينالونه فليقوموا وليستغفروا الله و ليعترفوا بذلك حتى أشفع لهم، فلم يقوموا، فقال رسول الله ﷺ مراراً ألا تقومون، فم يَقُم أَحدٌ منهم، فقال ﷺ قم يافلان، قم يافلان حتىَ عَدّ اثني عشر رجلاً فقاموا وقالوا كُنّا عزمنا على ما قُلت ونحن نتوب الى الله من ظلمنا فاشفع لنا: فقال: الآن أخرجوا عنّي أنا كنت في أول أمركم أطيب نفساً بالشفاعة فكان الله أسرع الى الإجابة فخرجوا عنه حتى لم يرهم)[٦٦] فنزل فيهم[٦٧] قوله سبحانه: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ الله وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا الله وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا الله تَوَّابًا رَحِيمًا**﴾ [٦٨].

فجعل التوبة طريقاً لسلامتهم، ولم يستعمل السيف فيهم كي يرجعهم الى صوابهم، بل إنّه ﷺ لم يقتلهم على نياتهم مع علمه انهم منافقون قد خرجوا عن ملة الإسلام بدليل قوله سبحانه: ﴿ **لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾[٦٩]، ووعدهم الله تعالى النار خالدين فيها لقوله سبحانه: ﴿ **وَعَدَ الله الْـمُنَافِقِينَ وَالْـمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ الله وَلَـهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ**﴾[٧٠]، فعاملهم بوصفهم مسلمين لقولهم الشهادتين، ولم يؤاخذهم بما أخفت نياتهم، وقد أتبع هذا الأسلوب أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب عليه السلام عندما أستأذنه طلحة والزبير في العُمرة فقال عليه السلام : (ما العُمرةَ تريدان، فحلفا له بالله أنهما ما يريدان غير العُمرة فقال لهما: ما العُمرة تريدان، وإنما تريدان الغدرة ونكثا البيعة فحلفا بالله ما الخلاف عليه ولانكث بيعة يريدان، وما رأيُهما غير العُمرة، قال فأعيدا البيعة لي ثانية، فأعاداها بأشدّ ما يكون من الأيمان والمواثيق، فأذن لهما، فلما خرجا من عنده، قال لمن كان حاضراً: والله لا ترونها إلاّ فتنة يقتتلان فيها، قالوا: يا أمير المؤمنين، فمُر بردِّهما عليك، قال:

ليقضيَ اللهُ أمراً كان مفعولا)[٧١]، لكنهما بعد أن خرجا منه لم يلقيا أحداً إلاّ قالا له: (ليس لعليّ في أعناقنا بيعة، وإنما بايعناه مكرهين، فبلغ علياً عليه السلام قولهما فقال: والله ما العُمْرةَ يريدان، ولقد أتياني بوجهي فاجرين، ورجعا بوجهي غادرَيْن ناكثين، والله لا يلقياني بعد اليوم إلاّ في كتيبة خَشْناء يقتُلان فيها انفسهما، فبُعداً لهما وسحقاً)[٧٢].

إذن ما كان للإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ليواجههم بالحرب ويقرّر ذلك إلاّ بعد نكثها البيعة ونقضها العهد معه، وهذا الأسلوب في التعامل هو أسلوب القرآن الكريم ففي معاملة من لم ينقض العهد والميثاق قال تعالى: ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْـمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شئا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ الله يُحِبُّ الْـمُتَّقِينَ**﴾[٧٣]، فجعل الالتزام بالعهد تقوى إذ استثناهم الله تعالى من البراءة منهم، لحفظهم العهود، مع شركهم، ولم يعمل السيف في رقابهم.

إذن لم يكن في آية السيف دعوى لقتال أيِّ مشركٍ لمجرد شركه كما يبدو ذلك لقصيري النظر، وإنما هي دعوى لتنقية الأجواء ممّا علق فيها من شوائب الغدر وعدم الالتزام بالمواثيق والعهود من خلال التظاهر على الإسلام والمسلمين من دون مسوّغ يدعو الى ذلك، مع أنّ الرسول صلى الله عليه وآله لم يصدر عنه نقضاً لعهد أو ميثاق إلاّ بعد أن يصدر من معاهِدِهِ ذلك.

ولو كانت آية السيف تدعو لقتال المشركين لشركهم فِلمَ استثنى منهم الذين لم ينقضوا عهدهم معه أو الذين تابوا من نفاقهم والمستجير من المشركين بالنبي صلى الله عليه وآله، بل أوصى به الله تعالى أن يسمع كلام الله ويبلغه مأمنه .

وفي هذا التفاتة رائعة حين جُعل سماع كلام الله تعالى حقناً لدم المشرك المستجير بالنبي صلى الله عليه وآله، وسماع القرآن هو حوار بين العبد وربه، وفي هذا دعوى للحوار لا للعنف.

الأثر الدلالي في تداعيات الأحداث في آية السيف :

مجمل الأحداث التي صاحبت نزول سورة التوبة لها أثرها الدلالي والمعنوي في صياغة بناء السورة لغوياً أسلوبياً، كما أوضحتُ ذلك من قبل، إلاّ أنّ لآية السيف خصوصيتها الدلالية المتمثّلة في قوله سبحانه: ﴿**فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْـحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْـمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَـهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾(٧٤)، وقد اختلف العلماء والمفسرون في توجيهها بسبب من الاتجاه العقدي والفكري لهم، لأنَّ المباني الفكرية لها أثرها الواضح في توجيه المعنى، وخاصة فيما يتعلّق بفريضة الجهاد، إذ عَدّ بعضهم هذه الآية قد نسخت كثيراً من أحكام الموادعة والمصالحة، فعدّوا عدم العمل بها إيقافاً لفريضة الجهاد في الإسلام، لذا فإنهم قد أخذوا يتلمّسون الأعذار والحجج في إيجاد الوسيلة التي تخرجهم من شباك التناقض الذي تصوّروه في القرآن الكريم، بسبب من قلة التدبرّ في الآيات الداعية الى الجهاد أو الموادعة ولأجل إيضاح الدلالة التي تتوخّاه الآية المباركة لابُدّ من تحليل تراكيبها البنائية ودراستها وبيان العوامل التي شيّدت بناءها، ولعلّ العامل اللغوي هو الأنسب هنا في التعامل مع هذه الآية المباركة لابتعاده عن المشاكل العقدية والفكرية التي قد ينزلق بسببها كثيرٌ من المفسرين، فيصورون مضامين الآية بما يتفق مع أهوائهم، لأنّ الإنسان بطبعه ميّال الى مكنوناته الفكرية والعقدية في تفسير أيِّ نصٍّ لغوي أو ديني .

لذا كان الأسلم هنا اتباع طريق اللغة في كشف مضامين الآية المباركة وإبعاد شبح القتل عنها ونسخ آيات الموادعة، لمجرد الشرك ؛ من خلال استعمال أدوات اللغة والنحو، فضلاً عن مناسبة الأحداث التأريخية التي تحدّد مسار هذه الأدوات في بناء النص القرآني .

إنّ براءة آية السيف من إيقاع القتل لمجرد عدم الإيمان بالإسلام تتجلى في أمور كثيرة سأعرض لها بالتفصيل من خلال تحليل الآية الكريمة بالنقاط الآتية :

١ ـ الالتزام بحرمة الأشهر الـحُرم :

جاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ ابتداء الكلام بالشرط في (إذا) وهي في الأصل تستعمل للمقطوع بحصوله ولكثير الوقوع(٧٥)، أي لابُدّ من أن ينسلخ الأشهر الحُرُم، ومعنى الإنسلاخ (خروج الشيء مما لابَسُه، وأصله من سلخ الشاة، وهو نزع الجلد عنها)(٧٦)، وفي هذا الخروج شيء من صعوبة بسبب من الملابسة والممازجة بين الجلد وما تحته، وبهذا يشير تعالى في الآية الى شدة التصاق العرب والمسلمين بحرمة هذه الأشهر وعدم إيقاع القتال فيها .

ولو كان أمر الحُرمة في هذه الأشهر ليس بالُمهم لما عَبَّر عن انقضائها بالانسلاخ، ولقال: فإذا انقضت الأشهر الحرم، إلاّ أنّ الانقضاء يختلف في دلالته عن الانسلاخ، فالانقضاء هو مجرد ذهاب الشيء وانصرافه(٧٧)، ولا يدلّ على شدة ملامسة والتصاق، لذا فالتعبير عن مرور الأشهر الحُرم بدلالة الانقضاء لا تُعبر عن شدة التحام العرب و المسلمين بالحرمة المفروضة فيها وقوع القتال، في حين أنّ التعبير عن ذلك بالانسلاخ أجدى ويكون أشدَّ تعلّقاً بالالتزام بعدم وقوع القتال فيها.

إنّ دلالة الانسلاخ هذه تُعَدُّ واحدةً من دلالات آية السيف والتزامها بعدم إراقة الدماء في الأشهر الحُرم، ولو أراد التساهل فيها لأبدل الانسلاخ بلفظة أخرى كالانقضاء الدالة على مجرد المرور العابر غير العابئ بما وضعَ من قواعد والتزامات فُرضِت على العرب كافة والزمهم التقيّد بها وعدم مخالفتها، وهذا مماّ يشير الى وضع الحواجز أمام إراقة الدماء في النظر القرآني.

٢ ـ تخصيص لفظ «المشركين» وعدم عموميتها في قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْـمُشْرِكِينَ﴾ .

الذين قرأوا الآية المباركة قراءة سطحية وبلا تدبّر وقعوا في وهم التعميم بدلالة «المشركين» على أنّها شاملة لكل من لا يُؤمن بالله تعالى، في حين أن الواقع اللغوي



ومن خلال دراسة البُعد التأريخي لوقائع نزول سورة التوبة تُظهر لنا خلاف ما يراه السطحيون و النصيُون في تفسير لفظة (المشركين) .

إذ إنّ (أل التعريف) هذه تفيد التخصيص، أي: تعيين واحد أو مجموعة معروفة من أفراد الجنس (كقولك: «أقبل الرجل» و «اشتريتُ الكتاب» و لا تقول ذلك إلاّ إذا كان المخاطب يعرف الرجل، أما أن يكون رآه أو جرى حديث معه أو نحو ذلك، و لا تقول ذلك ابتداءً فلا تقول لمخاطبك «أقبل الرجل» وهو لا يعرفه، ولم يجرِ له سابق ذكر)(٧٨)، فالمشركون معروفون لدى المخاطبين من المؤمنين في آية السيف، ومحدّدون في صفاتهم، إذ ليس كل مشرك مشمول في هذه الآية، لأنّ (أل) التعريف قد أفادت تخصيصاً، وهذا مما ينفي وقوع النسخ لآيات الموادعة بهذه الآية، وأنّ التخصيص غير النسخ .

ولو أراد عموم المشركين من غير تخصيص لعُبِّرَ عن ذلك مثلاً بالقول: (أقتلوا مَن أشرك) أو (اقتلوا الذين أشركوا)، فالمراد مِنْ (الذين، مَنْ) كل من صدر منه الشرك فهو مشمول بالقتل، لأنّ (الذين) من ألفاظ العموم(٧٩)، وكذلك (مَنْ) فهي تحتمل أن تكون نكرة موصوفة(٨٠)، والنكرة دالة على العموم، فإذا عُبِّرَ عن المشركين بها، فالاحتمال أن يدلاّ على عموم المشركين، وعندئذٍ يكونون مشمولين بالقتل، لكن عندما عُبِّرَ عنهم بلفظ (المشركين) أفاد تخصيصاً لهم، أي قصد مجموعة منهم، وهم الذين نقضوا العهد والميثاق الذي وقع بين الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ومن حالفه من قبائل العرب من نحو خزاعة، وبين قريش ومن حالفهم في ذلك من نحو بكر وغيرهم، فالمشركون المذكورون في آية السيف مخصّصون .

إذن إرادة تعميم مفهوم المشركين الذي يُوْقع القتل في كُلِّ مشركٍ سواء منهم مَنْ نَقَضَ العهد أم لم ينقضه تعني الخروج عن قواعد اللغة وفنونها التي تعارف عليها العرب فيما بينهم، وكان القرآن ضميناً لها و أميناً على تطبيقها بأفضل مماّ عليه العرب في ذلك .

لقد وقع السيوطي (توفي سنة ٩١١ هـ) في وهم عندما عَدَّ قوله سبحانه ﴿فَاقْتُلُوا الْـمُشْرِكِينَ﴾ في العام بسبب التعريف ب (أل) وهي عنده تُعَدُّ من ألفاظ العموم في هذه الموضع[٨١]، من دون أنْ يقدّم دليلاً على ذلك، كما فعل في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[٨٢]، فقال: (أي: كُلّ إنسان بدليل ﴿إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾[٨٣])[٨٤]، في حين أن آية السيف لم تستثنِ منهم أحداً لأنهم مجموعة معروفة لديهم .

فضلاً عن ذلك، إنّ البعد التأريخي المتمثل بالحوادث التي رافقت النزول قد حدّدت هؤلاء المشركين، وهم الذين نقضوا العهد والميثاق مع الرسول ﷺ وحلفائه، حتى استجار به بنو خزاعة، فقال ﷺ عند ذاك: (لا نُصرْتُ إن لم أنصركُم)[٨٥] .

لذا فالنص القرآني المبارك لم يجعل لفظ المشركين لفظاً مطلقاً، فالحدث المرافق لذلك قد حدّد هوية هؤلاء المقصودين بالقتل دون غيرهم.

علاوة على ذلك أنّ هذا التحديد في القتل قد ظهر واضحاً في الآية ذاتها عندما أردفها بقوله سبحانه :﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْـمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ الله ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُون﴾[٨٦]، فجعل الاستجارة بالرسول ﷺ صوناً للمشركين من القتل، وأنّ سماعه للقرآن الكريم حاقن لدمه، ثم أمر تعالى نبّيه الكريم أنّ يُبلغَ المشركَ الموضع الذي يأمَنَ فيه، ليحدّ من القتل وسفك الدم، وإن كان المستجير ممَّن نقضَ العهد والميثاق .

٣ ـ تحديد مكان المشركين في قوله تعالى: ﴿ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ :

الضمير (هم) يعود في هذا المقطع من الآية الكريمة على المشركين المعلومين لدى المسلمين، وإنّ (حيثُ) والفعل (وجد) كلاهُما يدلا على المكان والظرفية، قال ابن هشام في (حيثُ): (هي للمكان اتفاقاً)[٨٧]، وأما الفعل (وَجَدَ) فقال الزمخشري: (وُجد الشيء وجوداً خلاف عُدِمَ)[٨٨]، أي إيجاد الشيء بعد فقده وضياعه، هذه

الدلالة تُوحي أن الشيء الذي وُجدَ بعد ضياعه كان معروفاً، وليس بخافٍ على مَنْ فقده وأضاعه ثم ألفاه .

من هذا نستدل أنّ المشركين الذين يُبْحَثُ عنهم معروفون وليسوا بخافين، ولو كانوا غيرَ معروفين فليس باستطاعة الذين يبحثون عنهم أن يلاقوهم أو يُوجدوهم، وعند ذاك سيكون البحث عن كلّ مشركٍ دون تحديد هويته كي يُوجِدوا ضالتهم، فتكون دلالة المشرك دلالة عموم لا خصوص .

بيد أنّ تحديد المشرك من حيث موضعه، فيه دلالة معرفة به لا إنكار، لذا فإنّ دلالة المكانية والظرفية في هذا المقطع من الآية تأخذ بنا إلى أنّ هؤلاء المشركين مخصوصون، لا عموم مَن أشرك بالله سبحانه لقد حمل ابن هشام (توفي سنة ٧٦١هـ) هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ **اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ [٨٩] فقال: (إذ المعنى أنّه تعالى يعلمُ نفس المكان المستحقَّ لوضعِ الرسالة فيه، لا شيئاً في المكان)[٩٠]، وذلك أنّ دلالة (حيث) المكانية قد حدّدت مكان موضع الرسالة، وهذا المعنى نجده في قوله سبحانه: ﴿**حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**﴾ أي: اقتلوا المشركين المخصوصين مكان وجودهم وإقامتهم، أي: بين ظهراني قبيلتهم و عشيرتهم وأهلهم ممّن لم ينقضوا العهد أو يقتلوا المسلمين بعد الميثاق، وفي هذا تخصيص لهم وبيان، لا عموم مَنْ أشرك بالله تعالى، إذ نجد أنَّ مَن في القبيلة مَن لم يخرج عن العهد والميثاق، فهم غير معنيّين بهذا الأمر وإن خرج بعضهم على ذلك .

٤ ـ دلالة المنع والتضيق والرصد في قوله تعالى: ﴿ **وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَـهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ**﴾ فقد وردت في هذا المقطع من الآية المباركة الأفعال (أخذ، حَصَرَ، قَعَدَ) بصيغة الأمر لمواجهة المشركين بكل قوة وصرامة و وسيلة، إذ جاء الفعل (أخذ) بمعنى المنع والتقيد، قال ابن منظور: (يُقال: أخذتُ على يد فلان إذا منعتهُ عمّا يُريد أن يفعله كأنَّكَ على يده)[٩١] ممسك فيه ومقيّده عمّا يُريد أن يفعله (فالأخذُ في

معناه اللغوي يتضمّن معنى القوة بدلالة التمكّن)[٩٢]، أي: إعمال القوة، فضلاً عن حصرهم في أماكنهم بدلالة (أحصروهم) (أي: ضيّقوا عليهم)[٩٣] في أماكنهم ومحل سكناهم، مع ترصّدهم بالقعود لهم في كلّ مرصد[٩٤] لقوله سبحانه: ﴿ **وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ**﴾ .

إنّ الأفعال الثلاثة تُشير صراحة الى تحديد مكان تواجدهم، فلو كانوا غير مخصَّصين وغير معروفين لما حَدَّد أماكنهم ووضع لهم المراصد، فدلالة الأفعال قد خصّصت المشركين المطلوبين في هذه الآية المباركة لا عمومهم .

إذن دلّت مجمل ألفاظ هذه الآية الكريمة على تخصيص لفظ المشركين لا تعميمها كما ذهب الى ذلك بعض من المفسرين وعلماء النسخ .

بيد أنّ القراءة العابرة وغير المتدبِّرة تُوقع في مأزق الانحراف عن هذه المضامين الى قضية قتل كُلّ مَنْ أشرك بالله تعالى، لا لذنبٍ آخر، في حين أنَّ الله تعالى يدعو الى التسامح ورأب الصدع بين أبناء الآية الواحدة وإنْ اختلفت أديانهم ومذاهبهم وتوجهاتهم العقديّة والفكرية.

الخاتمة

توصّل البحث الى عدّة نتائج ندرجها فيما يأتي:

١ ـ إن دراسة البعد التأريخي لسورة التوبة مهمٌ لبيان المضامين والأفكار في هذه السورة ، وإنّ اغفالها سيُوقع الدارس في حالة عدم التدبّر في فهم النص القرآني وهذا ممّا يؤدي الى الفهم الخاطئ لمدلولات السورة ، كما وقع في ذلك النصيّون .

٢ ـ إنّ التركيب اللغوي والبنائي في سورة التوبة وخاصة آية السيف منها يوحي بكثير من الإضاءات الى براءة هذه السورة من القتل غير المسوّغ له .

٣ ـ إنّ وقوع كثير من العلماء في وهم الفهم الخاطئ لبعض تراكيب آية السيف أخذ بأيديهم الى القول بغياب فريضة الجهاد، أو تغييبها وعدم العمل بها، فضلاً عن عدم ربط الأحداث والوقائع التي صاحبت نزول السورة مع التركيب اللغوي لمجمل السورة وخاصة آية السيف .

٤ ـ الخلط بين مفهومي التخصيص والنسخ في آية السيف أدّى الى الإختلاف في كون آية السيف ناسخة لآيات الموادعة في حكمها أو هي مخصصة لفِئة معيّنة من المشركين وشمولهم بالحكم .

٥ ـ ربما تجد لفظة معينة أو حرف في تلك اللفظة يشير بصراحة الى حالة كبيرة كالجهاد مثلاً أو غيرها لا يفهمها القارئ غير المتدبّر، وهذا ممّا يوقع كثير منهم في هاوية الإنحراف والزيغ عن طريق الصواب وتوجيه دلالة الآية أو السورة الى خلاف مضمونها .

٦ ـ ضرورة تدبّر معاني الألفاظ وفهم دلالاتها، لأن ذلك متمّم لفهم مجمل دلالة السورة أو الآية .



*** هوامش البحث ***

١- سورة الفتح / الآية ٢.

٢- سورة التوبة / الآية ٥ .

٣- سورة التوبة / الآية ٢٩ .

٤- ظ: الناسخ والمنسوخ / ابن سلامة: ١٨٤.

٥ ظ: الاتقان / السيوطي: ٢ / ٤٦، الناسخ والنسوخ / ابن العتائقي الحلي: ١، ٦ .

٦- البيان في تفسير القرآن / الإمام الخوئي: ٤, ٣.

٧- وللمزيد في معرفة اثر ابن تيمية في التيار السلفي الجهادي المعاصر، انظر ماجاء في وثيقة أو

كتاب (الجهاد ـ الفريضة الغائبة) للمهندس محمدعبد السلام فرج.

٨- سورة التوبة / الآية ٥.

٩- تفسير القرآن العظيم / ابن كثير: ٢ / ٣٣٦.

١٠- الجهاد الفريضة الغائبة / محمد عبد السلام فرج: ١٦ ـ ١٧ .

١١- سورة التوبة / الآية ١١٧ .

١٢- ظ: الكشاف / الزمخشري: ٢ / ٢٣٢، مجمع البيان / الطبرسي: م٣ / ١ .

١٣- ظ: مجمع البيان / الطبرسي: م ٣ / ١ .

١٤- السيرة النبوية / ابن هشام: ٤ / ١٣٥ .

١٥- سورة التوبة / الآية ٥. .

١٦- م: ن ٤ / ١٢٥ .

١٧- م: ن

١٨- سورة التوبة / الآية ٦٥ .

١٩- ظ: الصحيح من سيرة النبي الأعظم / جعفر العاملي: ٣. / ٢,٤، أسباب النزول / الواحدي: ١٩٥ .

٢٠- ظ: م: ن: ٣. / ١٦٦ / ١٦٧ .

٢١- السيرة النبوية / ابن هشام: ٤ / ١٢٦ .

٢٢- ظ: الصحيح من سيرة الرسول الأعظم / جعفر العاملي: ٣. / ١٦٣ .

٢٣- سورة التوبة / الآية ١,٧ .

٢٤- ظ: أسباب النزول / الواحدي: ١٩٥، وسنوضح هذه الحادثة أكثر في مبحث العوامل الداخلية .

٢٥- سورة التوبة / الآية ٩٧ .

٢٦- سورة التوبة / الآية ١,١ .

٢٧- ظ: أسباب النزول / الواحدي: ١٩٤ .

٢٨- سورة التوبة / الآية٣٨ .

٢٩- ظ: أسباب النزول / الواحدي: ١٨٥ .

٣٠- ظ: م: ن .

٣١- سورة التوبة / الآية ٤٧ .

٣٢- أسباب النزول / الواحدي: ١٨٧-١٨٨، لباب النقول في أسباب النزول / السيوطي: ٦,١ .
٣٣- سورة التوبة / الآية ٦٥ .
٣٤ سورة التوبة / الآية ٦٦ .
٣٥- السيرة النبوية / ابن هشام: ٤ / ١٣٥ .
٣٦- سورة التوبة / الآية ٦٥ .
٣٧- ظ: ن: ٤ / ١١٩
٣٨- سورة التوبة / الآيتان ٨١ ـ ٨٢ .
٣٩- م: ن ٤ / ١١٨، أسباب النزول الواحدي: ١٨٥ .
٤٠- سورة التوبة / الآية ٤٩ .
٤١- ظ: سبل الهدى والرشاد/ : ٥ / ٤٧١ ـ ٤٧٢ .
٤٢- السيرة النبوية / ابن هشام: ٤ / ١٢٨ .
٤٣- الصحيح من سيرة الرسول الأعظم / جعفر العاملي: ٣/ ٤, ٢ .
٤٤- سورة التوبة / الآية ٧,١ .
٤٥- السيرة النبوية / ابن هشام: ٤ /١٢٩، ظ: أسباب النزول / الواحدي ١٩٥ ـ ١٩٦، لباب النقول في أسباب النزول / السيوطي / : ١١١ ـ ١١٢ .
٤٦- ظ: م: ن .
٤٧- م: ن: ٤ / ١٢. .
٤٨-ظ: الصحيح من سيرة النبي الأعظم / جعفر العاملي: ٢٩ / ١٥٩ .
٤٩- الإرشاد / الشيخ المفيد: ١ / ١١٥ .
٥٠- السيرة النبوية / ابن هشام: ٤ / ١٢١.
٥١ سورة التوبة / الآية ٦١.
٥٢ ظ: أسباب النزول / الواحدي: ١٨٦ ـ ١٨٧، لباب النقول في أسباب النزول / السيوطي: ١٥ ـ١٦.
٥٣-شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد المعتزلي: ٩ / ٤٤ .
٥٤- ظ: الصحيح من سيرة الرسول الأعظم / جعفر العاملي: ٢٩ / ٢٤٧ .
٥٥- م. ن: ١٦٣ .
٥٦- سورة التوبة / الآية ١١٨ .

٥٧- الصحيح من سيرة الرسول الأعظم / جعفر العاملي: ٢٩ / ٢٢٢ .
٥٨- السيرة النبوية / ابن هشام: ٤ / ١١٩ .
٥٩- ظ الصحيح من سيرة الرسول الأعظم / جعفر العاملي: ٣ / ١٢٣ ـ ١٢٤، أسباب النزول / الواحدي: ١٨٩، مجمع البيان / الطبرسي: م ٣ / ٥١.
٦٠- مجمع البيان / الطبرسي: م٣ / ٥١، ولمعرفة المزيد عن هؤلاء المتآمرين راجع: الصحيح من سيرة الرسول الأعظم / جعفر العاملي: ٣ / ١٣١ ـ ١٤.
٦١- سورة التوبة / الآية ٧٤.
٦٢- لاهُمَّ: تعني اللهم .
٦٣- الكشاف / الزمخشري: ٢ / ٢٣٦، مجمع البيان / الطبرسي: م ٣ / ٩ .
٦٤- ظ: الكشاف / الزمخشري: ٢ / ٢٣٤ ـ ٢٣٥ .
٦٥- سورة التوبة / الآية ٥.
٦٦- مجمع البيان / الطبرسي: م ٢ / ٦٨ .
٦٧- التبيان / الطوسي: ٣ / ٢٤٣، مجمع البيان / الطبرسي: م ٢ / ٦٨ .
٦٨- سورة التوبة / الآية ٦٤ .
٦٩- سورة التوبة / الآية ٦٦ .
٧٠- سورة التوبة / الآية ٦٨ .
٧١- شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد المعتزلي: ١ / ٢١٩ .
٧٢- م . ن .
٧٣- سورة التوبة / الآية ٤ .
٧٤- سورة التوبة / الآية ٥ .
٧٥- ظ: معاني النحو / د . فاضل السامرائي: ٤ / ٦١ .
٧٦- مجمع البيان / الطبرسي: م ٣ / ٦، ظ: لسان العرب / ابن منظور: ٦ / ٣٢٣ ـ سلخ .
٧٧- ظ: لسان العرب / ابن منظور: ١١ / ٢١١ ـ قضي .
٧٨- معاني النحو / د . فاضل السامرائي: ١ / ١.. .
٧٩- ظ: الاتقان / السيوطي: ٢ / ٣. .
٨٠- دراسات لأسلوب القرآن الكريم / عضيمة: ٣ / ١٣٢ .
٨١ظ: الإتقان / السيوطي: ٢ / ٣. .

٨٢- سورة النصر / الآية ٢ .

٨٣- سورة النصر / الآية ٣ .

٨٤- م . ن : ٢ / ٣. .

٨٥- الكشاف / الزمخشري: ٢ / ٢٣٤ ـ ٢٣٥ .

٨٦- سورة التوبة / الآية ٦ .

٨٧- المغني / ابن هشام: ١ / ٢٥٨ .

٨٨- أساس البلاغة / الزمخشري: ٦٦٦ ـ وجد .

٨٩- سورة الأنعام / الآية ١٢٤ .

٩٠- مغني اللبيب / ابن هشام: ١ / ٢٥٩ .

٩١- لسان العرب / ابن منظور: ١ / ٨٤ ـ أخذ .

٩٢- الظواهر اللغوية في كتب إعجازالقرآن / د . عادل عباس النصراوي: ٣١ (رسالة ماجستير)

٩٣- المفردات / الراغب الأصفهاني: ٢٣٨ ـ حصر .

٩٤- م . ن: ٦٧٩ ـ قعد .

* المصادر والمراجع *

* الإتقان في علوم القرآن/ تأليف الإمام جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي (المتوفي سنة ٩١١هـ) ـ ضبطه وصحّحه وخرّج آياته محمد هاشم سالم ـ بيروت ـ لبنان ـ دار الكتب العلمية ـ ١٤٢٤هـ ـ ٢..٣م.

* الأحرف السبع للقرآن / أبو عمرو الداني ـ تحقيق د . عبد المهيمن طحان ـ مكتبة المنارة ـ مكة المكرمة ـ الطبعة الأولى ـ ٨, ١٤ هـ .

* أساس البلاغة/ تأليف الإمام العلاّمة جارالله أبي القاسم محمد بن عمر الزمخشري (المتوفى سنة ٥٣٨هـ) ـ بيروت ـ دار صادر ـ ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م. .

* أسباب النزول ـ علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ)- دار ومكتبة الهلال ـ بيروت ـ ١٩٨٥ م.

* أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن / تأليف الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (المتوفى سنة ١٣٩٣

هـ) / ضبطه وصححه وخرّج آياته الشيخ محمد عبد العزيز الخالدي / دار الكتب العلمية / بيروت ـ لبنان –الطبعة الرابعة ـ ١١,٢ م .
* البحر المحيط ـ لأثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن حيان الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي(ت٧٤٥هـ) ـ حققه وخرّج آياته وعلق عليه، د.عبد الرزاق المهدي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ ٢..٢م ـ ١٤٢٣هـ.
* البرهان في توجيه متشابه القرآن / تأليف تاج القراء محمود بن حمزة الكرماني (ت حوالي ٥,٥هـ)–تحقيق عبد القادر عطا–دار الكتب العلمية–بيروت–لبنان–الطبعة الاولى ١٤,٦هـ–١٩٨٦م.
* البيان في تفسير القرآن، الإمام السيد أبو القاسم الخوئي، منشورات دار العلم للإمام السيد الخوئي، النجف الأشرف، مطبعة العمال المركزية، ١٤١.هـ/ ١٩٨٩م.
* تفسير القرآن العظيم، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي(ت٧٧٤هـ)، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩م.
* الجهاد الفريضة الغائبة / المهندس محمد عبد السلام فرج / تأريخ النشر ١٩٨١ م.
* دراسات لأسلوب القرآن الكريم / تأليف محمد عبد الخالق عضيمة / دار الحديث ـ القاهرة ـ ١٤٢٥ هـ ـ ٢..٤ م .
* السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ تحقيق عبد الرؤوف سعد ـ دار الجيل ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤,٧هـ ـ ١٩٨٧م.
* شرح نهج البلاغة / تأليف عز الدين أبي حامد عبد الحميد الشهير بابن أبي الحديد (المتوفى سنة ٦٥٦هـ) ـ تحقيق محمد أبو الفضل أبراهيم / دار الكتاب العربي ـ العراق ـ بغداد ـ الطبعة الأولى –١٤٢٦هـ ـ ٢..٥ م .
* صحيح الترمذي / محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت٢٧٩هـ) ـ المكتبة الإسلامية ـ مصر ـ ١٣٥٩ .
* الصحيح من سيرة الرسول الأعظم / السيد جعفر مرتضى العاملي ـ المركز الإسلامي للدراسات ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الخامسة ـ ١٤٢٨ ـ ٢..٧ م .
* الظواهراللغوية في كتب إعجاز القرآن / (رسالة ماجستير) ـ عادل عباس النصراوي ـ إشراف الأستاذ الدكتور عبد الكاظم محسن الياسري ـ كلية الآداب ـ جامعة الكوفة ـ ٢..٧ م .
* الكشّاف المنتقى في فضائل عليّ المرتضى/ كاظم عبود الفتلاوي ـ مكتبة الروضة الحيدرية ـ





منشورات لسان الصدق ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

* الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل/ تأليف أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٤٦٧ ـ ٥٣٨هـ) ـ تحقيق عبدالرزاق المهدي ـ بيروت ـ لبنان ـ دار إحياء التراث العربي/ الطبعة الاولى ـ ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

* لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي(ت٩١١هـ)، ضبطه وصححه احمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية،، بيروت، لبنان، (د.ت).

* لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور(ت٧١١هـ)، مؤسسة التاريخ العربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

* مجمع البيان في تفسر القرآن، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، تحقيق الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاتي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٣٧٩هـ.

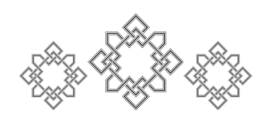
* معاني النحو، د. فاضل السامرائي، دار الفكر، عمان، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

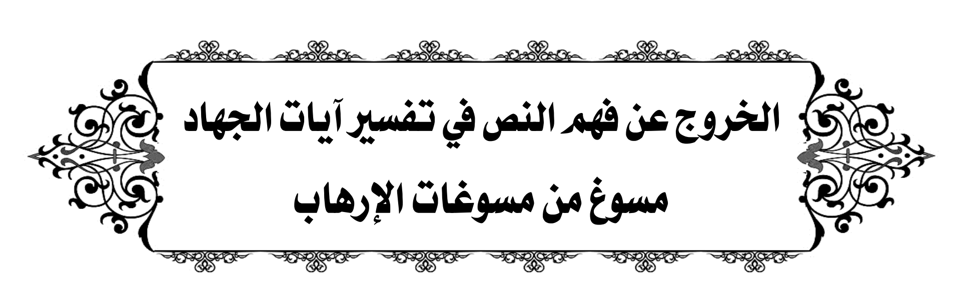
* مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، قدمه ووضع حواشيه وفهارسه حسن حمد، اشرف عليه وراجعه د. أميل يعقوب، دار الكتب العلمية،، بيروت، لبنان،ط٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

* مفردات ألفاظ القرآن، العلامة الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داودي، منشورات ذوي القربى، قم، إيران، ط٤، ١٤٢٥هـ.

*الناسخ والمنسوخ / تأليف الشيخ أبي القاسم هبة الله ابن سلامة ـ وهو بهامش كتاب أسباب النزول للواحدي ـ عالم الكتب ـ بيروت .

*الناسخ والمنسوخ / لابن العتائقي الحلي / من أعلام القرن الثامن الهجري ـ دراسة وتحقيق الدكتور ثامر كاظم الخفاجي ـ مطبعة ستاره ـ قم ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٣٢هـ.





الخروج عن فهم النص في تفسير آيات الجهاد مسوغ من مسوغات الإرهاب

د. عمار عبد الأمير السلامي[1]

المقدمة

لعل من أبرز المظاهر التي تشهدها الحضارة اليوم، هو ظهور كثير من الفرق المتطرفة التي تدعي الاسلام. فقد انتشرت مظاهر العنف والقسوة وسفك الدماء على الساحة الدولية سياسية كانت أم ثقافية أم عقائدية. وكأن هناك ظهوراً جديداً لدين عنيف لايعترف بالآخر يقوم على السيف في نشر مبادئه ومعتقداته، ولا شك بأن هناك أيد خفية لمؤسسات معادية للاسلام تريد تشويه صورة الإسلام أمام العالم وأمام الجيل الجديد. فقد جمعوا كل شاذ في التراث وكل خروج عن المبادئ الحقة للإسلام وأعادوا صياغتها صياغة محرفة مدعومة بتقنيات الإعلام الحديث للسيطرة على العقل الجمعي للمشاهد. فقد خاطبوا عقل الشباب المسلم عن طريق إعادة صياغة تاريخ الإسلام وكيف انتشرت رقعته في العالم وقارنوه مع حاله اليوم. فغرسوا في عقولهم طريقاً واحداً للحياة تنحصر بحمل السيف وقتل الآخر كوسيلة للانتصار والحياة او الموت والشهادة ؛ وذلك لأن الخروج من هذه الحياة أفضل من العيش بذلة وتخلف وحرمان.

(١) عميد الكلية الاسلامية الجامعة في النجف الأشرف.



ومن تلك الأمور التي اقتنصوها من التراث وأعادوا صياغتها بصورة مشوهة لتلبي أغراضهم، ماجاء في تفسير بعض آيات الجهاد في القرآن الكريم. فلكي يضعوا لمبادئهم أسساً قوية وقادرة على الاقناع. عمدوا الى أبرز أسس التشريع الإسلامي وهو النص الإلهي المقدس فاقتبسوا منه مايلائم أغراضهم ومقاصدهم، وجمعوه وأولوه تأويلاً يتناسب مع مقاصدهم وأهدافهم .

ثبت البحث :

ومن أبرز آيات القتال والجهاد في القرآن الكريم، تلك الآيات التي أطلقوا عليها (آيات السيف) التي من أبرزها :- قوله تعالى:-

١) ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة/ ١٩٣.

٢) ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ الأنفال/ ٣٩.

٣) ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾التوبة/ ٥.

٤) ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾التوبة/ ١٤ .

٥) ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ التوبة/ ٢٩.

٦) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾التوبة/ ٧٣.

٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ التوبة/ ١٢٣.

وغيرها من الآيات الكريمة التي استندوا اليها لقتل الآخر واحتلال أرضه وسبي نسائه وإنهم في أفعالهم معتقدين انهم يقيمون شرع الله ويحاولون نشر الإسلام في الارض، وهو ما يعرف (بجهاد الطلب) أي طلب نشر الاسلام عن طريق السيف والقوة وإن لم يبدأ الآخرون الحرب والقتال. وإن هذا النوع من الجهاد هو الذي فتح الأمصار ونشر الإسلام وجعل راية الاسلام خفاقة في أقصى بقاع المعمورة .

ولكن هل حقيقة إن الإسلام انتشر بالسيف ؟ وهل ان لأفعال هذه الفرق التي تدعي الإسلام ما يبررها من عقائد ومبادئ إسلامية صحيحة؟. وللجواب عن ذلك لابد لنا من إعادة النظر في أبرز الأسس التي اعتمدوها، ألا وهي آيات السيف والجهاد في القرآن الكريم، ونحاول الوقوف عندها، ونشرح مداليلها، للخروج الى فهم صحيح بعد ذلك .

لذلك يمكننا أن نقسم آيات الجهاد على ما يأتي :-

أولاً: الآيات المقيدة برد العدوان:

قال تعالى :

١) ﴿ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة/ ١٩١.

٢) ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة/ ١٩٤.

٣) ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾النساء/ ٩١.

٤) ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ المائدة/ ٣٣.

٥) ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾التوبة/ ٣٦.

٦) ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ الحج/ ٣٩.

ثانياً: الآيات المقيدة بنقض العهود والإيمان:

١) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ الأنفال/ ٥٨.

٢) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ التوبة/ ١٢.

ثالثاً: آيات مقيدة بالبغي:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ الحجرات/ ٩.

رابعاً: الآيات الدالة على أن الجهاد ليس فقط بالنفس وإنما بالمال أيضاً:

١) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى

سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ التوبة/ ٤١.

٢) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴾ التوبة/ ٨١.

٣) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ الصف/ ١١.

٤) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ النساء/ ٩٥.

٥) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ الأنفال/ ٧٢.

خامساً: الآيات الدالة على وقت الجهاد :

١) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ البقرة/ ١٩٤.

٢) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة/ ٢١٧.

سادساً: الآيات الدالة على حرمة الفرار من الزحف

١) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾الأنفال/ ١٥ – ١٦.

سابعاً: الآيات الدالة على حكم الأسرى بالحرب

١) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ ﴾ الأنفال/ ٦٧.

٢) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٤﴾ ﴾ محمد/ ٤.

ثامناً: الآيات الدالة على ضرورة الإعداد العسكري

١) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾الأنفال/ ٦٠ – ٦١

٢) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ ﴾النساء/ ٧١.

تاسعاً: الآيات الواردة في الحث على الجهاد وبيان فضله :

١) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا

﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة/ ٢١٦.

٢) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ البقرة/ ١٥٤.

٣) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ الحج/ ٧٨.

٤) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ النساء/ ٧٤.

عاشراً: الآيات الدالة على وجوب الجهاد والقتال :

وهي تلك الآيات التي أشرنا إليها في بداية البحث تحت عنوان (آيات السيف)، التي يستند اليها من ذهب الى وجوب (جهاد الطلب) في الإسلام، وإن من الواجب على المسلمين نشر الإسلام ولو عن طريق السيف. وغايتهم «تحقيق العدالة في الأرض وإزالة كل هيمنة سوى هيمنة الله من الأرض وفتح كل السبل أمام نشر الدعوة الإسلامية»[1]. وإن هذا الباعث هو الذي قام به «الخلفاء الراشدون، فمن بعدهم من ملوك الإسلام، ففتحوا به الأمصار، وأخضعوا به أكبر الإمبراطوريات على وجه الأرض، وملكوا به سوار كسرى وقيصر»[2].

وقد اتفق أغلب المسلمين على أن هذا النوع من الجهاد لم يكن على عهد رسول الله ﷺ فكانت جل معاركه وغزواته دفاعية، وإنما حدث هذا النوع من الجهاد بعده

على يد بعض الخلفاء وملوك الإسلام. أي: إنّ المصدر الثاني في التشريع الاسلامي (السنة النبوية الشريفة) لا يرشدنا الى ذلك. وإنما جاءت هذه الافعال من بعد الرسول، وإنها تحتمل الصواب والخطأ، لأن من قام بها بشر غير معصوم .

لذلك بقي لدينا المصدر الأول للتشريع وهو القرآن الكريم، وهي الآيات التي يستندون اليها في تشريع بدء القتال مع الكفار، بل قتل المخالف أينما كان، وذلك بمجرد كونه غير مسلم، فالحكم عليه سيكون إما الإسلام او القتل أو دفع الجزية إذا كان كتابياً .

وعند مراجعة تلك الآيات المباركة الداعية ــ في ظاهرها ــ الى ذلك، نجدها تنتظم في مجموعتين، الأولى ماجاء منها في سورة البقرة والأنفال، والثانية ماجاء منها في سورة التوبة .

فمن المجموعة الأولى قوله تعالى :﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة: ١٩٣.

وللوقوف على دلالة هذه الآية المباركة، لابأس من الرجوع الى مكانها في القرآن الكريم. والسياق القرآني الذي وردت فيه (سبب النزول)، لعلنا نستوضح مداليل الآية المباركة بصورة أوضح. فقد جاء في هذه الآية المباركة ضمن مجموعة آيات متسلسلة مترابطة داخل سورة البقرة .

فبعد أن ورد في النص المقدس الاشارة الى الأهلّة وانها مواقيت للناس. انتقل النص الى جزء آخر من القرآن الكريم وهو الذي نتحدث عنه، قال تعالى:

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ



﴿ انتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة/ ١٩٠ –١٩٣.

فهذه الآيات الثلاث نزلت بعد صلح الحديبية، وذلك عندما خرج الرسول صلى الله عليه وآله وأصحابه في العام الذي أرادوا فيه العمرة حتى نزلوا الحديبية فصدهم المشركون عن البيت الحرام. ثم صالحهم المشركون على أن يرجع هو وأصحابه من عامهم هذا الى العام القادم، ويتركوا لهم مكة ثلاثة أيام، وعندما حل الموعد خاف المسلمون أن لا تفي قريش بوعدها وتغدر بهم، فنزلت هذه الآيات المباركة لبيان الموقف من قتالهم[٣].

ففي صدر الآية الاولى أمر واضح بالقتال في سبيل الله ودينه القويم وصراطه المستقيم، لكنه حدد هذا القتال، بقتال الذين يقاتلون المسلمين .

وقيل أن معنى الآية: قاتلوا كل من له قدرة وأهلية كذلك، سوى من جنح للسلم، لقوله تعالى:

﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الأنفال/ ٦١.

إلا أن الرأي الأول أقرب، لأن ظاهر قوله تعالى: ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ يقضي أنّهم فاعلون للقتال، فأما المستعد للقتال والمتأهل له قبل إقدامه عليه فانه لا يوصف بالمقاتل إلا على سبيل المجاز[٤]. وهم أهل مكة ويمكن حمل الآية على العموم بقتال جميع من يقاتل المسلمين[٥]. ثم عطف النص المقدس على ذلك بالنهي عن الاعتداء ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ أي: أن لاتبدأوهم بقتال[٦]. وقيل أن لا تقتلوا النساء والصبيان والشيخ الكبير والرهبان ولا من ألقى اليكم السلام[٧]. والنهي عن الاعتداء هنا مطلق يراد به كل ما يصدق عليه أنه اعتداء كالقتال قبل أن يدعى الى الحق .والابتداء بالقتال وقتل الصبيان والنساء[٨]. وغير ذلك مما لا يتناسب مع مبادئ الإسلام الحنيف ويعد قبيحاً عقلاً .

وأما قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ فقد ذهب بعضهم الى أن هذه الآية ناسخة لما جاء قبلها من شرط قتال من يقاتل، فهنا لا يوجد هكذا شرط وإنما يجب قتال الكفار أينما وجدوا وفي أي محل يظفر بهم سواء بدأوهم بقتال أم لم يبدأوهم مستندين الى المعنى الخاص من النهي عن الاعتداء متمثلاً بعدم قتل النساء والشيوخ والأطفال وغير ذلك. فقالوا: إن الله تعالى أمر أولاً بقتال من يقاتل، ثم في آخر الأمر أذن في قتالهم سواء قاتلوا أم لم يقاتلوا، وذلك لأن أول الأمر كان المسلمون قليلين. فكان الصلاح استعمال الرفق واللين والمجاملة، فلما قوي الإسلام وكثر الجمع وأقام من أقام منهم على الشرك بعد ظهور المعجزات وتكررها عليهم حالاً بعد حال حصل اليأس من إسلامهم، فلا جرم أمر الله تعالى بقتالهم على الإطلاق(٩). إلا أن ذلك لا يستقم، لأن الضمير في ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ عائد على ﴿ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ فالوصف باقٍ، إذ المعنى (واقتلوا الذين يقاتلونكم حيث ثقفتموهم)، ليس أمراً بالجهاد سواء قاتلوا أم لم يقاتلوا(١٠).

وأما قوله تعالى ﴿ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ أي: من المكان الذي أخرجوكم منه، يعني مكة، وهو أمر تمكين فكأنه وعد من الله بفتح مكة(١١). فالحديث إذن في هذه الآيات المباركة عن مشركي مكة وموقف الرسول ﷺ منهم عند الفتح، وهل يجوز قتالهم عند المسجد الحرام أم لا ؟ مما كان يخالج المسلمين من أسئلة يطلبون جوابها، ويرغبون في بيان حكمها من الرسول الكريم ﷺ. فقد أذن بقتال من قاتلهم حتى لو كان عند المسجد الحرام، ولكن بشرط أن يبدأوا هم بالقتال، وليس أن يبدأ المسلمون بذلك، وكذلك بشرط وقف القتال فور انتهائهم منه، وكفهم عنه، وعدم مطاردتهم بعد ذلك، لأن الله غفور رحيم، والإسلام يجبُّ ما قبله الى آخر ما جاء في الآية الثالثة من هذا النص من تأكيد على قتالهم حتى لا تكون فتنة وحتى لا يعتدوا على المسلمين أثناء تأدية مناسكهم في البيت الحرام، وتكون العبادة فيه بعد ذلك خالصة لله، فالأمر بالقتال في الآية الثالثة (وَقَٰتِلُوهُمْ) معطوف على أمر القتال الأول،

وهم أنفسهم الذين قاتلوكم بدلالة عودة الضمير (هم) عليهم كما هو واضح فليس الأمر للبدء بالقتال والأخذ بجزء الآية من دون الرجوع الى سياقها كاملاً.

لذلك نفهم من جميع ذلك أنّ هذه الآيات المباركة نزلت بوجوب قتال الكافرين الذين يقاتلون المسلمين، فالدفاع عن النفس والدين واجب شرعاً وعقلاً. ولكن قيد هذا القتال في بداية النص بعدم الاعتداء (ولا تعتدوا) وفي نهايته (فلا عدوان)، وكذلك اشترط فيه مقاتلة من يقاتل المسلمين، مع وقف القتال فور انتهاء الأعداء منه، فكرر هذا الشرط مرتين ايضاً، مرة في آية مستقلة: ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ البقرة ١٩٢. والثانية في آخر الآية الثالثة: ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة ١٩٣. ليتضح من ذلك أن الآيات المباركة لا تفيد البدء بالقتال أو قتل المشركين أو المخالفين في أي مكان وبمجرد الظفر بهم، وإنما جاءت في قتال من بدأ هو بالقتال، واعتدى على المسلمين وظلمهم وحاربهم، فهذه الآيات المباركة إذن جاءت في باب جهاد الدفع وليست في باب جهاد الطلب كما هو ظاهر .

أما الآية الأخرى في المجموعة الأولى فتتمثل بقوله تعالى من سورة الأنفال: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ الأنفال/ ٣٩. ولعل هذه الآية من أقوى ما استدل به الجمهور، ففي الآية أمر بقتال الذين كفروا الى غاية ألاّ تكون فتنة ويكون الدين كله لله، ولا يكون ذلك إلا بدخولهم في دين الله تعالى أو الخضوع لحكم الله تعالى وسلطانه وهيمنته(١٢).

وما ذلك إلا لأنها تختلف عن الآية السابقة في سورة البقرة. إذ لم يقيد القتال بمن يقاتل، ولم يقدم أو يعقب بذكر عدم العدوان كما هو ظاهر، فالضمير في (قاتلوهم) يعود على الكفار أولئك الذين تم ذكرهم قبل هذه الآية بدون تلك القيود أو الشروط. ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾ أي: ترك. وبمعنى آخر حتى لا

يفتن مؤمن عن دينه ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ ﴾ أي :أن يكون الدين خالصاً لله لا شريك له. ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ ﴾ عن الكفر، (فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ وَإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾، عن الإيمان وعادوا الى قتال أهله ﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ الأنفال/ ٤٠. أي: إنّ الله ناصركم ومعينكم وإنه نعم المولى ونعم النصير(١٣).

إلا أننا لو أعدنا قراءة الآية كاملة مع السياق الذي وردت فيه لوجدنا أن أولئك الكافرين الذين يعود عليهم الضمير (هم)، لم يأت ذكرهم فيما قبل الآية بصورة مطلقة أيضاً، حتى نستدل بوجوب قتال الكافرين وكل من لم يسلم أينما وجدوا وفي أي مكان وزمان. وإنما تم ذكر نوع خاص من الكافرين، وهم أولئك الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴾ الأنفال/ ٣٦. أي: إنهم محاربون من نوع آخر، فالأمر أمر قتال وصد عن سبيل الله أيضاً، ولكن هذه المرة بالأموال والاقتصاد ومحاربة الإسلام والمسلمين اقتصادياً، وهو نوع آخر من الحرب والقتال، ولذلك صرح النص بأنهم سوف يُغلبون، وتُكسر شوكتهم وينتصر عليهم المسلمون في النهاية .

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية أنها نزلت بعد خسارة المشركين في بدر، إذ مشى عبد الله بن أبي ربيعة و عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية، في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم في بدر الى أبي سفيان ومن كانت له تجارة في العير التي معه وطلبوا منهم إعانتهم بهذا المال على حرب الرسول الأكرم ﷺ ثأراً لمن أصيب منهم(١٤).

فالكفار هنا ليسوا مطلق الكفار الذين لم يدينوا بدين الإسلام فقط، بل أولئك

الكفار الذين يصدون عن سبيل الله بالعامل الاقتصادي، كما أشرنا اليه. لذلك وجب قتالهم وصدهم عن فعلهم حتى لا تكون فتنة. والضيق الاقتصادي والفقر من أشد الفتن على الأمم والشعوب، وهذا الفعل منهم يمكن أن يكون هو المقصود من قوله تعالى ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾، أي انتهوا عن حربهم الاقتصادية للمسلمين، فالقتال والجهاد هنا جهاد دفاعي وليس جهاد طلب وفتح، كما ذهب اليه بعضهم .

ولا يخفى أن هذه الآية المباركة ومقاصدها جاءت متناسبة مع الإطار العام في بناء سورة الأنفال وهو بناء يتناول الأمور الاقتصادية والمالية من أنفال وخمس وغير ذلك مما ذكر في هذه السورة المباركة.

وهذا من جانب التفسير بين دلالة الظاهر ودلالة السياق. أما من الجانب الروائي وتقرير فعل الصحابة والتابعين في استنباط بعض الأحكام وتفسير بعض آيات الذكر الحكيم، وهو الذي يرتكز اليه بعض الباحثين في تفسير هذه الآية، وفي تفسير آيات أخرى، فقد استنبطوا جواز البدء بقتال الكفار إستناداً الى ما فعله بعض الخلفاء الراشدين وملوك الإسلام عند فتحهم الأمصار والبلدان(١٥).

إذ إننا نجدهم هنا قد أهملوا واحدة من أشهر الروايات عندهم في تفسير هذه الآية، فقد ذُكر أن رجلاً جاء عبد الله بن عمر فقال: يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ الحجرات/ ٩. فما منعك ألا تقاتل كما ذكر الله في كتابه ؟ فقال: ياإبن أخي أعيَّر بهذه الآية ولا أُقاتل، أحب إلي من أن أعيَّر بالآية التي يقول الله عز وجل فيها: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ النساء/ ٩٣. قال: فان الله تعالى يقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾، قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد

النبيﷺ إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يفتن في دينه إمّا أن يقتلوه وإمّا أن يوثقوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة[١٦].

فعلى الرغم من أن الإطار العام للرواية جاء بشأن حكم القتال فيما بين المسلمين، إلا أننا يمكن أن نستنتج من آخر الرواية أن سبب القتال في الآية ــ مناط البحث ــ هو لدفع الفتنة والضيق على المسلمين عسكرياً واقتصادياً وغير ذلك، وهذا يختلف عن القتال لنشر الإسلام في البلدان وغزوها، كما هو واضح من قول إبن عمر .

وقد ذهب بعض المفسرين الى أن كلمة (الفتنة) ذات معنى واسع تشمل كل أنواع الضغوط، فتارة يستعملها القرآن بمعنى عبادة الأصنام والشرك الذي يمثل كل انواع التحجر والجمود والضغط على المجتمعات، وتارة أخرى تطلق على تلك الضغوط التي يفرضها الأعداء للوقوف بوجه اتساع دعوة الإسلام ولإسكات صوت أهل الحق، فالفتنة هنا لا تعني الشرك فقط، وإنما تعني سعي الأعداء لسلب الحريات الفكرية والاجتماعية من المسلمين ايضاً[١٧].

ونتيجة لذلك وللاختلاف في تفسير الآية المباركة ووجوب القتال فيها ووقته، وللاختلاف في تفسير المقصود من (الفتنة)، وكذلك المقصود من قوله تعالى ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ في أنّ المقصود هو نشر دين الإسلام في جزيرة العرب فقط، أم نشره في جميع أصقاع المعمورة، وغير ذلك نقل مفسرو أهل البيتعليهم السلام رواية عن أبي عبد الله عليه السلام . في تفسير هذه الآية عندما قال: لم يجئ تأويل هذه الآية، ولو قام قائمنا بعد سيرى من يدركه ما يكون من تأويل هذه الآية، وليبلغن دين محمد ﷺ ما بلغ الليل حتى لا يكون مشرك على ظهر الارض[١٨]. والى مثل ذلك أشار الآلوسي في تفسيره حيث قال لم يجئ تأويل هذه الآية بعد وسيتحقق مضمونها إذا ظهر المهدي، فإنه لا يبقى على ظهر الأرض مشرك أصلاً على ماروي عن أبي عبد الله عليه السلام [١٩].

وهو الأمر الذي يجعلنا نستنتج أن القتال المقصود هنا إنما يكون بأمر الإمام

فقط، فهو الكفيل بإعلان الحرب والقتال، وليس لكل شخص آخر الحق في ذلك.

أمّا المجموعة الثانية من الآيات الداعية الى الجهاد. فهي تلك الآيات المباركة التي وردت في سورة التوبة متمثلة بقوله تعالى:

١) قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة/ ٥.

٢) قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ التوبة/ ١٤.

٣) قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ التوبة/ ٢٩.

٤) قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ التوبة/ ١٢٣.

وهي تدلّ بحسب ظاهرها بقتل المشركين حيثما كانوا وفي أي زمان ومكان حتى يدخلوا في دين الله لتطهر الأرض من رجسهم ويكون النصر للمؤمنين. فالمشرك ليس له إلا السيف والقتل أو الدخول في الإسلام. بخلاف أصحاب الكتاب، فهم مخيرون بين الدخول في الإسلام أو دفع الجزية أو القتل، فبمجرد أن يكون الإنسان مشركاً يستحق بسبب ذلك القتل، ويعضد ذلك وقف القتل وإبطال هذا الحكم بمجرد التوبة أو الدخول في الإسلام.

وللوقوف على تفسير هذه الآيات المباركة بصورة دقيقة، يجب الرجوع الى السياق الذي وردت فيه. فاقتطاع الآيات المباركة من السياق الذي وردت فيه يمكن

لها أن تعطي غير ذلك المعنى الذي وردت فيه. ولهذا يجب أن تدرس هذه الآيات المباركة مجتمعة مع بعضها وبحسب سياقها، فقد وردت هذه الآيات المباركة في سورة التوبة وفي ضمن تلك الآيات المباركة التي تضمنت البراءة من المشركين، ولكن ليس كل المشركين كما يدل الاطلاق الظاهر، وإنّما أولئك المشركون الذين كان بينهم وبين المسلمين عهود ومواثيق ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ التوبة/ ١، وكذلك ليس كل أصحاب العهود من المشركين، وإنما أولئك الذين نقضوا عهودهم وغدروا بالمسلمين. وأما الذين لم يفعلوا ذلك ولم ينقضوا المسلمين عهودهم ولم يظاهروا عليهم فهم غير مشمولين بهذا الحكم، وأن الإلتزام معهم بالعهود أولى للمسلمين من قتالهم، وهذه هي صفات المتقين. وليس هذا فقط بل ان الإسلام أعطى فرصة للناقضين عهودهم من المتآمرين، وذلك بأنه منع من قتلهم فوراً، وإنما أعطاهم فرصة وفسحة من الوقت ليسيحوا في الأرض ويذهبوا حيثما شاؤوا لمدة أربعة أشهر كاملة، وليس هذا فقط، بل حتى لو انتهت هذه المدة وجاء أحدهم مستجيراً من القتل، فالواجب إجارته، وعدم قتله حتى يسمع كلام الله ثم يُترك الى أن يبلغ مأمنه .

قال تعالى: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا

يَعۡلَمُونَ ﴾ التوبة/ ١-٦ .

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ التوبة/ ١٢-١٤.

فهذه الآيات المباركة على الرغم من معانيها القوية الصارمة بشأن المشركين الذين نقضوا العهود وتآمروا على المسلمين. إلا أنّها لم تخرج عن روح الإسلام والأخلاق الكريمة التي دعا إليها.

فهذه الآيات الكريمة هي التي بعث بها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، علياً عليه السلام ليقرأها على الناس في الموسم سنة تسعٍ للهجرة وهي المعروفة بسورة براءة فقد كانت بمثابة الإعلان والمرسوم الصادر من الله والرسول الأكرم الى الناس كافة مسلمين وغير مسلمين، والذي أوضح فيه ليس الموقف من المشركين والمتآمرين فقط، بل أوضح صوراً أخرى يقف في مقدمتها انتصار المسلمين على الكفار، وأن لا يجتمع دينان في جزيرة العرب. وأن لا يدخل مشرك البيت الحرام بعد عامهم هذا وغير ذلك من الأحكام والقضايا التي كانت تهم المسلمين وقتها[٢٠].

وتستمر الآيات في سورة التوبة بعد ذلك مشيرة الى فضل الجهاد في سبيل الله. وأن الجهاد أفضل مرتبة من سقاية المسجد الحرام وعمارته، وأن الجهاد يجب أن يكون أحب الى المؤمن من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والأموال، وكذلك أشار الى ضرورة عدم الإعجاب والغرور باللذة أثناء القتال، وضرب لهم ماحصل في واقعة حنين وكيف انهزم المسلمون إلاّ قليل من المؤمنين. الى أن يصل الى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ التوبة / ٢٨.

إذ بيّن بشكل قطعي وواضح الموقف الثاني من المشركين ومنعهم من دخول المسجد الحرام بعد عامهم هذا. وعند الوصول الى هذا المعنى من الذكر الحكيم كان من المستحب الإجابة عن سؤال محتمل يوضح موقف المسلمين من أصحاب الكتاب، بعد أن تم إيضاح الموقف من المشركين، فجاءت الآية التالية لتوضح ذلك بقوله تعالى ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ التوبة/ ٢٩.

وإذا جمعنا هذه الآية الكريمة الى الآيات السابقة وجدنا هذه الآية بمنزلة المخصص لتلك. فإذا كان في بعض الآيات السابقة إطلاق وشمول لقتال المشركين فإن هذه تقيّد وتدل على إن لأهل الكتاب حكماً خاصاً بهم. فهم بالخيار بين الإسلام أو دفع الجزية أو القتل خلاف الكفار الذين هم بالخيارين إمّا الإسلام أو القتل(٢١).

ومن طبيعة السياق فضلاً عن مقتضى العقل والحكمة ندرك بأن الموقف من أصحاب الكتاب لم يأت مطلقاً بمجرد أنهم غير مسلمين، كما هو الحال من المشركين كما في السياق الذي سبق. فقطعاً الكفر بالله وعبادة الأصنام أشدّ من ضلالة أهل الكتاب. فمن المستحيل أن يكون الأمر الإلهي بمعاقبة ناقضي العهود من المشركين دون غيرهم، ومعاقبة أهل الكتاب أجمع من دون أن ينقضوا عهودهم أو يفعلوا أمراً يستحقون بموجبه هذا الحكم. إذن من الحكمة أن نقول أنّ الشرط الذي وجد هناك مازال باقياً، وأن المقصود من قتال أهل الكتاب هنا هم أولئك الذين نقضوا عهودهم معهم وتآمروا على المسلمين، وأما من التزم واستقام بعهده، فالواجب الوفاء والاستقامة له لأن الله يحب المتقين. وبما أنهم سوف يعيشون في كنف الإسلام والمسلمين، وأن المسلمين يدفعون الزكاة والخمس وغيرها، فرض الله على أهل

الكتاب المقيمين في دولة الإسلام ضريبة مالية باسم الجزية لأنهم خاضعون لتعاليم الإسلام ونظام دولته، وهكذا ينبغي أن يفسر(الصغار)في الآية المباركة، فمن البعيد عن روح الإسلام تفسيره بالاستهزاء والسخرية(٢٢).

وبقيت الآية الرابعة والأخيرة من الآيات التي يستدل بها البعض على وجوب القتال، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣ ﴾التوبة / ١٢٣.

حيث تشترك هذه الآية الكريمة مع الآيات السابقة في الحث على قتال الكفار والالتزام به، ويجري هنا ما تم اشتراطه هناك أيضاً، والمتمثل بقتال أهل البغي والأذى من ناقضي العهود منهم، غير أن الفرق هنا أن هذه الآية توضح كيفية ذلك القتال، وكيف أن الأولى قتال الأقرب فالأقرب، كما هو مقتضى العقل والمنطق، وكما هي مبادئ القتال، سواء كان المقصود الأقرب من حيث المكان لحدود دولة الإسلام وأماكن نفوذ المسلمين، أو الأقرب مكاناً للمسلمين داخل المعركة وأثناء القتال، فكلا الأمرين صحيحان، ولابأس إن كان الأبعد أشد خطراً فيشرع به أولاً ثم يأتي دور الثاني .

وهنا لابد من الإشارة الى ركيزتين أساسيتين مهمتين ذكرتا في نهاية هذه الآية، وهما القوة والتقوى، بل إن السورة كاملة ترتكز عليهما أيضاً، ففي الوقت الذي يريد الله لعباده المسلمين النصر من خلال القوة والصبر والجهاد وإعلاء راية الإسلام ومعاقبة الناكثين والمتآمرين وناقضي العهود، يؤكد في كل مرة على التقوى وضرورة التخلق بخلق الإسلام. فكما ينبغي للمسلمين إراءة الكفار الغلظة والشدة التي لا يقصد بها القساوة وسوء الخلق قطعاً، وإنما الشدة في ذات الله والقسوة على من يستحق القسوة والقتل، نجد أن الله يأمر بعدم تجاوز حدود التقوى فإن من سار على خط التقوى كان الله معه(٢٣).

وهكذا في جميع تلك الآيات الدالة على القتال التي اقتطعها بعضهم من سياقها ليبرر القتل والتعدي على من لا يستحق، وليبرر أفعال بعض ملوك المسلمين في التاريخ أولئك الذين تورطوا بغزو بعض الممالك المسالمة والامم المهادنة المطمئنة، طمعاً في ثرواتها ورغبة في جمال نسائها في بعض الأحيان. وكان ذلك كله بحجة نشر الإسلام الذي شوهوه بمثل هذه الأعمال في بعض الأحيان .فقد ركزوا على بعض الآيات دون الأُخرى بل اقتطعوا جزء من الآية دون بقيتها في بعض الأحيان فطالما رددوا قوله تعالى: ﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾التوبة/ ١٤،﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾التوبة / ٥، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ التوبة/ ١٢٣.

ونسوا أو تناسوا متعمدين ما جاء في السورة نفسها وفي سياق الآيات الدالة على الجهاد والتي منها قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ التوبة/ ٤. ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ التوبة/٦. ﴿ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ التوبة/٧. ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ التوبة/ ٣٣. ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ التوبة/ ٣٦.

ولكن ليس هذا هو رأي الجميع، وإنما هناك من لا يقبل بهذا الرأي. ومن مختلف المذاهب الإسلامية، فلم يرضوا بهذا التأويل المستند الى اقتطاع جزء من النص المقدس من دون تناول النص بأجمعه، لا لشيء إلاّ لتبرير أفعالهم وأطماعهم، ولتبرير

أفعال بعض من وضعوهم موضع الفاتحين والأبطال .

ومن أولئك الدارسين الشيخ يوسف القرضاوي. فقد ذهب الى أن الحضّ الموجود على القتال في القرآن الكريم لم يكن توجهاً عاماً، بل كان من قبيل المعاملة بالمثل ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾التوبة/ ٣٦. وأن الآيات المباركة التي وردت في سورة التوبة كانت تعالج فئة مخصوصة من مشركي العرب بدأت بحرب الإسلام منذ ظهوره، وطاردته حتى في مهجره، ونكثت العهود وألبت عليه الأعداء .﴿ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ التوبة/ ١٣. وغير ذلك من الآيات الكريمة الداعية في ظاهرها الى فرض الجهاد وإن لم يبدأ المشركون القتال. إلاّ إن حقيقة دلالتها تختلف كما سبق الإشارة اليها، ولهذا ذكر القرضاوي أن «المنهج الذي التزمه النبي الأكرم ﷺ: أنه يسالم من سالمه، ويحارب من حاربه، وأنه لم يبدأ بقتال قط، إلا أن يُبدأ هو»[٢٤]. ثم يضيف «وهذا كله يؤكد ما ذهبنا إليه من تحريم قتال المخالفين المسالمين للمسلمين، الذين لم يبد منهم أي إساءة للإسلام، ولا لأمته، لم يقاتلوهم في الدين، ولم يخرجوهم من ديارهم، ولم يظاهروا على إخراجهم، بل ألقوا اليهم السلم وكفوا أيديهم وألسنتهم عن المسلمين، فهؤلاء ليس لهم منا إلاّ البر والقسط»[٢٥]. وهذا الرأي للقرضاوي أحدث دوياً في الساحة الفكرية عند الجمهور، وعقدت له ندوات وحلقات، وصدرت عنه دراسات، وتباينت ردود الأفعال تجاهه. بين مادح مفرط في الإطراء، وبين ذام وناقم ومنتقد، وبين وسط متوازن.

ومن أولئك الدارسين المعاصرين أيضاً، فضيلة الأستاذ الدكتور حامد بن أحمد الرفاعي الأمين العام المساعد لمؤتمر العالم الإسلامي ورئيس المنتدى الإسلامي العالمي للحوار، إذ ذكر أن بعض المسلمين اخترع أو ابتدع مفاهيم مغلوطة عن الجهاد في الإسلام، فقد اخترعوا ما يسمى بـ(جهاد الطلب)، أي: جهاد السيف، ليبرروا ويشرعنوا به مايعتقدون من فهم خاطئ عن الجهاد، وإن آيات السيف في القرآن

الكريم قد نسخت كل ما عداها من آيات الجهاد وصنوفه ،وقد اتفقوا بفهمهم الخاطئ هذا مع ما يدّعيه بعض المستشرقين الحاقدين على الإسلام ورسالته السمحة، أولئك الذين طالما رددوا في كتبهم وأبحاثهم المسمومة بأن الإسلام انتشر بالسيف وبالقهر والاعتداء على حرية الشعوب وكرامتها، فقد زعموا أن المسلمين حكموا تلك الشعوب بالحديد والنار، وبشكل يشوه رسالة الإسلام السمحة، رسالة العدل والسلام، ورسالة الرحمة والمودة، ورسالة عمارة الأرض وإدامة الحياة، ورسالة صيانة البيئة وتبجيل حياة الإنسان وكرامته، فهي رسالة ذلك الدين الذي إنتشر بصدق الكلمة ونزاهة التعامل والإلتزام بالعدل والرحمة وصدق الحديث والموعظة الحسنة(٢٦).

وليس هذا فقط وانما يستمر الدكتور الرفاعي بالرد على اولئك الذين استحدثوا وابتدعوا هذا النوع من الجهاد بحجة نشر الاسلام فيذكرهم بقوله تعالى :

١- ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة/ ٢٥٦.

٢- ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦ ﴾ الكافرون/ ٦.

٣- ﴿ ۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٢ ﴾ البقرة/ ٢٧٢.

٤- ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩ ﴾ يونس/ ٩٩.

٥- ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ

﴿ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ المائدة/ ٤٨.

٦- ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٨﴾ ﴾ يونس/ ١٠٨.

٧- ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ ﴾ الغاشية/ ٢١.

٨- ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾ ﴾ النساء/ ٨٠.

٩- ﴿ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿٥٤﴾ ﴾ الإسراء/ ٥٤.

١٠-﴿ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ الإسراء/ ١٠٥.

فأين هذا مما يذهب إليه بعضهم من الفقه المبتدع لتبرير القتل والاعتداء والغزو وليس للمشركين والكفار فقط بل لجميع من خالفهم في هذا الرأي[٢٧].

وأمّا (قضية الفتوحات) وهو الدليل الثاني الذي يستندون اليه، فقد ذكر الدكتور الرفاعي بصدد هذا الموضوع مسألتين، الأولى: هي إن أول مرة ذكرت فيها عبارة (فتح)، ماجاء في سورة الفتح ،قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴾الفتح/ ١. والتي نزلت على الرسول الأكرم صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بعد صلح الحديبية، أي: إنها نزلت عند الصلح أو الهدنة أو الاتفاق، وليس عند الغزو أو الحرب أو القتال، فالإسلام دين السلام وليس دين الحروب والدماء .

أما المسألة الثانية وهي المتعلقة بتلك الحروب التي اقترنت بالفتح الإسلامي، فقد حاول الدكتور أن يبرر ذلك عن طريق الاعتقاد بأن المسلمين عندما كانوا يحاولون نشر دينهم الى الناس جميعاً ويأخذوا هذه المهمة الجسيمة على عاتقهم، كان

عليهم في بعض الأحيان أن يجتازوا الصحراء ومخاطرها، وأن يقتحموا سلاسل الجبال الموحشة تضاريسها، ويخوضوا غمار الأنهار والبحار مع قلة خبرتهم في التعامل معها، فقد كانوا مضطرين لأن يكونوا جاهزين للتعامل مع تلك الصعوبات من جهة، والتعامل مع المعوقات البشرية كقطاع الطرق وعصابات القتل والنهب من جهة أخرى. لذا تجهزوا بما يعينهم على مواجهة كل ذلك من غذاء وسلاح وخبراء بالنجوم والجغرافيا، الأمر الذي جعل بعضهم يصف ذلك خطأ بالحملات العسكرية، وإن الحروب التي وقعت أثناء ذلك، إنما كانت حروباً مخططاً لها مسبقاً، ومقرراً إثارتها من أول الأمر، دون الذهاب الى أنهم اضطروا اليها دفاعاً عن النفس في بعض الأحيان[٢٨].

وهنا نجد أنّ الدكتور الرفاعي قد جانبه الصواب في ذلك، ولعله كان محرجاً من الإقرار ببعض الأخطاء التاريخية التي اقترفها بعض ملوك المسلمين، فهو لم يستطع أن يقر بخطئهم، أو أن يعترف بأن بعض ما قاموا به كان طلباً للسلطان أو السيطرة أو توسيع النفوذ، حالهم في ذلك حال بقية الملوك والأباطرة على مر الزمان، فالمسألة ليست طلباً لنشر الدين والدعوة الى الخير كما أعلنوه في الظاهر، فهو لا يستطيع الإذعان بذلك، لأن بعضهم من الصحابة أو التابعين، أو الذين أشاروا وبرروا تلك الحروب للملوك والسلاطين كان لهم شأن في التشريع عند بعض المذاهب الإسلامية .

الخاتمة

١ ـ ضرورة العودة الى القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، وهما المصدران الأساسان في التشريع الإسلامي، وذلك عند محاولة إستنباط الأحكام الإسلامية عامة وأحكام الجهاد خاصة، وعدم وضعهما في قبال فعل بعض الصحابة والتابعين أوغيرهم، لأن فعل الصحابة والتابعين لا يرتقي الى مستوى مصادر التشريع تلك.

٢ ـ العودة الى النص القرآني كاملاً، وعدم إقتطاع جزء منه عند التفسير، أومحاولة إستنباط الأحكام الشرعية التي يتم ذكرها فيه لأن إقتطاع جزء النص ربما يعطي دلالات تختلف عن الدلالة الحقيقية التي نزل بها القرآن الكريم .

٣ـ يمكن تلخيص الموقف من الكفار وأهل الكتاب في الإسلام من خلال النص القرآني في النقاط الاتية :-

أ)وجوب الدفاع والقتال في حال الاعتداء على المسلمين وتوفير كل عوامل النصر المعتبرة في الحروب ولكن بشرط عدم الاعتداء والإلتزام بالتقوى وحرمة قتل غير المقاتل قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة/ ١٩٤.

ب) وجوب استخدام الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن مع الصبر والمصابرة، واستخدام كل الوسائل السلمية الممكنة مع الكفار وأهل الكتاب الذين يمنعون المسلمين من نشر الدعوة حتى يفتح الله قلوبهم للإسلام .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾الشورى/ ١٥.
وقال تعالى﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ العنكبوت/ ٤٦.

ج) التعايش السلمي مع غير المسلمين من الكفار والمشركين وأهل الكتاب، بشرط عدم إعتدائهم على الإسلام والمسلمين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ المتحنة/ ٨.

* هوامش البحث *

(١) محمد عبد الوهاب احمد من الدار البيضاء في المغرب، مقال تحت عنوان (هل الجهاد في الاسلام للدفع فقط ام للدفع والطلب، منشور في موقع الملتقى الفقهي ، feqhweb.com، سنة٢٠٠٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ينظر: الطبري، جامع البيان: ٣/ ٥٦١-٥٦٢.

(٤) ينظر: الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب :٥/ ١٣٨.

(٥) ينظر: الطبري، جامع البيان: ٣/ ٥٦١.

(٦) ينظر: البغوي، تفسير البغوي (معالم التنزيل): ١/ ٢١٣.

(٧) ينظر: المصدر نفسه.

(٨) ينظر: الطباطبائي، تفسير الميزان: ٢/ ٣٦٩-٣٧٠.

(٩) ينظر: الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب: ٥/ ١٣٩.

(١٠) ينظر: الاندلسي، تفسير البحر المحيط: ٢/ ٧٣-٧٤.

(١١) ينظر: المصدر نفسه :٧٤.

(١٢) ينظر: محمد عبد الوهاب، المصدر السابق .

(١٣) ينظر: البغوي، المصدر السابق: ٣/ ٣٥٧.

(١٤) ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٣.

(١٥) ينظر: محمد عبد الوهاب، المصدر السابق .

(١٦) ينظر: ابن كثير ، المصدر السابق: ١/ ٥٢٦.

(١٧) ينظر: ناصر مكارم الشيرازي، تفسير الامثل: ٥/ ٦٨.

(١٨) ينظر: الطبرسي، مجمع البيان: ٤/ ٦٦٣، وينظر: الطباطبائي، المصدر السابق: ٩/ ٦٣-٦٤.

(١٩) ينظر: الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني: ٩/ ٢٠٧.

(٢٠) ينظر: الرازي، المصدر السابق: ١٥/ ٢٢٦، وينظر: ابن كثير، المصدر السابق :٤/ ١٠٢، وكذلك، الطبري، المصدر السابق: ١٤/ ٩٦-٩٧.

(٢١) ينظر: باقر الايرواني، دروس تمهيدية في تفسير آيات الأحكام، دار الفقه للطباعة والنشر، ط١، ايران، ١٤٢٣ هـ: ١/ ٢٢٥.

(٢٢) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٢٢٦.



(٢٣) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٢٣٢.

(٢٤) ينظر: الشيخ يوسف القرضاوي، فقه الجهاد «دراسة مقارنة لاحكامه وفلسفته في ضوء القرآن والسنة»: ٤٠٣.

(٢٥) ينظر: المصدر نفسه.

(٢٦) ينظر: أ.د. حامد بن أحمد الرفاعي، الأمبن العام المساعد لمؤتمر العالم الاسلامي، رئيس المنتدى الإسلامي لعالمي للحوار، مقال بعنوان (إشكالية جهاد الطلب) منشور في موقع المنتدى الإسلامي العالمي للحوار على الانترنيت .

(٢٧) ينظر: المصدر نفسه.

(٢٨)ينظر: المصدر نفسه.



* المصادر والمراجع *

-القرآن الكريم .

- الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين محمود البغدادي(ت١٢٧٠هـ). رووح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شرحه واعتنى بتصحيحه: السيد محمود شكري الآلوسي، إدارة الطباعة المنيرية، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

- الأندلسي، محمد بن يوسف (ت٧٤٥ هـ). تفسير البحر المحيط، تحقيق:عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٣م.

- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود (ت٥١٦ هـ). تفسير البغوي (معالم التنزيل)، تحقيق: محمد عبدالله النمر وآخرون، دار طيبة، الرياض، السعودية ،١٤٠٩هـ.

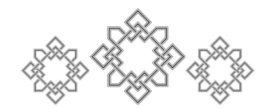
- الرازي، فخر الدين بن العلامة ضياء الدين عمر (ت٦٠٦ هـ). التفسير الكبير ومفاتيح الغيب ، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨١م.

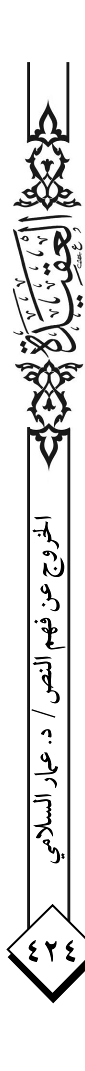
- الطبرسي، ابو علي، الفضل بن الحسين (ت٥٤٨ هـ). مجمع البيان في تفسير القرآن، دار الاسوة للطباعة والنشر، ايران، ط١، ٢٠٠٥م.

- الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير (ت٣١٠ هـ). جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: محمود محمد شاكر، راجعه وأخرج أحاديثه: أحمد محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢.

- ابن كثير، أبو الفداء، اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت٧٧٤ هـ). تفسير القرآن العظيم،

تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٩٩٩م.
- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، تقديم: آية الله جوادي آملي، دار الأضواء بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٠م.
- ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاي الله المنزل، الناشر مدرسة الامام علي بن ابي طالب عليه السلام، قم، ايران، ط١، ١٤٢٦هـ.
- الشيخ يوسف القرضاوي، فقه الجهاد «دراسة مقارنة لاحكامه وفلسفته في ضوء القرآن والسنة»، الناشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ٢٠١٠م.





موقف الحوزة الدينية من الغزوات الوهابية

د. عبدالعال وحيد العيساوي

حينما كان العراق منشغلاً في مفاوضاته مع الجانب البريطاني لإنهاء الانتداب، شن الوهابيون هجومهم على العشائر العراقية في منطقة أبي غار بقيادة فيصل الدويش في ١١ آذار ١٩٢٢، وقد تكبدت العشائر فيها خسائر كبيرة بالأرواح والممتلكات(١) كما هاجموا بعدها عشائر السماوة ولمرات عدة (٢) .

أحدثت هذه الغزوات قلقاً شديداً لدى أبناء العشائر العراقية ولاسيما في مناطقه الوسطى والجنوبية، التي جعلتهم يعتقدون أنها مقدمة لمهاجمة العتبات المقدسة في مدينتي النجف وكربلاء، ومما زاد في موجة الرعب والقلق بين الناس الأخبار التي أشارت إلى قوة الوهابيين وشدة ميلهم للنهب والقتل(٣).

وكان الأسوأ عندما أدرك الناس عجز الحكومة العراقية عن حمايتهم، وهذا ما دفع الحكومه إلى تشكيل لجنة تحقيقية تألفت من نوري السعيد ممثلاً عن وزارة الداخلية وداود الحيدري عن وزارة العدليه والرئيس الأول الحاج رمضان عن وزارة الدفاع ومستشار لواء المنتفق الميجر بتس Bets، وقد حمّلت اللجنة الحكومة العراقية مسؤولية ما حصل لتجاهلها ما أفاد به متصرف اللواء عن قرب وقوع الغزو(٤) .

وإزاء موقف الحكومة الضعيف وموجة القلق الشعبي، أخذ رجال الدين في النجف ورؤساء العشائر زمام المبادرة، وعقدت العديد من اللقاءات والاجتماعات مع قادة الرأي وزعماء الحركة الوطنية في النجف، وقد تمخض عن هذه اللقاءات التحرك باتجاه الجماهير لتهيئة مستلزمات الدفاع عن العراق ومواجهة الاعتداءات الوهابية بعد أن عكس موقف الحكومة العراقية عدم الجدية واتخاذها الإجراءات التقليدية التي لا ترقى إلى مستوى الحدث وخطورته، وقد اتخذ رجال الدين من مناسبة قرب زيارة منتصف شعبان التي يحضر فيها عادة الزوار من مختلف مناطق العراق للاحتفال بمولد الإمام المهدي المنتظر (عج) - موعداً لعقد الاجتماع من ٨-١٣ نيسان ١٩٢٢، الذي سيكون بمثابة مؤتمر يحضره كبار رجال الدين وسادات العشائر ورؤسائها وعامة الناس، فضلاً عن دعوة الملك فيصل لحضور المؤتمر ورعايته[٥].

ويذكر علي الوردي أن الملك فيصل كان راغباً بالتوجه إلى كربلاء في ١٢ نيسان، بعد أن وجهت اليه الدعوة من الشيخ محمد مهدي الخالصي، إلا أنه اعتذر عن الحضور تحت ضغط المندوب السامي[٦] وقد أرسل الملك فيصل مدير الشرطة العام نوري السعيد لحضور المؤتمر ورعايته والعمل على حضّ المؤتمرين على تأييد الملك وسياسته الرامية إلى تخفيف الاعتماد على البريطانيين والمطالبة بإنهاء الانتداب البريطاني على العراق[٧]، ويبدو أن الملك فيصل حاول استثمار المناسبة في كربلاء لحصوله على الدعم الشعبي في مطاليبه بإنهاء الانتداب .

أخذت الخطوات تتسارع لانعقاد المؤتمر في كربلاء حينما أرسل السيد أبوالحسن الأصفهاني والميرزا محمد حسين النائيني برقية إلى الشيخ محمد مهدي الخالصي في الكاظمية جاء فيها: (... لا ينبغي الاتكال على وعد السلطة البريطانية في دفع شر الخوارج الوهابيين عن المسلمين فعليه نأمل حضوركم إلى كربلاء قبل الزيارة بأيام

وتأمرون رؤساء العشائر كالسيد نور وأمير ربيعه وسائر الرؤساء بعد إبلاغهم سلامنا بالحضور كما أننا نحضر مع من في طرفنا من الرؤساء لأجل المذاكرة في شأنهم إن شاء الله)[٨].

واستناداً إلى ذلك هيأ الخالصي في الحادي من نيسان مائة وخمسين برقية إلى رؤساء العشائر يدعوهم فيها إلى حضور المؤتمر في الثامن من نيسان بما نصه:(بمناسبة تجاوز الوهابيين على حدود العراق تقرر أن يحضر العلماء وجميع رؤساء القبائل في اليوم العاشر من شعبان العظيم فيلزم حضوركم في الموعد المذكور إلى كربلاء)[٩].

اهتمت الحكومة العراقية بهذا الحدث وعملت على إحباطه فأوعزت إلى دائرة البرق بعدم إرسال هذه البرقيات، وحينما علم الخالصي بالإجراء الحكومي أرسل رسله إلى مختلف المناطق وهم يحملون مضمون البرقية، فتراجعت السلطة الرسمية وسمحت بإبراق البرقيات الموقوفه لديها، وأخذت استعداداتها للموقف حيث عززت قواتها في كربلاء[١٠]، بإرسالها فوج موسى الكاظم (ع) مع (١٠٠) جندي من الخيالة بقيادة محي الدين أفندي السهروردي، كما أرسلت إلى قضاء النجف رهطاً من المشاة و١٠٠ جندي من الخيالة بحجة تهدئة الأهالي وتأمينهم من الاضطرابات المقلقة التي أصابتهم من أخبار اعتداءات الوهابيين [١١] .

وقد أرسلت وزارة الداخلية تعليماتها المحددة إلى متصرف لواء كربلاء والحلة عكست حرصها على الأمن والاستقرار، فضلاً عن قلقها الشديد من حدوث الاضطرابات، حيث أكدت على منع إدخال السلاح إلى المدن والاجتماعات والمظاهرات في الشوارع والساحات العامة، على أن يأخذ إذناً من أكبر مأمور حكومي في المدينة في حال عقد اجتماع مع اتباع أحكام قانون الاجتماعات في ذلك [١٢]، ولم تكتفِ الحكومة بهذه الإجراءات بل أرسلت وزير الداخليه توفيق الخالدي لحضور المؤتمر والوقوف على مجرياته تفصيلاً.

وفي الكاظمية تألفت لجنة للإشراف على المؤتمر وتنظيم أعماله بإيعاز من الشيخ مهدي الخالصي، وكان أعضاؤها السيد نور الياسري والسيد علوان الياسري والسيد كاظم العوادي والشيخ محمد باقر الشبيبي وعبد الحسين الجلبي، وعقدت اللجنة اجتماعاً وضعت خلاله منهاجاً من (١٣) ماده كان أهمها ماجاء بالمادة الأولى التي ركزت على المذاكرة في شأن إعتداءات الوهابيين على حدود العراق واتخاذ التدابير لحفظ البلاد وعتباته المقدسة، والثانية، تأييد سياسة الملك فيصل بناءً على ماهو معهود من آراء الأمة العراقية وأفكارها، والعاشرة تعيين مكان الاجتماع في دار المرحوم حجة الإسلام آية الله الشيرازي في كربلاء، وبعد الاجتماع الأول الذي تناول موضوع الغاية من الاجتماع، قرر العلماء والزعماء والرؤساء أتخاذ الإجراءات الكفيلة المناطة بأهداف الاجتماع [١٣].

وقد وصل النجف من الكاظمية كل من الشيخ محمد الخالصي وعبد الحسين الجلبي وأبو طالب الأصفهاني ، وبعد اتصالهم بالسيد أبو الحسن الأصفهاني والمرزا محمد حسين النابيني غادروا النجف إلى كربلاء باستثناء المرزا محمد حسين النابيني الذي امتنع عن السفر[١٤]، وكان عدد من رجال الدين وأصحاب الرأي قد اشتركوا في التحضير للمؤتمر كالسيد أبي الحسن الأصفهاني والسيد محمد علي بحر العلوم والشيخ عبد الكريم الجزائري والشيح محمد جواد صاحب الجواهر والشيخ عبد الرضا الشيخ راضي والشيخ محمد باقر الشبيبي وغيرهم، فضلاً عن سادات ورؤساء العشائر ، كما شاركت وفود من بغداد يتقدمهم عبد الوهاب النائب وإبراهيم الراوي وأحمد الشيخ داود وعبد الجليل الجميل ومن الكاظمية برئاسة الشيخ مهدي الخالصي ومن الموصل برئاسة مولود مخلص ومعه سعيد الحاج ثابت وأيوب عبد الله وثابت عبد النور وعجيل الياور ومحمد أغا، وقد خول أهالي تكريت والشرقاط مولود مخلص بتمثيلهم في المؤتمر [١٥]، ومن العمارة برئاسة الشيخ فالح الصيهود ومحمد علي العريبي ومجيد الخليفة وعثمان اليسر وشواي الفهد ومحمد الحطاب[١٦]، وشاركت وفود من

الناصرية والسماوة والحلة وسامراء وبعقوبة [١٧]، فضلاً عن سادات ورؤساء العشائر العراقية وأبناء المدن ورجالات الحركة الوطنية وقدر عدد الحاضرين في كربلاء بما يقارب (٢٠٠ر٠٠٠) نسمة [١٨] .

وفي ٩ نيسان ١٩٢٢، تم افتتاح المؤتمر باجتماع تمهيدي حضره وزير الداخلية توفيق الخالدي [١٩]، وقد تناول المجتمعون موضوع الميثاق الوطني الذي سيتمخض عنه المؤتمر [٢٠]، حيث استمرت الاجتماعات حتى صباح يوم ١٣ نيسان ١٩٢٢، في دار الشيرازي، حضره جميع العلماء وسادات العشائر ورؤساؤها، وكان عددهم يقارب الـ (٢٠٠٠) شخص، تلا عليهم جعفر أبو التمن مقررات المؤتمر التي اتفق الجميع عليها وتمت مصادقتها من قبل الجميع، ثم تليت برقية الملك فيصل التي شكرهم فيها على جهودهم ومسعاهم في جمع كلمة العراقيين واتحادهم [٢١]، بعدها نظمت المضابط الخاصة بالمقررات، وقد نظم ١٤ مضبطة وكانت بنسختين حملت تواقيع المؤتمرين، وهي متشابهة في مضمونها تقريباً [٢٢]، إذ أرسلت نسخة منها إلى الملك فيصل وأودعت الثانية لدى العلماء، وقد جاء في المضبطة التي حملت تواقيع المشاركين في المؤتمر، (نحن الموقعون أدناه سادات وزعماء وأشراف مدن العراق أصالة عن أنفسنا ونيابة عن ممثلينا تلبية لدعوة حجيج الإسلام دامت بركاتهم الذين يمثلونا والرأي العام الإسلامي قد حضرنا الاجتماعات المبتدئة من عشرة شعبان والمنتهية بالخامس عشر منه من سنة ألف وثلثمائة وأربعين وبناء على ما أوقعه الخوارج الوهابيين بإخواننا المسلمين من الأعمال الوحشية من القتل والسلب والنهب، فقد اتفقت كلمتنا بحيث لم يتخلف من بيننا أحد في كل ما تقتضيه مصلحة بلادنا عامة وحفظ المشاهد المقدسة وقبور الأولياء خاصة وسلامتها من جميع طوارئ العدوان وعلى الأخص عادية الوهابيين وقررنا معاونة القبائل بكل ما في وسعنا واستطاعتنا لمدافعة الخوارج الوهابيين ومقاتلتهم العائد أمر تدبيرها لإدارة صاحب الجلالة الملك فيصل الأول الساهر على حفظ استقلال بلادنا وبناءً على تعلقنا بعرش السدة الملوكية

فإنّنا نطلب من جلالته إسعاف مطلوب الأمة في أمر القتلى والمنهوبات التي أوقعها الخوارج الوهابيين حسب القوانين المرعية)، وكان من جملة الموقعين عليها، السيد أبو الحسن الكاظمي، كاظم السيد علي، عبد الرزاق شمسه ، هادي النقيب، الحاج حسون شربه، سيد عباس الكليدار ، السيد مهدي السيد سلمان، عبد المحسن شلاش، جعفر أبو التمن، هادي جوده النجفي، عبد الرسول جودة تويج وغيرهم [٢٣].

موقف الحوزة من أحداث المدينة المنورة وهدم قبورها:

بعد أن وردت أخبار هدم قبور أئمة البقيع (ع) وغيرهم في المدينة المنورة من قبل اتباع عبد العزيز ال سعود الوهابيين، إلى أهالي الكاظمية اجتمع عدد من العلماء كان من ضمنهم السيد حسن الصدر والسيد محمد الصدر في الصحن الشريف في الكاظمية يوم الخميس مساء ٢٠ مايس ١٩٢٦ وقد تليت الرسائل[٢٤] الواردة من سوريا حول هذا الحادث، فبادروا بإجراء احتجاج عليه بوساطة حكومتي أفغانستان وإيران، وأرسلت برقيات إلى النجف وكربلاء ، وقد استمر الاجتماع من الساعة السابعة إلى الثامنة مساءً[٢٥]، كما ورد كتاب من الحاج يوسف بيضون في العام نفسه من بيروت حول هدم القبور، وسلم عبد الهادي بن عبد الغني الشماع الكظماوي كتاباً إلى كليدار الكاظمية الشيخ علي بتوقيع (جمعية منتدى الأخلاق) لتشكيل جمعية بهذا الاسم ، وطلبوا منه تخصيص مكان لهم وأثاث في الصحن الشريف لإقامتها، وقد استدعى قائممقام الكاظمية عبد الهادي بن عبد الغني وأنذره بعدم إقامة الجمعية مالم تحصل على الموافقات الرسمية[٢٦]،وفي ٢٢ مايس حضر العديد من أهالي الكاظمية في الصحن الشريف وقرأ دعاء من قبل سيد سعيد البحراني وسيد محمد الغاري لهذه المناسبة المؤلمة[٢٧].

وفي الوقت نفسه وصل إلى النجف الأشرف الحاج مهدي الأزري والشيخ عبد الرضا والتقيا مع علمائها، وأخذت المعلومات تتناقل عن هدم المراقد في البقيع ومنع

الزائرين عنها[٢٨]، وقد صدر نداء من علماء النجف الأشرف خلال شهر مايس من العام نفسه، جاء فيه :

«من الواضح أن القوانين الإسلامية والواجبات الدينية يقضيان على العلماء بإرشاد الأمة ... الفرقة الضالة الوهابية التي تلبست بلباس الدين وهي عارية منه وادّعت الإسلام وهي مارقة عنه لهتكها حرمات الدين واستباحتها دماء المسلمين... فيا أهل العراق... ماهذا السكوت بعد علو الصوت ... وما هذا التفرق بعد الاجتماع وما هذا التخاذل بعد التعاون... ندعوكم إلى الإتفاق ... والتعاضد وضم صوتكم مع أصوات إخوانكم المسلمين في جميع الأقطار وتوحيد حركاتكم لدفع هذه الطامة الكبرى...»[٢٩].

ويبدو أن احداث المدينة المنورة هزت عواطف علماء و رجال الدين كما هزت عواطف ابناء العشائر والقوى السياسية العراقية.

وفي جامع الخالدية في بغداد، القى المفتي يوسف عطا خطابه في الساعة الرابعة بعد أداء صلاة العصر حول فضائح الوهابيين في الأماكن المقدسة وتخريبهم للقبور المقدسة، وكان الحاضرون يسمعونه بكل شوق وحماس، ونتيجة لماسمعوا قرروا تكليف الشيخ أحمد أفندي آل شيخ داود وسيد محمود النقيب لتقديم الاحتجاجات إلى إخوانهم المسلمين في الهند ومصر وسوريا وإيران، وفي هذا السياق، أفاد مدير شرطة العباخانه في تقريره، أنه حضر حسبما وصلت إليه أوامر من جامع الخالدية في الساعة الثالثة بالملابس الرسمية فقد (نظرني البعض منهم بنظر الاستحقار واعترض الشيخ وبعض العلماء على حضوري ... فاسكتهم بلسان مناسب) [٣٠] ، وكانت احتجاجات رجال الدين ورؤساء العشائر وحشد الرأي العام العراقي واثارته على ما قام به الوهابيون في المدن الاسلامية بالعراق والحجاز انعكاسه على مناقشات اعمال مجلسي الامه العراقي.

* هوامش البحث *

(١) للتفاصيل ينظر : عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية ، ط٧ ، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٢) ؛ج١ ، ص٨١.

(٢)عبد الأمير هادي العكام، الحركة الوطنية في العراق ١٩٢١-١٩٣٣ ،(النجف : مطبعة الآداب ،١٩٧٥)، ص١٠١ .

(٣)علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، (بغداد :١٩٧٤) ؛ ج٧، ص١٣٢ .

(٤) عبد الرزاق الحسني، الوزارات، ص٨٢.

(٥) كان هدف المؤتمرين من حضور الملك فيصل تقديم إنذار باسمه الى الحكومة البريطانيه بإنهاء الانتداب ومنح العراق إستقلاله التام، وفي حال عدم تحقيق مطالبهم، سيعلنون الحرب ويظهر الملك فيصل وكأنه قائدهم، وهي عملية إستدراج حسبما جاء في رسالة المعتمد السامي برسي كوكس الى رئيس الديوان الملكي رستم حيدر ؛ للتفاصيل ينظر : الشيخ محمد مهدي الخالصي، في سبيل الله، مذكرات شخصيه محفوظه لدى ولده الشيخ مهدي الخالصي ورقه(٣٧٦)، أقتباساً عن رجاء حسين الخطاب، العراق بين ١٩٢١-١٩٢٧، دراسه في تطور العلاقات العراقية البريطانيه وأثرها في تطور العراق السياسي مع دراسة الرأي العراقي، (بغداد : دار الحريه للطباعه، ١٩٧٦)، ص٢٨٠ -٢٨١ .

(٦) علي الوردي، المصدر السابق، ج٧، ص٩٤.

(٧) عبد الرزاق الحسني، الوزارات، ص٩٤ .

(٨) محمد مهدي البصير، تاريخ القضية العراقية ،(بغداد: مطبعة الفلاح، ١٩٢٤) ، ص٣٩١-٣٩٢.

(٩)عبد الرزاق الحسني، العراق في دوري الإحتلال والانتداب، (صيدا : مطبعة العرفان، ١٩٣٨) ، ج١، ص٢٣٨.

(١٠) عبد الرزاق الحسني، الوزارات، ص٩٣ .

(١١) د.ك.و، البلاط الملكي، التقرير الشهري للواء كربلاء، للفتره من (١٦ آذار-١٦ نيسان ١٩٢٢) الموجه الى وزارة الداخليه،في ١٨نيسان١٩٢٢،المرقم ٢٥٨٤.

(١٢) و.د.ع.م. كتاب وزارة الداخلية الى متصرفية لواء الحله ومتصرفية لواء كربلاء، في ٦ نيسان ١٩٢٢، المرقم ٥٢٨٧، ص٩٦.

(١٣) الشيخ محمد مهدي الخالصي، المصدر السابق (منهاج السفر الى كربلاء المشرفة)، إقتباساً من رجاء حسين الخطاب، المصدر السابق، ٣٥٦، ٣٥٨.

(١٤) علي الوردي، المصدر السابق، ج٧، ص١٤٢، ١٤٣.

(١٥) محمد حسين الزبيدي، مولود مخلص باشا ودوره في الثورة العربيه الكبرى وتاريخ العراق المعاصر، (بغداد : دار الحرية للطباعة، ١٩٨٩)، ص١٩٨، ٢٠٢.

(١٦) المفيد، (جريدة)، بغداد ، العدد (٣) ،١٤ نيسان ١٩٢٢.

(١٧) المصدر نفسه.

(١٨) د.ك.و، البلاط الملكي، التقرير الشهري للواء كربلاء للفترة من (١٦ آذار -١٦ نيسان ١٩٢٢)، الموجه الى وزارة الداخلية، في ١٨ نيسان ١٩٢٢، المرقم ٢٥٨٤.

(١٩) العراق، جريدة، العدد (٥٨٠) ، ١٥ نيسان ١٩٢٢.

(٢٠) المفيد، (جريده)، بغداد ، العدد (٤) ، ١٥ نيسان ١٩٢٢.

(٢١) المصدر نفسه.

(٢٢) د.ك.و، البلاط الملكي، غزوات الإخوان، ملف رقم (٨٧١)، وتحتوي على ١٤ مضبطة التي وقعها المؤتمرون في كربلاء.

(٢٣) د.ك.و، البلاط الملكي، غزوات الإخوان، ملف رقم ٨٧١، و١، ص١.

(٢٤) تليت الرسائل على الحاضرين من قبل السيد حبوب والسيد محمد شديد الروزخوني الكربلائي والسيد محمد حسن الروزخوني الكربلائي و.د.ع.م، كتاب مدير شرطة بغداد الى وزارة الداخلية في ٢٣ مايس ١٩٢٦ المرقم ١٤١، ص١.

(٢٥)المصدر نفسه.

(٢٦) و.د.ع. م. كتاب مأمور مركز شرطة الكاظمية الى معاون مدير شرطة الكرخ في ٤ مايس ١٩٢٦، المرقم ١٧٣٤، التقرير السري، ص١٨.

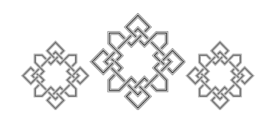
(٢٧) و.د.ع. م. كتاب قائممقام قضاء الكاظمية الى مدير الشرطة في ٢٣، مايس ١٩٢٦، المرقم ٢٤، ص١٣.

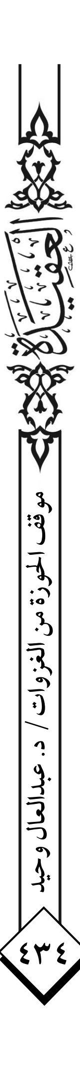


(٢٨) و.د.ع. م. كتاب قائممقام النجف الى متصرف لواء كربلاء في ٢٣ مايس ١٩٢٦، المرقم ١٥٢١، ص٢٣.

(٢٩) للاطلاع على نص البيان ينظر ملحق رقم (١٢).

(٣٠) و.د.ع. م. تقرير سري مدير شرطة العباخانه الى مدير شرطة لواء بغداد في ٣٠ مايس ١٩٢٦ المرقم ٤١٣٦، ص٢٦.





إشكالية المدعين للفكر الديني في العالم المعاصر

أ.م.د عباس علي الفحام

مشكلة البحث

تعالج الدراسة قضية خطف الظاهرة الدينية ومصادرة صورها الحقيقية وتقديمها بشكل مغاير لما هي عليه بسبب الفهم السيء لمدعي الفكر الديني، وتطرح ضرورة التفريق بين ما هو أصيل ومبتذل وعميق وساذج للفصل بين صورة أصالة المبدأ وتشويه صورة مدعيه، ويمكن تحديد أوجه المشكلة بما يأتي:

١- قضية الفكر الديني والفصل بين الظاهرة ومستعملها.

٢- إشكالية المدعين وأشكالهم.

٣- البحث في الفكر الأصيل والحقيقي.

المدخل

«الدين والإنسان»

هل الدين أم الإنسان هو الغاية؟ كيف تتحدد علاقة الإنسان بالدين؟ ماذا يريد الإنسان من الدين والدين من الإنسان؟

إن محاولات الإجابة على هذه التساؤلات يتطلب المزيد من الدراسة لأنها ـ لا شك ـ شغلت الفكر الإنساني منذ فجر تاريخ الإنسان، فالدين يمكن تعريفه بأبسط مفهوم على أنه علاقة تنظم الإنسان (المخلوق) بخالقه من جهة وبالإنسان مع أخيه الإنسان من جهة ثانية. ومن هنا فإن الدين يستهدف الإنسان لأنه غايته التي يتكامل به، يبث الطمأنينة في النفس من عناء رحلة البحث عن الإجابة عن كثير مما يجهل فهمه كطبيعة مهمته في رحلة الحياة ومآل هذه الرحلة وفلسفتها بعد الموت، فضلا عن الهدف الرئيس الذي يبحث عنه الإنسان دائما في فطرته وهو إيجاد المتكامل الذي يلجأ إليه من أشكال الضيق النفسي الذي يفهم بعضه، وكثير منه مما لا يفهمه، هذا المتكامل الذي يخطئ الإنسان تفسيره على مر تاريخه فيصوره بهيأة صنم أو جرم سماوي أو شيء فيتخذه إلها يعبده ليؤمن له المجهول في رحلة الحياة وما بعد الحياة. وهنا تأتي رحلة الأنبياء ورسل السماء لهداية البشر الضال عن طريق الله تعالى فتقدم الرسالة المقدسة للناس وجوهرها توحيد عبادة الواحد الأحد وهو الله تعالى وتطهير النفس من الأدران والرذائل ليكون العباد بالمستوى اللائق لهذا المعبود العظيم، وهكذا كانت العبادة قوامها الحقيقي في قيم الفضيلة وإعلاء شأن بني الإنسان، وارتبط التوحيد بمعانيها النبيلة فلا عبادة مع سفك للدماء أو طغيان وتجبر في الأرض، ولا عبادة مع عصيان وعقوق للوالدين واعتداء على الحرمات وإضاعة للحقوق. ومن هنا جاء قوله تعالى على لسان قوم شعيب:

﴿قالُوا يا شُعَيْبُ أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾[1].

وقوله تعالى: **﴿اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْـمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ﴾**[2]؛ لأن الصلاة ليست مجرد طقوس غيبية، إنها منهج عملي يجب أن ينعكس شعوره على السلوك القويم والعمل اليومي النافع للفرد، وهكذا الأمر في شأن العبادات كلها التي تبدو في

حقيقتها تخدم الفرد نفسه وتضمن له السعادة في الدارين الدنيا والآخرة .

الدين ـ إذن ـ وضح الحقوق والواجبات وفصل فيهما بموازين دقيقة، واتباعها وتنفيذها يضمن إقامة العدل الإلهي في الأرض وتجاهلها يسبب الكوارث والمآسي التي لا يمكن تصورها.

ولا ريب في أن ثمة كثيراً مما يتعسر على التوضيح المادي، ولا يستوعبه عقل الإنسان من قبيل ما بعد الموت أو الموت نفسه وقضية الروح، فهذه مسائل تحلها السماء ورسل السماء إلى بني البشر لأن فلسفات الأرض غير قادرة على تلبية الحاجة الطبيعية التي تهدئ فوران فضول النفس في معرفة مثل هذه القضايا الغيبية الجوهرية.

سمات الادعاءات والمدعين:

يشهد العالم اليوم تطرفا شديدا في الترويج للأيدلوجيات الدينية ومحاولات تعميمها على أيدي المتمسحين بلبوسها بعضها ظاهر واضح يتمثل بمدعي الفكر الديني الإسلامي، وبعضه الآخر يظهر بين حين وآخر من مدعي الأديان الأخرى كالمسيحية واليهودية، إن الإشكالية اليوم ليست في الظاهرة الدينية في حد ذاتها، بل في المستغلين لها، الذين يسيئون فهمها لغايات ضيقة، أو لقصور في الفهم فيوظفونها توظيفا سلبيا يشوه صورتها.

وبشكل عام يمكن تلمس أشكال هذه الادعاءات وتحديد سمات للمدعين بالصور الآتية:

أولا: التطرف:

يعدّ التطرف آفة أي فكر وعنصر هدم لأية أيدلوجية، وترادف التطرف دائما صفات سيئة كالعصبية والقسوة والعنف لأنه نتاج طبيعي لكل مدع لحقيقة لا يستطيع

تمثيلها بحواره أو بسلوكه ،وما يشهده عالم اليوم مثال حي اتهمت به النظريات الدينية أبشع اتهام، لاسيما الفكر الإسلامي، إذ من الظلم أن يختزل فكر عظيم مبني على أساس التسامح واحتضان الآخر وحواره من مجموعة أفراد أساءت فهمه، وابتكرت نظريات فاسدة وساذجة بعيدة كل البعد عن روح الإسلام وأهله، ذلك الفكر الممتدة لأكثر من أربعة عشر قرنا ما عرف التطرف بها من قبل كما عرف اليوم، ومنشأ ذلك هو الفهم السطحي للشريعة الإسلامية، وابتعاد هؤلاء عن المنبع الحقيقي للفكر الإسلامي، إذ تركوا العمل بسنة النبي وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين، وحتى بعض أصحابه إلى العمل بالفهم الملتوي والسطحي لشيوخهم في عالم اليوم.

وهنا ينبغي التأكيد على أن الفكر الإسلامي الحق ينبذ التطرف والعصبيات بأشكالها المقيتة كلها ويدعو إلى الحوار دائما، وقد عاشت تحت ظله الأديان كلها آمنة مطمئنة تمارس طقوسها كيفما تشاء، لم يكفرها أحد أو يفجر أماكن العبادة فيها. وليس التطرف اليوم شأنا وحيدا لمدعي الفكر الديني الإسلامي، بل نجد ثمة متطرفين في العالم يتبنون السلوك ذاته من الإقصاء ونبذ الآخر والعنف كما في نيجيريا أو ما يقوم به بعض المدعين كالقس الأميركي تيري جونز من حرق للقرآن أو الإساءة لشخص النبي محمد صلى الله عليه وآله، أو ما جرى من مجزرة شباب الكشافة في النرويج التي راح ضحيتها العشرات من الشباب المسلمين وغيرهم، أليس ذلك أسوأ أنواع العنف؟ .

ولاشك في أن التطرف والعصبية في تبني الأفكار يولدان العنف دائما، ومن هنا ينبغي لفت أنظار العالم إلى ضرورة التفريق بين الفكر الأصيل وبين المدعي الساذج الذي يحاول اختطاف الصورة المشرقة لأي فكر ـ وليس الفكر الديني فقط ـ وتشويهها واستبدالها بأخرى قاتمة تحمل سماته ورائحة عفونته، ولعل الطائفة المسلمة الشيعية في العراق اكتوت قبل غيرها بنار المتطرفين المدعين. على أية حال يمكن تحديد أوجه الفكر الحر من الشواهد والأمثلة التي تقدمها بعض المواقف الإسلامية في عالمنا المعاصر ومنها:

مرجعية النجف الأشرف:

وقد قدمت أمثلة إنسانية حية تنظر إلى أبعاد المصلحة العامة من نواحيها كافة مرتبطة بطبيعة التشريع القائم على تنظيم علاقات الإنسان مع خالقه ومع نفسه، فهي تمثل أغلبية للشيعة إلا أنها تقدم نفسها مرجعا لكل المسلمين وليس لطائفة محددة، ويمكن التبيان ببعض الأمثلة:

١- سقوط البعثيين (١٩٦٨-٢٠٠٣م):

مثّل حكم البعثيين للعراق أسوأ أنظمة الحكم التي قادت هذا البلد قديما وحديثا، لأن فكرهم كان قائما على التطرف وآلة القتل والتصفيات الجسدية للخصوم، وشهدت عقود نظام صدام حروبا عبثية أكلت الأخضر واليابس وأطلقت له اليد في القتل الجماعي، ولاسيما الشيعة والكرد، بحجة الحرب، وعلى مرآى ومسمع من العالم الذي زوده بالسلاح طوال عقد ثمانينيات القرن الماضي في الحرب العراقية الإيرانية، فكان أسلوبه باستعمال أسلحة الدمار الشامل كالكيماوي وقنابل النابالم أسلوباً شائعاً ومعروفاً، استعمل في الأهوار جنوب العراق وفي مأساة حلبجة شماله. وعند سقوط هذا النظام كانت وصايا المرجعية وفتاواها قائمة على عدم الخروج على القانون ومتابعة الأُمور من مجاريها القانونية، فكانوا بذلك العنوان الحقيقي للفكر الإسلامي الملتزم المستلهم تعاليمه من مبادئ أهل بيت النبي محمد صلى الله عليه وآله.

٢- حرب الإبادة (٢٠٠٥-٢٠٠٨):

على الرغم مما لحق بطائفة الشيعة المسلمين في العراق بعد سقوط نظام صدام عام ٢٠٠٣م، من حرب إبادة شملت مختلف أصناف آلة القتل والدمار كالعجلات المفخخة والانتحارات الجماعية في أوقات الانقطاع إلى الله وزيارة أوليائه في بيوت العبادة والأماكن الدينية المقدسة عند المسلمين، تبنتها مجموعات متطرفة تدعي الدين، أقول على الرغم من ذلك كله لم نشهد فتوى لأي مرجع ديني في النجف يدعو إلى الرد

بالمثل أو تبني عمليات انتقامية بل على العكس تماما كانت الإشارات دائما بضرورة الصبر والحفاظ على وحدة الصف.

٣- الأقليات الدينية :

وفي العراق أقليات دينية تعرضت لهجمات وحشية من نفس المجموعات الإرهابية المدعية للفكر الديني- والإسلام منهم براء - مثل المسيحيين (الآشوريين والكلدانيين)، والصابئة، وقد كان للمرجعية الدينية موقف مشرف مع هؤلاء، إذ أدانت التعرض لهم وحرمت سفك دمائهم، ودعت إلى احتضانهم في المدن الآمنة ومنها النجف وكربلاء[٣]. وهم في ذلك منطلقون من الاقتداء بالهدي القرآني الذي يقول:

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٤] ، وبالسيرة النبوية ومن بعدها العلوية التي ترفض المسميات التمييزية كمصطلح الأقليات مثل قول الرسول صلى الله عليه وآله : «الناس سواء كأسنان المشط» [٥] و«المسلم من سلم الناس من لسانه ويده»[٦]، ووصايا الإمام علي عليه السلام مثل: «الناس صنفان إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق» [٧] الذي كان لا يقبل أن يرى كتابيا يبيع ماء وجهه من أجل لقمة العيش في بلاد الإسلام، فقد روي «أنه مر بشيخ مكفوف كبير يسأل، فقال أمير المؤمنين: ما هذا؟ فقيل له: يا أمير المؤمنين انه نصراني. فقال الإمام: استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه !! أنفقوا عليه من بيت المال»[٨] .

ثانيا: الانعزالية :

يجد المتدبر في شخوص المدعين نوعا خفيا من العقد النفسية القائمة على عدم الاختلاط بالآخر واتخاذ زوايا مظلمة من الحياة والانزواء فيها، ولا أعني بها مجرد

الانعزالية المكانية، بل أقصد بها إقصاء العقل وعزله بعيداً عما يحيط به من أفكار. والتفاعل مع ما يتفق معه ويطابق ضيق أفقه فقط، وهو أمرٌ يغذي حالة العداء لكل ما هو جديد على فكره وجنسه مما يؤمن به، فهو لا يتقبل أية فكرة تعارضه ولا يجد في الاختلاف العلمي أي مصدر للغنى والثراء، وهو بعد أصلا لا يمتلك أدوات الحوار القائمة على احترام الآخر وتقبل معارضته، بل ولا يملك الدليل العلمي القاطع الذي يستند إليه في أطروحاته، إذ يناقضه التاريخ دائما وتتقاطع معه الشريعة والسنة في كل الأحوال، لذلك لا يجد بدا من اتخاذ قرار الانغلاق على نفسه والاكتفاء بها والانكفاء السلبي عليها.

وهؤلاء في الحقيقة مرضى خطيرون على المجتمع، لأنهم يشعرون بغربة قاتلة لا يستطيعون القضاء عليها إلا بتحطيم الجسد وتدمير ما حوله، لذلك ينبغي على العالم معالجة هذه الظاهرة ودراسة جذورها ومكافحة أسبابها مكافحة علمية، لدمج هذه الفئة في عالم اليوم الذي يطلق على نفسه بأنه قرية صغيرة واحدة بينما فيه مجموعات تعيش في عالم آخر من المجهول.

والعزلة من نتاج الفكر الضيق الذي يولد النفاق في التعامل مع الأشياء، إذ كيف يتم التعامل مع الحداثة في عالمنا المعاصر، فيشاهد التلفاز وتركب السيارات والطائرات، وتستعمل آلات تكنولوجيا الاتصال الحديثة كالانترنت ووسائل المعلومات من دون التأثر بها إيجابا والتفاعل معها، بل يجري العكس فنجد هؤلاء المدعين يشككون بهذه الحضارة ولا يبحثون إلا عن سلبياتها، لأنهم ببساطة ليسوا من صناعها، يستعملونها، ولكن لأغراضهم الفاسدة والمدمرة.

والغريب في أن هذه السمة أصلا تتناقض مع المأثورات الدينية التي ترى الإنسان عماد الحياة، وعمارة الأرض والسعي في مناكبها من أساسيات مبادئ الثواب والعقاب فيها، وكلها تعني الحركة الدؤوبة والعمل الجاد، وعلى صعيد الفكر

الإسلامي ارتبط الإيمان بالعمل، فكثيرا ما يخاطب القرآن المؤمنين بقوله تعالى: ﴿الَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا﴾، وفي المأثور النبوي «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»، المسألة –إذن ـ موازنة دقيقة بين الواقعية وبين الغيب، لا واقعية حد الإفراط الذي ينسي علاقة الإنسان بخالقه، ولا غيب يغيب الإنسان عما يحيط به من أسرة ولذائذ مشروعة، وهنا استحضر شاهدا للإمام علي بن أبي طالب (ت٤٠هـ) عليه السلام وقد عاد أحد أصحابه في البصرة وكان يملك دارا كبيرة(٩) فقال له الإمام: «ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا. أما أنت إليها في الآخرة كنت أحوج، وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة تقري فيها الضيف وتصل فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها، فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة. فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين أشكو إليك أخي عاصم بن زياد. قال: وما له؟ قال: لبس العباءة وتخلى عن الدنيا. قال: عليَّ به. فلما جاء قال: يا عديّ نفسه لقد استهام بك الخبيث، أما رحمت أهلك وولدك. أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها؟ أنت أهون على الله من ذلك. قال: يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك. قال: ويحك إني لست كأنت، إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره» (١٠).

وفي هذه الحوارية مضامين في غاية الأهمية، تتعلق بفلسفة الإمام عليه السلام إزاء الحياة الدنيا، أهي كما يشاع التخلي الواضح عما أنعم الله على الناس من حق التنعم بالحياة وعمارتها كما فعل عاصم بن زياد؟ من إجابة الإمام عليه السلام واستنكاره لهذا العزوف عن الدنيا عزوفا غير بناء نستطيع تبيان الفلسفة الإسلامية الحقة لطبيعة التعاطي مع قصة الحياة، تلك الطبيعة التي شوهت بشكل أعمى إلى هذا اليوم الذي يعد كثير من المسلمين مثل فعل عاصم هو التقرب الحقيقي إلى الله تعالى. ولذلك مثل هذا الفهم المغلوط التبس على عاصم فظن أن فعل الإمام عليه السلام في زهده هو نتاج الإعراض السلبي عن الحياة. والإمام عليه السلام، في الوقت الذي أشار فيه إلى الترف في

سعة دار العلاء في الدنيا – التي ينبغي أن تكون في الحياة الأبدية وهنا يعني بسعة الدار المعنى المجازي أو الذي يسبق هذا الاستحقاق من العمل الصالح والفوز برضوان الله تعالى – أقول في الوقت، ذاته استدرك عليه السلام ولم ينكر مثل امتلاك دار واسعة، بل جعلها سبيلا للنجاة والفوز بدار الآخرة الأبدي بشروط هي: إقراء الضيف وصلة الرحم وإخراج الحقوق في خلالها، وهو معنى عام يمكن تخيله لقيم الفضيلة كلها كحل معضلات الناس بجمعهم في الدار بروح الأسرة الواحدة.

ثالثا: امتلاك الحقيقة المطلقة :

في جوهر الفكر الديني الأصيل لا أحد يدعي الإحاطة الكاملة بالحقيقة سواء كانت تلك الحقائق مجردة موضوعية أو تتعلق بالحقيقة المطلقة من جانب الخالق والسماء والغيب، بل يبقى العارفون الباحثون عن المعرفة الإلهية في حالة من البحث الدائم يستلذون بها ويجدون أنفسهم فيها. ولذلك نجد في البحث العلمي الديني الفقهي أو الأصولي أو الإخباري حالة من الاختلاف المبني على تعدد اجتهادات الباحثين المجتهدين استنادا لطبيعة الدليل الذي أوصله إلى تلك الحقيقة، وقد شاع عند العلماء قولهم:

نحن أتباع الدليل كيفما مال نميل:

ولا أحد يسفه رأي الآخر طالما كانت الابتناءات علمية قائمة على الاستنتاج والبرهان، وذلك شأن العلماء المسلمين الحقيقيين منذ فجر الإسلام حتى هذا اليوم. ولذلك يعد باب الاجتهاد المفتوح في الفكر الشيعي أحد أهم منافذ البحث العلمي ووسائل المعرفة ونشدان الحقيقة، أغنى العقل وأثراه كثيرا، بل وأعلى من شأنه أيضا، لما له من فضل في محاورة الآخر ومواكبة التطور الحاصل في عالم اليوم. ومن هنا أضطر مرة أخرى لضرب المثال في العقل الانفتاحي للباحث الحامل لفكر أهل البيت عليهم السلام الذي يضع الخيارات العلمية نصب عينيه ويحكم على وفق ما توصل إليه من دليل، إذ



لن تجد فتاوى لدى مراجع الشيعة تتناقض مع العقل وتتخلف عن الركب العالمي فيما تبيحه الفطرة السليمة والأدلة الشرعية، كما نجدها عند غيرهم مما يضحك من قبيل تحريم الميكي ماوس أو حرمة جلوس الإناث على الكراسي أو رضاعة الكبير ومما هو كثير غيره أصبح موضع تندر وسخرية على سفاهة المدعين.

ما الذي جرى اليوم ـ إذن – حتى تبدلت الأفكار بهذا الشكل ووصل الأمر بالتكفير الذي لم يسلم منه حتى المسلم؟ الجواب: بسبب ادعاء فئة متطرفة مدعومة امتلاك الحقيقة، وأن غيرهم قاصر عن إدراكها، لذلك يوزعون ألفاظ الكفر والشرك على طوائف عديدة من المسلمين في كل مناسبة يمكن أن يظهروا فيها كالحج أو في مواقعهم الالكترونية على شبكات الاتصال الالكترونية. وهذه الظاهرة السلبية واضحة للعيان وتقليدية في المجتمع السعودي ولا سيما في المناسبات الدينية، إذ لا يتورع أي سادن في الكعبة الشريفة وفي الحرم النبوي وحتى في الشارع من اتهام غيرهم ولاسيما مخالفوهم من الشيعة والصوفية من إلصاق تهم الشرك بهم لمجرد أنهم يزورون النبي أو قبور أهله وأولاده في البقيع، دون أن يسألوا أنفسهم ولو لمرة واحدة: من أعطاكم الحق في هذا الادعاء وكيف توصلتم إلى امتلاك حقيقة الايمان والكفر بهذه الطريقة الغريبة عن روح الفكر الإسلامي الذي يخاطب العقل والقلب معا في الدعوة إلى الحوار واحترام معتقدات الآخر كقوله تعالى:

﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١١].

في تاريخ المسلمين صفحات مشرقة من الحوار المستند إلى القيم الإنسانية الرفيعة التي نعتز بها ونتخذها قدوة لنا في مخاطبة العالم في كل دور مثل مناظرات الإمام علي عليه السلام لعلماء اليهود والنصارى حول مختلف القضايا التاريخية وما يتعلق بالأنبياء والأمم السابقة وقضايا التوحيد والمعاد، وكمحاورة الإمام الباقر

(ت١١٤هـ) للعالم النصراني في الشام في ديره وأدب الإمام في جوابه حين سأله النصراني مبتدئا: « يا شيخ أمنّا أنت أم من الأمة المرحومة ؟ فقال الباقر: بل من الأمة المرحومة، فقال: أفمن علمائهم أنت أم من جهالهم؟ فقال: لست من جهالهم» وبدأت المسائل فيما بينهم حتى إذا تبينت سعة علم الإمام الباقر قال له العالم النصراني: ألم تقل ما أنا من علمائهم ؟ فرد الإمام: إنما قلت لك ما أنا من جهالهم»[١٢].

بهذه العقلية المنفتحة على الآخر نحن نقتدي اليوم، ولا نؤمن بغير الحوار الإنساني في طرح ما نعتقد ونرى، وفي ذلك حقيقة وجودنا الإنساني وما نشأنا عليه.

رابعاً: السطحية :

هي النظر بعين واحدة إلى الظاهرة العلمية من دون إعمال العقل، وترادفها دائما مفردات السذاجة والبلادة في الطرح وهما أيضا نقيضا العمق والروية والغوص في الفكرة. وتسطيح الأيدلوجيات الدينية من ابتلاءات العصر الراهن، ابتليت بها جميع الأديان السماوية كاليهود والنصرانية والإسلامية بسبب المدعي لهذا الفكر أو ذاك. في اليهودية اعتقادات باطلة تبيح لمدعيها الاستئثار بالأرض وتشريد شعب بأكمله بحجج واهية. وفي النصرانية اعتقادات متناقضة كالادعاء بأن المسيح ابن الله، بل ويمكن القول إن ردات الفعل والدعوات إلى الإساءة إلى نبي الإسلام وحرق القرآن تسطيح آخر للأفكار وسذاجة في التعاطي مع الآخر، لأن النظريات لا تهاجم بسبب الفهم الخاطئ لمطبقيها..

وفي الإسلام اليوم الذي يعد الدين المغذي للعقل الإنساني لأنه دائما يربط النظرية بالتطبيق ويريد الانتقال بالمسلم المؤمن من الواقع إلى الغيب من قبيل السؤال المتكرر لعالم المسلمين وأميرهم علي بن أبي طالب: «فقال: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين ؟ فقال عليه السلام: أفأعبد ما لا أرى؟ فقال: وكيف تراه؟ فقال: لا تراه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان. قريب من الأشياء غير

ملامس. بعيد منها غير مباين. متكلم لا بروية، مريد لا بهمّة. صانع لا بجارحة. لطيف لا يوصف بالخفاء. كبير لا يوصف بالجفاء بصير لا يوصف بالحاسة. رحيم لا يوصف بالرقة. تعنو الوجوه لعظمته، وتجب القلوب من مخافته»(١٣).

أقول: حتى هذا الفكر اليوم لم يسلم من محاولات تشويه صورته من المتمسحين بلبوسه المدعين له، ولعل ما نشهده اليوم من إلصاق الجرائم الإرهابية التي ملأت بلاد الإسلام قبل غيرهم من بلدان العالم هو أخطر تسطيح لفكرة الدين الإسلامي وأبشع محاولات تشويه صورته المشرقة على مر تاريخه. نعم نحن المسلمين نعترف بأن علينا اليوم تقع مهمة تشذيب الأفكار الدخيلة على الإسلام وتمييز الشاذ منها للخروج بلغة واحدة نخاطب بها العالم طالما نحن ننادي بالطبيعة الأممية للرسالة الإسلامية، وذلك جهد ليس باليسير ولاسيما إذا عرفنا أن هذه الصور السلبية التي تتطلع إلى مصادرة الإسلام الحقيقي تمتلك اليوم أدوات الثراء وجرأة التعدي على سفك الدماء من داخل البيت الإسلامي أي محاربة الإسلام بالإسلام. ولذلك ليس أمام العلماء المسلمين والمثقفين سوى طريق توحيد الخطاب وإخراج الوجه القاتم من الجسد الإسلامي المشرق.

خلاصة البحث

خلص البحث إلى جملة من الحقائق أهمها:

أولا: الدين يستهدف الإنسان لضمان سعادته في الدارين.

ثانيا: إساءة تطبيق الرسائل السماوية يعني فساد المطبقين لا فساد النظرية.

ثالثا: حدد البحث أشكال المدعين بالتطرف والانعزالية وادعاء امتلاك الحقيقة والسطحية .

رابعا: ينبغي أخذ الفكر الديني الإسلامي الصحيح من أهله الذي أثبت الواقع والتاريخ صحة انتسابه لهم وهم أهل بيت النبوة من الأئمة الطاهرين عليهم السلام .



* هوامش البحث *

(١) هود: ٨٧.

(٢) العنكبوت: ٤٥.

(٣) ينظر فتاوى السيد السيستاني .

(٤) الحجرات: ١٣.

(٥) كنز العمال، المتقي الهندي: ٩/ ٣٨.

(٦) مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ٢/ ٢٢٤ .

(٧) نهج البلاغة، الإمام علي عليه السلام: ٣/ ٨٤.

(٨) تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي: ٦/ ٢٩٣، وسائل الشيعة (آل البيت)،الحر العاملي: ١٥/ ٦٦.

(٩) اسمه العلاء بن زياد الحارثي، نهج البلاغة: ٢ / ١٨٧ – ١٨٨.

(١٠) نهج البلاغة: ٢ / ١٨٧ – ١٨٨.

(١١) الأنعام: ١٠٨.

(١٢) الكافي، الشيخ الكليني: ٨ / ١٢٢ – ١٢٣.

(١٣) نهج البلاغة: ٢ / ٩٩ ـ ١٠٠.

* المصادر والمراجع *

القرآن الكريم.

❖ تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي(ت ٤٦٠هـ)، تحقيق وتعليق: السيد حسن الموسوي الخرسان، الطبعة: الثالثة، ١٣٦٤ هـ، مطبعة خورشيد.

❖ فتاوى آية الله العظمى السيد علي السيستاني دام ظله بعد عام ٢٠٠٣.

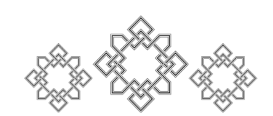
❖ الكافي، الشيخ الكليني(ت٣٢٩هـ)، تصحيح وتعليق: علي أكبرالغفاري، الطبعة: الخامسة– ١٣٦٣ هـ، مطبعة الحيدري ـ طهران.

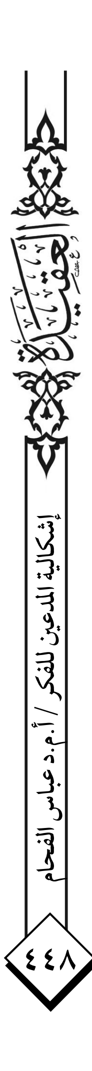
❖ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي، علاء الدين بن حسام الدين (ت ٩٧٥هـ)، ضبطه وفسر غريبه: الشيخ بكري حياني، مؤسسة الرسالة، بيروت _ لبنان ١٩٨٩م.

❖ مسند أحمد، أحمد بن حنبل(ت٢٤١هـ)، دار صادر، بيروت .

❖ نهج البلاغة، محمد عبده، مطبعة بابل ـ بغداد ١٩٨٤م .

❖ وسائل الشيعة (آل البيت عليهم السلام)، الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ، مطبعة مهر – قم.





السلوك السلفي
مرجعيات الفضاء والاجتماع

د. عادل بالكحلة

« توطئة »

يقترح هذا المبحث مقاربة تفهميّة للسلوك السلفي والفاعل الاجتماعي السلفي، بما يفترض ذلك «تعاطفًا ايجابيًّا»[1] مع المبحوث، أي محاولة تمثّله منهجيّا ومعرفيّاً ضمن المكان والزمان والإحداثيات الأرِنَة[2] في الاجتماع بما هو فرد (أو زُمرة) يعيش التجربة استدماجًا ومحاولةً للتوجيه.

وذلك من أجل تجاوز أي مقاربة إدانيّة لهذا السلوك وهذا الفاعل بما هو (حقًّا أو باطلاً) «إرهابي» أو «خارج عن القانون أو الحالة العاديّة» وذلك لا يعدو أن يكون حكمًا غير علميّ وإسقاط وموقفًا؛ وانخراطًا في المقاربة الشّرطية للمسألة يتناقض مع ما يفترضه الموقع الأكاديمي من حياديّة وتفهميّة.

١. الاختيار السلفي حالة ملتبسة بالمُتَاح عولميًا وبإكراهات القُطْري:

يفرض السياق القُطْري إكراهاته في ضعف الاندماج الداخلي، أو الدونية المعاشيّة أو الانتحاليّة، أو الجزع التاريخي المرسّخ للتمايز فيكون لزامًا على الشباب الأكثر حَسّاسيّة أن يبحثوا عن نماذج جديدة للتأكيد. ومن النماذج المُتاحة، والمغرية ـ

لعدّة عوامل يمكننا أن نجد النموذج السلفي (بنماذجه)، خاصّة أنّه يجعل القُطْرِيّ يستهيمُ القوّةَ باستدماج الكثرّة الخارجيّة. فالحسّاسيّة الشبابيّة الشيشانيّة (مثلا) تجاه رُكام الجوع الديني التاريخي بسبب الهزيمة منذ العهد القيصري، قد تجد بنهاية القرن العشرين في فرصة السلفيّة بما هي طاقة عدوانية ضخمة، وتأكيدٌ للذات، واستدماجٌ هُواميّ لكثرة الشعوب الإسلاميّة المستعيضة عن الضعف السّواديّ الفادح للشعب الشيشاني، واستدماجٌ هُواميّ للمال الخليجي المموِّل لها المستعيض عن تدهور الوضع المعاشي الشيشانيّ[٣].

والحسّاسيّة الفلسطينيّة قد تجدُ تجاه استطالة الانتظار كل الجرح الفلسطيني منذ سنة الانتداب البريطاني ـ الصهيوني وعدم وجود حسّ شاميّ جامع للجرح الفلسطيني [إذ لم يعد هناك بتطاول الأمد استجماعٌ شاميٌّ بل هُناك استجماعات شامية أربعة مستقلّة الشعور تمامًا إلى حدّ اندثار اسم «الشام» من الخطاب السياسي والجغرافي ـ المدرسي واستقذاره]؛ وعدم اعتماد حركة المقاومة الوطنيّة للحس الديني في المدافعة إلى حد الاستقذار في خطاباتها الشعريّة (محمود درويش، سميح القاسم...) وإلى حدّ التجاهل في خطاباتها السياسيّة. ذلك من شأنه أن يُنبّه الحسّ الديني للحسّاسيّة الشبابيّة لتبحث في النماذج الدينيّة المتاحة عوْلميّا عن القويِّ ـ العدوانيّ فيها لدفع القويِّ ـ العدوانيِّ في الوضع الاحتلاليّ واللُّجوئي.

لقد درس عالم النفس الاجتماعي عبد الوهاب محجوب في بداية ثمانينات القرن العشرين الكيان النفسي للأطفال والمراهقين الفلسطينيين في مخيّمات الشتات الشامي، وكشف معاناتهم من العزلة والهوان والكدمات نتيجة رُكامٍ من الصدمات الموروثة والمعيشة والعزلِ الحِمَويّ[٤] والاجتماعي والقانوني داخل أقطار الشتات الشّاميّ[٥].

من هؤلاء المراهقين الذين درسهم عبد الوهاب محجوب كان ظهور «السلفيّ اليتيم»، أي: السلفي الفلسطيني، بلغة حازم الأمين، ذلك السلفيُّ الذي **يُعوِّض** إحساسه بالعجز أمام الصهيوني بأن يَنذِر نفسه مُنْفَجِرًا في أنظمة هشّة (بالمقارنة مع

صلابة الدفاعات الهجوميّة الصهيونية) كأنظمة أفغانستان والعراق بعد الاحتلال الأمريكي) أو أقل قوّة كدولة سوريا. ولكن في الآن نفسه ينبغي أن يتقاطع اختيارها مع اختيار رأس المال السياسي الخليجي، فلا يجوز أن يكون النظام المكفَّرُ اسمه «الأردن» أو «المملكة المغربيّة» مثلا، فتكون حِمَاهُ[6] «أرض دعوة» لا «أرض جهاد» في السَّوْق[7] السَّلفي.

٢. العنف السلفي باعتباره صادراً عن التعصّب:

ليس التعصب خاصّا بإيديولوجيا دون أخرى، بل نجده لدى بعض الملحدين كما نجده لدى بعض المؤمنين، ونجده لدى كثير من العلمانيين كما نجده لدى كثير من المتدينين.

إنّه اعتقاد المرء أنه كامل وهو ليس كذلك، إذ الكمال عدم التعصب في العرف العرفاني مثلاً[8]، وفي الآن نفسه ليس لغيره تلك الدرجة من الكمال، وأن من حقه أن يفرض ما يراهُ عليهم. هذا بينما يرى العرفانيون (مثل جلال الدين البلْخي – الرّومي) أن «الطرق إلى الله بعدد أنفس الخلائق»، ويردّد الرّسول: ﴿**وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ (سبأ، ٢٤)، جاعلا نفسه بالمستوى المبدئيّ نفسه مع خصيمه الفكري، وهو من هو. والمتعصّب لا يرى عذرًا لمن يراه «مخطئًا»، غير مستحضر لـ: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا**﴾ (الإسراء، ١٥).

هناك نوعان من المتعصبين: **المتعصب الأصلي** و**المتعصب المنقاد**. أما المتعصب الأصليّ (أو العاصب)، فهو من بيده الأمر والنفوذ يُعطي لأتباعه الإذن بالتغلب بالنواهي المفروضة (القوانين والأعراف والتراث)، عارضا مثاله باعتباره مطلقا، وأن الآخرين ينبغي أن يضحّوا في سبيله[9].

وللمتعصب العاصب نمطيات وسواسيّة، فليس له **القول الثابت**، وله سحرٌ عاطفي تجاه الآخرين لامتلاكه خاصّيّات جاذبة في شخصيته.

أمّا المتعصب المنقاد، فهو امتثالي. **إنّه يعيش مَخَاوف**، وهو تحت جراحٍ قديمة وأخرى جديدة. فهو يبحث عن **الأمان** من خلال تماهيه بالقويّ العاصب.

إنّ حلقة الذين يَسْتَعِديهم المتعصب، أي: الذين يتخيّل مسبّقًا عداءهم، متعاظمة باستمرار، وهذا ما يجعل مَخَاوفه متعاظمة باستمرار. وذلك ما يستدعي ضحايا جديدة، وقد تجرّ إلى السقوط في العنف الشامل. **فبحثًا عن اطمئنان لن يأتي لا بُدّ من القتل الرمزي ـ أو الجسدي ـ للآخر يوميّا** (اللعن، التنبيه للخطر المُفْتَرَض مباشرة وبالإنترنت بأسلوب تفصيلي، الدعوة لقتل «الكافر» أو «المنحرف» أو «التحريفي» (في الخطاب الماركسي) إقصاءً أو عزلاً أو ذبحًا أو منعًا عن النشاط الجمعوي أو الحزبي...). **فلا بدّ للمتعصّب دائمًا عدوّ مظنون لكي يُثبِّتَ مشروعيته.**

إن المتعصب متقلِّص الحقل الذهني ومحدود الاهتمامات، فهو يزدري أكثر مجالات الحياة اليوميّة وأكثرها حيويّة. فالمَزَابل بحيّه الشعبي أمر حيويّ وقد يهدّد أطفاله بالهَيْضَة، والبطالة أمرٌ يشلّ حياة شُبّان كثيرين منه، والفقر أمرٌ واضح المعالم في محافظته الهامشيّة، ولكنْ كلّها أمورٌ لا تهمُّهُ مطلقًا، أو هي مؤجّلةٌ لحين تطبيقٍ قد يتطلّبُ سنوات عديدة لـ «شريعة» أو «اشتراكيّة» «يعرفُها جيّدًا»، و«لا تأويلَ آخر» لها. فليس هناك سَوْقان في مشروعه النضالي: سَوْقٌ على مدى قريب وآخر على مدى طويل، بل هناك سَوْقٌ واحد لا يدري متى ينجح وربّما كان من دون امتثالٍ زمنيٍّ حتّى يُقَدَّرُ المقدارُ الزمنيُّ الذي يتطلّبهُ.

إن **المتعصّب ذو عُظَامٍ**، وهو شرط من شروط وجوده الأساسي فهو يحمل هُوَام القُدرة الكليّة الذي يُخفي مشاعر يأس وعجز وعدم اقتدار على السيطرة على الحدود الخاصّة وعلى التواصل مع الآخر والتأثير فيه. وذلك ما يُوجد تعطشًا للانتقام من هامشيّته منذ طفولته أو منذ إقصائه من الحياة العائليّة الاندماجيّة[١٠] أو من المدرسة أو من الدورة المَعَاشيّة الوطنيّة أو من حق التدين.

والرّغبة في الانتحار هي هُوام انتصار القدرة الكليّة البائسة إذ به يكون الانفلات الكامل من العدوّ والمخاوف المتراكمة عبر السنوات الثقيلة، الرتيبة. فالموت لديه كان قد عاشه من قبْل ممارسته جسديّا، **فالآخرون المكروهون الذين يعيشون الحياة تاركين إياه في الموت الرمزي منذ سنوات ينبغي إعدامهم ليستووا معه في الموت،** وبذلك يُنهي هُوام تفوُّقِهْم عليه.

٣. كيف ثأر مسيلمة لهزيمته واستعاد «الأرضَ» ؟

ليس من العجيب أن يشدّد القاضي أبو يعلى الفرّاء الحنبلي على ضرورة اعتبار الإله إنسانًا ضخمًا، لا كل الناس، وله أعضاء لا كأعضاء البشر، في كتابه **الحدّ لله تعالى**؛ في الوقت الذي يشدّد فيه على ضرورة طاعة الأمير عادلاً كان أو ظالمًا، وأن مشروعيته إلهيّه في كتابه **الأحكام السلطانيّة**[١١].

وإذا كان ابن حنبل داعيّاً إلى طاعة الأمراء سواءً كانوا ظلمة أو ممارسين للعدْل؛ فإن ابن تيمية كان ظاهريًّا متناقضا، إذ إنّه في **الحسبة** يؤكّد أن جور سبعين سنة أفضل «من ليلة بلا سلطان»[١٢]، أي ليلة ثورة على السلطان الظالم، فإنّه في فتاويه يبيح قتل الآخر إن كان غير ملتزم ببعض الشرائع[١٣]. رغم أن ابن حنبل وغيره يشدّدون على أن محافظة الأمير على الصلاة كافية لطاعته. ولكنَّ الأمير التيْمَوي القاتل، مسنود هو أيضا بإله تَيْمَوي ضعيف كإله القاضي أبي يعلى، فلا يمكن لإله هو إنسان ضخم أن يَرْدَعَ الإفراط في استعمال السلطة. فمن المعروف دفاع ابن تيمية المستميت عن إلهه الجالس على كرسيّ ماديّ وذي اليدين والقدَمين، ومن المعروف أيضا دفاعه المستميت عن الأمير الطاغية، والموضوعتان متضايفتان لا تمكن الواحدة إلا بالأخرى.

لقد استطاع الفرّاء وابن تيميّة استغلال بضعة أخطاء قاتلة داخل متن أحمد بن حنبل (الحاوي للكثير من المضامين الإيجابيّة)[١٤] من أجل تطويرها عكس ما أراد ذلك المتن تمامًا. والأهم من تلك الأخطاء، عدم قدرة ذلك المتن على إنتاج نسق

استدلالي لرفضه فهْمَ النصّ، مما سهل أمر المندسّين للمتن الحنبلي وتطويعه لِسوَاقٍ أخرى.

لقد كان من الصعب على محرفي الاتجاه الحنبلي السيطرة على الفكر الديني في العراق والشام، نظرًا لورثتهما رصيدًا تاريخيًا من الإبستيمية التعقليّة منذ العقل الإبراهيمي إلى العقل الحرّاني[١٥]، فعقل أبي حنيفة، ثم العقل المُفيديّ ـ الطوسيّ وغيرها من العقول المتراكبة. ولكن كان من السّهل، نسبيًّا، دخول هذا التحريف إلى نجد في القرن الثامن عشر للميلاد.

لقد كانت نجد لقرون عديدة، الإقليم العربي الوحيد الذي لم يكن له تبادل انْتحاليّ (= ثقافي) مع الخارج، سواءً سلميًا (التبادل التجاري، التعارف الديني...) أو عُنفيًا (احتلال، إكراه ديني...)، خاصّة وهي معزولة عن اليمن وعمان ومكّة وجزئيا عن الحجاز بالرّبع الخالي. وقد رسّخ ذلك آلهة أكثر تصلّبًا من آلهة قريش، لأن آلهة قريش لاحقة على أصل توحيدي إبراهيمي لدين قريش، ولأن مكّة كانت دائمًا فضاءً للتعارف مع أديان أخرى (المسيحيات، اليهوديات، الحنيفيّة...)، ممّا يوجد إرهاصًا بالموقف الديني المقارن والقابل للاستدلالية. وباعتبار أن تلك الآلهة النجديّة لم تكن مبنية على أطروحات كونيّة، بل كانت بعيدة جدًا عن التجريدية، أقرب إلى البشرية. وقد تساوق ذلك مع استبداديّة تدبير القبيلة، والإقصاء العنيف للنساء، عكس وضعهنّ بيثرب ومكّة، وعكس وضعهنّ الإيجابي باليمن وعمّان.

لقد رفضت نجدُ الدعوة المحمديّة لأنّ هذه الدعوة كانت الدين الأوّلَ الذي أراد اختراق الحدود النجديّة. فكان اعتداء بعض البطون النجديّة على دولة يثرب النبويّة، وكانت جريمة بئر مَعُونة الفظيعة التي قَتَل فيها نجديون عددًا من خيار الصحابة بعد أن قَبِلَ الرّسول ﷺ إظهارَ هؤلاء النجديين الإسلامَ، فبعث معهم هؤلاء الصحابة. ثمّ كانت المشاركة النجديّة الخطيرة في الحصار العربي ـ اليهودي لدولة الرّسول ﷺ بمعركة الأحزاب، وفيها كان النجديون أكثر عددًا بين سَواد

المحاصِرين. ولما جاءت وفود العرب إلى الرّسول طائعة، كانت وفود نجد آخرها زمنًا.

أمّا وفد تميم، فمنِ الواضح أن إسلامها شكليّ جدّا، فلم يحترموا النبيّ ﷺ ونادوه من وراء الحجرات، ثم قالوا له «جئنا لنفاخرك»(١٦). وكان السجال الشعري بين شاعرهم، الزبرقان بن بدْر، وشاعر النبيّ، حسّان بن ثابت. وفي ذلك السياق كان استغراب الأقرع بن حابس النجدي من تقبيل النبيّ أطفاله معلنًا أنّه لم يقبّل أطفاله مرّة.

وأمّا وفد بني حنيفة، فقد كان أوضح في مداراة الوضع القويّ للنبيّ، والرفض المبطن لذلك الوضع، فسرعان ما عزم زعيمهم مسيلمة الكذّاب على اقتسام «الأرض»(١٧) (ويقصد بها «الجزيرة العربيّة») مع النبيّ ﷺ. ويعني ذلك أن يكون للنبيّ محمّد ﷺ قرآنه ونبوّته ويكون لمسيلمة الكذّاب قرآنه ونبوته، أي العودة التشبيتيّة إلى حدود نجد الطويلة والصّلبة تاريخيّا.

ولم يكن من الغريب سكُّ مسيلمة عُمْلةً نجديّة مستقلّة (في الوقت الذي لم يجازف الرّسول بذلك ـ لأن ذلك خطأ سوقي علميًّا في تلك الآونة...) إمعانًا في النزوع الانشقاقي عن الوحدة في دولة النبي ﷺ التي وحّدت الجزيرة العربية لأوّل مرّة في التاريخ. ولكن الانشقاق النقدي المسيْلمي، ليس (خطأ)، إذ علمنا أن العُمْلة البيزنطية دخلت نجد لأوّل مرّة تحت سلطة مسيلمة، بل إنّ عُمْلته كانت إعادة سك للعملة البيزنطيّة(١٨). وذلك ما يعني وجود تحالف مسيلميّ ـ بيزنطيّ ضدّ النبيّ ﷺ ودولته ودينه ومعاشه العدالي بعد انهيار التحالف العربي ـ اليهودي ضدّه. وما كان ذلك ليكون لولا وجود ترسخٍ ثقافيٍّ نجديٍّ يُرهِصُ بذلك ويحتضنه ويدعمه.

كانت هزيمة الارتداد النجدي واضحة، ولكنّها لم تكن تعني نهاية الترسّخ الانتحالي والاجتماعي والسياسيّ (داخل القبيلة)، التاريخي، فبقي التراتب الاجتماعي

والجنسي بطلاءٍ إسلاميٍّ، وبقيت الألوهيّة ما قبل الإسلاميّة ملتبسة بالوحدانية الإسلامية، حتّى وجدت فرصة الإعلان عن نفسها مع محمد بن عبد الوهاب.

ولقد بقيتْ نزعة الثأر النجديّة ـ الحنيفيّة[١٩]، نارًا تحت الرماد، إذ تكيّفتْ مع الدين الإسلامي المنتصر، وممارسةً ليًا لمعاييره، ومنتظرةً أي فرصة لضعفه التاريخي لتنقضّ عليه وتثأر لهزيمة معركة اليمامة ـ الرياض. ولعلّ نزعة الثأر النجديّة هي الأرسخ في نزاعات الثأر العربيّة، إذ دامت حرب داحس والغبراء النجديّة قرابة ١٠٠ سنة. ولكنّ ذلك لا يعني عدم وجود استثناءات نجديّة تنزع للحقّ والوحدة، ولعلّ رمزها الأعظم هو نعيم بن مسعود، رضي الله عنه، الذي ساهم في فكّ الحصار العربي ـ اليهودي عن المدينة، بخداعه النجديين والقرشيين واليهود.

كان محمّد بن عبد الوهاب في كتابه **مختصر سيرة الرّسول**، واعيا بأنّه وريث نجد ما قبل الإسلاميّة ومسيلمة. فخصّص لسجال الزبرقان بن بدر الشعري صفحتين[٢٠] (مخلاً بالتوازن داخل كتابه) وخصّص «لوفد بني حنيفة فيهم مسيلمة» صفحة[٢١]، مستعيداً حديثاً ضعيفاً منسوباً للنبيّ، عن مسيلمة: «أمّا إنه ليس بِشَرِّكُمْ مكانًا»[٢٢]، فهو ليس شريرًا بل لم يَسُبُّهُ ابن عبد الوهاب كما سبّ المختار الثقفي الذي ثار على الأمويين معتبراً إياه «المبير المفسد» من دون دليل[٢٣]. بل إن ابن عبدالوهاب دافع عن إسلام مسيلمة الكذّاب إذ كتب عنه: «وهو مع ذلك يشهد لرسول الله صلى الله عليه وآله بالنبوّة»[٢٤]، ولم يصنّفْ نعت «الكذّاب»، لمسيلمة، كعادة كتّاب سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله.

وقد جعل ابن عبد الوهاب حياة النبيّ بالمدينة كلّها سنواتِ حربٍ وقتلٍ. وحتّى إنْ كانت الوقعة دفاعًا، وداخل حِمَى المدينة يسميها ابن عبد الوهاب «غزوة»، بينما هذه الكلمة تُفيد الخروج من الحِمَى الخاصّ، مما يعني تعبئة وهّابيّة على بناء تمثّلٍ للنبيّ قاتلا، إكراهيا، غزويّاً.

ولقد كان أمين الريحاني، مؤرّخ آل سعود، متفطنًا إلى أن ابن عبد الوهاب هو



مسيلمة القرن الثامن عشر، فقال: «في وادي حنيفة ظهر مسيلمة الذي حارب النبيّ والإسلام فكان مدحورًا. قتله خالد بن الوليد في وقعة الروضة. وفي وادي حنيفة، بعد ألف ومائة سنة، ظهر محمد بن عبد الوهاب الذي كافح البدع والخرافات، فكان من الفائزين»[٢٥]. وكانت تلك الفقرة أوّل فقرة عرضه سَيرةَ الرّجل.

لقد ثأر محمد بن عبد الوهاب لهزيمة مسيلمة وها هو في بداية القرن الواحد والعشرين يقتسم «الأرض»، أي كلّ العالم الإسلامي المعاصر، مع النبيّ محمّد ﷺ، فلا ذكر للنبيّ إلا بذكره، بل إن معصومية النبيّ مشكوك فيها لدى الوهّابيّة، ولكن لاشك عندهم في معصوميّة محمّد بن عبد الوهاب.

وها هو مِثْلَ «النبيّ» الذي صوّره في سيرته الوهَّابيّة، قاتلا وداعيًا إلى القتل.

فرغم أن النبي لم يحطّم صنمًا لأي قبيلة، بل إن إقناعه القبيلة بالألوهيّة الوحدانيّة يجعلها في كل الحالات وحدها تحطّم معبودها، إلاّ أنّه يُسقط برنامجه السياسيّ على فتح النبيّ للطائف فيقول: «لا يجوز إبقاء مواضع الطواغيت والشرك بعد القدرة عليها يومًا واحدًا، فإنّها شعائر الكفر (...) وهذا حكم المَشَاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثانًا تُعبد من دون الله، وكذلك الأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرّك، والنذر لها، وكثير منها بمنزلة اللات والعزّى»[٢٦]. وهذا يُشرّع لفتح الطائف وَهَّابيًّا بَعْدَهُ.

ويُبَرّرُ اغتصاب الأموال التي تصير إلى هذه المَشَاهد «صرف الأموال التي تصير إلى هذه المشاهد من عابديها، فيجب أن يَصْرِفها الإمام في الجهاد»[٢٧]، و«الجهاد» عنده هو «الإكراه في الدين»، وبذلك يتناقض القرآن لديه. فحنيفة ونجد يريدان محو كلّ ما بُنيَ مِنْ آثار للنبي ﷺ والخلفاء الذين هزموهم، ومن آثارٍ تُكرّسُ المجد الديني للنبيّ من ضرائح لأصحابه أو لصلحاء على طريقته. فالنزعة الثأرية لدى العرب، وخاصّة النجديين منهم عميقة جدًا.

وباعتبار أن المختار كان ثقفيًا (من الطائف) والكثير من بني ثقيف كانوا في حصار اليمامة، كان تنفيذ الإخوان لتوجيه ابن عبد الوهاب في تأريخه الإيديولوجي لفتح الطائف المحمديّ، فكان فتحهم للطائف سنة ١٩٢٤ شبيها بقراءته الإسقاطيّة. يقول أمين الريحاني، شاهِد الجريمة: «وراح العربان والإخوان يطرقون الأبواب ويكسِّرونها، فيدخلون البيوت إمّا قهرًا وإما بعد أن يؤمنوا أصحابها، ثم يُعلمون فيها أيدي السلب، وكانوا يقتلون في سبيل السلب. ولكنهم لم يقتلوا من النساء غير امرأة واحدة، ولا كانوا يتعرّضون لهنّ إلاّ إذا أبيْن أن يُدْللنَهُمْ على الكنوز والسلاح (...) كذلك كان قتلهم لمفتي الشافعيّة، الشيخ الزواوي، ولأبناء الشيبي»[٢٨]. وتردُّدُ الريحاني يكشف أن هناك أكثر من قتيلة.

ولقد نجا سادن الكعبة من القتل، لأن الإخوان رأوه يبكي، فسألوه عن ذلك فقال: «أبكي والله من شدّة الفرح. أبكي يا إخوان لأني قضيت حياتي كلّها في الشرك والكفر، ولم يشأ الله أن أموت إلا مؤمنا موحدا. الله أكبر ! لا إله إلا الله!». فبكوا لبكائه، وأطلقوا سراحه وهم «يهنئونه بالإسلام»[٢٩]. فلا إسلام إلا إسلام حنيفة «ونبيّهمْ»، ابن عبد الوهاب أمّا أشعريّةُ السادنِ الشافعي - السّنّي فهي «كُفر»، رغم أن الكعبة التي هو سادنها ليست «مَعْلَمًا قُبوريًا».

خـاتمـة

انطلقت النِّحْلَة السلفيّة من حِمويّة مُغْلقَة، كالحِمويّة النجديّة، بما هي إرْهاصٌ مُمكن. ولكنّها أصبحت مع تدهور السلطة العباسيّة رهانًا لتعبئة العامة على مشروعيّة مهزوزة عقليًّا وواقعيًّا (حالة أبي يعلى الفرّاء)، جامعًا بين أُلوهيّة بشريّة، ضعيفة، وبين نظام سياسي ليس منْ حقِّ أحدٍ محاسبتَهُ. وقد استعاد ابن تيميّة الرهان نفسه، منْ أجل الذريعة السياسيّة نفسها، إذ أصبح التشرذم المسلم عصيًّا على التجمع إلا بالاستبداد المطلق المساوَق بألوهيّة بشريّة ضعيفة.

في نهاية العقد الأوّل من القرن الواحد والعشرين ميلاديًّا، أصبحت تعلّة الرهان السلفي مختلفة تمامًا، وهو رهان التجزئة والتفتيت لا رهان التجمع. فالمطلوب من الرهان السلفي اليوم، مدعومًا بالعولمة الإنترنتية والتوجيه العَمَلانِيّ[٣٠] ـ الاستخباري الغربي وعميلهِ «المسلم»، هو مزيد تجزئة المجزئ تجزئة الأمة، والدولة، وتجزئة الطائفة السُّنيّة ثمّ تحطيمها، ببديل هو «الطائفة/ الأمّة السّلفيّة»، لا على حِمًى قارٍّ، بل بالعكس على «اللاَّحِمَى»، افتراضيّا أوّلا، وعلى حِمًى مترجرج ليس المطلوب فيه سلطة دائمة وإنّما الرّعب الدائم.

والمستفيد السّوْقيّ الأكبر من ذلك هو موقع القوّة (الإسرائيليّة) بمحيطٍ مضطرب حوله لا يقوى على تهديده.

* هوامش البحث *

(١) التعاطف الإيجابي: L'ampathie positive/ Positive ampathy.

(٢) الأرن: (.Dynamic, Dynamique (adj ؛ الأَران: Dynamic, Dynamique (Noun).

(٣) سميث (س)، جبال الله: الصراع على الشيشان، الدار العربيّة للعلوم، بيروت، ٢٠٠٧، ص. ٥٩.

(٤) الحِمَويّ.

(5) Mahjoub (Abdelwahab), Approche psychosociale des traumatismes de guerre chez les enfants et adolescents palestiniens, Alif, Faculté des sciences humaines et sociales, Tunis 1995.

(٦) الحِمى: Territory/ Territoire.

(٧) «السَّوْقُ» في العربية (بفتح السين) هو «الاستراتيجيا» في لغات أوروبّا.

(٨) يقول ابن عربي:

أَدينُ بدِينِ الحُبّ أنَّى تَوَجَّهتْ   ركائبُهُ فالحُبُّ ديني وإيمَاني

ترجمان الأسواق، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢، ص ٤٤.

(٩) الخوري (فؤاد إسحاق)، التعصّب، دار الساقي، لندن، ١٩٩١، ص ٥.

(١٠) راجع: سُويف (مصطفى)، التطرّف كأسلوب للاستجابة، مكتبة الإنجلو المصريّة، د. ت.

(١١) تسبّب هذا الكتاب في غضب الأشاعرة لتركيزه على التشبيه والتجسيم، وفي ثلاث فتن دمويّة [أبو فارس (محمّد)، القاضي الفرّاء وكتابه الأحكام السلطانيّة، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٥٣.

(١٢) ابن تيمية، الحسبة في الإسلام، دار الأرقم، بيروت، ١٩٨٤، ص ٧.

(١٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوي، الجزء ٢٨، اللجنة الدائمة للإفتاء، الرياض، ١٩٨٠، ص ١٤٠.

(١٤) كان الطُّوفي، باعتباره من مدرسة أحمد بن حنبل المعتدلة يعتبر نفسه «السلفي الرّافضي» إذ جمع بسهولة كأحمد بن حنبل بين حب أهل البيت والصحابة والتقيّد بظاهر النصّ.

(١٥) ابن شعبة الحرّاني (القرن الرّابع الهجري)، من وُرثاء ذلك العقل في تحف العقول، أما ابن تيمية فهو سفسطائي لا علاقة له بالمدرسة الحرانيّة.

(١٦) جاء ذلك في رسالة مسيلمة للنبي (ص) ؛ ابن هشام، السيرة النبويّة، دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩٣، ج٥، ص ٣٠٣.

(١٧) م. س.

(18) Bertrand (Michel), Histoire de l'Arabie, Plon, Paris, 1987, p. 32.

(١٩) ... نسبة إلى «بني حنيفة» لا إلى الدين الحنيفي . الإبراهيمي.

(٢٠) ابن عبد الوهاب (محمد)، مختصر سيرة الرسول، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠٠٤، من صفحة ١٦١ إلى صفحة ١٨٢.

(٢١) ابن عبد الوهاب (محمد)، م. س، ص ١٦٩ وجزء من ص ١٧٠.

(٢٢) م. س، ص ١٦٩.

(٢٣) م. س، ص ٢٢٦ [لم ينعت مروان ويزيد والحجّاج بأي نعوت سيئة].

(٢٤) م. س، ص ١٦٩.

(٢٥) الريحاني (أمين)، تاريخ نجد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠، ص ٣٩.

(٢٦) م. س، ص ١٥٤.

(٢٧) م. س، ص ١٥٤ أيضا.

(٢٨) الريحاني (أمين)، م. س، ص ٢٣٣.

(٢٩) م. س، ص ٢٣٣.

(٣٠) العَمَلان والعملانية: Le Logistique / the logestic.





